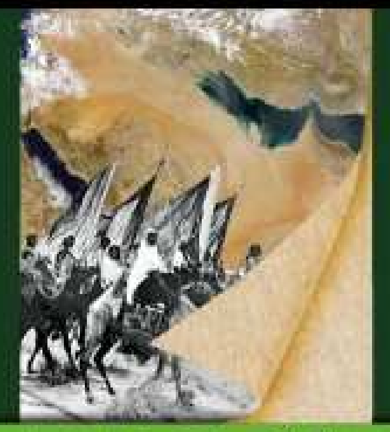


صفحة مطوية

من تاريخ الجزيرة العربية

(١٣٣٠ - ١٣٥٠هـ) (١٩١٢ - ١٩٣١م)

جمعاً وتحليلاً

تأليف
إبراهيم بن عبد الرحمن الدويش

دار الفردوس





صفحة مطوية
من تاريخ الجزيرة العربية

صَفْحَةٌ مَطْوِيّةٌ مِنْ تَارِيْخِ الجَزِيْرَةِ الْعَرَبِيّةِ

(١٣٣٠ . ١٣٥٠ هـ) (١٩١٢ . ١٩٣١م)

(مَا لَمْ يُدَوَّن مِنْ مَغَازِي الإِخْوَانِ في عَهْدِ المَلِكِ عبد العَزِيز رحمه الله)

(إخوان من طاع الله)

جَمْعاً وَتَحْلِيلاً

لئَنِ عَزَّ دِيْنِي وَاسْتُبِيْحَتْ جَوَارِحِيْ فَـأَيْنَ مَقَـامُ الْعِـزِّ إِلاّ مَقَـامِيَا

تأْلِيفُ

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي

عامله الله بعفوه وغفرانه

الطَّبْعَةُ الثانيةُ

(منقحة ومزيدة)

١٤٣٣


بسم الله الرحمن الرحيم

أَمَامَكَ قِصَّةٌ عَنْ مَجْدِ قوم   تَقَشَّعَ عَنْ سَمَائِهُمُ الْسَّحَابُ

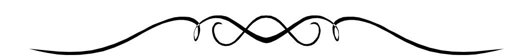
هُمُ الإِخْوَانُ عَنْ دِيْنٍ تَآخَوا   وَبِالتَّقْوَى عَنِ الزَّلاتِ آبُوا

وَبِالتَّوْحِيْدِ قَدْ رَفَعُوا سَنَامَاً   وَمِنْ بِرٍّ قَدِ امْتَلأَ الإِهَابُ

فَيَا ذَا الْعَرْشِ أَنْزِلْهُمْ جِنَانَاً   وَأَسْعِدْهُمْ فَبِالْتَّجْرِيْدِ طَابُوا

فهرس

الموضوع	الصفحة



تمهيد

الحمدُ لله ربّ العالمين، الرّحمن الرّحيم، مالك يوم الدّين، ولا عدوان إلّا على الظّالمين، وأشهد أن لا إله إلّا الله القويُّ العليُّ المتينُ، خلق السماوات فأعلاها، وبسط الأرض وسوّاها، وبِصُمِّ الجبالِ أرساها، وبكلمة التوحيد أصلح شأنها وهداها، وبالإيمان شفى مرضها وداواها، بل من موات القلوب بعثها وأحياها، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، إمامُ الهدى، ونورُ الدُّجى، نبي الرحمة والملحمة، بعثه الله بين يدي الساعة، فكشف به الغُمَّةِ، وأنجى به الأمّة، سيّدُ الأولين والآخرين، وقائدُ الغُرِّ المُحَجَّلين، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين، اللّهم إنِّي أشهد أنّه بلّغ الرّسالة حقّ البلاغ، وأدّى الأمانة حقّ الأداء، ونصح الأمّة محض النّصح، اللّهم أحينا على مِلّته، وثبّتنا على سنّته، واملأ قلوبنا من محبته، وأقر عيوننا برؤيته، وتوفنا على شِرْعته، وابعثنا على محجّته، وارزقنا شفاعته، وأوردنا حوضه، واجعلنا تحت لوائه، وأدخلنا معه جنّتك، يا حيُّ يا قيّوم، يا ذا الجلال والإكرام.

أمّا بعد: فهذه وريقات كتبتها في موضوع بلغ الأهميّة بمكان، ذاك هو موضوع مغازي الإخوان، الذين أثبتوا أنّهم معادلة صعبة في رحى ذلك الزمان، فهذه الدّولة السّعودية المباركة قد قامت ـ بحمد الله تعالى ــ على

هذه الشّريعة الغرّاء، والمحجّة البيضاء، فأعادت للتّوحيد عظمته بعد ما ضعف في النّفوس أو اضمحلّ، إلّا ما رحم ربي الأجلّ، وردّت للسنّة عبقها، بعدما شِيبت ببدعٍ ومحدثاتٍ سافراتٍ وخفيّاتٍ، فعاد الإسلام جَذَعَاً عزيزاً بفضل الله تعالى وحده الّذي أقام هذه الدّولة المباركة من أسرة آل سعود. فمن كان في قلبه تعظيم للتّوحيد، وإكبار للشّريعة، عَرَفَ صِدْقَ ذلك بأدنى مطالعة لجميل فعالهم، وكريم سجاياهم، ورفيع خصالهم، كذلك صدق علمائهم، وثبات جهادهم، وصدعهم بالحقِّ أينما كانوا، وإخلاص أتباعهم، وعظيم تضحياتهم، ولم يك هذا بالهيّن السّهل، لا وربّي! بل قام على دماء طاهرات، أروت الأرض بعبق صدقها، ونبل مقصدها، ومحض اتّباعِها، وطيب معدنها.

ألَا وإنّ لهم على الأمة فضل نشر التوحيد بثوبه النقي، وحراسة السنة ومهيعها الجلي، فجهادهم يُذكر فيُشكر، وحقيق بأن يُروى ويُنشر، بَيْدَ أن الكثير ممّن قضوا نحبهم، ونحسبهم في سبيل الله شهداء، لم يعطِهِمُ التاريخُ حقَّهم من الذّكر والشّكر والعرفان، حتّى ممّن يستظلون بنعمة الأمن والإيمان والسّنّةِ والإسلام ممّن يُظن فيهم نبل الوفاء، وحسن الذّكرى.

بل إنّ بعض المعارك الفاصلة في تاريخ هذا الزّمان لم يُستوف فيها صدق الكلام، ولم يُحرّر فيها كما ينبغي المقال، بل للأسف! فالبعض منها قد كُتب بأقلام ملوّثة العقيدة، مشوبة بل مغرقة بهوى كالح، قد أَحْنَاهَا القَرِينُ لإحَنِ الجاهليّة، وخرافات الوثنيّة، ارتضعت من لَبَانِ الهوى،

وَكَرَعَت في حمأة الرّدى، فضربت عن ناصع سيرتهم البيضاء صفحاً، وطوت عن إنصافهم كشحاً، وأعنقت في الباطل خطىً، إذ لم ترتضِ صنيع أولائك الميامين، الّذين أذلّ الله بهم الشّرك وأهله، وأعلى التّوحيد وأهله، بلْه ما كتب بأقلام صليبيّة قُحَّةٍ وقحة، ولاغرو:

رَضِيْعَي لَبَانٍ ثَدْيِ أُمٍّ تَحَالَفَا   بِأَسْحَمَ دَاجٍ عَوْضُ لا نَتَفَرّقُ

لذا كان لزاماً على كلّ من عنده شيء من القدرة على المساهمة في نصح التّاريخ، وإظهار حال القوم الصّراح، والحقّ الأبلج الوضّاح، وبيان أخبار تيك الكوكبة المنصورة، والطائفة المظفّرة المشهورة، والجيل الزّكيّ القويم، الّذي ذكّرنا فرسانُه ونبلاؤه بأمجاد صحابة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم؛ أن يُدليَ بما عنده، علّه أن يسدّ شيئاً مما أغفله المؤرّخون، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وما حالي إلا كما قال أبو علي البصير:

وَقَدْ قِيْلَ البِلَادُ إِذَا اقْشَعَرَّتْ   وَصَوَّحَ نَبْتُهَا رُعِيَ الهَشِيمُ

أو كما قال الهمذاني: وجود شَوْلٍ خير من عدم ماجد، وأبلغ وأعظم من ذلك قول العلي الأجلّ: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

ووريقاتنا هذه ليست بشاملةٍ، ولا عامّةٍ، ولا مستوعبةٍ للأحداث الّتي وقعت، إنّما هي تسليط الضّوء على جزء جميل من ثوب ذلك الزّمان، نَصَعَ طِيبُه، وشذا عَرْفُهُ، وتضوّع مِسْكُهُ، وزَانَ مُحياه، وانبلج سرورُه، قد سكنه قوم سُمُّوا بالإخوان، ووُسِموا بالجهاد والإيمان، ولا نزكّيهم على

الإله الرّحمن، ذِكراهم أَرَقّ من سَجعِ الحمام، ودَمع الغَمام، وأبهى من واسطة النّظام.

وهي كلمات ليست مفصّلة لأمورهم، ولا مُجلية لكلّ شؤونهم، ولا هي من أبكار الأفكار، ولا لقاح الفهوم، إنّما هي ذكر وتحليل شذرات ممّا وقف عليه عشرة من كبار السنّ في هذا الزّمان، ممّن أدركوا تلك الكوكبة المنيرة، وعاصروا ذلك العزّ التليد، كَتبتُها من أفواههم وسجّلتها وَوَثّقتُها صَوتاً، قبل أن يَرحلَ جُلُّهم إلى ربّهم ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، رحم الله الميّت وحفظ الحيّ.

ولا نقصد بكلامنا هذا عصمة الإخوان! فهم بشر يخطئون ويصيبون، ويطيعون ويعصون، لهم وعليهم، بل منهم من يعذر ومنهم من لا يعذر، لكن المنصف من نظر لحالهم إجمالاً، ووزن ما لهم بما عليهم، ولم يك أعور النظر، ولا مطفف المكيال، بل متجرداً من حظوظ النفس الأمّارة قدر طاقته، حتى وإن اختلف معهم: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٣]، وبالعدل قامت السماوات والأرض، وبالقسط مُدحت الأمة المحمدية: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، واللهُ تعالى موعد الجميع!

إِذَا كَانَ عَوْنٌ مِنَ اللهِ لِلْفَتى ... تَهَيّا لـه مِن كلِّ شيءٍ مُرَادُهُ
فَإِنْ لم يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ الله لِلْفَتى ... فَأَوَّلُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُه

لذا فالمنصف ــ وما أَعَزَّهُ ــ لا يظلم القارئ بتدليسه ولا المقروء بتلبيسه، وأعوذ بالله أن أقول مالا أفعل! أو أُخالف إلى ما أنهى! هو ربي وحسبي ووكيلي وكافيني، اللّهم لا تكلني لنفسي فأعجز ولا إلى الناس فأضيع وكِلني في ديني ودنياي إليك.

كذلك فلا يعتب عليّ القارئ الكريم في وصفي لمن قُتِلَ من الإخوان بالشّهادة، فهذا ليس تزكيةً منّي لبواطنهم فعلمها عند الله، ولكنّهُ وَصْفٌ لما ظهر من حالهم، والمسألة مبسوطة في كتب العقائد، وحسبي ذكر إمامين جليلين أفتيا في هذه المسألة: شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ بفعله، فقد كان يصف نور الدّين محمود بالشّهيد، وابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ بنصّه، فقد أفتى بأنّ هذا لا بأس به، وأنّه ليس من التزكية المذمومة، إنّما نصفه بذلك كي نعامله ظاهراً على وفقها، كعدم تغسيله وتكفينه والصّلاة عليه ونحو ذلك، وإلاّ فحقيقة الشّهادة علمها عند العليم الخبير سبحانه. أما الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ فقد بوّب: باب لا يقال فلان شهيد. وذكر فيه قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تقولون: فلان شهيد وفلان شهيد والله أعلم بمن يكلم في سبيله. وعلى كلٍّ فأمير المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ علّل نهيه بأن كلامهم يؤول للحكم على باطن العمل، ولكن إن ذكر في سياق حكم الظاهر دون الباطن فلا يظهر أنه قد نهى عنه، والمسألة عند هذا الحدّ فيها سعة إن شاء الله تعالى ــ أي إطلاق الشهادة ظاهراً وعدم الحكم على الباطن، وهو تفويض المآل ــ.

عِلْماً بأن تاريخَيْ ابن غنام وابن بشر ــ رحمهما الله تعالى ــ الّذَينِ رويا مغازي الإمام محمّد بن سعود، وابنه الشّهيد عبد العزيز، ثمّ ابنه سعود،

ثمّ ابنه الشّهيد عبد الله، ومعهم علماء الأمّة، كالمجدّد المصلح محمّد بن عبد الوهّاب، وتلاميذه، وأبنائه، وأحفاده، فقد كان هذان المؤرخان الجليلان يذكران الأسماء صريحة، وكانا يصفان هؤلاء بالمسلمين والمؤمنين، وأولئك بالمشركين والكفّار، فلا ضير علينا والحال كالحال، مع اختلاف الزمان، والله المستعان. ولا مشاحّة في الاصطلاح، وعند الخلاف المعتبر يعذر الأخ أخاه، والحمد لله.

ورواتنا هم:

١ - المعمّر الحميديّ بن مفرّح السبيعي، رحمه الله.

٢ - المعمّر محمّد بن الحسين الشّنبري الشّريف، رحمه الله.

٣ - المعمّر حثيري الحلحلي العتيبي، حفظه الله تعالى.

٤ - المعمّر هاضل بن ناجي السبيعي، رحمه الله.

٥ - المعمّر عبد الرّحمن بن ثويني، رحمه الله.

٦ - ذعار بن مناحي الشّريف، رحمه الله.

٧ - المعمر عبيد السمي البقمي، رحمه الله.

٨ - المعمّر ماضي بن حمود الحارث الشّريف، رحمه الله.

٩ - علي الناقول السبيعي رحمه الله برواية ابنه سالم حفظه الله.

١٠ - هادي بن نصّار السبيعي رحمه الله برواية ابن أخيه ماجد بن نصار حفظه الله.

ـ الوثائق البريطانيّة المنشورة، بتحقيق نجدة فتحي صفوة من عام: (١٩١٤م) إلى عام: (١٩٢٠م) والمطبوعة في خمس مجلدات كبار.

إضافة إلى قريب من أربعين مرجعاً آخر، مكتوب أو مسموع أو مخطوط، جمعتها في أكثر من عشر سنوات، لكن لم ألجأ إلى المصادر غير المسموعة إلاّ على نحو يسير، فأساس البحث هنا هو روايات هؤلاء، ورحم الله الجميع.

نَهْجُ البَحْثِ:

١ - قولبةُ جميع الرّوايات في سرد تاريخيّ واحد، مع إغفال أسماء الرواة عن مجمل الروايات لتداخلها وتكرارها غالباً، مع ذكر من انفرد بتفاصيل مهمة أو أحداث مستقلة قدر الإمكان.

٢ - كتابتها بالفصحى، عدا الأشعار والمقولات الّتي تستلزم ذلك، مع وضع المقولات بين قوسين خلا الأشعار.

٣ - إبهام أسماء الأشخاص الّذين ذُكِرُوا بسوء، عدا القوّاد الكبار أو من لهم علاقة مباشرة بالأحداث، قدر الطّاقة.

٤ - التاريخ المعتمد هو الهجري، لذا فليس هنا حاجة لذكر رمزه (هـ) أمّا إن كان المقصود هو التاريخ الإفرنجي (الميلادي) فيشار لذلك، كما نبه لذلك الشيخ بكر أبو زيد، رحمه الله.

٥ - الضّرب صفحاً عن الرّوايات المتداولة المطبوعة حتّى لا يثقل الكتاب، وقد نشير إلى بعضها على سبيل الشّواهد أو الاعتبار، وهذه تكثر في المعارك الّتي كان للإمام عبد العزيز حضور مباشر فيها، فقد أكثر المؤرخون الكتابة فيها.

تنبيه للقارئ النبيه:

هذه الرّوايات تعتبر جانباً من جوانب التاريخ، وليست بغُفْلٍ عن الرّوايات الأخرى، وإن خالفتها، فالمقصود إثباتها مع لبنات الزمان المقروء، وذكر بعض فضائل القوم. ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ [يوسف: ٨١].

وعلى كلٍّ فلا نريد لهذا الكتاب أن يكون (منافق أفندي!) ولا (مفجر نت!) بل نريده صدقاً بين مَيْنَيْن، وحقاً بين باطلين، وهدىً بين ضلالتين ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦]، فالمذكورون في الكتاب بمختلف مشاربهم في حياتهم الفائتة؛ هم الآن تحت التراب، ينتظرون العرض الأكبر للحساب، والكاتب والقارئ على الأثر، فمأجور ومأزور، وشقي وسعيد:

فَقُلْ لِلَّذِيْ يَبْقَى خِلَافَ الّذِيْ مَضَى ... تَهَيَّأْ لِأُخْرَى مِثْلَهَا فَكَأَنْ قَدِ

فمن الخطر العظيم والخطل الجسيم؛ بهتانهم! أو التشفي بهم! أو الوقوع في شَرَكِ أعراضهم بغير حق! وقانا الله شر اللِّسَانَيْن، وهدانا سبلنا في الدارين، وصلى الله على سيد المُصطَفَيْن، فعلى الله وحده الاتكال، وإليه التفويض، ومنه المدد والمعونة، وهو ربنا فنعم المولى ونعم النصير.

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي

٢٠/ ١٢/ ١٤٣٠

ترتيبُ المَغَازي الإخوانية

في الحجاز والجنوب ومعركة السبلة

١- حَوْقَان: وتسمّى (المدفع) في رجب (١٣٣٦) وهو الراجح، وقيل في (٢٥) شعبان (١٣٣٦).

٢- السُّوق: وتسمّى (الدّفعة) في (١٣٣٦) وبعضهم يجعلها تابعة لحوقان.

٣- جَبَّار: وتسمّى (الرّضْم ـ أبو بغيث) في (١٧) رمضان (١٣٣٦) وهو الموافق ليوم الفرقان غزوة بدر الكبرى.

٤- الحنُو: يوم عرفة (٩) ذو الحجة (١٣٣٦).

٥- القُرَيْن: في (١٧) صفر (١٣٣٧).

٦- تربة: في (٢٥) شعبان (١٣٣٧).

٧- الرّيعان: الأُخيضر في (١٣٣٧)، الخرائق في (١٣٤٠)، العبيلا، الجرشيّة، أمّ الجرفان، العقيق، جليل، القرشيّات، العَرفا، مقتل الفرد والعبّود في (١٣٤٢).... إلى مغازي متفرّقة في سِتِّ سنوات بعد تربة.

٨- يوم الغلطة: قبل دخول الطائف (قَتْلُ منير الحضبي بالخطأ، في نحو عشرين من الإخوان).

٩- الطّائف: في أوائل صفر (١٣٤٣).

١٠- الهدا: في (٢٦) صفر (١٣٤٣) وهي تابعة للطّائف.

١١- دخول مكّة المكرمة: في (١٧) ربيع الأول (١٣٤٣).

١٢- دخول المدينة النبويّة: في (١٨) جمادى الأولى (١٣٤٤).

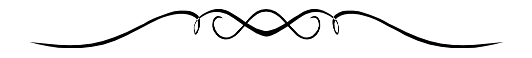
١٣- ينبع، وبدر: في (١٣٤٤).

١٤- جدّة، ومعركة الرّغامة: في غرّة جمادى الآخرة (١٣٤٤).

١٥- مغازي الشّمال: بعد دخول مكّة المكرمة.

١٦- السّبلة: في (١٩) شوال (١٣٤٧).

١٧- الجنوب، واليمن: بعد السبلة.



الفَصْلُ الأَوَّلُ

مسألة التّكفير والقتال

لا بد قبل الخوض في سرد الأحداث من الوقوف عند مسألة قد أشكلت على الكثير ممّن خاضوا في هذا الموضوع الجلل، فثبّت الله فيها أقدام أقوام وزلّت أقدام آخرين، تلك هي مسألة التّكفير والقتال، وهذه المسألة ليست بجديدة على الأمة، بل هي قديمة قدم الإسلام؛ لتعلّقها بالدعوة والجهاد الذي على ساقه قامت هامة الدين، وعلى عموده ارتفعت واتسعت خيمة دولة المؤمنين، فمن كفّرهم رسول الله ﷺ كُفْراً أكبرَ، ولم يكن لهم عَهْدٌ ولا عَقْدٌ، فَدَمُهُمْ ومَالُهُمْ مباحٌ للمؤمنين الموحّدين، إن أبوا الإسلام أو الجزية ــ على الراجح من قولي أهل العلم ــ ثُمّ في عهد الصّدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لماّ ارتدّ من ارتدّ من العرب، وانقسموا لأقسام، فمنهم من آمن بمدّعِي النبوّة ومنتحلي الرسالة؛ كأتباع مسيلمة والأسود وسجاح! ومنهم من ألغى تشريع الزكاة وأسقط ركنيتها من الإسلام، ولم يعتقده واجباً بعد وفاة النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، ومنهم من لم يسقطه أو يلغيه، لكنّه منع الزّكاة وقاتل دون إخراجها. فكيف كان تعامل الصّدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع هؤلاء؟

والجواب: أنّه قد عاملهم جميعاً معاملة الكفّار المرتدّين، وسَنَّ عليهم

سُنَّةً واحدة، وهي القتالُ المتفرعُ عن تكفيره لهم، كما قرّر ذلك جمع من الأئمّة منهم شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيّم وابن باز رحمهم الله تعالى، وَتَابَعَ الصحابةُ خليفتَهم على ذلك، وشرح الله صدورهم له، وأجمعوا على موافقته، ومضى الزمانُ وهذا حال المسلمين مع من لم يدخل في السّلْمِ كافّةً، أنّه يقاتل قتال الكفّار، حتّى يكون الدّين كلّه لله ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، بل وللتّأكيد في الآية الأخرى: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩] ثُمَّ دارت الأيّام والليالي، وعاد الحال كالأزمنة الخوالي، وبَلِيت بعضُ أصول الدّين في توحيد العبادة عند الكثير من النّاس، ولم يبق منها إلّا رسوم، فبعث الله الإمام المجدّد شيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه البررة، فأحيا الله بهم ما اندرس من معالم أصول الدّين، ودعائم الملّة الحنيفيّة، فقاموا لله حقّ القيام، رحمهم الله تعالى، وصدق أبو حيّان في قوله:

قَامَ ابنُ تَيْمِيَةَ فِي نَصْرِ شِرْعَتِنَا ... مَقَامَ سَيِّدِ تَيْمٍ إِذْ عَصَتْ مُضَرُ

ثمّ دار الزّمان دورته الثّالثة، وبثّ الشيطان سراياه، لتتلقّف ما استطاعت من أمّة محمّد ﷺ، وتخرجهم من النّور إلى الظّلمات، لِما اقتضته حكمة الحكيم سبحانه، الّذي يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء، ولا يَهْلِكُ عليه إلّا هالك، أن يَقَعَ مَا قُدِّرَ في الأَزَلِ، فخرج النّاس من دين الله أفواجاً، بعد ما دخلوه أفواجاً! ويشهد بذلك كُلُّ ناقد بصير قرأ ذلك التّاريخ وتلوّع بدواهيه وأخباره، ورأى فشوّ الشرك بين النّاس بكاهله

وبجِرانه وأذياله، فصار عندهم مألوفاً معروفاً غير منكر، والوثنيّة الّتي قد ضربت أطنابها بين ظهراني من يدّعون الإسلام، وأصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً، وبُدّلت السنن، وأُمِيتت الشّريعة، وظهرت قرون البدع، بل شخوصها، ودُعِي الموتى من دون الله، واعتقد الرّعاعُ بمتصرِّفين مع الله في الكون، وتسلّط السّحرة والكهنة عليهم، واندرس الدّينُ فصار كَوَشْيِ الثوب الخَلِق، وصار القابض على دينه بالبراءة والإنكار كالقابض على الجمر، وأصبح التّوحيد غريباً والموحّدون غرباء، حتّى وإن كانوا علماء! فَأَمَامَهم موج متلاطم من وباء الجاهليّة الأولى، فنشأ على هذا الصغير، وهَرِمَ عليه الكبير، حتّى رحم الله أمّة محمّد ﷺ بدعوة الإمام المجدّد لما اندرس من معالم الإسلام، في النّصف الثاني من القرن الثّاني عشر فما بعده إلى يومنا هذا، وهو الإمام محمّد بن عبد الوهّاب[1] الّذي نسأل الله تعالى أن يجزيه عنا خير ما جزى مصلحاً عن أمته، وعالماً عن أمانته ودعوته، ولكن ذلك البعث التّجديديّ لدعوة الإمام المصلح لم

---

(١) وكان رَحِمَهُ اللَّهُ كثيراً ما يتمثل بهذه الأبيات:

بأي لسان أشكر الله إنّه	لذو نعمة أعجزت كل شاكر
حباني بالإسلام أعظم منّة	وبسنّة المعصوم أزكى الشعائر
وبالنعمة العظمى اعتقاد ابن حنبل	عليها اعتقادي يوم كشف السرائر

كان مولده في العيينة من سنة:(١١١٥هـ / ١٧٠٣م) ووفاته في العيينة يوم الإثنين من شهر شوال سنة: (١٢٠٦ هـ/ ١٧٩١م) عن اثنتين وتسعين سنة، ومات ولم يخلف ديناراً ولا درهماً، فلم يقسم بين ورثته مال، ورحل بعد أن جدد الله به الدين في القرن الثاني عشر وما بعده، رَحِمَهُ اللَّهُ.

يكن لينجح ويفلح لولا لطف الله تعالى وتوفيقه، ثمّ التّضحيات تلو التّضحيات، من الدماء الطّاهراتِ الزاكّيّاتِ، ممّن اعتنقوا الإسلام المحض، والإيمان الصّافي من شوائب البدع والخرافات والضّلالات والمحدثات والشّهوات.

وكافح العلماء الصّادقون، وطلّابهم وجنودهم، يتقدّمُهُمْ أمراؤهم من آل سعود الميامين، فاتّحد اللّسان والسّنان، والرمح والبرهان، والكتاب والسّيف، والعلماء يُبَصّرون الناس بدينهم، ويفقهونهم شريعتهم، ويأمرونهم بالمعروف، وينهونهم عن المنكر، ويأطرون جهّالهم على الحق أطراً[(١)].

إِذَا كُنْتَ تَرْضَى أَنْ تَعِيْشَ بِذِلّةٍ فَلَا تَسْتَعدنَّ الحُسَامَ اليَمَانِيَا
فَمَا يَنفَعُ الأُسدَ الحَيَاءُ منَ الطّوَى وَلَا تُتّقَى حَتّى تكُونَ ضَوَارِيَا

---

(١) يصم بعض الناس الدولة السعودية الأولى وشيخها الإمام المجدد بالخروج على ولي الأمر آنذاك أي الدولة العثمانية، والحق أن تلك التهمة لا تصح لأمور منها:
١ ـ أن أهل نجد بعامّة لم يكونوا من رعايا الدولة العثمانية ولا من أتباعها فمعلوم أن وسط نجد خاضع تماماً لإمارات مستقلة وليست تابعة لأحد، ولم تصل قط سرية عثمانية لبلاد نجد قبل قيام الدعوة السلفية الإصلاحية ممثلة في دولتها السعودية.
٢ ـ أن حروبهم للشريف في الحجاز كانت دفاعاً عن النفس إذ هو من بدأ بظلمهم وقتالهم، ثم منعهم من الحج عدة سنين فألجأهم ذلك لدخول مكة المكرمة ومن ثم ضموها إليهم.

ومن رافق الراحة فارقته الراحة! ومن فارق الراحة رافقته الراحة في الأولى والعقبى! ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٌ وَأَبۡقَىٰٓۚ﴾ [القصص: ٦٠].

وابتدؤا جهاد المخالفين من المشركين ومن وقف دونهم سنة: (١١٥٧) حين وُلدت دولة منهاج النّبوّة، وهي الدّولة السّعوديّة الأولى، من عهد الإمام الموفَّقِ محمد بن سعود:(ت:١١٧٩) ثمّ ابنه الإمام المجاهد الشّهيد عبد العزيز (ت:١٢١٨) ثمّ من بعده سعود (ت:١٢٢٨) ثمّ الشّهيد عبد الله (ت:١٢٣٤) الذي قتلته يد دولة التّصوف والتّعصّب، دولة آل عثمان، بعدما هدمت الدرعية مأرز العلم والتّوحيد في ذلك العصر! ويكفي أن تقرأ وصفها في عزّ مجدها من تاريخ ابن غنّام، حتّى تعرف قدر جناية وجرم من سَوَّوْهَا بالتراب من فوق جثث عباد الله وحماة التّوحيد وحرّاس الملّة، في تلك الأيّام الحزينة ولياليها الثكالى الباكية.

ومن ثمّ ضَعُفَ أمر التّوحيد وأهلِهِ في نفوس النّاس، وعاد الشّرك على استحياء شيئاً فشيئاً، ثمّ تنامت خلاياه السّرطانية بقوّةٍ وبسرعة، خاصّةً كلّما ابتعد النّاس عن مهد حركة الإصلاح بنجد مكاناً وزماناً، ثمّ جاءت الدّولة السّعوديّة الثّانية، لكنّها كانت أقصر عمراً وأقلّ كفاءةً من أن تبعث الحركة الإصلاحيّة من جديد.

حتّى أذن الله تعالى أن تُشرق شمسُ رجلٍ، عَتِيْقِ السُّلالةِ، صافي المَحْتِدِ، عدناني الأرومة، نجدي المولد، إنّه الإمام عبد العزيز، مؤسّس

الدّولة السّعوديّة الثّالثة، الّذي آلى على نفسه أن يعزّ التّوحيد وأهله، وأن ينشر ألوية السنّة المحمدية، وأنوار الملّة الحنيفيّة، في ما استطاع من قلوب الناس، دون سدنة الشّياطين الجاثمة على سوادهم الأعظم! فطبع من كتب الإمام المجدّد وتلاميذه وتلاميذهم كمجموعة التّوحيد النّجديّة، والأصول الثّلاثة، ومسائل الجاهليّة، ونحوها من الكتب النّافعة، وبثّ الدّعاة الهداة، ولا نزكيه على الله تعالى.

وَإِذَا بَحَثْتَ عَنِ التَّقِيِّ وَجَدْتَهُ رَجُلاً يُصَدِّقُ قَوْلَهُ بِفِعَالِ

وقد وَقَفَ معه العلماء وقفةَ صدقٍ وجهادِ علمٍ وبيانٍ وإيمانٍ ، فعادت أنوار الإيمان والإسلام والمعروف، تنتشر في أرجاء مملكته الفتيّة ودولته الفاضلة، وخرجَ جيلٌ نادرُ المثالِ في إيمانه وورعه وزهده وجهاده وحرصه على اقتفاء آثار الصّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في كلّ ما يأتي ويذر ، ذلك هو جيل (الإخوان).

أَلَا بَلَّغَ الله الحِمَى مَنْ يُرِيدُهُ وَبَلَّغَ أَطْرَافَ الحِمَى مَنْ يُرِيدُهَا

وبما أنّ دعوة الإمام المجدّد قد جُوبهت بالعداء السّافر والكيد الفاجر، من قبل بعض علماء السّوء، فلم تكن حركة الإخوان بدعاً من ذلك، كيف لا، وهي تستقى من معين كتب دعوة المجدّد وعلماء الدعوة؟ وعلماؤُها هم تلاميذ معدودون من تلاميذ الإمام المجدّد. لذا، فالّذي قيل هنا قد قيل هناك، وكفى الأولون الآخرين عناء البحث والاستدلال.

هذا، وأعظمُ ما جوبهت به حركة الإخوان هما تهمتي التّكفيرِ

والقتال، وهما ما قد رُمي بهما الإمام المجدّد رأساً وابتداءً، حتّى ألّف الكثير من الصّفحات في إجلاء عقيدته ورؤيته لهذين الأمرين. والرُّباعيةُ المشهورةُ عنه تشهدُ بذلك، وهي أنهُ دعا النّاس إلى أربعة أمور، فوافقه العلماء على اثنتين: وهما التّوحيد والبراءة من الشّرك، وخالفه بعضهم في اثنتين: وهما التّكفير والقتال، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلمّا اشتهر عنّي هؤلاء الأربع، صدّقني من يدّعي أنّه من العلماء في جميع البلدان، في التّوحيد وفي نفي الشّرك، وردّوا عليّ التّكفير والقتال»(١).

لذا فمن أقرّه ووافقه في الأُولَيَيْن لزمه متابعته في الأُخْرَيَيْن، فهما النتيجة الطّبيعيّة المنطقيّة لهما والمتلازمة معهما، وإلا هُدِمَ الدين! فما الجهاد في سبيل الله إلا لإزالة العقبات عن طريق التوحيد، فمن أقر بوجوب تحقيق التّوحيد ولزوم نفي الشّرك والبراءة منه، لزمه أن يتبرّأَ من أهله وحزبه، وإلّا صار مداهناً غير مكمّلٍ للبراءة الواجبة من الشّرك. وهذا الأمر العظيم والأصل القويم ـ وهو وجوب البراءة من الشرك وأهله ـ لا يختلف فيه اثنان، ولا تنتطح فيه عنزان، فهو أوضح من الشمس في رابعة النهار، ولكن بعض الناس لا يعقلون! وويل للشجيّ من الخليّ!

ولا ينقضي العجب ممن يُقِرّ الإمامَ على تقعيده لمسائل الشّرك وتقسيماته، ثمّ لا يتابعه في لوازمه وتفريعاته، فمن أقرّ أنّ دعاء الموتى والغائبين شرك أكبر؛ لزمه أن يقرّ بأن من دَعَى ميتاً من دون الله فقد أشرك

(١) مجموعة مؤلفات الشّيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (٥/ ٢٦).

شركاً أكبر، فإن أقرّ بذلك وإلاّ فقد كذّب نفسه وناقض عقله في التفريق بين المتماثلات والمباعدة بين المتلازمات، فإن وافق على تكفير الشخص المعيّن الّذي قامت عليه الحجّةُ الرّسالية، لزمه إنكار منكره، وأطره على الملة قدر طاقته، وردّه لحياض التّوحيد ـ إن كان قد دخله أصلاً! ـ فإن أَبَىْ، لزم على وليّ الأمر إجراء أحكام الردّة عليه، فإن أبى ناجزه وقاتله، وهذا هو عين ما فعله الإخوان بكل اختصار، ولكن من جهل شيئاً عاداه، ومن قصر عن شيء عابه: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾ [يونس: ٣٩].

لذا فالنّاظر لهذه الأحداث، لابدّ أن تكون عنده دراية بخلفيّة الإخوان العقديّة في التّكفير والقتال وبأدلتهم الشرعية، حتى يخرجوا منه بعذر وإن اختلفوا معه في بعض تطبيقاتها وإيقاعها على أرض العمل، أمّا من لم يتبيّن له ذلك؛ فإنّه سيسير في متاهة محيّرة، وسيتخبط في دوّامة شائكة، وستنطلي عليه حيل القوم وهم يقولون: كيف تكفّرون المسلمين الّذين يصلّون ويؤذّنون ويصومون ويحجّون؟! كقول شاعرهم:

حسبنا الله على الخرمة واهلها   كفّرونا وحنّا مسلمين[1]

لهذا؛ فالإخوان حينما يكفّرون، فإنّهم لا يكفّرون بالهوى والشبهة، كصنيع الخوارج المارقين، بل هم لا يكفّرون إلّا من كفّره القرآن

---

(١) وفي رواية:

حسبنا الله على خالد والإخوان   كفرونا وحنا مسلمين

والسّنة[١] ـ ولا نزكي على الله أحداً ـ صادرين عن فتاوى علمائهم الرّاسخين. وقديماً قيل: ربّ سامع بجرمي لم يسمع بعذري!

وَلَهُمْ حيثيّات كثيرة في تكفير من كفّروهم، كفشوِّ الشّرك الأكبر في بلادهم، الذي لم يتبرؤا منه ومن أهله، ومناقضتهم لكلمة التّوحيد الّتي يلفظونها بأفواههم وتأبى أفعالهم تحقيقها! وأنّى ذلك إلّا بالبراءة من الشّرك وأهله، وهذا هو النّاقض الثّالث من نواقض الإسلام العشرة المشهورة، وكموالاتهم لأعداء الشّريعة والتّوحيد، وحربهم للمسلمين الدّاعين لتحكيم الشّريعة، ومعلوم أنّ مناصرة المشركين في حرب الموحّدين من أعظم نواقض الدّين، كذلك عدم دخولهم في جميع شرائع الملّة، فهم لم يدخلوا في السِّلْم كافّة، ولم يحقّقوا الإسلام جملة، وذلك بأن يستسلموا لله بالتّوحيد، وينقادوا له بالطّاعة، ويتبرؤا من الشرك وأهله، أيضاً عدم تحكيم الشّريعة..... إلى غير تلك الأمور الّتي أفتى بعض علماءُ العارضِ[٢] الإخوانَ بكفر أصحابها، ومروقهم من الدّين، وحِلِّ دمائهم وأموالهم بإذن إمامهم. وتأمل هذه النصوص من علماء الدعوة قال الشيخ حمد بن عتيق: «...فإنه قد بلغني أن بعض الناس يقول: إن في الأحساء من هو مظهر دينه لا يُرَدُّ عن المساجد والصلاة، وأنّ هذا عندهم هو

(١) ولا يمنع من ذلك وقوع بعض الأفعال الفردية التي برئ منها جموعهم قولاً وفعلاً، فقد كان علماؤهم يسوسونهم بالشريعة، ويقودونهم بالقرآن، وليس من الإنصاف ضرب المنهج بفعل آحاد أتباعه.

(٢) أي علماء نجد، وتسمى العارض واليمامة وجَوْ.

إظهار الدين، وهذه زلة فاحشة، غايتها: أن أهل بغداد وأهل منبج وأهل مصر قد أظهر من هو عندهم دينه فإنهم لا يمنعون من صلى، ولا يردون عن المساجد. فيا عباد الله: أين عقولكم؟! فإن النزاع بيننا وبين هؤلاء ليس هو في الصلاة، إنما هو في تقرير التوحيد والأمر به وتقبيح الشرك والنهي عنه والتصريح بذلك»[١][٢].

وقال لمن ناظره من أهل مكة: «... جرت المذاكرة في كون مكة بلد كفر أم بلد إسلام، فنقول وبالله التوفيق: قد بعث الله محمداً ﷺ بالتوحيد...... إلى أن قال: أمّا إذا كان الشرك فاشياً مثل دعاء الكعبة... وذكر أمثلة... فلا يشك من له أدنى علم أنّ هذه البلاد محكوم عليها بأنها بلاد كفر وشرك[٣] لاسيّما إذا كانوا معادين لأهل التوحيد، وساعين في

---

(١) وسنكثر النقول عن أئمة الدعوة النجدية لأمرين: الأول: هو المعاصرة، وقربها زمناً مما نحن بصدده مع اتحاد المكان. والثاني: أنّ تلك الفتاوى إنّما هي التطبيق العملي المنهجي لتنظيرهم لمسائل التوحيد والشرك والجهاد ومسائل الإيمان والكفر وبلاد الإسلام وبلاد الحرب.

(٢) كما في الدرر (٩ / ٢٥٢).

(٣) لذا فالإخوان يسمّون مغازيهم بالفتوح، والمرجح لدي ـ والعلم عند الله تعالى ـ أنها بلد إسلام لا بلد شرك فشعائر الدين قائمة، ولعل هذه الأفعال الشركية ليست غالبة على الناس وليست بمـالأة من مجموعهم، ولا شك أن ضعف أو عدم إنكارهم منكر عظيم، لكن هذا شيء والحكم على البلدة بالكفر شيء آخر، وهو بعيد إن شاء الله تعالى. وتعليقي هنا من باب تحقيق المناط لا تنقيحه فالشيخ رحمه الله لم يخرم أصلاً من الأصول بل هو جار على جادة أهل السنة والجماعة.

إزالة دينهم، ومُعينين في تخريب بلاد الإسلام... إلى أن قال: وأما قول القائل: ما ذكرتم من الشرك إنما هو من أفقيّه لا من أهل البلد، فيقال: أولاً: هذه إما مكابرة أو عدم علم بالواقع، فمن المقرر: أن أهل الآفاق تبع لأهل البلاد في دعاء الكعبة والمقام والحطيم كما يسمعه كل سامع، ويعرفه كل موحد، ويقال ثانياً: إذا تقرر هذا وصار هذا معلوماً، فذلك كاف في المسألة، ومن الذي فرّق بين ذلك ؟! فيالله العجب، إذا كنتم تخفون توحيدكم في بلادكم، ولا تقدرون أن تصرحوا بدينكم... أرأيتم لو قال رجل منكم لمن يدعو الكعبة أو الحطيم أو يدعو الرسول ﷺ أو الصحابة: يا هذا لا تدعُ غير الله، أو أنت مشرك، هل تراهم يسامحونه؟! أو يكيدونه؟! فليعلم المجادل أنهم ليسوا على توحيد الله، فوالله ما عرف التوحيد ولا تحقق بدين الرسول ﷺ.

أريت لو أن رجلاً عندهم قال: يا هؤلاء راجعوا دينكم واهدموا البنايات التي على القبور، ولا يحل دعاء غير الله هل يكفيهم فيه فعل قريش بمحمد ﷺ؟ لا والله، لا والله. وإذا كانت الدار دار إسلام لأي شيء لم تدعوهم إلى الإسلام؟ وتأمروهم بهدم القباب واجتناب الشرك وتوابعه؟ فإن غرّكم أنهم يصلون، أو يحجون؛ فتأملوا الأمر من أوله؛ وهو أن التوحيد قد تقرر في مكة بدعوة إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما السلام ـ ومكث أهل مكة عليه مدة من الزمان، ثم إنه نشأ فيهم الشرك بسبب عمرو بن لحي فصاروا مشركين وصارت البلاد بلاد شرك مع أنه قد بقي

معهم أشياء من الدين كما كانوا يحجون ويتصدقون على الحاج...»[(١)] إلى آخر كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، علماً بأن الشيخ حمد بن عتيق هو والد الشيخ سعد بن حمد بن عتيق الذي يُعد من أبرز علماء ذلك الزمان الذي جرت فيه حروب الإخوان مع الشريف[(٢)]، ذكرنا ذلك حتى لا يُشغب على الإخوان باختلاف الزمان والمكان فالحال لم يتغير[(٣)].

أما الإمام سعود بن عبد العزيز رحمهما الله فقد قال ـ وأسعد فؤادك متأملاً ما في ثنايا كلامه من عزّة المؤمنين على المشركين ـ: «أما ما ذكرت: أنا نقتل الكفار فهذا أمر لا نعتذر عنه، ولم نستخف فيه، ونزيد في ذلك إن شاء الله، ونوصي به أبناءنا من بعدنا، وأبناؤنا يوصون به أبناءهم من بعدهم، كما قال الصحابي: على الجهاد ما بقينا أبداً، ونُرغم أنوف الكفار، ونسفك دماءهم، ونغنم أموالهم بحول الله وقوته، ونفعل ذلك إتباعا لا ابتداعا، طاعة لله ولرسوله ﷺ وقربة نتقرب بها إلى الله تعالى، ونرجو بها جزيل الثواب بقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣]، ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤]، ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤]،

---

(١) المرجع السابق: (٩/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠).

(٢) ويعده بعضهم ممن حضر معركة تربة حيث جاء مع أهل الغطغط، والعلم عند الله.

(٣) وللمزيد من بسط المسألة انظر رسالة (ويكون الدين كله لله) للمؤلف.

ونرغب فيما عند الله من جزيل الثواب حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠]... وأما ما ذكرت: من مسكننا في أوطان مسيلمة الكذاب فالأماكن لا تُقدس أحداً ولا تُكفره، وأحب البقاع إلى الله وأشرفها عنده مكة، خرج منها رسول الله ﷺ وبقي فيها إخوانك أبو جهل وأبو لهب ولم يكونا مسلمين... وأما ما ذكرتم: أنكم مشيتم على الأحساء فنقول: الحمد لله على ذلك الممشى فإنه ولله الحمد والمنّة هتك أستاركم به، ونزع به مهابتكم من قلوب المسلمين، وأخزاكم الله به الخزي العظيم الظاهر الباطن الذي ما عليه مزيد... وقولك: أنا أخذنا كربلاء وذبحنا أهلها وأخذنا أموالها؛ فالحمد لله رب العالمين، ولا نعتذر عن ذلك ونقول: ﴿وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠]... وما ذكرت من جهتي الحرمين الشريفين، فالحمد لله على فضله وكرمه حمداً كثيرا كما ينبغي أن يحمد، وعز جلاله، لما كان أهل الحرمين آبين عن الإسلام، وممتنعين عن الانقياد لأمر الله ورسوله، ومقيمين على مثل ما أنت عليه اليوم من الشرك والضلال والفساد، ووجب علينا الجهاد، وبحمد الله فيما يزيل ذلك عن حرم الله وحرم رسول الله ﷺ من غير استحلال لحرمتهما»[1].

(١) المرجع السابق: (٩ / ٢٨٠). وكثير من نواقض الإسلام مغيب فقهه عن جمهور الأمة في هذه الأزمنة، ولذلك أسباب عدة.

وهكذا يفعل الأبطال إن غضبوا وهكذا يعصف التوحيد بالوثن

وقال الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ: «وهؤلاء الذين قاموا في أهل التوحيد، واستعدوا بالكفار عليهم وأدخلوهم إلى بلاد نجد، وعادوا التوحيد وأهله أشد العداوة (....) ومن انضم إليهم من أعوانهم؛ لا يشك في كفرهم ووجوب قتالهم على المسلمين إلا من لم يشم روائح الدين! أو صاحب نفاق أو شك في الدعوة الإسلامية!»[١]. علماً بأن قصد علماء الدعوة بالمشركين الذين يُستعان بهم هم الأتراك في ذلك العصر، وملخص كلام أئمة الدعوة في هذه المسألة ـ أي مسألة الاستعانة بالمشركين في الحرب ـ: هو التحريم مطلقاً، قال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ: «وأما مسألة الاستنصار بهم ـ أي المشركين ـ مسألة خلافية، والصحيح الذي عليه المحققون: منع ذلك مطلقاً، وحجتهم حديث عائشة وهو متفق عليه، وحديث عبد الرحمن بن حبيب وهو حديث صحيح مرفوع، والقائل بالجواز احتج بمرسل الزهري وقد عرفت ما في المراسيل إذا عارضت كتابا أو سنة، ثم إن القائل به شرط أن يكون فيه نصح للمسلمين ونفع لهم، وشرط أيضا ألاّ يكون للمشركين صولة ودولة يخشى منها، وشرط مع ذلك ألا يكون له دخل في رأي ولا مشورة»[٢].

---

(١) المرجع السابق:(٨ /٣٦٦).

(٢) نقلاً عن دعاوى المناوئين للشّيخ عبد العزيز آل عبد اللّطيف: (١٦١) وهو بنصِّهِ في الدّرر: (١٠/ ٨).

وهذه الفتاوى وأمثالها هي التي انطلق منها مشايخ الإخوان وعملوا بمقتضاها، وسلّوا السيوف لإحقاق ما يرون أنه الحق بها، وهجروا المنزل والحبيب، والدار والقريب من أجل تحقيق كلمة التوحيد، وإعزاز ملّة إبراهيم، ودين محمد والمرسلين، عليهم أزكى الصلاة والتسليم.

علماً بأنّ القتال ليس مرتبطاً بالتّكفير، وليس كل من قاتله الإخوان قد كفّروه، فهناك حالات يقاتَلُ المَرْءُ من أجلها مع بقاء حكم الإسلام له، كحال الخوارج والبغاة وقطاع الطريق ونحوهم.

وَلْنَعُدْ لكلام الإمام المجدّد رَحِمَهُ اللَّهُ، حيث قال: «ولكنّهم يجادلونكم اليوم بشبهة واحدة، فأصغوا لجوابها، وذلك أنّهم يقولون: كلّ هذا حقّ نشهد أنّهُ دين الله ورسوله، إلّا التكفير والقتال! والعجب ممن يخفى عليه جواب هذا! إذا أقرّوا أنّ هذا هو دين الله ورسوله،كيف لا يَكْفُرُ مَنْ أَنكَرَهُ ؟! وَقَتَلَ مَنْ أَمَرَ بِهِ؟! وَحَبَسَهُم؟!....» إلى آخر جوابه رَحِمَهُ اللَّهُ[1] وقال: «الأمر الثّالث: ممّا يوجب الجهاد لمن اتّصف به، مظاهرة المشركين وإعانتهم على المسلمين ، بيدٍ أو بلسان أو بقلب أو بمال ، فهذا كفر مخرج من الإسلام»[2].

وحتّى لا يطول بنا البحث والاستدلال ــ لأن الغرض ليس تقعيد المسألة بقدر ما هو بيان مناطِ حُكْمِهم على المخالفين لأصول الإسلام أو

(١) الدّرر السّنيّة (٩/ ٢٩٢).

(٢) مجموعة التوحيد النجدية (٣١٨).

المانعين حقوقه ـ لذا سأسوق كلاماً لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، نقلاً عن كِتَابٍ تناقَلَهُ الإخوان، واهتمّوا به، وتربّوا عليه في حِلَقِ أهل العلم، ذاك هو كتاب: (مجموعة التّوحيد النّجديّة) وهو مجموعة كتب ورسائل لأئمّة الدّعوة الإصلاحيّة، ومن ضمن الرّسائل في هذه المجموعة المباركة، رسالة في غاية النّفاسة للشّيخ عبد الله بن الإمام المجدّد محمّد بن عبد الوهّاب رحمهما الله تعالى وفيها: «وقال تقيّ الدّين رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمّا سُئل عن قتال التّتار مع التمسّك بالشّهادتين، وَلِمَا زعموا من اتّباع أصل الإسلام، فقال: كلّ طائفة ممتنعة عن التزام شرائع الإسلام الظّاهرة المتواترة، من هؤلاء القوم، أو غيرهم، فإنه يجب قتالهم، حتّى يلتزموا شرائعه، كما قاتل أبو بكر والصّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ مانعي الزّكاة، وعلى ذلك اتّفَقَ الفقهاء بعدهم، مع سابقةِ مناظرةِ عمرَ لأبي بكرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فاتّفق الصّحابة على القتال على حقوق الإسلام، عَمَلاً بالكتاب والسنة، وكذلك ثبت عنه ﷺ من عشرة أوجه الحديث عن الخوارج والأمر بقتالهم، وأخبر أنّهم شرّ الخلق والخليقة مع قوله: «**تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم**» متفق على صحته، فعُلِمَ أنّ مجرّد الاعتصام بالإسلام مع عدم التزام شرائعه، ليس بمسقط للقتال، فالقتال واجب حتّى يكون الدّين كلّه لله، وحتّى لا تكون فتنه، فمتى كان الدّين لغير الله، فالقتال واجب، فأيّما طائفة ممتنعة امتنعت عن بعض الصّلوات المفروضات أو الصّيام أو الحجّ ــ واسترسل في الأمثلة إلى أن قال: ــ أو غير ذلك من التزام واجبات الدّين أو محرّماته، الّتي لا عذر لأحد في

جحودها أو تركها الّتي يكفر الواحد بجحودها، فإنّ الطّائفة الممتنعة تقاتل عليها، وهذا ممّا لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء..... إلى أن قال: وهؤلاء عند المحقّقين ليسوا بمنزلة البغاة الخارجين عن الإمام، أو الخارجين عن طاعته، كأهل الشّام مع أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإنّ أولئك خارجون عن طاعة إمام معيّن، أو خارجون عليه لإزالة ولايته، أمّا المذكورون فهم خارجون عن الإسلام، بمنزلة مانعي الزكاة وبمنزلة الخوارج الّذين قاتلهم عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولهذا افترقت سيرته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قتاله أهل البصرة وأهل الشّام، وفي قتاله لأهل النّهروان، فكانت سيرته مع البصريين والشّاميين سيرة الأخ مع أخيه، ومع الخوارج بخلاف ذلك، وثبتت النّصوص عن النبيّ ﷺ بما استقر عليه إجماع الصّحابة من قتال الصّديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمانعي الزكاة وقتال عليّ رضي الله للخوارج»[1] انتهى كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ. وقد علّق عليه الناقل الشّيخ عبد الله بن الإمام المجدّد بتعليق محقّق جدير بالعناية فرحمهما الله تعالى.

وقد ذكر الإمام المجدد رَحِمَهُ اللَّهُ كلاماً عظيم القدر في هذه المسألة، نذكر بعضاً من لُمَعِه ودُرَرِهِ، قال رَحِمَهُ اللَّهُ بعد ذكره لقصة المرتدين: «... الدليل الثاني: قصة أخرى وقعت في زمن الخلفاء الراشدين وهي أنّ بقايا من بني حنيفة لمّا رجعوا إلى الإسلام وتبرؤا من مسيلمة وأقروا بكذبه، كبر ذنبهم في أنفسهم وتحمّلوا بأهليهم إلى الثغر لأجل الجهاد في سبيل

(١) الدرر السنية: (٩/ ٣٨٨).

الله، لعل ذلك يمحو عنهم تلك الردة لأن الله تعالى يقول: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾ [الفرقان: ٧٠]، وقوله: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه: ٨٢] فنزلوا بالكوفة، وصار لهم بها محلة معروفة، فيها مسجد يسمى مسجد بني حنيفة، فمر بعض المسلمين على مسجدهم ما بين المغرب والعشاء، فسمع منهم كلاماً معناه: أنّ مسيلمة على حق! وهم جماعة كثيرون لكن الذي لم يقل لم ينكر على من قال، فرفعوا أمرهم إلى ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فجمع من عنده من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ واستشارهم هل يقتلهم وإن تابوا؟ أو يستتيبهم؟ فأشار بعضهم بقتلهم من غير استتابة، وأشار بعضهم باستتابتهم، فاستتاب بعضهم وقتل بعضهم ولم يستتبه، وقتل عالمهم ابن النوّاحة. فتأمل رحمك الله: إذا كانوا قد أظهروا من الأعمال الصالحة الشاقة ما أظهروا، لمّا تبرؤا من الكفر وعادوا إلى الإسلام ولم يظهر منهم إلا كلمة أخفوها في مدح مسيلمة لكن سمعها بعض المسلمين، مع هذا لم يتوقف أحد في كفرهم كلّهم، المتكلم والحاضر الذي لم ينكر، لكن اختلفوا هل تقبل توبتهم أم لا؟ والقصة في صحيح البخاري... الدليل الرابع: ما وقع زمن الصحابة وهي قصة المختار ابن أبي عبيد... فاستولى على العراق، وأظهر شرائع الإسلام، ونصب القضاة، وكان هو الذي يصلي بالناس الجماعة والجمعة، لكن في آخر أمره زعم أنه يوحى إليه، فسير إليه عبد الله بن الزبير جيشاً فهزم جيشه وقتلوه، وكان تحته امرأة أبوها أحد الصحابة فدعاها مصعب إلى تكفيره، فأبت، فكتب

إلى أخيه عبد الله يستفتيه فيها، فكتب إليه: إن لم تبرأ منه فاقتلها فامتنعت فقتلها مصعب... وفيما ذكرنا كفاية لمن هداه الله سبحانه، وأما من أراد الله فتنته فلو تناطحت الجبال بين يديه لم ينفعه ذلك... فمن لم يفهمها فليبك على نفسه فإنها قد ماتت، ولينتبه قبل حلول رمسه فان دنياه وأخراه قد فاتت، وليتدارك ما بقي من يومه قبل أمسه فان ركائب الموت بفنائه قد باتت، والله سبحانه وتعالى أعلم»[١].

---

(١) كما أن موجبات الردة، ونواقض الملة عديدة، إلا أن مسألة تكفير المعيّن في غاية الخطر إن كانت في يد من لم يملك أدواتها، وفي سلطة من لم يستتم شروط إيقاعها، ولا يجوز أن يترك عنان التكفير للعامة، بل هو خاص بمن أوكل الله لهم سياسة الناس بالشريعة، وهم العلماء الراسخون الذين علموا شروط التكفير وموانعه، وأحسنوا إقامة الحجة على متنكبي المحجة، فقد يُتهم المرء بارتكاب مكفر وهو منه براء! إنما كُذب عليه كما كُذب على الإمام المجدد بأنه يبغض الرسول ﷺ.

وقد يرتكب الإنسان المعصية وهي ليست من المكفرات، فيرمى بالردة! كصنيع الخوارج بمرتكب الكبيرة.

وقد يركب الذنب المكفر المخرج من الملة ولكنه لم يكفر بسبب أحد الموانع:

كالجهل: كقصة الذي قال لولده: «**إذا أنا مت فأحرقوني ثم ذروا رمادي في الهواء فلئن قدر الله علي ليعذبني...**» (متفق عليه) فهذا شك في عموم قدرة الله تعالى وهذا من المكفرات، مع هذا غفر الله له لخشيته وجهله.

وكالخطأ: كقصة الفَرِح بعودة دابته فقال: «**اللّهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح**». (أصل الحديث في مسلم وهذا لفظ ابن مندة في التوحيد).

وكالتأويل الذي له وجه: ولم يتضح الحق لصاحبه كالكثير ممن يظنون أنهم ينزهون الله تعالى فيصل بهم ذلك إلى إنكار بعض صفاته، كما كان الإمام أحمد يصلي خلف =

فانظر أيها القارئ الحبيب لهذه الفتاوى التي بينت أن بعض من يُظن فيهم الإسلام قد خلعوا ربقته بشؤم فعالهم وتأمل كيف أبدى الصريح عن الرّغوة، وتبين الصبح لذي عينين ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١].

إذَا جَـاءَ مُوسَـى وَأَلْقَـى العَـصَا فَقَـد بَطَـلَ الـسِّحْرُ والـسَّاحِرِ

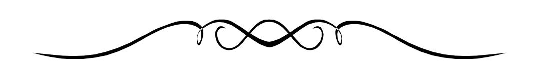
= بعض من قال بتلك المقالات، وقال شيخ الإسلام لبعض المحرفة (المؤولة): أنتم تقولون كلاماً لو قلت به لكفرت! لكنكم لم تكفروا عندي لأنكم ترومون التنزيه بذلك التحريف ولم تتصوروا حقيقة مذهبكم ومآله. أما تأويلات الباطنية والفلاسفة والرافضة وأشباههم فهي كفر محض.

وكالإكراه: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]، وبعضهم خص الرخصة بالنطق فقط، وبعضهم خص الإكراه بالتهديد بالقتل دون الضرب والحبس، والله أعلم.

وتكفير المعين يختلف عن تكفير الوصف؛ كحديث: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**» (رواه أحمد) أما تكفير الشخص المعين كأن تقول: فلان كافر! وهنا مكمن الخطر لمن توغل في ذلك بغير بينة ولا برهان.

الشاهد من هذا أن على الناصح لنفسه أن لا يقع في شَرَك التكفير بغير حق وليعلم أن من دخل في الإسلام بيقين فلا يُخرج منه إلا بيقين، وليتيقن أن لكلّ كلمة طالباً من الله تعالى، وأنه موقوف بين يدي الجبار جل جلاله، ومسؤول عن ما اقترفه لسانه أو خطه بنانه، فليعد للسؤال جواباً وللجواب صواباً وأنّى ذلك إلا ببرهان شاف، واستدلال كاف، والكلمة يملكها من كانت حبيسة جوفه، لكن إن خرجت فقد ملكته، فإما إعتاق أو إيباق! والله المسؤول أن يحفظني والقارئ والمسلمين من مضلات الفتن ودواهي المحن، فهو المستعان، وعليه التكلان، ولا إله إلا هو.

وأعظم وأكرم وأجلّ؛ قول الربّ العليّ الأجلّ: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١].



الفَصْلُ الثَّانِي

حال الناس في نجد والحجاز قبل التدين

كان النّاس نجد قد بعامة في جاهليّة، ليست كالجاهليّةِ الأولى في مظاهر الشّرك الأكبر، فَصَوْلَةُ الدّفعة الأولى لدعوة الإمام المجدّد لا يزال لها سلطان وقبول في قلوبهم، وإن كان سَنَاهَا الأبيضُ قد خَبَا، وشُعَاعُهَا المشرق قد خَفَتَ، وصوتُها المُدوي قد ضعف، ومعالمها الواضحة قد بهتت، ومُحَيَّاها الجميل قد شحب.

فنجد ــ وبخاصة كلما ابتعدنا عن العارض ــ كان فيها من رسوم الجاهليّة والشرك الأصغر مظاهر ودخان، بيد أنّ الدعوة الإصلاحية لا زالت متجذّرة في أعماق نفوس الناس، رغم الغبار بل والتراب الذّي طمّ الكثير من معالمها، فهي وإن لم تبق ظاهرة عزيزة إلاّ أن مظاهر الشرك الأكبر كالطواف بالقبور، والنذر للأضرحة، والاستغاثة بالموتى، ونحو ذلك لم يكن موجوداً، إنّما هي تمائم، وحروز، وحصىً، وودع، وترميل، وبعض من طقوس الدّجل، وشرك الألفاظ، الّتي لا تُخرجُ من الملّة، وإن كانت من الموبقات المهلكات.

وقد كان في نجد بعض الكهنة كالكاهنة التي يُقال لها: (دِهْرَة) وقد كان بعض العامّة يقصدونها من كلّ فج، ويسألونها عن علم الغيب الّذي

استأثر الله تعالى به! ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]. وهذا يصل في بعض حالاته إلى شرك الربوبية الأكبر، عياذاً بالله تعالى.

وكان عند بعضهم التّشاؤم فيقولون: لا تغزوا يوم الأحد، ونحو ذلك من أمور الجاهليّة، كما قد تفشّى عندهم التّحاكم للأعراف القبلية، وسلوم البادية، وكان بينهم قضاة طواغيت وهم ما يسمّون اليوم بالعوارف(١) والعجيب أنّهم مع تسميتهم لهؤلاء بالطّواغيت إلّا أنّ الكثير

---

(١) ومن أسباب انتشار هؤلاء الطواغيت على حساب قضاة الشريعة؛ أنّ كثيراً من منازعاتهم تكون في أمور قد نسفها الشرع من الأساس فضلاً عن إصلاح شأنها، كالحكم في منازعاتهم في المنهوبات والمسلوبات من مغازيهم على بعضهم، فالشرع يحكم ببطلان فعلهم وأن عليهم إعادة المظالم إلى أهلها لكن الطواغيت بخلاف ذلك، وفي هذا الزمان يحتج بعضهم بصعوبة إنهاء المنازعات بين الشرط والمحاكم، أو عدم انصياع الأطراف لأحكام قضاة الشرع، وليس في هذه المزاعم حجة حتى مع تسليمنا بمقدماتها، إلا أن الحل في سرعة البت في القضايا، وإعادة الهيبة للمحاكم، وليس بالرجوع لحكم الطواغيت ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ولمفتي الديار السعودية في وقته الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله رسالة قصيرة شهيرة في هذا الموضوع الخطير، ومما قاله: «وإن من الكفر الأكبر المستبين؛ تحكيم الطاغوت اللعين.....ومنه سلوم البادية وأحكامهم وعوائدهم» (رسالة تحكيم القوانين: ١) وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «الحكم بسوالف البادية كفر» (منهاج السنة النبوية: ٥/ ١٣٠). وقال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن: «الحكم بسوالف البادية كفر بعد التعريف» (الدرر =

منهم كان لا يرَضَى إلاّ بحكمهم، خاصّة إن كان الحقّ مع خصمه لأنّه يعلم أنّ طاغوته سيأخذ الرشوة.

أمّا الحجاز وتهامة ففيهما الشّرك الأكبر البواح، والاستغاثة بالموتى

= السنيّة: ١٠/ ٤٢٦) وقال الشيخ سليمان بن سحمان: «سلوم البادية الذي يسمونه (شرع الرفاقة) كفر، ومن فعله كفر، ويجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله» (الدرر السنية: ١٠/ ٥٠٢ ـ ٥١١).

وقد ذكر العبيّد قصة معبّرة في هذا الموضوع قد جرت على الشيخ ناصر بن حسين؛ قاضي الشرع في رنية وقد جرت عليه عام: (١٣٢٧) قال راوياً عن نفسه: «حينما كنت قافلاً من بيشة لرنية صادفني ركب من قحطان، فأخذوا ما معي أنا وأصحابي وسلبوا ثيابنا فلما حانت صلاة العصر قالوا: تقدم فصل بنا، وكانوا قد أبقوا على ثوب لا يسترني، فقلت: ردوا علي ثوبي وأصلي بكم، فردوه علي، فصليت بهم قصراً وجمعاً، فلما قضيت صلاتي يممت وجهي إليهم كالعادة، فقالوا: ذكّرنا! فقلت: أوّل ما أحدثكم به: ردوا علي حلالي. فقالوا: إن الله قد كتبه لنا يا شيخ!(*) ولو لم يكتبه لنا لصرفك جهة أخرى غير جهتنا! فقلت: إن كنتم تأخذون حلال المسلم بغير حق فلا تصلّون!(**) فقالوا: تريدنا أن نعاديك ونعادي ربنا؟! ولكن سوف نأخذ حلالك ونصلي لربنا!» (النجم اللامع:٢٧٩).

(*) كيف تسلّل المذهب الجبري المضل لهؤلاء الأعراب اللصوص؟! لكنه الهوى، كما قال بعض السلف لأحدهم: أأنت عند الطاعة قدري! وعند المعصية جبري! أي مذهب هويته ركبته!

(**) لم يقصد نهيهم عن الصلاة لأنهم لو لم يصلوا لكفروا ــ وهذا ما فطنوا له ــ ولكن قصد محاجتهم أن الصلاة تنهى صاحبها عن المنكر، وقد حاصوا عن هذا الإلجاء وحادوا عنه.

وطلب المدد والشّفاعة منهم. وإن كان ليس بعام فيهم، لكنه ظاهر[1].

فقد كان في (تَبَالة) عند (بيشة) وثنٌ يُعبد ويُستغاثُ به من دون الله،

---

(١) ثَمَّ مطلبان في ذكر الشركيات التي كانت في الحجاز:

الأول: لا يوجد مؤمن بالله واليوم الآخر يفرح بوقوع أدنى معصية لله تعالى، فكيف يفرح بمحاربته بأعظم ذنب ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢] فليس في ذكر وقوعه في بلد أو بقعة شماتة أو إزراء بأحد، بل هو محض النصح وصدق المحبة إذا كان القصد سليماً ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨- ٨٩] كذلك في ذكر البدع التي هي عين المشاقّة والمحادة والاتهام والتنقص لمقام النبوة والرسالة! وذكر ذلك إنما هو حفظ للتاريخ، وتحذير للأجيال الحاضرة واللاحقة أن لا يركنوا إلى الأمن من الشرك مهما دق في عين من لم يقدر الله قدره، وأن لا يتساهلوا في ذرائعه، وأن لا يتراخوا في حربه في نفوسهم ومجتمعهم، فالناصح حقاً من دعا إلى التوحيد والسنة، مهما ناله في طريقه من ابتلاءات وعقبات:

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ... ونكّب عن ذكر العواقب جانبا

فلا أمان للمؤمن من تقلب القلب والحال إلا بخروج روحه وربه عنه راض.

الثاني: أن العصر المذكور هو العصر الذي عاشه الإخوان، وليس ما قبله، كي لا يُشغب علينا بلازم ذكر نجد! فشركيات نجد المشهورة وأوثانها وأشجارها وأحجارها المعبودة، كانت قبل عهد الإخوان بمئة وخمسين سنة! وويل للشجيّ من الخليّ!

وهو (ذو الخَلَصَةِ) ــ والذي كان يسميه بعضهم بالكعبة اليمانية ــ الّذي قال فيه النبيّ ﷺ بعدما هدمه جرير البجلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأحرقه: «**لن تقوم السّاعة، حتّى تصطكّ أَلَيَات نساء دوس حول ذي الخلصة**»[1] وذو الخلصة هو طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية، والذي قد هُدِمَ المرّة الثّانية، في عهد الدّولة السعودية الأولى بعد أن اجتالت الشياطين بني آدم، ثمّ بُني وعبد من دون الله تعالى مَرّةً ثالثةً، حتّى هدمه الإخوان الهدمة الثّالثة، لمّا فتحوا تلك المناطق، بأمر الملك عبد العزيز آل سعود، الذي كان لا يفتح بلدة إلّا بدأ بتطهيرها من مظاهر الشّرك بالحديد والسّيف، وبواطنها بالتّعليم والدّعوة والنّصح.

وفي الطّائف، كان كثير من النّاس يستغيثون بابن عبّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وقد وضعوا على قبره قبّةً عظيمةً، وبناءً مثل النّجْرِ، له ساق ضخمة. وحينما تضجّر أحد الموحدين من هذا الشرك وأنكره عند أحد علماء السّوء في الطّائف وقال: إنّ النّاس في الطّائف لا يكادون يدعون الله إنما يدعون ابن عبّاس! فقال ذلك العالم الفاجر: يكفيهم ابن عبّاس إذا دعوه فإنه سيشفع لهم عند الله! وما علِم ــ قاتله الله ــ أنّ هذا عين دين أبي جهل وأبي لهب وإرثهم الشيطاني: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر: ٣].

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وفي مكّة ـ شرفها الله وحرسها ـ صيّر الجهّالُ قبوراً كثيرة أوثاناً تُعبد من دون الله تعالى.

قال الشّيخ صالح الفريج(١) ـ حفظه الله تعالى ـ: حدثني محمد بن عيفان(٢) رحمه الله قال: كان في المعلاة في ربع الحجون، قبّةٌ ضخمةٌ فوق قبر أمّنا خديجة رضي الله عنها، ويفعلون عنده العظائم، من الشّرك الذي تكاد السّماوات يتفطّرن منه وتنشقّ الأرض وتخرّ الجبال هدّاً، فيأتي بعض النّاس إلى القبر ويهتفون بألسنة ذلقة: كُلُّ يومٍ لك يا الله، إلّا اليوم يومك يا خديجة! عياذاً بالله تعالى. ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، وقد هدم تلك القبّة منصور بن غالب الشريف، وناصر الحارث الشريف حينما دخل الإخوان مكة. ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]، وفي مسلم: «**ولا قبراً مشرفاً إلا سويته**».

قال الشّيخ محمّد بن عثمان الشّاوي ــ وهو من قضاة الإخوان وممّن دخلوا معهم مكة المكرمة سنة (١٣٤٣) ــ قال في كتابه (القول الأسدّ): «وبعد أن فرغنا من أعمال العمرة، وبادرنا إلى هدم القباب، وجدنا على

(١) قاضي الدفينة المتقاعد وله ترجمة بقلم تلميذه ندا العضياني.

(٢) رئيس هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهالي شقراء، وهو من كبار السن الذين أدركوا حكم الشريف، وعاش في مكة بضع سنين.

قبر أم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الفظائع، من ذلك أنّا وجدنا رقاعاً قد كُتب فيها: يا خديجة يا أمّ المؤمنين جئناك زائرين، وعلى بابك واقفين، فلا تردينا خائبين! فاشفعي لنا إلى محمد، يشفع لنا إلى جبريل، ويشفع لنا جبريل عند الله! ووجدنا عندها كبشاً، قد جاء به صاحبه ليقرّبه إليها..... ووجدنا عند باب القبّة عجوزاً شوهاء من سدنتها، وقد حدّثني غير واحد أنّهم سألوها: مالك؟ فقالت: هي خادمة لسيدتها المتصرفة في الكون! منذ سنين، وهي لا تصوم ولا تصلّي ويتمسّح بها الزوّار تبرّكاً وتعظيماً. وعند القبّة من الشّمع والسّرج والآلات ما لا يحصى، وعندها من أنواع الطّيب مالم نجد مثله عند البيت الحرام، والحجر الأسود، وأمثال هذا كثير معلوم، فلهذا استعنّا بالله على إزالة تلك القباب..... أمّا ما هناك من الأبنية والقباب ونحوها فشيء لا يعدّه عادّ.....».

وَاعْلَمْ بِأَنَّ الدِّينَ تَوْحِيدُ رَبِّنَا فَوَحِّدْ وَكُنْ دَوْمَاً حَنِيْفاً وَدَاعِيَا

و(جِدّة) ليست بمعزل عن هذا الشرك، ففيها على سبيل المثال، القبر المزعوم لأمّنا حواء رحمها الله تعالى ورضي عنها، بالمقبرة القديمة، يعبدونه من دون الله، ويطلبون منه المدد والشفاعة! ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

وهذا زمان الصبر من لك بالتي كقبض على جمر فتجو من البلاء
ولو أن عيناً ساعدت لتوكفت سحائبها بالدمع ديماً وهطّلاً

ولكنها عن قسوة القلب قحطها فيا ضيعة الأعمار راحت سبهللاً

أمّا معقل التّوحيد والإسلام، ومأرز السنّة والإيمان، مدينة النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، فيكفيك أن تشاهد الصّور القديمة، الّتي كان عليها حال مقبرة البقيع، قبل دخول الإخوان لترى القباب العالية، والقبور التي تضاهي الكعبة في التعظيمِ والسّتورِ والسّدنةِ والطوافِ.

وأمّا الحجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصّلاة والسّلام، فحدّث ولا حرج عن هدم الدين، وإماتة التّوحيد، وإطفاء الإيمان، وإحراق الملّة عندها من كثير من العامّة والخاصّة، ولمّا فتح الموحدون خزانة الحجرة النبوية، وجدوا فيها كثيراً من الخرق والاستغاثات المكتوبة، ومنها خرقة قد كتبها أحد سلاطين بني عثمان، وهو السّلطان سليم، مضمونها: يا رسول الله أنصر عبادك! تعالى الله المجيد عن كلّ تنديد من مشرك ضالّ عنيد.

وَالدِّينُ رَأسُ المَالِ فَاسْتَمْسِكْ بِهِ فَضَيَاعُهُ مِنْ أَعْظَمِ الخُسْرَانِ

ففي رسالة من الإمام سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود ـ جد ملوك السعودية حالياً ـ إلى سليمان باشا: «...وقد رأينا لمّا فتحنا الحجرة الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام عام اثنين وعشرين، رسالة لسلطانكم سليم أرسلها ابن عمه إلى رسول الله ﷺ يستغيث به ويدعوه...وأولها: من عبيدك السلطان سليم، وبعد: يارسول الله! قد نالنا الضر، ونزل بنا المكروه، مالا نقدر على دفعه، واستولى عباد الصلبان

على عباد الرحمن، نسألك النصر عليهم والعون عليهم وأن تكسرهم عنا.....وإن كان هذا حال خاصتكم فما الظن بفعل عامتكم، وقد رأينا من جنس كلام سلطانكم كتباً كثيرة في الحجرة للعامة والخاصة، فيها من سؤال الحاجات وتفريج الكربات ما لا نقدر على ضبطه.... ـ ثم بيّن له التوحيد والشرك وختم رسالته بقوله: ـ فإن فعلتم ذلك فأنتم إخواننا لكم ما لنا وعليكم ما علينا، ويحرم علينا دماؤكم وأموالكم، وأما إن دمتم على حالكم هذه ولم تتوبوا من الشرك الذي أنتم عليه، وتلتزموا دين الله الذي بعث به رسوله ﷺ، وتتركوا الشرك والبدع والمحدثات لم نزل نقاتلكم حتى تراجعوا دين الله القويم، وتسلكوا صراطه المستقيم، كما أمرنا الله بذلك حيث قال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥][1].

أمّا الحكم بالشّريعة في الحجاز، فقد كان من الضّعف بمكان، فيُقال: كان لشريف مكّة قانون ظالم، قد وضعه جدّهُ محمّد أبا نُمَي، الّذي تولّى مكّة سنة: (٩٣٢ هـ) ووضع هذا القانون الّذي يحكم تعامل غير الأشراف مع الأشراف، حتّى صار دُستوراً ملزماً كأنه (ياسق) جنكيز

(١) الدرر السنية: (١/ ٣٠٤ ـ ٣١٣).

خان في أمة المغول، ومما جاء فيه من قوانين: أنّ الشّريف لا يُقتل بغيره، وأنّ غير الشّريف لو قتل الشّريف فإنّه يُقتل من طرفه أربعة رجال! إلى مظالم عظيمة في الأموال، وأكلها بغير حقّ، ونهبها من النّاس، في محادّةٍ للقرآن العظيم. قال حسين محمد نصيف: «لا يوجد على ظهر الأرض قانون أظلم ولا أقسى من هذا القانون». إلى غير ذلك من أمور جاهلية، وغُرْبَةٍ للإسلام والسّنّةِ والشّريعة، والله المستعان. ويرى بعض الباحثين عدم صحة نسبة ذلك القانون لذلك الرجل، بل إنه لا يوجد قانون بذلك أصلاً، وأن صاحب كتاب ماضي الحجاز وحاضره لم يقدم براهين ولا وثائق على تلك التهمة التي استقاها شفاهاً من أهل الحجاز، والله أعلم، وعلى كلٍّ فلذلك الرجل ـ أبا نميّ ـ مقامات تذكر فتشكر؛ كحفظ الأمن في مكة المشرفة، وكمقامه العظيم في جهاد النصارى البرتغاليين مع أهل الحجاز وبخاصة أهل جدة حتى ردوهم عن حريم البقاع الطاهرة.

وتأمّل قصيدة جادت بها قريحة أمير الشعراء أحمد شوقي[1] يستصرخ السلطان عبد الحميد الثّاني ــ وقد قيلت في وقت الشريف عون الرفيق ــ لترى حال أهل الحرم والحجاج والعمّار مع الشريف!:

ضجّ الحجاز، وضجّ البيت والحرم		واستصرخت ربها في مكة الأمم
لك الربوع التي ريع الحجيج بها		أَلِلشّريفِ عليها أولك العلمُ؟

(١) نشرت بجريدة اللواء في العدد (١٣٨٣) الصادرة في يوم الخميس (٢٨) المحرم سنة (١٣٢٢هـ).

أهين فيها ضيوف الله، واضطهدوا — إن أنــت لم تنــتقم فــالله منــتقمُ
أفي الـضحى وعيـون الجنـد ناظـرة — تسبى النساء ويؤذى الأهل والحشم؟
ويـسفك الـدم في أرض مقدسـة — وتـستباح بهـا الأعـراض والحـرم
يد الشريف على أيدي الولاة علت — ونعلـه دون ركـن البيـت تـستلم
رب الجزيـرة، أدركهـا فقـد عبثـت — بهـا الـذئاب، وضـل الراعـي الغنمُ
إن الــذين تولــوا أمرهــا ظلمــوا — والظلـم تـصحبه الأهـوال والظلـمُ
فجـرّد الـسيف في يـوم يفيـد بـه — فــإن للــسيف يومــاً ثــم ينــصرم

لقد كان شريف مكة حسين بن علي (ت: ١٣٥٠) محارباً للدّعوة الإصلاحيّة، معادياً للعقيدة السّلفيّة ــ وربما كان هذا العداء صادراً عن سياسة أكثر منه عقيدة وقناعة ـ مُتَّهِماً أتباعها باتّهاماتٍ وأوصافٍ لا تليق، كافترائه بقوله: أتباع مسيلمة! ونحو ذلك مما فاه به وكتبه، وَكَفَاكَ مِنْ شَرٍّ سَمَاعُهُ، ولم يكتف بالقول بل بالفعل، فحارب دعاتها والمنتمين إليها، ولو كانوا من كبار العلماء، والرسول ﷺ يقول: فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: «**من عادا لي وليّاً فقد آذنته بالحرب**»(١) كما فعل بالشّيخ المصلح أبي بكر بن محمد عارف خوقير رحمه الله، حيث آذاه، ومنعه من التدريس ﴿**وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**﴾ [البروج: ٨]، ثمّ سجنه في سجن انفرادي بتهمة الوهّابيّة، وَتِلْكَ شِكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عَارُهَا، وبقي في سجنه حتّى أطلقه الإخوان لـمّا دخلوا مكة حرسها الله. ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ**

---

(١) رواه البخاري.

عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ [الحج: ٣٨]. وكان قد رأى ليلة دخول الإخوان رؤيا فقصها على أصحابه في السجن، وعبرها بأنه سيطلق غداً من حبسه وسجنه؛ فصدقت رؤياه وصدق تعبيره رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١).

وللإنصاف، فليست هذه المظاهر عند الجميع، سواء في الحجاز أم في نجد، لكنّها كانت متفشيّة ظاهرة، ومُنكِرُها ضعيف ذليل، وما ذاك إلّا لكسوف شمس الرّسالة الحقّة، ولخفوت نور التّوحيد المحض، ولتضيّف

(١) يروى عن أحد السجناء الذين كانوا مع الشيخ خوقير، قال: كنا في السجن ولا ندري ما وراء الأسوار من الأخبار! وكان الشيخ هو الذي يؤمنا في الصلاة ــ قلت: لعله كان يجتمع بهم وقت الصلاة، أو أن الأمر على ظاهره وليس سجناً إفراديّاً ــ وذات يوم لما صلى بنا الفجر، والتفت إلينا بوجهه؛ فإذا هو يبتسم، ثم قال: أبشروا بالفرج! فإني رأيت البارحة في المنام: أن رجالاً جاؤا وأخرجونا من السجن فسألت عنهم فقيل لي: هؤلاء من أصحاب محمد ﷺ! قال الراوي: فما ارتفع الضحى إلاّ والخيل مقبلة على السجن، وينادي فرسانها: أين الشيخ خوقير؟ أين الشيخ خوقير؟ ففتح لنا السجن وخرجنا مستبشرين.
هذا وقد ذكر الشيخ محمد رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ قصة سجن هذا الشيخ وابنه، ثم قال: «وأما الابن فمات في السجن رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأما الشيخ فلم يطلقه إلا جيش الملك عبد العزيز الفاتح».
ثم قال معلّقاً على قضية سجن هذا الشيخ الجليل: وهل يُرجى من حكومة سجنت عالماً من علماء المسلمين السلفيين، لا ذنب له إلاّ أنه ألّف كتاباً في التوحيد! هل يرجى من حكومة هذا فعلها خيراً؟!
قال راجي الراعي: «التاريخ فضّاح إذا كان المؤرخ صادقاً».

شمس الملّة للغروب، لغُربة ذلك الزمان. مصداقاً للحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء**».

«ثم أذن الله بإشراق شمس الإخوان»

قال الدّكتور عبد الله الصّالح العثيمين: «إن بداية ظهور الإخوان، أنّ جماعة من حرب، قدمت إلى حَرْمة، ومن أعيانهم سعد بن مثيب، ومعهم أفراد من قبيلة مطير، للاستقرار، وللتفقه في الدين، وذلك عام (١٣٣٠) ـ قلت: ويذكر أن المهاجرين الأوائل الذين أسّسوا البلدة قد قدموا من بلدة حرمة (٧٠كيلاً) إلى الجنوب من الأرطاوية وهم حوالي عشرين بيتاً ومعهم عبد المحسن بن عبد الله العبد الكريم من آل معمر من العناقر من بني تميم الذي اختاروه برضاهم أميراً عليهم بعد أخذ موافقة الملك عبد العزيز رحمه الله ـ ثم انتقلوا في العام نفسه للأرطاويّة، الّتي كثر نزول مطير لها، وسمّوها هجرة، إشارة إلى هجرتهم من نمط حياتهم الأوّل، إلى حياة دينيّة جديدة.

ثمّ توالى النزول في المنازل الّتي يسمّونها هجر، وكثرت، حتّى جاوزت السبعين هجرة في أنحاء الجزيزة، ومن أكبرهن هجرة الغطغط، وأصبح سكان تلك الهجر يُطلقون على أنفسهم مسمّى الإخوان، المقتبس من القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] و﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] إشارة إلى رابطة جديدة ألّفت بينهم وهي

رابطة الأخوّة الدّينيّة بدلاً عن رابطة القبيلة، وأَمَدّ الإمام عبد العزيز الهجر بالدّعاة والوعّاظ والعلماء، وأرسل الكتب، وأرسل لهم بعض المساعدات التي تعينهم على حياتهم الجديدة الجميلة» انتهى بتصرف[(١)].

وللعلاّمة الشيخ سليمان بن سحمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ تحفّظٌ على بعض المسمّيات كتسمية الإخوان والهجر[(٢)].

---

(١) تاريخ المملكة العربية السعودية (٢/١٦١).

(٢) فقد قال في فتوى له لما سُئل: هل يُطلق اسم دار الهجرة على الديار النجدية؟ أم يقيّد على ديار النازلين من الإخوان في هذا الزمان؟ أم لا؟ فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نعم يطلق اسم دار الهجرة على الديار النجديّة، ولا يقيّد ذلك بديار النازلين من الإخوان في هذا الزمان، بل من هاجر من ديار الكفر أو من البادية إلى بلد من بلدان المسلمين فهو مهاجر، ولا فرق في ذلك بين الديار التي نزلها الإخوان في هذا الزمان وبين قرى المسلمين، ولا يفرق بين ذلك إلاّ من أعمى الله بصيرة قلبه، وكان على نصيب وافر من الجهل والقول على الله بلا علم. ثم إن تسمية هذه البلدان التي نزلها الإخوان من البادية حيث سموها (الهجر) نظر، فإنّ هذا اسم حادث فإن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لمّا فتحوا الأمصار والبلدان واختطوا لهم منازل وسكنوا بها، لم يسموها بهذا الاسم، وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ هو الذي بصّر البصرة وكوّف الكوفة، فسموها بالبصرة والكوفة، وكذلك سائر القرى التي نزل بها الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ والتابعون إنّما سموها باسمها الذي سماها به أهلها.

كذلك ما أحدثوه من تسمية من سكن من الأعراب والبلدان التي اختطوا بها المنازل، حيث سموهم: (الإخوان) وجعلوا هذا الاسم خاص بهم دون الإخوان من المسلمين الحاضرة، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ =

قال ابن خميس في معجم اليمامة: «وللأرطاوية شان كبير في انتفاضة الإخوان، فهي أول هجرة أنشئت للإخوان عام (١٣٣٠). وكان يخرج منها أيام فتوحات الملك عبد العزيز ألفا مقاتل، وكان بها رأس الإخوان

= أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠] مع بغيهم على بعض، ومقاتلة بعضهم لبعض ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ...﴾ [آل عمران: ١٠٣] فسماهم الله جميعا إخوانا ولم يفرق بينهم.

وقد بلغنا أن بعض الجهّال المتعمقين من هؤلاء (الدوارين) لما سأله بعض البادية: هل يجوز أن نهاجر ونبني مساكن في (نفي) أو غيره من قرى السّرّ؟ فقال: لا يجوز أي يبنى بها، أو تكون محل هجرة، لأنها مؤسسة على الكفر. وما علم هذا المسكين الجاهل أن المدينة التي هاجر إليها رسول الله ﷺ وأصحابه كانت مؤسسة على الكفر قبل الإسلام ـ أي مبنية في حال الكفر ـ...» (الدرر: ٨ / ٤٧٤).

ويروى عن مطرف بن عبد الله الشخير رحمه الله أنه قد دُعي وهو صبي صغير إلى حلف على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاجتماع على الخير، فقال: ما كنت لأستبدل بمؤاخاة الإسلام واجتماعه شيئاً ــ أو نحو ذلك ــ فترك أصحابه ذلك الأمر، وتفرّسوا في نباهة ونبوغ ذلك الإمام رحمه الله.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: بعد ذكر النهي عن مؤاخاة في معصية الله تعالى: «...وإنما النزاع في مؤاخاة يكون مقصودهما بها التعاون على البر والتقوى بحيث تجمعهما طاعة الله، وتفرقهما معصية الله، كما يقولون: تجمعنا السنة، وتفرقنا البدعة، فهذه التي فيها النزاع؛ فأكثر العلماء لا يرونها، استغناء بالمؤاخاة الإيمانية التي عقدها الله ورسوله، فإن تلك كافية محصلة لكل خير، فينبغي أن يجتهد في تحقيق أداء واجباتها، إذ قد أوجب الله للمؤمن على المؤمن من الحقوق ما هو فوق مطلوب النفوس، ومنهم من سوغها على الوجه المشروع إذا لم تشتمل على شيء من مخالفة الشريعة» (مجموع الفتاوى: ٣٥/ ٩٦).

المفكر فيصل الدويش وأسرته، وشهدت عهداً من الانتفاضة الدينية عجباً، يصور لنا عهد الصدر الأول من المسلمين، وينقلنا إلى عالم الروحانية والزهد والنسك بشكل لا يخطر بالبال أن يكون في هذا القرن من الزمان، مساجدها تضج بالقارئين والمسبحين ليل نهار، وشيوخها يحملون ألواحاً في أعناقهم يتأملون أبجدية القراءة والكتابة، وحلق الدروس متصلة مدة النهار وأطراف الليل، وفي السحر لا يخلوا بيت من بكاء بين يدي الله وتهجد وتلاوة قرآن، ويتحرون أن يكونوا في لباسهم وسمتهم ونطقهم وأعمالهم على ما كان من عليه سلف هذه الأمة الأول، وأغلى ما يتمنى أحدهم أن يلقى ربه شهيداً في سبيله، يقتسمون زادهم، ويواسون معسرهم، ويعينون على نوائب الحق، تعج بالزوار والوافدين من مختلف هجر الإخوان، وأحاديث وأعمال قوم انقطعوا لله وتنكبوا ما سواه ظهريا».

وَلْنَنْظُرْ إلى تقريرٍ للوكيل السياسي البريطاني في البحرين، حيث قال في معرض كلامه عن الإخوان: «أمّا الصّلاة، فهي تُعطى أهميّة عظيمة عندهم،... وعند الأذان للصّلاة، فإنّك تسمع الرّجال يصيحون: قوموا أيّها الكسالى، انهضوا وصلّوا. ثمّ تُؤلّف جماعة ويعيّن إمام، وتقام الصّلاة بشكل عسكريّ منظّم. وإذا كان عدد الرجال كبيراً، كمئة رجل مثلاً، يكون المنظر مثيراً حقاً! وأنا نفسي رأيت حرس ابن سعود البالغين خمسمئة من الإخوان، يقيمون الصّلاة، وتأثّرتُ جدّاً بالدّقّة العسكريّة لحركاتهم.... أمّا السّلام، فلا يُعاد إلّا لأخٍ آخر، وهذا كان ظاهراً بوضوح

في الأحساء، وكان رفاقي من السّنّةِ المسلمين من البحرين، يسلّمون بصورة منتظمة على أي أخ يلقونه، لكنّي لم ألاحظ إلّا مرّةً واحدة، رُدَّ الجواب لهم بالسّلام، أمّا إذا لقي كافر أو مشرك جماعة من الإخوان في الشّارع، فإنهم يُغَطُّون وجوههم بكلتا يديهم، لئلاّ يتلوّثوا بالمنظر، وكلّما دخلتُ مجلساً فيه الإخوان فإنّهم يخرجون منه جميعاً»[1].

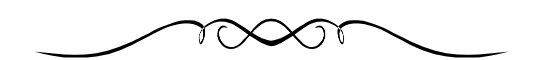
ونُقل عن علي التويم رَحِمَهُ اللَّهُ وهو ممن عمّر طويلاً وقد أدرك الإخوان واشترك معهم في كثير من الغزوات، قال: كان لي نخل في الرقبة ـ حي من أحياء الخرمة بين الهجرة وحوقان ـ وكنت أمرّ على مجلس آل زايد ــ وهم من الصوّل من بني ثور من سبيع ــ وكانوا سبعة رجال وكلهم فرسان وشجعان، وقد تأثروا بالدعوة السلفية في نجد، وكان مجلسهم يزداد يوماً بعد يوم، فالخيل مربوطة، والسيوف معلقة، والمشهد يلفت النظر، قال: فمررت بهم يوماً وسلّمت، ثم قلت: يا جماعة إن عندي كلمة هل تأذنون لي بها؟ فقالوا: يا علي هات ما عندك. قلت: أنتم تعرفون الشريف وسطوته، فهو يقتل الرجال، ويأخذ الإبل، ويحرق النخيل، فأخاف أن يبلغه شأنكم فينالكم منه شر! فقالوا: يا علي والله لنجاهدنّ حتى تكون كلمة الله هي العليا! وما علينا من رجل يقتل، أو بعير يُؤخذ، أو نخلة تحرق. قال: فلما قام الإخوان في الجهاد كان أولئك النفر في طليعتهم، وكانوا شجعان بواسل، وصار لهم شأن في رفع راية التوحيد، ووفوا

---

(١) الوثائق البريطانية (١٤٤/٥).

وعـدوا، وصـدقوا مـا عاهـدوا، رحمهـم الله تعـالى ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٣٠].

علماً بأن هجرة خالد في الخرمة ليست بأولى مهاجر الإخوان بل هي مسبوقة بمهاجر أخر كالأرطاوية والغطغط، وكان للأخيرة تأثير حيوي مباشر على الأحداث الجسام التي مر بها الإخوان في الخرمة والحجاز وتهامة، وسيأتي بسط ذلك فيما يستقبل إن شاء الله تعالى.



الفَصْلُ الثَّالِثُ

آلامُ الإِخْوَانِ السُّعُودِيِّين

المعارِكُ الأُوَل

يـا حبّـذا رنـدُ العقيـقِ وبانُـهُ ... سُـقي العقيـقُ وأهلُـهُ وزمانُـهُ
راقـت خمائلُـه ورقّ نـسيمُهُ ... وصَـفَتْ عـلى حـصبائه غدرانُـهُ
وشَـكَتْ تبـاريحُ الـصّبابة وُرْقُـهُ ... وتمايلـتْ بيـد الـصَّبَا أفنانُـهُ
يـا مُفْـرَداً في حـسنِهِ ذا مُـدْنَفٌ ... في حُزنِـه لعِبـت بـه أشـجانُهُ
صـبّاً إذا ذكَـرَ العقيـقَ وأَهْلَـهُ ... صَـبَّتْ مدامعُـهُ وجُـنّ جَنَانُـهُ

الكثير من المنصفين إذا سمع بإخوان من طاع الله ذهب وهلُهُ إلى حروبهم المشهورة مع أعدائهم سواء في الغرب أو الشرق أو الشمال أو الجنوب أو الوسط، وما عانوه وكابدوه بهمم تحلّ فوق الفرقد، في سبيل بناء دولة التوحيد التي تفيّأ الناس ظلالها سواء ممن سكنها أو ناله بعض إحسانها في العلم والمعونة والإغاثة ونحوها، لكن غاب عن أولئك آلام الإخوان في بداية أمرهم ومعاناتهم إبّان قِلّتهم في العَدد والعُدد، إذ انتهى أمر بعضهم إلى القتل أو شِبْهِهِ، ومرّ بهم الزمان حتّى استقرت سفينتهم أخيراً عبر الأمواج العاتية إلى شاطئ السكون والدعة، بعد الجلاد والجهاد، فبعضهم عَبْرَ ضمّهم لأفواج الحرس الوطني ممن قَبِلَ ذلك،

والبقيّة غيبتهم الوفاة تحت أطباق الثرى بعد أن قضوا آخر أعمارهم بين بيوتهم ومساجدهم، وهكذا طُويت صفحة عبقة من صفحات تاريخنا الإسلامي المجيد، وأخباره العاطرة الزاهرة الفيحاء.

أَعَدْنَ لي الشوق القديم ولم أكن سلوْتُ ولكن زدنَ جمراً على جمرِ

وما أَنْسَ لا أنسَ خراب الغطغط رحم الله أهلها وعفا عنهم وجزاهم عن الجهاد خيراً، وعفا عنهم في خروج بعضهم على إمامهم.

دعْ ملامي بالحمى أو رُحْ وَدَعني واقفاً أنشدُ قلباً ضاع منّي
ما سألت الدار أبغى رجعها رُبّ مسؤولٍ سواها لم يُجبني
أنا يا دارُ أخو وحش الفلا فيكِ من خان فعزمي لم يخنّي
ولئن غال مغانيك البلى قدَرُ الله، فشخصٌ منك يُغنِي
إن خَبَتْ نارٌ فهذي كبدي أو غاب الغيث فهذا لكِ جفني

ومن باب ذكر الشيء بالشيء؛ فمما زاد الأمر بلبلة وحيرة عند الإخوان المنشقين حينها؛ أن أحد العلم المعروفين في ذلك الوقت ــ وانكشف أمره آخراً وتاب من ذلك وعفا عنه الإمام ــ كان يراسلهم ويثبّتهم ويقول لهم: أنتم أهل المحجة البيضاء وعبد العزيز وأصحابه أهل المحجة السوداء!! وإذا جاءت الزلة الكبرى من العالم ضربت لها الطبول انتشاراً، وزلة العالِم زلة العالَم فهل من معتبر؟! وعلى كلٍّ فمّما خفف وطء محنة ذلك الشيخ أنّه لم يراسلهم من البداية ولم يُظهر أمره لإخوانه من أهل العلم وإلا لفلجوا حجته وهتكوا شبهته، كذلك فقد بقي في موطنه ولم

ينحز للمنشقين وهذا مما هوّن فتنته بحمد الله تعالى، ورحم الله الجميع. وسنبسط الكلام في هذه الفتنة في الفصل السابع بمشيئة الله تعالى.

ولعلي أسلّط الضوء على جزء يسير من الأحداث الأولية لمعاناة الإخوان، فهلمّ لنعرّج بذياك الوادي، مع التركيز على الخرمة لأمرين:

الأول: أنّها شرارة الثورة الإخوانية الجهادية التي ألهبت حماس المهاجر الأخرى التي لبّت نداءات استغاثتها من طغيان الشريف الذي حمل عليها أربع حملات عسكرية متتالية باءت جميعها بالفشل الذريع بحمد الله تعالى إذ قيّض له من ردّه على عقبيه خاسراً، فالخرمة مع قلّة أهلها كان أكثرهم في البداية مع الشريف، ثم ظهر بعد ذلك التميّز بين الفريقين حتى نصر الله جند التوحيد، ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥].

إذا ما الخيام البيض لاحتْ لدى مِنَىً فعـرّجْ فإنّا بعـدها بقليـلِ

الثاني: أنّ جلّ الرّواة الذين نقلت عنهم إنما رووا ما شاهدوه أو شاهده آباؤهم الذين عاشوا فيها.

إن رويتُ أحاديث الذين مضوا فعن نسيم الصَّبا والبرق إسنادي

وأما غيرها فلم يتيسر جمع كافٍ للرواية، فلعل الأحبّه ينشطون في جمع ما تناثر من ذاكرة من أدرك أو حفظ أو دوّن في كل البقاع التي طالها المدُّ الإخواني أو آثاره سلباً وإيجاباً فالعبرة بتقويم المسيرة ولن يتأتّى ذلك بدون الصدق مع النفس ودراسة الحركة ككلّ إيجاباً وسلباً مع التنبيه على

ضرورة التحلّي بالتجرد والإنصاف دون التحيّز والاعتساف فالتأريخ أمانة، ونقده أمانة، والإفادة منه أمانة، وكلّنا نستقلّ سفينة واحدة، والمشتركات بيننا أكثر بكثير مما قد نختلف فيه حتى لو كان من قبيل الاختلاف الذي لا يسوغ، فالعبرة بعموم الحال وجملته لا بهنّات هنا وهناك، كذلك الاستفادة من اختلاف وجهات النظر عبر السبر والتقسيم وتقريب الوجهات التي ربما تكون متفقة أصلاً لكن خانت العبارات أهلها، أو ضُخمت اختلافات جزئية على حساب قِيَم أصلية ومرتكزات أساسية! مع التذكير بالتوثيق قدر الطاقة، وقد ذكرت ما استطعت من ذلك في المناطق الأخرى، ولا أدّعي الاستيعاب لا هنا ولا هناك، وقد يكون ما لم يُقَلْ وينقل أكثر مما قيل ونُقِلْ، والمتشبع بما لم يُعط كلابس ثوبي زور، عائذاً بربي!

أكبر وأقدم مهاجر الإخوان هما الأرطاوية والغطغط، بيد أن الخرمة لا تقل عنهما في المكانة لا في عَدَدِها وعُددها؛ ولكن في مكانها الحيوي الذي تنازع عليه أسدان انتهى أمر أحدهما منفياً في قبرص والآخر متربعاً على دولة من البحر إلى البحر! وهلمّوا لنحاول الغوص في جذور ذلك الاختلاف الذي نشأ عنه وعن عقيدة الفريقين فيه ما هو مسطور منظور.

كانت الخرمة مكوّنة من السّوق ـ وفيه أكثر النّاس ـ وحوقان والسّلمية، وأولُ من تديّن في الخرمة، هم أهل حوقان قبل السّلميّة بسنة، ثم بدأ الخير يزداد شيئاً فشيئاً، حتّى انتشر في النّاس، وأصبح الناس فريقين، بين عامي: (١٣٣٤) و(١٣٣٥).

وظهر في ساحتهم مصطلح جديد يسمّى (الفَرْقُ) أي الافتراق بين أهل الحقّ وأهل الباطل، والقتال لإعلاء كلمة الله تعالى، لا يهابون الموت لعلمهم أنه لاقيهم ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨].

فهُـنّ المنايـا أيّ واد سـلكتُهُ عليها طريقـي أو عـلي طريقها

ويقال: إنّ أهل الخرمة[١] قد انضمّوا للملك عبد العزيز، من عام: (١٣٢٦) أي قبل أُولَى المعارك مع الشّريف بعشر سنوات، وهذا وإن لم

---

(١) الوثائق البريطانية (٥/ ١٤٤).

أمّا (الخرمة) (وهي الواقعة على خط طول: (٤١) درجة، و(٥٨) دقيقة شرقاً، وعلى دائرة عرض: (٢١) درجة، و(٥٤) دقيقة شمالاً) فقد انضمّت للدولة السعودية الأولى، حينما بايع أهلُها الإمامَ عبد العزيز بن الإمام محمد بن سعود عام (١٢١٢) ومعها (تربة) بعد معركة الخرمة العظيمة، بين جنود الإمام عبد العزيز بن محمد، بقيادة هادي بن قرملة القحطاني، وربيع بن زيد الدوسري، وبين الشريف غالب بن مساعد، الّذي كان معه جيش كثيف، من البوادي والحواضر والمصريّين والتّرك والمغاربة، وكانت موقعة عظيمة، نصر الله بها جنده، ومنحهم أكتاف أعدائهم، فبلغ عدد قتلاهم فيما ذكر حسين الغنّام في (تاريخ نجد (١/ ٢٠٦) وابن بشر في (عنوان المجد (١ /٢٠٥): ألفان وأربع مئة، وقيل ألف ومئتان وعشرون، وغنموا ما لا يُحصى من الذّهب والسّلاح والإبل، وبعدها انكسر الشريف، ثمّ صالَحَ الإمام، على أن يأذن لهم بالحجّ، وكان ذلك في عهد السّلطان العثماني سليم.

وفي ذلك قال راجح الشريف، وهو من فرسان الشريف:

جونا الدواسر مع فريق القحاطين كلنا لهم بالمد واوفوا لنا الصاع

الأشراف لانوا بعد ماهم بقاسين والشّقّ مايرفاه خمسة عشر باع

يكن دقيقاً، فلعلّها كانت مراسلات منهم لعبد العزيز، وإرسال دعاة ومشايخ وكتب لهم من قِبَلِهِ، والله أعلم.

علماً بأن الشّريف حسين، الّذي تولّى شرافة مكّة سنة: (١٣٢٦) كان يَعْتَبر أهل الخرمة من رعاياه، وإن كانت قبضته ضعيفة عليهم،كحال غيرهم ممن هو خارج مكّة والطّائف وجدّة، وكان يرى أنّ بلادهم تعدّ امتداداً طبيعيّاً لسلطانه، فالخرمة هي البّوابة الحجازيّة لنجد في نظره، وعبد العزيز يقول: إن الخرمة واقعة شرق جبل (حَضَن) النجديّ بثمانين كيلاً، والعرب يقولون: «من أحضن فقد أنجد» لكن الشّريف لم يعترف بمسألة: أنّ الحجاز فقط له دون نجد أصلاً، فجُلُّ نجد له، بل والقصيم له، على حدّ قوله، ولو أنّه تعامل بالحكمة والعدل لما انشق سقف عرشه والله أعلم، وسيأتي شيء من البسط قريباً بمشيئة الله.

أمّا أهل الخرمة، فكانوا يَعُدُّونَ أنفسهم من نجد، عقديّاً، وجغرافيّاً، وقبليّاً، ولكن خوفاً من شوكة الشّريف وبطشه، وحَدَبَاً على نخيلهم أن تقطع، فقد رضخوا وأذعنوا له كرهاً، مع أنهم تابعون له إدارياً وخاضعون لسلطته واقعياً لو أنه أحسن معاملتهم، وتركهم وشأنهم في مذهبهم العقدي لربّما سلم من بطش هناديّهم وقناهم، ولكن لما وصل الحذفُ عند المُعقّلات، ورام الشريف إكراههم على مذهبه أبت حميتهم الدينية ذلك، فأزمعوا المفاصلة!

خليليّ قد عمّ الأسى وتقاسمتْ فُنونُ البِلى عشّاق ليلى ودورَها
وكنت إذا ما جئتُ ليلى تبرقعتْ فقد رابني منها الغداة سُفُورُها

ومنع الشريف أهل نجد والوديان من الحجّ من عام: (١٣٣٢) إلى أن دخل الإخوان مكّة عام: (١٣٤٣) ومن رآه الشريف حاجّاً منهم حبسه وعذّبه، فمكثوا قرابة اثني عشر عاماً قد حُرموا حجّ بيت الله الحرام.

ولما قال خالد بن لؤيّ للشريف حسين: يا سِيْدِي نريد قاضياً يحكم بالشرع، أجابه حسين بقوله: لا يا خالد؛ بل احكموا بسلومكم وسلوم آبائكم! وكان هذا الطّلب قبل حروب الشريف على الخرمة، ولعلّه كان في السّنة الّتي استدعى فيها خالداً عنده ثمّ أرسله لعبد الله (البيه) ضدّ الترك، في الطّائف ثمّ العِيص. وقديماً قال أبو الطيّب المتنبّي:

ومن نكد الدّنيا على الحرّ أن يرى ... عدوّاً له ما من مصاحبته بُدُّ

رأى أحد الإخوان من أهل الخرمة في المنام: أنّ حماراً بال في منبر الجامع! فعُبِرَت الرؤيا: انتظروا شرّاً يأتيكم من الشريف، ولم يَرُعْهُم في الجمعة التّالية إلاّ بيانٌ من مكّة تُلِيَ في الجامع، تلاه العسّاف ــ من أهل القصيم ـ وفيه: إنّ أسواق الخرمة مثل أسواق مكة والطائف، لا يُستنكر فيها الدّخان ولا غيره. فطردوه وشتموه، بعدما قال لهم شيخهم القاضي إبراهيم بن حسين: أطيعوني وتوكّلوا على الله، وأبشروا بنصره. ثمّ طَرَدَ خالدُ بن لؤي القاضيَ الجديد، الّذي قدم من الحجاز بديلاً عن ابن حسين ولكن هيهات.

من يتق الله يُحمد في عواقبه ... ويكفه شرّ من عزّوا ومن هانوا

وكان في الخرمة في ذلك الزمان طاغوت يحكم بغير ما أنزل الله!

وكان له حظوة عند النّاس، أمّا من أراد الشرع، فلا يجده إلّا في رنية، عند ابن حسين أو جبر. ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

أمّا رنية؛ فحالها كحال أختها الخرمة فقد كان فيها طاغوت يحكم بغير ما أنزل الله، ويتحاكم الناس إليه! فيحكم بينهم بسلومهم وأعرافهم ورأيه، ويتركون من يقضي بالشّريعة كالشيخ دحيّم[١] بن ناصر بن حسين، وهو معدود من العلماء ، وهو من تلاميذ العلّامة المحدّث سعد بن حمد بن عتيق الذي كان خالاً له ، وكجبر السبيعي[٢] وكان طالب علم.

---

(١) دحيّم ترخيم عبد الرحمن، وكذلك عزيّز عن عبد العزيز وكريّم عن عبد الكريم، ونحو ذلك مما يستخدمه أهل نجد وغيرهم، وفي جوازها خلاف، والأولى ترك ذلك تعظيماً للأسماء الحسنى.

(٢) يقال إنه من الفضول، والله أعلم. ومما يدلّ على فقهه حكمه الشهير بين بطني سبيع رنية الكبيرين: الزكور وبريهة، فقد ثارت بينهم حرب طحون وذلك عام: (١٣٢٩) على سبب أوهى من بيت العنكبوت، ولكنه الشيطان! وقد روى القصة المؤرخ العبيّد الذي كان مشاهداً لها، قال: ودامت الحرب بينهم عشرين يوماً، وكلّها غارات بالنهار وبيات بالليل، فما هدأ الحال إلا وقد قُتل من الفئتين أربعة وستون نفساً! فيهم أربع نسوة قتلن في البيات! ثم إن الشريف حسين انتدب لهم غالب بن لؤي ـ أمير الخرمة ـ فأمره أن يكف بعضهم عن بعض، فهدّدهم بجنود الشريف إذا لم يقبلوا الصلح، فأذعنوا وكأنهم فرحوا بالصلح بعد أن عضتهم الحرب بنابها، وذاقو ويلاتها، ففرحوا بالخلاص منها، فأمر قاضي رنية ـ كذا ــ جبر بن إبراهيم أن =

ثمّ جاء للخرمة، الشّيخ إبراهيم بن ناصر بن حسين، ولعلّ الشّيخ إبراهيم هذا قد نصبه الشريف قاضياً لأهل الخرمة، بالمذهب الحنبلي، ولمّا بدأ بدعوة الناس للسّلفية الحقّة؛ أنكر عليه الشريف، واستدعاه وسجنه، حتّى أطلقه بشفاعة خالد بن لؤي، لمّا كان بمكة عند الشريف، وقد عادا في سنة واحدة للخرمة[1] وتعاونا على نصرة التّوحيد. وهو أخٌ للشيخ دحيّم شيخ رنية، وهو عالم من العلماء، وفارس من الفرسان، وقد أجازه

= يحكم الصلح، فنظر فإذا القتلى (٦٤) فإحدى القبائل كان منها (٣٣) والأخرى (٣١) ـ ولا نعلم عن النساء ـ فحكم إبراهيم بقوله: واحد وثلاثون من هذه القبيلة يقابلهم عددهم من القبيلة الأخرى، وتكون الزيادة عند القبيلة الأولى رجلين تَدِيها ـــ أي تدفع ديتها ـــ والدية مُشاعة عليهم كلًّا بما يستحق، وبعد جمع الدية تدفع للقبيلة الأخرى التي تطلب الزيادة من أختها فتقسم على قتلاهم جميعاً بالسويّة. أما الخيل والإبل التي قتلت بين الطرفين فتلغى. فقبلت القبيلتين الشقيقتين هذا الحكم وحسم النزاع، وتعاهدوا على التعاون على البر والتقوى، ونبذ الإثم والعدوان. (النجم اللامع: ٣٥٣).

(١) قال العبيّد: «أتاني خالد ذات يوم ونحن في مكة وهو خارج من قصر الشريف حسين، وكان متغير الوجه متكدراً، ينهت ويزفر، فقلت: ما بك؟ فقال: بي شق الجيب! ولا تسألني! فألحفت عليه بالسؤال، وكان يثق بي لصحبتي له سنيناً، فقال: قلت للشريف: أنت عزلت قاضينا عنّا ـــ أي إبراهيم بن ناصر بن حسين ـــ فنسترحم من عدلك أن تعّين لنا قاضياً يقوم مقامه. فرد علي قائلاً: (ما لكم في القاضي لزوم) أي ليس لكم في القاضي من حاجة! ارجعوا لسلوم أجدادكم الأُوَل! فهو يريدنا أن نحكم بالطاغوت بدلاً من الشريعة المحمدية!» (النجم اللامع: ١٧٦).

خاله العلّامة الشّيخ سعد بن عتيق.

أمّا الصّلاة، فكان كثير من الناس يصلّونها بدون محافظة عليها، وربما تركها بعضهم أحياناً، ولم يكن بينهم من ينكر المنكرات إلّا أقل القليل.

ومن أمورهم الشّنيعة كذلك، استحلالهم قتل بعضهم بعضاً، ونهب المال والبهائم، وكانوا يعدّون ذلك فتوّة وشجاعة، ففخرهم: قتلنا وسلبنا! ولو كان الثّمن إثكالَ الأراملِ، وإيتامَ الصّبية، وإفقارَ الكرام. ولمّا قال أحدهم متأفّفاً من هذه الحال من السّلب والنّهب، فقال: الّلهم ولِّ علينا والياً مصلحاً. ردّ عليه رجل كان معدوداً من أعقلهم: يا دافع البلاء، الّلهم لا تولّ علينا لا والياً مصلحاً، ولا غير مصلح! وقديماً قيل: سلطان غشوم خير من فتنة تدوم.

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا صلاح إذا جهالهم سادوا

وحتّى نرى حجم المأساة، فلنطلّ إطلالة سريعة على حياة النّاس الاجتماعيّة، وجاهليّتهم في ذلك الوقت، فالنّاس الآن يتناقلون قصّة داحس والغبراء، الّتي أشعلت حروب عَبْسٍ وَذُبْيَان، والّتي قامت واشتعل أوارها على حصان! كذلك قصّة حرب (البسوس) الّتي قامت على ناقة قتلها كليب! فنقول: إنّ هاهنا قصّةً مشابهة لتينك القصّتين، تشهد على بعض العرب في ذلك الزّمان بالجاهليّة العميّة، والعصبيّة المقيتة، الّتي قضت على مواردهم البشريّة، والماليّة، والاجتماعيّة، وهذه القصّة هي قصّة الحروب الهوجاء، والغارات المسعورة، بلهب الانتقام، بين الجيران

والإخوان، تلك هي الحرب الكئيبة الحزينة بين قبيلتين، من أعرق قبائل الجزيرة، وهما البقوم وسبيع، ذلك أنّ تينك القبيلتين كانتا على وئام، وحسن جوار، وأمن أمان، وكانت مساكن ومرابع قبيلة البقوم الأزديّة القحطانيّة، على علوّ الوادي الضّخم، الّذي يسمّى من تلك الجهة وادي البقوم، أمّا على أسفله فقد كانت قبيلة سبيع العامريّة العدنانيّة، والّتي سُمِّيَ ما يليها من الوادي بوادي سبيع ، ومرّ الزمان وهم في أمن ودعة، وقرة عين، وحسن حال، وهدوء بال، حتّى سُرقت تلك النّاقة!

ثارت الحروب الدمويّة بين سبيع والبقوم، والّتي سمّاها الإخوان من الطّرفين فيما بعد: بـ(حرابات الجاهليّة) وبداية المأساة: أنّ ناقة سرقت أو ضاعت لرجل، ثم رآها عند آخر فجلب معه بعض قومه وحلفائه إلى من عندهم تلك الناقة، وتوارد القوم إلى تلك (البهيمة!) وأرادوا ردّها بالحسنى، فردّ عليهم الآخرون بالرّفض، ثمّ حضر الشّيطان، وركز رايته بينهم، وعقد لواءه فوقهم، فرقص الشيطان على عزف الرّصاص المزمجر، وانتشى مع قرع السّيوف الغاضبة، فقُتِلَ رجلٌ، ثمّ تفرّق القوم بعد أن رقص الشّيطان فرحاً، وابتهج طرباً بتحقيق أمنيته في الأزل: «ولكن في التّحريش بينهم»[1] وفتح باب القتل على النّاس، الّذي استمرّ سنيناً قبل أن يعودوا لرشدهم مع التديّن، بعد أن عضّتهم الحرب بنابها، ورويت من دمائهم المنون، وكانت الحروب بين القبيلتين العريقتين المتكافئتين سجالاً، فالجميع بلغ من الإقدام والشّجاعة والفروسيّة المكان الأرفع.

(١) رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ولكنّها كانت حروباً دمويّةً جاهليّةً بغيضةً، والغانم الوحيد منها هو الشيطان الرجيم، فقد سَحَقَتْ بِثِفَالِهَا إخوةً وجيراناً، وحلفاءً وأقراناً، وأحبةً وأصهاراً. وَيتّمَت وَرَمَّلَت، وَقَطَّعَت وَأَفقَرَت، وَغَيَّبَت وَعَيَّبَت المئات، والمشتكى إلى الله ربّ البريّات، وفاطر الأرض والسّماوات! وليس من المستحسن ذكر تفاصيلها، بل لعلّ إماتة أخبارها أولى وأحتم، حتّى تُنسى الإحن، وتندرس الأحقاد، الّتي ربّما تثار بسبب تلك الأخبار أو الأشعار، وكم من فتنة أشعلها بيت شعر! والعَضْهُ نَفّاخة فتن!

ولمّا تديّن الطّرفان، وصاروا بنعمة الله إخواناً، أماتوا تلك الحزازات، ودفنوا بالإيمان تيك الثارات، وجمعهم الله تعالى على الهدى والخير والجهاد في سبيله[1] وعادوا كما كانوا عينين في رأس، ويدَين في جسد ، وقديماً قال ابن أبي سُلمى زهير:

(١) لقي أحدهم أخاه ـ أخوّة الدين ـ وسلم عليه، وكان فيه عَرَجٌ من رمية صاحبه له في جاهليتهم، وكان فيما مضى يطلبه ليأخذ بثأره، فلما تديّنا زال ذلك بينهما، ثم إنه نظر إلى قدمه ثم إلى وجه صاحبه ــ عدو الأمس أخُ اليوم ــ ثم قال: لو لقيتك قبل هذا اليوم لكان لي ولك شأن! ولكن عفا الله عما سلف! ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٣]، ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣] الله أكبر! إنه الدين الذي يسلّ سخائم الصدور، ووحر النفوس، ويصحّح المفاهيم، ويعدّل الموازين، ويضع لكل شيء قدره، ويبيع معتنقه الدنيا بالآخرة. قال سلمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

أبي الإسلام لا أب لي سواه ... إذا افتخروا بقيس أو تميم

وَمَا الحَرْبُ إلاّ مَا عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمُ ... وَمَا هُوَ عَنها بالحَديثِ المُرَجَّمِ
مَتَى تَبعَثُوهَا تَبعَثُوهَا ذَمِيمَةً ... وَتَضْرَ إذا ضَرّيتُمُوها فتَضْرَمِ

وكان الإخوان رحمهم الله تعالى ينكرون على من ينشد تلك الأشعار الجاهليّة ، حتّى نُسي أكثرُها بحمد الله. ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] فلله الحمد أولاً وآخراً على نعمة الإسّلام والإيمان.

وَنَحْنُ بَنُوا الإِسْلَامِ وَاللهُ وَاحِدٌ ... وَأَولى عِبَادَ اللهِ بِاللهِ مَنْ شَكَر

لقد كان في الرّياض حِراكاً إيمانياً، وَزَخَماً عَقَدِيّاً، وكثافة تعليميّة، غيّرت مجرى التّاريخ وصححت اتجاهه بإذن الله تعالى، ومن ثمّ فقد نسخ الملك عبد العزيز آل سعود مجموعة التّوحيد النّجديّة، وبثّها في النّاس، فلامست فطرتهم، وبعث معها هُداةً من طلبة العلم، يَرُدُّونَ الناس للتّوحيد والسّنة والجهاد في سبيل الله. فافترق النّاس إلى فسطاطين وفريقين، ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥] إنّه تجريد التوحيد، الحقيق بأن تثنى عليه الخناصر، ويقبض فيه على الجمر، وتبذل فيه المهج، وترخص له الأرواح، فهو المطلب الأعلى، والأمر الأتمّ. ولم تكن الخرمة بمعزل عن دعاة الخير والهدى، فقد كان أمير الإخوان فيها هو خالد بن لؤيّ الشريف، وخالد كان من قوّاد الشريف حسين، وخالد ومِنْ قَبْلِهِ أجدادُه يُعتبَرون من أتباع وأنصار الدّعوة السّلفيّة(١) ومعروف هذا عنهم

(١) في رسالة الأمير خالد للملك عبد العزيز: «.... تدري يابو تركي بما قمنا به قديماً من =

في مكّة وغيرها منذ عهد الدولة السعودية الأولى، وكان منذ صغره ذا رأي سديد، وفكر ثاقب، ونظرٍ موفّقٍ، وبصيرة حيّةٍ، وكان يحبّ البادية، وإذا أراد أهله الرحيل من مكان لآخر استشاروه ولم يخالفوه، وحتى بعد توليه الإمارة كان الناس يتعجبون من قوة رأيه وعمق حكمته.

الـرَّأْيُ قَبْـلَ شَـجَاعَةِ الـشُّجْعَانِ هُـوَ أَوَّلٌ وَهـيَ فِي المَكَـانِ الثّـاني

ولسلفيّتِهِ وتديُّنِهِ فلم يكن يَسْلَمُ من لمز القوّاد الآخرين لمّا كان مع عبد الله الملقب بـ(البيه) أو أبناء عمومته كشاكر بن زيد بن فواز.

أمّا اتّصالُهُ شخصيّاً بالملك عبد العزيز، فإن ذلك كان بعد حادثة أسر الأخ الأصغر لعبد العزيز سعد بن عبد الرّحمن، وكان عمر سعد إذ ذاك سبعة عشر ربيعاً لمّا أَسَرَتْهُ خيّالة الملك حسين في نجد، وهم ذوي خليفة من الشّيابين، فغضب الملك عبد العزيز، وكادت تثور الحرب لولا عناية الله تعالى، ثمّ حنكة خالد وتدخّله ومشورته للحسين حين قال: هؤلاء عقبان نجد ولا سلامة منهم أرسلني إليه بأخيه واشترط عليه ما أردت.

= نصرة أجدادك، مع أن ديننا دينكم، وسمعتنا سمعتكم....» (لسراة الليل هتف الصباح للتويجري: ١٢٨).

ومن رسالة الملك عبد العزيز لخالد لما أرسل له معتذراً عن كون العرافة في الخرمة بأمر الشريف ــ والعرايف هم خصماء عبد العزيز في ذلك الوقت ــ وفيها: «....فأنتم كونوا مطمئنين أنكم يا آل لؤي ما نحسبكم إلا من حساب آل مقرن، ونعتقد فيكم الثقة....» (النجم اللامع للعبيّد: ٨٧).

واختلفت الرّوايات في شرط الحسين، فمنهم من يقول: إنّه اشترط إعلان ولائه للباب العالي، وهي الدّولة العثمانية مع دفع مبلغ سنويّ لها. ومنهم من قال بل اشترط ترسيم الحدود، وحدّ لعبد العزيز حدود نجد، وهذا بعيد لأنّ هذا هو عينُ ما كان يريده عبد العزيز ويأنف منه الشّريف والله أعلم. كذلك ممّا حدا بالشريف على الموافقة ضغط أحد قوّاده عليه، فقد أرسل له الإمام رسالةً مروِّعةً مزلزلةً كما نقلها المؤرخ العبيّد، وفيها بعد السّلام: «أمّا بعد: فبخصوص هذه الحيّة الّتي جلبتموها يا عتيبة وألقيتموها بحجري، وفعل بنجد ما فعل، وحبس أخي سعداً عنده ولم يطلبه بشيء، فوالله الذي رفع السّماء بلا عمد، وبسط الأرضين على ماء جمد، إن لم يطلق أخي سعداً، لأقطعن رأسك ولأجعلن لحيتك تذروها الهبوب مع طين نفي! والأمر كلّه من رأسك! إن شئت أن تسهّلها تسهلت، وإن شئت أن تعسّرها تعسّرت. ثمّ ختم الكتاب بقوله: سور العوجا وأنا ابن مقرن».

إن المنون وإن تقارب وردها ليست بأبأس من قدوم فراق

فلمّا قُرِئ الكتاب على ذلك الأمير قال:ما أظفر هذا الحضري![1] ثمّ كلّم فيه الشريف، وتظافر هذا مع مشورة خالد الآنفة فوافق.

الحاصل أنّ الشّريف أرسل وفداً من عنده مكوّناً من ثلاثة رجال يهابهم كلّ من رآهم إجلالا لهم، فقد كانوا طوالاً، حَسَنِيِّ الملامح،

(١) نص عبارته: (إهب احضري ما اظفرك!)

واضحيّ التقاسيم، جهيري الصّوت، جزْلِيِّ الكلام، ممتلئي الرّجولة، ظاهِري الفخامة، وهم خالد بن منصور بن لؤيّ الشّريف، وعبد المحسن بن ناصر بن شاهين الشّريف، وناصر بن محمد الحارث الشّريف، فوصلوا لعبد العزيز وسلّموا عليه وأبلغوه رسالة الحسين. ويروى أنّ خالداً قال للملك عبد العزيز حينها: قد علمت نصحي لك ونصح أجدادي لأجدادك، فاسمع مني وأعط حسين ورقة تنفعه عند الدّولة ــ أي العثمانيّة ــ ولا تضرّك. وفيها الاعتراف بالدّولة العثمانيّة، وإرسال مبلغ من المال لها، فكتبها عبد العزيز، ثمّ سُلّم سعد بن عبد الرّحمن لأخيه، ففرح به فرحاً شديداً لمحبتّهِ له ولرحمته به لصغر سنّه[١]. ولما استلم عبد العزيز أخاه سعداً، التفت إلى خالد وقال: يا خالد هذا رضيع الدّيد ـ أي شريكه في رضاع ثدي والدتها ـ والله لو ما جئتني به لرجلي هذه، ثمّ ضرب بها بقوّة في الأرض، لأطأن بها مطرح الشريف إلى أن آتي بسعد أو ألحق سعداً. ثمّ سلّ سيفه وصرخ في رجاله: عرضه يا رجال. فلمّا قاموا أخذ يعرض العرضة النّجديّة وهو ينشد:

أنا كما نمر ليا عدا والنمر ما تومن دغايله

(١) وسعد هذا هو الذي قَتَلَهُ العجمان فيما بعد في حربهم للإمام عبد العزيز لمّا هاجمهم بعد خيانتهم له في معركة جراب، بل قد جرحوا فيها الإمام عبد العزيز جرحاً بليغاً غائراً كاد يفتك به لولا لطف الله ورحمته وكان ذلك في (١٣٣٣/٨/١٥) وقد التحق أكثرهم فيما بعد بالإخوان عام (١٣٣٦).

نمـشي لـصاحبنا عـلى النقـا والـلي يحـايلنا نحايلـه

والعجيب أنّ هذه الصّورة قد تكرّرت تقريباً في عهد جدّيْهِمَا، فقد أرسل شريف مكة الشّريف محمّد بن عون ابن عمّه عبد الله بن لؤيّ، إلى الإمام فيصل[1] بن تركي جدّ الإمام عبد العزيز، يطلب منه الصّلح، فقال ابن لؤي للإمام فيصل: إنّ الشّريف يُريد واحداً من إخوانك يركب إليه لتكسر عنه ظاهر الفشل. ثمّ أعاد الله التّاريخ بوجوه جديدة.

خرج الوفد الشريفي عائداً لمكة، ومرّوا بهجرة الغطغط[2] وفيها بعض الرّوقة وكانوا أخوالاً لعبد المحسن بن شاهين ، فمكثوا أسبوعاً ، وتأثّروا بتديّنهم وزهدهم وعبادتهم، ومِنْ هنا انعطف التاريخ!

مَـا عَاتَـبَ الحُـرّ الكَـرِيم كَنَفْـسِهِ وَالمَرْءُ يُصْلِحُهُ الجَلِيْسُ الصّالِحُ

وسمع خالد منهم سنيّة وفضيلة المكوث بعد صلاة الفجر في المسجد حتّى ترتفع الشّمس، وأنّه يعدل عمرة وحجّة تامّة تامّة تامّة، فلزمها خالد

(١) الّذي كان عبد العزيز يعتزي به ويقول: أنا ابن فيصل.

(٢) تأسست هجرة الغطغط سنة: (١٣٣٢) وسكنها الأمير سلطان بن بجاد بن جهجاه بن تركي بن حميد ــ أحد أشهر قواد تلك المرحلة ــ كما سكنها الكثير من بطون وأفخاذ قبيلة عتيبة العريقة، والغطغط معدودة من أقدم وأكبر وأدين مهاجر الإخوان، تقع غرب الرياض بنحو ستين كيلاً، ويحدها من الشرق المزاحمية، ومن الغرب نفوذ قنيفذة، ومن الجنوب روضة المحلية وروضة الخرارة، ومن الشمال ضرما وجو. وكانت نهايتها التدمير والتسوية بعد معركة السبلة.

واستمرّ عليها في مكّة. ولمّا كان يجلس بعد صلاة الفجر كعادته بلغه كلام من عبد الله (البيه) بن حسين أنّه يقول: إنّ خالداً من حين وصوله من الوهّابية وهو يقرقر في المسجد! ووصلت هذه الكلمة لخالد فكظمها، وبدأت الجفوة بين خالد وبين عبد الله بن الحسين وأبيه. وكان وقت الأصيل يخلو بنفسه أو في المسجد يذكر الله تعالى،كذلك بعد الفجر فيسألونه: ماذا تفعل؟ فيقول: أقرأ الورد. فيجيبونه ساخرين ومنهم شاكر بن زيد بن فواز: لا يقرأ الورد إلا القرد!!

بَعِيدٌ عَنِ الخِلّانِ فِي كُلّ بَلْدَةٍ إِذَا عَظُمَ المَطْلُوبُ قَلّ المُسَاعِدُ

وكان مؤذّن الشّريف ابن حجيلان إذا أذّن ربما صلّى معه الرجل أو الرّجلان، وربما لم يصلّ معه أحد. وأنكر عليهم خالد تلك الأمور مع أمور بدعيّة يفعلونها، فكان عبد الله بن الشّريف حسين يقول له: أنت وهّابي ونحن إلى الآن لم نؤدّبك حقّ الأدب، واستحكمت بينهما الجفوة، ثمّ تطوّرت لخصومة، ثم حرب ونزال.

أُرِيدُ حَيَاتَهُ وَيُرِيدُ قَتْلِي عَذِيرَكَ من خَلِيلكَ من مُرَاد

ولا أظنّها تصحّ الدّعاية الغريبة الّتي بُثَّتْ في كتب التاريخ، من صفعِهِ من عبد الله (البيه) أو من أحد أمراء البادية[1] فما كان هذا تصرّف خالد

(١) من كبار قواد شاكر بن زيد الشريف، قتله الإخوان على مشارف الحنو عام (١٣٣٦).

لمـن عَرَفَهُ، والـذي يؤيّدُهُ حالُ خالدٍ وأخبارُهُ[١] أنّ سبب تركه لقومه وفراقهم بجسده[٢] هو أنّه فارقهم بقلبه ودينه قبل ذلك، ففاصلهم،

---

(١) من خطاب خالد للملك عبد العزيز: «......ولا استرحت حتى ذهبت إليهم ووجدت الرجل ــ يعني الحسين ــ متغيراً في دينه ودنياه، أبغض ما يشوف الدين وأهله، يريد فرقة العرب وأن ينشب بينهم الخلاف، فانسحبت متمثلاً ما قاله ﷺ: «**إذا رأيت شحّاً مطاعاً وهوى متبعاً فعليك بخاصة نفسك** »....» (لسراة الليل، ص١٢٧).

(٢) قال بديوي الوقداني النفيعي لمّا خرج من بلده مغاضباً: وتسمى قصيدته: (العصماء) وهي أشهر قصائده ومنها:

أيامنـــا والليـــالي كـــم نعاتبهـــا ... شبنا وشابت وعفنا بعض الأحـوال
أيـــام في غلبـــها وأيـــام نغلبـــها ... وأيـام فـيها سـواء والـدهر ميـالي(أ)
توعــد مواعيــد والعاقــل يكــذّبها ... والـلي عـرف حـذّها مـن همـها سـالي
في كـــل يـــوم تورينـــا عمايلـــها ... واليـوم الأول تـراه أحسن مـن التـالي
نـضحك مـع النـاس والـدنيا نلاعبها ... ونمشي مع الغي طوع حيث ما مالي
إن أقبلـت يـوم مـا تـصفي مـشاربها ... تقبـل وتقـفي ولا دامـت عـلى حـالي
قــوم تــدوس الحيــايا مـع عقاربهــا ... ولهـا عــزايم تهــد الــشامخ العــالي
والنـاس أجـناس لـين انـك تقـاربها ... وتكـون منـهم كـما قـالوا بالأمثـالي
والـروح وش عـذرها في تـرك واجبها ... راح النسب والحسب في جمع الأموالي
دار بهـــا الـــذل دايـــم مايخـــايبها ... والجـوع فيها ومعها بعض الأحـوالي
جــوعى سراحينهــا شــبعاً ثعالبهــا ... والهـر والكـلب يقـدم كـل رتبـالي(أ)
والأرض لله ونمـــشي في مناكبهـــا ... والله جــــعل لنــــا رزق وآجــــالي
حـــث المطايـــا وشـــرّقها وغربهـــا ... واقطـع بهـا كـل فـج دارس خـالي =

وأعلن البراءة منهم، ولمّا اشتدت الخصومة، استأذنه خالد في الانصراف لأهله لأنّهم كانوا في البادية للاطمئنان عليهم، فأذن له بشرط ألّا يتأخّرَ وأن يَمُرَّ في رجوعه بـ(الكظيمة)[١] وفيها علي بن الحسين الأخ الأكبر لعبد الله، لجلب الذّخائر وإيصالها لعبد الله في العيص[٢] وهناك روايات

= واطعن نحور الفيافي مع ترايبها ... وابعد عن الهم تمسي خالي البالي
إن مت في ديرة قفر جوانبها ... بها لْوطِي السباع البغث مدهالي
أخير من ديرة يجفاك صاحبها ... كم ذا الجفا والتجافي والتملالي
رب السماوات يا مجري كواكبها ... يامجري الفلك من لجّات الأهوالي
ضاقت بنا الأرض واشتبت شبايبها ... والغيث محبوس يامعبود ياوالي
يالله من مزنة هبت هبايبها ... رعّادها باتله بالبحر منزالي
ريح العوالي من المنشا تجاذبها ... جذب الدلى من جبا مطويّة الجالي
ديمومة سبّلت وارخت ذوايبها ... فانهل منها غزير الوبل همّالي
تسقي ديار شديد الدهر حاربها(ب) ... ما عاد فيها لبعض الناس منزالي
يا رب توبة وروحي لا تعذبها ... يوم القيامة إلى ما قلّت أعمالي
وازكى صلاتي على المختار نوهبها ... شفيعنا يوم حشر فيه الأهوالي

(أ) الرتبال: ولد الأسد

(ب) في الحديث: «**لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر**» أي: مصرّف الدهر. وأكثر من يقع في سب الدهر هم الشعراء، خاصة في بكائياتهم.

(١) الكظيمة: كانت مستودعاً لأسلحة الجيش الهاشمي في حربة للأتراك، وهي واقعة في المثلث بين مكة المكرمة والمدينة النبوية وجدة.

(٢) العيص: شمال غرب المدينة النبوية بنحو (٢٤٠) كيلاً، وهي واقعة عن طريق تجارة قريش للشام قديماً، بعث لها رسول الله ﷺ أول سرية في الإسلام وهي سرية =

تقول: إنّه لم يستأذنه، بل انفتل بأصحابه مع مغيب الشّمس بدون علم الشّريف، فخرج مع مجموعة من خاصّته على خمس ركائب. وكان من رجاله الذين معه حمد بن مارق القريشي السبيعي، ولمّا سارت بهم الرّكاب التفت خالد إلى حمد وأنشد:

ياحمد جيناك من دار وبيّة	بشّر اللي حبهم بيّن وخافي
لا ركبنا ظمّر مع قيهميّة	نطلب الله في حسينات الملافي

فرد حمد بقوله:

مرحباً باشرافنا زبن الجنيّة[١]	عد ما تذري الهبوب من السوافي
يوم جيتوا رجع فوادي عليّه	واحمد الله يوم ما جاكم خلافي
من بغى الناموس لا يطري المنيّة	من وفى أجله مات لو هو متعافي

ففقده بعض أعوان عبد الله، فأتاه وسأله، فأخبره أنّه قد أذن له وسيعود، فقال: لن يعود بل سيحاربك فدينه غير دينك! فأمر عبد الله سريّة فتتبعت آثارهم لتردّهم، لكنّهم كانوا أسرع منها فأفلتوا ، والفرار في وقته ظَفَرٌ.

إِذَا كَانَتِ النُّفُوسُ كِبَاراً	تَعِبَتْ فِي مُرَادِهَا الأَجْسَامُ

= حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في رجب في السنة الأولى للهجرة لملاقاة قريش القافلين من الشام، وهي معدودة من منازل جهينة من الجاهلية إلى زماننا هذا.

(١) من زبّن الجاني فهو ملعون: «لعن الله من آوى محدِثاً» ولكن يقال: مرحباً بَمِيرِنا جزل العطيّة...

فصاح خالد بها هادرة صاخبة صادقة، قد امتزجت بروحه ودمه وعصبه:

إِذَا غَـــامَرْتَ فِي شَرَفٍ مَـــرُومٍ فَــلَا تَقْنَــعْ بِــمَا دُونَ النُّجُــومِ

ولعله ـ ولا نزكيه على الله ـ لا يريد ملكاً تحت النجوم، بل ملكاً عند الحي القيوم، في جنات وعيون ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥]. ويقال: إنّه في ذلك الوقت كان أهل بيشة أكثر تديّناً من رنية، وأهل رنية أكثر تديناً من أهل الخرمة، وأهل الخرمة أكثر تديّناً من أهل تربة، فلعلّه لهذا السّبب ابتدأ ببيشة ـ إن صحّت الرواية ـ ولسبب آخر؛ هو ابتعاده عن الشريف قدر الإمكان فالخرمة كانت قريبة من الشريف.

والمرجّح والله أعلم: أنّ ذهابه لعبد العزيز في الرّياض[1] كان هو البداية، وأنّهُ لمّا بايع عبد العزيز، ذهب إلى بيشة ثمّ رنية ثمّ الخرمة. وهذا

---

(١) أو الأحساء كما جزم به العبيّد ـ وهو من أصدقاء خالد بن لؤي ـ وذكر أنّه لما عاد للخرمة بقي فيها عشرة أيام، ثم ذهب لمكّة ليبدي عذره للملك حسين إذ أنّه ذهب لعدوّه من دون إذنه، وأنّه اعتذر بأن سبب ذهابه هو أن يطلب من عبد العزيز أن يأذن لأهل المواشي من رعيته بالسوم في مراعي نجد ذلك الموسم، فرد عليه حسين بما قاله عمر لمعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ فيما يروى ـ: خدعة مريب أو تخلص أديب. ثمّ أذن له بالرجوع للخرمة، ثم بدأت الجفوة تزداد حتى حانت ساعة المفاصلة. (النجم اللامع: ١٧٨) بتصرف.

أشبه وأليق كما قدّمنا، والله أعلم.

إذن فقد انطلق خالد للرّياض، ومعه وفد على خمسين ذلول، ولم يطأ الوديان الثّلاثة بيشة ورنية والخرمة، حتّى عاد من عند الملك عبد العزيز، وقد بايعه على السّمع والطّاعة وإقامة دين الله، وفي ذلك الوقت كانت الأرطاوية والغطغط قد بنيتا، وبدأ الإخوان بالهجرة إليهما، إضافة إلى باقي المهاجِرِ النامية في الجزيرة الّتي كان عبد العزيز يرعاها ويمدّها بالعلماء والدّعاة والكتب والمساعدات.

ذهب خالد إلى رنية لأخذ البيعة، فنزل في ثلاثين ذلول على آل عمير مكالحة ومفالحة وصنادلة، فبايعوه، ثمّ إنّ أحد أعيانهم وكان معدوداً من طلبة العلم صاح فيهم وقال: لا تبايعوا خالداً فهو ذئب أجرب يُعْدِي على مَدّ البصر، وليس عنده دنيا، فاتركوه حتى لا يقطع الشريف نخيلكم. فدخلت فيهم كلمته، فنفضوا أيديهم من البيعة، ثمّ إن خالداً ارتحل عنهم إلى بعض المجامعة عند خشم الكور، وهو جبل كبير في طرف رنية، فقالوا له: يا خالد لا تدخل رنية، فإنّا نخشى أن يقتلوك! فقال: سيكفيني الله شرهم. فقالوا: إنّ فلاناً قد أفسد عليك رنية، يقول: إنّ خالداً ليس عنده دين، إنّما هو طالب رئاسة ودنيا، فلا تطيعوه حتّى لا يقطع شريف مكة نخيلكم، ويقتلكم حتىّ يشرّد حيّكم لرماح! فذهب للمجامعة، وأناخ على الحلاّف وكان من أسخياء الناس، ففرشوا لخالد الفرش ورحبوا به، وبعد أن سألوه عن الحال عاتبوه وقالوا: لم تهجرنا يا خالد؟ فقال بعتاب مبطن: لا أدري! فقالوا: أعطنا الشرع من الشّيخ فلان ـ وهو ذلك المناوئ

المذكور وكان معظّماً فيهم من ناحية الدّين، فكانوا يلقّبونه بالشّيخ ــ فقال خالد: أرسلوا الفرس إليه فإن كان شيخاً اتّبعناه، وإن كان الشّيخ هو دحيّم بن الحسين اتبعناه. قالوا: تمّ ـ أي: على الرّحب ـ فلمّا وصل الرجل قال له خالد: أسألك بالله يا فلان هل أنت شيخ؟ فقال: لا والله ما أنا بشيخ إنما أنا طالب علم. فالتفت خالد إلى النّاس وقال: وأنتم تقولون له شيخ! يا فلان: الشّيخ هو دحيّم بن الحسين، وأخوه الشيخ إبراهيم قد أعطاه الإجازة، هل أنا صادق؟ فقال: نعم أنت صادق. فقام المجمّعي وقال: أنا أخو منيرة، هات يدك يا خالد حتّى أبايعْك فبايعوه، وأطفأ الله الفتنة.

ولـمّا استوثق خالد من بيشة ورنية، وكان قد بايع إمامه على نصر الدّين، ذهب للخرمة، ثمّ أناخ ومعه ثلّة من بني عمومته وبعض القريشات على أمير بني ثور مفرّح بن شارع، وكان قد تديّن ولبس المعمّ[1] فبايعه مفرح[2] على النّصرة، وأخبر خالدٌ الإخوان الّذين بايعوه

---

(١) المعمّ: هو العمامة الملفوفة على الرأس كحال العرب الأول. وكانت عمامة الإخوان بيضاء اللون. قال الكفيف العصيمي:

لبسوا معمّ جديد هبل الأكفان   تبايحوا والكل منهم كاتب دينه

(٢) وهناك من يقول: إنّ خالداً قد وعد مفرح بن شارع ـ وكان شيخ قومه بني ثور من سبيع ــ بالإمارة بعد النّصر ولو أن يعطيه إمارة البادية، فلما استقامت الأمور لخالد، طالبه مفرح بها وعده ـ على حد قولهم ـ فرد عليه قائلاً: لا يستوي سيفين في حدريّة، أي غمد، ومعناه لا يجتمع أميران في بلد، والمؤدّى: أن ليس لك من هذا الأمر شيء، وفي ظني أن =

أنّه قد عاهد ـ أي بايع ـ عبد العزيز على الكتاب والسّنة، وقال: والله إنّ الّذين وضعت يدي في أيديهم قد بلغوا أربعين من الأمراء، وقد تركت ابن عمي وهو يصبّ عليّ الجنيهات الصفر، لكنّني حاربته لله تعالى[1]. ولم يبدأ (الفَرْقُ) إلّا بعد قدوم خالد، حيث بدأ تمايز الفسطاطين فسطاط الهدى وفسطاط الضّلالة.

تهـون علينـا في المعـالي نفوسـنا ... ومن طلب الحسناء لم يغلها المهر

وقال خالد للإخوان في الخرمة، وقد كان التّديّن قد ظهر فيهم من عام: (١٣٣٢) تقريباً وهو العام الّذي تولّى فيه أمارة الخرمة بعد وفاة ابن عمه غالب بن ناصر، قال خالد: يا إخواني والله إنّي لا أريد أن ينقص من

= كليهما لم يكونا طالبي دنيا بل إعلاء كلمة الله وإرادة وجه الله والدار الآخرة، حتى وإن حدث بينهما خصومة فسببها اختلاف رأييهما في العائدين من الشريف للإخوان وكان أكثرهم من قوم مفرح، هل ترد أملاكهم أم تصادر؟ والله أعلم.

(١) ويقال: إن خالداً لما عاد من مكة ـ من عند الشريف ـ هجره الإخوان بما فيهم سليم (لعله أحد مواليه) فأراد الحوار معهم فقال: أنا لم أرغب عن ديني ولكني أُسايس أموراً لا تعرفونها، فقالوا: هذا دليل على نفاقك، ولذلك فارجع لصاحبك ــ أي الشريف ــ وتحزّم معه بحزامين، ثم تعال أنت وإياه! ــ أي لحربنا ــ. قال خالد: وعازمين؟ قالوا: أجل. قال: وهجرتموني للدين؟ قالوا: نعم. قال: حتى أنت يا سليم، قال: نعم. فقال خالد: عزّي لقوم أنا ذليلهم! والله لئن أحياني الله لتتميز الفضة عن النحاس ـ يعني أنه صادق في إيمانه ولا يريد الدنيا ـ بايعوني على الكتاب والسنة، فبايعوه.

الخرمة أحد مهما كان، إلّا أربعة سآخذ منهم الشّرع وحُكْمُ الشيخ فَلْتَكُونوا على بيّنة وهم فلان وفلان...وذكرهم لهم.

ولمّا جاء خالد للخرمة كان الإخوان فيها قلّة، وفي غربة بين الأغلبيّة السّاحقةِ الّتي بقيت على ولائها لشريف مكة، خوفاً من قطع نخيلها، وضنّاً بالدّنيا عن الدّين، وبالفاني عن الباقي، وشيئاً فشيئاً دبّت في كثير منهم دماء الفطرة السّليمة، ونمت فروع الشّجرة الإيمانية، وبدت ثمار الدّعوة المباركة ظاهرة على وجوه تزداد كلّ يوم، ولا تغيب الشّمس إلّا وهم يستبشرون بمولود للدّعوة جديد، ومع استمرار مشايخ ودعاة الإخوان في الدّعوة إلى التّوحيد الخالص والتعلّق بالله والدّار الآخرة ، بدأ حزب الموحّدين يزداد ويقوى، وبدت أمارات ما كانوا يسمّونه بالفَرْق، وهو إعلان البراءة من أهل الباطل والمنكرات ومن المشركين ــ في نظرهم ــ ومن يواليهم، وبدأ كلّ حزب ينحاز لبعضه البعض، وقلّت شيئاً فشيئاً الفئةُ المحايدةُ، واقتربت ساعة الحسم، وشريفُ مكة يراقب الوضع بقلق وترقّب، مع كثير من الغرور والاحتقار لأهل التّوحيد، وأرسل السّلاح وجنيهات الذّهب لحزبه، واستطاع حزب الشريف إخراج خالد من حكم السّوق وحاولوا قتله. وفي تقرير الجنرال (وينغيت) المندوب السّامي في القاهرة إلى وزير خارجية بريطانيا: «وأَوْضَحَ الملك حسين أن شيخ الخرمة وهو أحد الأشراف، وهو خالد بن لؤيّ، قد تحوّل وهابيّاً! وشجب حكم الملك حسين، وبذلك أحدث انشقاقاً بين السّكان، وعلى إثر ذلك زار مكّة وَفْدٌ من الحزب الشريفيّ المحلي طالباً العون والحماية، فأوعز إليهم

الملك أن يفصلوا أنفسهم مع عوائلهم وجماعتهم عن متمردي الخرمة، وكذلك أرسل قوة صغيرة لضبط الأمن في المنطقة وتوفير سلامة الموالين، وكان الموالون خلال ذلك وقبل وصول قوّات الشريف قد طردوا شيخ الخرمة ـ أي خالد بن لؤي ـ وأطلقوا سراح اثنين من رسل الملك كان قد سجنهم، وعزا الملك الحادثة كلّها إلى النّفوذ الوهّابي الخبيث!» كذا[١].

علماً أنّ الفتيل الّذي أشعل الحرب بين الإمام عبد العزيز والملك حسين هي الخرمة ـ كما أسلفنا ـ فقد كان الشّريف يعتبرها امتداداً طبيعيّاً لسلطته الإقليميّة ، وأنّه هو من يعيّن أمراءَها وآخرهم خالد بن لؤيّ ، وقضاتهَا وآخرهم إبراهيم بن ناصر بن حسين، كما أنّها البوّابة الشّرقية للحجاز على نجد. لكن الإمام عبد العزيز يقول بخلاف ذلك، وهو أنّ الخرمة تعتبر أرضاً نجديّة لأنّها شرقي حضن، ومن أحضن فقد أنجد ــ كما قيل ــ كذلك فهي مُعفاةٌ من الضّرائب من عهد الدّولة السّعوديّة الأولى إلى تاريخه، لمّا دخل أهلها في ولاء الدّولة السّعوديّة، أمّا القضاة فكما أنّ الشّريف حسين قد أرسل قضاة للخرمة فكذلك الملك عبد العزيز، بل إنّ القاضي المباشر في الخرمة في ذلك الوقت هو بعينه القاضي الّذي كان قد عيّنَهُ الإمام فيصل بن تركي من عهد الدّولة السّعودية الثّانية منذ خمسين عاماً خلفاً لوالده. قلت: وهذه السّلطة السّعوديّة هي ما ذكرها (فِلْبِي) مبعوث الانجليز للإمام عبد العزيز، لمّا

(١) الوثائق البريطانية (٣/ ٦٩٥).

زار الخرمة عام: (١٩١٧م) وهو في طريقه للطائف، فقال من ضمن كلام له: «أهل الخرمة يتمتّعون باستقلال ذاتي عملي، تحت سيادة نجد الغامضة!».

وعلى كلٍّ فلكلّ طَرَفٍ حيثيات وأدلة، وطلب الإمام من بريطانيا التحكيم في الحدود مع رضاه مسبقاً بالحكم أيّاً كان، لكن الحسين رفض ذلك لأنه لم يكن يرى أنّ هذا منطقيّ أصلاً مع سلطة مكّة القديمة على الوديان ومنها الخرمة، وجرت المقادير بتدبير العليّ القدير.

فكـــل شيء قـــضاه الله في أزلٍ طُرّاً وفي لوحه المحفوظ قد سُطرا

ودخل أهل الخرمة في الحركة الإخوانيّة السّلفيّة الجهاديّة[١].

وهدّ الإخوان بمعية الجيش النظامي للإمام عروش الرشيد والإدريسي وحميد الدين والشريف حسين من الشمال إلى الجنوب. وانضم إلى أهل الخرمة إخوانهم وأنصارهم، فهبّت عاصفتهُم على عرش الشريف، مبتدئين بتربة، ثمّ الطّائف، حتّى ختموها بدخول مكة المكرمة والمدينة النبوية على صاحبها أفضل الصّلاة والسّلام، وجدّة وإعلان نهاية حكم الأشراف الذي دام قروناً، فسقط وباد لحربه التّوحيد وأهله، وهذه سنّة الله الماضية في الأمم. ثم فتحهم الجنوب. ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠

(١) ووصفنا لهم بالحركة لا يعني هذا أنهم حزب منظم كحال الأحزاب أو بعض الحركات التي على الساحة ، إنما نعني بالحركة وصف ذلك التدين العام المتجه نحو التوحيد والجهاد.

وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴾ [المجادلة: ٢١] ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ [الحج: ٤٠] ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤١]

وسنن الله تعالى لا تحابي أحداً فإن ترك آل سعود أو غيرهم ممن مكن الله لهم رقاب عباده وموارد بلاده دعامة دولتهم ومبرّر حكمهم وهو إقامة الدين والشريعة فسيحل بهم ما حل بغيرهم والله المستعان، حفظ الله دينهم ودنياهم ووفقهم وألهمهم رشدهم وولاة أمر المسلمين.....آمين.

وبدأت المناوشات والمضايقات ضدّ الإخوان الّذين ارتضوا خالداً أميراً لهم. ولمّا سمع بنو عمر ـ وكانوا في الحرّة؛ حرّة بني هلال ـ بقدوم خالد، انتدب منهم مجموعة، فيهم كبيرهم جبر بن عبيدان العمري السبيعي، لمقابلة خالد ومعرفة أمره، فدعاهم للدخول مع الإخوان فبايعوه.

ثمّ سرت شائعة مفادها: أنّ حزب الشريف يريدون اغتيال خالد وقتله.

وكان أهل السوق يرقصون رقصة الحرب ويهزجون وينشدون بهتافهم:

خمسة رياجيل كلّ واحد من دحل	وحنّا عيال العود من فصايله
تكفون يا لجذعان شحّموا الفحل	حتّى الدّقل يصبح كثير عايله

وقصدهم بالفحل خالد، أي أنّهم عزموا على قتله. والرجال

المقصودون هم: مفرح بن شارع، ومنير الحضبي، وعبد الله بن فيصل، وأبوه، وخامسهم خالد.

وفي ذلك الوقت كان خالد نازلاً في حوقان[١] قبل بناء هجرته المعروفة باسمه إلى اليوم[٢] وكان مفرح ومن معه في أسفل الخرمة في السلميّة[٣] وكان السّوق[٤] بينهم، وسكان السّوق هم الأكثريّة وهم حزب الشريف الّذين حربوا الإخوان وضايقوهم أشدّ المضايقة، فكره خالد النزال قبل وقته ولمّا يشتد بعد عود الإخوان، فتريّث واستنصر، وقديماً قيل: يركب الصعب من لا ذلول له، فأراد خالد الانسحاب لبعض الوقت ريثما تحين الفرصة، ويأتي الله تعالى بالفتح أو أمر من عنده.

(١) حي واقع جنوب غرب السوق بنحو ثلاثة أكيال، وقعت فيه أولى المعارك مع الشريف عام: (١٣٣٦)وسميت بمعركة حوقان.

(٢) وبنى فيها مسجداً جامعاً، عرف بمسجد خالد، بناه بالطين عام: (١٣٣٦) ثم جدّد في عهد ابنه الأمير سعد رحمه الله وبني بالحجر، ثم جدّد في عهد الملك فيصل رحمه الله عام: (١٣٩٢) وبني بالأسمنت المسلح، ثم سُمّي باسم جامع الملك عبد العزيز ثم جدّد (وهذه هي البناية الرابعة) في عهد الملك فهد رحمه الله عام: (١٤٢٠) تحت إشراف الأمير سلمان حفظه الله بتكلفة قاربت سبعة ملايين ريالاً.

(٣) السّلمية: حي عُمر بعد حوقان بنحو سنة. وهو واقع شمال شرق السوق بنحو سبعة أكيال.

(٤) حي السوق هو قلب الخرمة ومكان تبايع الناس ويقع وفي وسطها، وفي بدء أمر الإخوان كانت منازلهم في حوقان والسلمية، أما حزب الشريف فكان السوق مركزهم.

وقبل إنشاء السّلميّة،لم تكن الخرمة إلّا السّوق وحوقان فقط. وفي المساء سرى خالد ومعه ستّة رجال منهم حمود بن هاضل، فنزلوا على ماجد بن جروة الصميلي السبيعي وهو أمير الصّملة في ذلك الوقت، وكان مخيّماً على (خبراء الرويبي)[1] ثمّ إنّ خالداً ذهب إلى بيشة ليستنصر أهلها، وترك حامية صغيرة مكونة من ثلاثين قنّاصاً.

وفي أثناء سفر خالد لبيشة اشتدّ الخناق على تلك الحامية، وهم سبعة من الحُرّث الشّلاوا، على رأس حماد بن قريشان أو قليشان ــ من ذوي حطاب ــ وكانوا من المهاجرين القدامى، ومن الحلاحلة العتبان مثلهم، وبعض القريشات النّواصر كفيصل بن عبد الله وأبيه، ومن الأشراف الشياهين كعبد المحسن وغالب وعمّاش وعباس.

واشتدّ الجوع بهم، فقد كان أهل السّوق يطلقون النّار على كلّ من رأوه من تلك النّاحية حتّى لو كانت بهيمة! وفي يوم من الأيّام مع اشتداد الجوع قال فيصل بن عبد الله: اذهب يا غالب أنت وأخوك عمّاش لصيّادة[2] كي تصطادا ما تيسر من أرنب أو هاملٍ ونحو ذلك ممّا تجدان. ولما خرجا وابتعدا عن قصر حوقان إذ هما براحلتين قد أُنيختا ونزل منهما اثنان من قوم الشريف، قد أتيا للتّوّ من عند الشريف، ومعهما امرأة، وكان

---

(١) الواقعة شرق الخرمة بنحو ثلاثين كيلاً، وهي من أكبر مناقع الماء في تلك النواحي.

(٢) عينٌ على حافّة الوادي يصب فيها الشعب، وسميت صيادة لأنها موحلة من كثرة مائها وطول مكثه، فمن دخلها صادته، فقد لا يخرج منها حياً ، وبعضهم يطلق صيّادة على الشعب نفسه ولعل ذلك لكثرة الصيد به، والله أعلم.

أحدهما قنّاصاً لا تُخطئ له رمية، وكان مُتَرَقِّباً متوجِّساً لدمٍ كان عليه، وكانت أمّ رُكْبَة لا تفارقه ــ وهي بندقية قصيرة ــ فإذا مشى جعلها على كتفه، فراقباه ثمّ قصداه وهما على فرسيهما وصاحا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] ورمياه بسرعة خاطفة، فسقط صريعاً لليدين وللفمِ، ثمّ عدلا إلى صاحبه فقتلاه، فصاحت المرأة وقد عرفت غالباً: يا غالب أنا دخيلتك من الرّجال لا يفعلون بي الفاحشة! فقال: لا تخافي هؤلاء خيّالة التّوحيد وليسوا بأهل فواحش. فمن هنا أثبت الإخوان وجودهم، وصار لهم صيت بقتل الرجلين وغنيمتهما، وأنه لا أحد بمنأى عن نيرانهم وسيوفهم.

لاَ يَسْلَمُ الشّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الأَذَى   حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ

ثمّ استاقا الرّكائب والمرأة إلى قصر حوقان، فنحروا البعير، وحبسوا المرأة في غَمْيَةٍ في القصر، ووكّلوا بها سليم بن مفرج[1] بعدما أخذوا منها الأخبار. وقالت لهم: إنّ فلاناً ــ من كبار حزب الشريف ــ الآن في مكة عند الشريف، وقد جهّزه الشريف بتجريدة مكونة من ثلاثة آلاف مطارد ومدفع ليضربكم به، وقد أرسل أربعين ذلولاً محمّلةٍ بالطّعام والسّلاح والرّصاص عليها فلان ــ من حاضرة القصيم ــ وستصبّحكم غداً مع الشّعبة[2] وفعلاً وصلت قافلة الشريف الّتي ترصّد لها الإخوان أهل

(١) من سكان قصر حوقان، وهو أخٌ لسليّم، ولسعد الّذي استشهد في الخرائق.

(٢) وهو شعب يبعد نحواً من عشرة أكيال شمال غرب حوقان.

القصر، فتلقّفوها وقتلوا من فيها وغنموها، وكان أوّل قتيل من القافلة هو قائدها، قتله محسن بن خالد حيث طرده بفرسه فلاذ بشجرة وهو فوق ذلوله، وأخذا يدوران حولها حتّى وضع الرصاصة في رأسه، ولم يسلم منهم إلّا شخصٌ وجدوه بعد الرّمي ناقعاً في دمه، فوقف عليه ناصر الحارث وأراد الإجهاز عليه، فقالوا: إنّه ميّت والرّصاصة خسارة فيه، فأخذ خاتمه وتركه(١).

فأشبعهم الله بعد الجوع وأمدهم بالسّلاح بعد فاقتهم وقلته في أيديهم، حيث لم يكن مع الواحد منهم قبلها سوى المشط أو المشطين من الرّصاص ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ﴾ [آل عمران: ١٧٤] وكما قيل: خرجوا أعرى من الحيّة وعادوا أكسى من الكعبة.

وكل هذا وخالد في سفره، ولمّا عاد مَرّ على الإخوان أهل السّلميّة؛ مفرح، وماجد بن جروة، وجبر بن عبيدان، وأتباعهم، وطلب منهم الرّحيل معه للاتّحاد جميعاً في القصر، فأبوا عليه في البداية، لكنّ ضربة المدفع أيقضتهم فهبّوا جميعاً لنصرة إخوانهم، لكنّهم لم يصلوا حوقان إلّا بعد نهاية المعركة.

يميلون في شق الوفاء مع الردى إذا كان محبوب البقاء مع الغدر

(١) والطّريف أنّ ذلك الرجل شُفيَ بعد ذلك وتديّن وصلح حاله، ومرّت الأيام حتّى طالب ناصرَ الحارث في أرض تنازعا عليها، فقال ناصر مازحاً: يا ليتني قتلتك ذلك النّهار، ولم أتركك تطالبني عند الشيخ!

معركة (حوقان) وتسمى: [المدفع]

في رجب (١٣٣٦) وهو الراجح، وقيل في (٢٥) شعبان (١٣٣٦)

(حَوْقَان) ضاحية من ضواحي الخرمة على الجنوب منها، وهي مزارع مأهولة، بينها قصور منزولة، على الضّفة الغربية للوادي الكبير وادي سبيع، وتبعد عن السّوق قرابة الثلاثة أكيال[1] وحينما ثار الرصاص في السّوق،كان فيه قصر لأحد أهل القصيم، يقال له: الشّقحاء، فانزوى ومعه أهله في طرف قصره، وصعد قنّاصة حزب الشريف في علّيّته، وأخذوا يرمون الإخوان وقتلوا أحدهم وهو حسين بن فواز، وكان الإخوان لا يُجدّون الرّمي فيهم طمعاً في إسلامهم، كأنما عناهم البحتري:

إذا اقتتلتْ يوماً ففاضتْ دماؤها تذكرت القربى ففاضتْ دموعُها

وكان بعض الإخوان لقرابتهم لكبار أهل السّوق يدخلون السّوق متقلدي السّيوف والبنادق على ظهور الخيل ليشتروا حاجتهم بسرعة ثمّ يخرجوا، أمّا البقيّة فلا يقتربون أصلاً من السّوق، وكان هذا قبل قتل

---

(١) وكان أوّل من نزله هو ماضي بن هزّاع بن لؤي الشّريف وهو جد خالد لأمه، وابن عمه محسن مع بعض السّبعان، ومن ثم صار حوقان هو منزل آل لؤيّ في أوّل مجيئهم للخرمة، وفيما بعد بنى أمير الخرمة غالب بن ناصر بن لؤي قصره في النخيل قريباً من مكان الهجرة التي أحدثها خالد سنة: (١٣٣٦) الواقعة في المنتصف بين حوقان والسّوق. وللعلم؛ فالخرمة بلدة ومزارع ومراعي سبيعيّة عامريّة من تاريخها الغابر الضّارب في القدم.

حسين بن فواز فلمّا جرى الدّم بين الفريقين، انحاز الإخوان للسّلميّة، وتكتّل الآخرون في السّوق، وثارت المناوشات بين الطّائفتين.

ولمّا ضايق أهل السوق خالداً وأرادوا قتله كما أسلفنا، جمع خالدٌ الإخوان ولم يكن لهم في بداية أمرهم مكانٌ واحدٌ حصينٌ يؤويهم، وأخبرهم بعزمه الذهاب لبيشة، ويقال إنّه كان والياً عليها من قبل الشريف في سنين مضت، فقال لهم: سأذهب لبيشة حتّى لا أتسبب في سفك الدماء، وإنّما قال ذلك ليرى صدق ولائهم. فلمّا سمعوا ذلك فَدَّوْهُ بأنفسهم، وألَحّوا عليه بالبقاء في الخرمة فقال: أمّا وقد أصررتم، فانظروا إلى قصر حوقان هل فيه أحد؟ أم نتحصّن فيه عن القوم الّذين ازداد شرّهم وأخذوا يطاردون الإخوان[1] فانطلق اثنان من الخيّالة فنظروا لقصر حوقان فإذا هو خال من المقاتلة وليس فيه أحد ذو شأن، فأخبرا الإخوان فنزلوه باللّيل معهم أميرهم خالد، ولمّا خرج ثواب بن وندان ليؤذّن الفجر بمسجد حوقان إذ المسجد ملئ بالرّجال والسّلاح، فاستبشر بهم، وحينما صلّوا خرج مبيريك ــ وهو من موالي الأشراف ــ فأخذ يعرض ــ أي يرقص رقصة الحرب ــ ويهزج ويقول: إيه هذا المسجد قد أتاه أهله وأنا أخو مسفرة!

فلمّا وَلَوا حوقان صار مركزاً لهم، ثم ذهب خالد ومعه مجموعة لخبراء

---

(١) قال محمد العبد الله القاضي شاعر عنيزة:

والله وعد عسر الليالي بيسرها   جانا دليل بـ(ألم نشرح) وهو كافي

الرويبي ــ على مرحلة جنوب شرق الخرمة ــ وعليها ماجد بن جروة، ومنه إلى بيشة ثم رنية لاستنهاض الموحّدين، وأوُّلُ الغيث رشٌّ ثم ينسكب.

ولمّا عاد خالد من سفره مرّ بالإخوان الذين كانوا في السّلمية، وطلب منهم الذّهاب معه لحوقان للتّمركز هناك إذ الأنباء تفيد بخروج جيش الشريف إلى الخرمة، فلم يوافقوه في البداية وبعد أن ابتعد خالد عنهم، وسمعوا صوت المدفع على إخوانهم في حوقان هبّوا مسرعين.

يَجُودُ بِالنَّفْسِ إذْ ضَنَّ البَخِيلُ بِهَا وَالجُودُ بالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الجُودِ

وكان حوقان محاطاً بسور عالٍ وفيه علالي[١] وركب خالد وأصحابه إلى حوقان، ولمّا جازوا الدغميّة وتوسطوا شعب (القفيدي)[٢] ومع

(١) أي مساهرُ للقنّاصةِ؛ والمسهر: بناء اسطواني حجري أو طيني عال، وفيه فتحات صغيرة على قدر ماسورة البندقية تقريباً، وفي كلّ زاوية لقصر حوقان مسهر، فمسهر للشياهين ناصر وأبنائه، ومسهر لماضي بن هزاع بن لؤي، ومسهر للسّراميد[أ].

(أ) السّراميد من الأشراف العبادلة آل لؤي وأبوهم سرماد واسمه الحقيقي سعد لكن غلبت شهرة سرماد على اسمه، وهو من أوصى أن يدفن تحت نخلته حتّى تصبّ الغروب على قبره من حبّه للنّخيل! ووالد سعد هذا هو مسعود ــ وهو أخ لعبد الله أبي شوارب جد الأمير خالد ـ بن حسين بن دخيل الله بن محمد بن لؤي. وولد لسعد ـ سرماد ـ ناصر وولد لناصر علي ومحمد وعبد الله وسعد.

(٢) القفيدي: شعب يصب في وادي سبيع وهو واقع بين حي السوق وحي الدغمية وللأخيرة أقرب، يبعد عن حوقان قرابة سّتة أكيال.

طلوع الشّمس إذ صوت المدفع يزمجر على حوقان معلناً وصول جيش الشريف، بقيادة حمود بن زيد بن فوّاز الشريف، ويرافقه زعيم حزب الشريف من أهل الخرمة ـ وقد عاد لحزب الموحدين آخراً وحسُن بلاؤه معهم ـــ وتعجّب الّذين لم يكونوا يعرفون المدفع من صوته، وقال بعضهم: ما هذه البندقية؟ ما أشدها! وما أعظم رصاصها!

إذا لم يكن من المنيّة بدّ   فمن العار أن تموت جباناً

وهذه أولى المعارك مع جيوش الشريف أهل الباطل والبغي، وأصاب جيش الشّريف الغرور من كثرتهم ووجود المدفع معهم فقال قائلهم شامتاً في أهل التّوحيد! وما علم أنّ الله ناصر جنده، ومعلٍ كلمته:

بنركّب المدفع على حوقان   والروح تدبيره على واليه
كلّه على غرسة الوديان   واللي يبا الغطغط يهاجر فيه[1]

فصاح خالد في من معه محرضاً على الجهاد، وكانوا أهل خمس وعشرين راحلة وستة فرسان فقط، وقال لابنه محسن: اسبقونا لحوقان

(١) وهذا يدلّ على العلاقة القديمة بين الغطغط والخرمة، والظاهر أن الأولى قد أثرت في الثانية بالإصلاح والتدين بدليل أن هذا الشاعر الشانئ على المتدينين صرّح بالغطغط وكأنها مرجعية دينية أو مهاجراً لهم، ومن المعلوم أن هجرتي الغطغط والأرطاوية من أقدم المهاجر الإخوانية، وأهل الخرمة لمّا عضّهم السلاح طلبوا نجدة أهل الغطغط الذين هبّوا سراعاً للنجدة. بل يروى: أنّ أحد الناس قال لهم: إن ابن سعود لم يأذن لكم وبنادقه بأيديكم! فألقوها عليه، وقالوا: ليس له عندنا إلا =

واركضوا مع الحزم، أي من الجهة الشّمال غربية، وابتعدوا عن السّوق حتّى لا يصيبكم رصاص أهله، ونحن سنسير مع الوادي ــ أي في الجهة الشّرقيّة للبلدة ــ حتّى ندرككم هناك.

ولمّا وصلت الخيّالة للمعمعة، انبطحوا على الأرض وهم سبعة محسن بن خالد بن منصور على حصانه (كحيلان) وأخوه سلطان، وقد كُسرت ساقه في تلك المعركة، ومنير الحضبي، وثنيّان بن غرمول البقمي، ونايف بن منصور الشريف أخٌ لخالد، وقد كُسرت فخذه، ونايش بن

= هذه البنادق ــ وكانت قليلة ــ أما نحن فلن نقعد عن نصرة إخواننا في الدين، ومما أثار فزعهم على إخوانهم في الخرمة لما سمعوا أن المدفع قد ضربهم؛ فثارت حميتهم وهبوا سراعاً، وفي رسائل الأمير خالد بن لؤي للملك عبد العزيز: «إنك إن لم ترسل المدد؛ وإلا أرسلنا نساءنا وأطفالنا للغطغط ولنجد، ليستنهضوا الناس!».

قال ماجد بن نصّار عن عمّه هادي بن نصّار رَحِمَهُ اللَّهُ: «كانت الخرمة مكوّنة من السّوق ـ وكان فيه أكثر النّاس ـ وحوقان والسّلمية، وأولُ من تديّن في الخرمة، هم أهل حوقان قبل السّلميّة بسنة، ومن أول من شارك في نشر الدعوة السلفية سليمان الطّويل الدميجي (ت: ذي الحجة ١٣٥٤) حيث أتى بكتب من القصيم إضافة للكتب الّتي عندهم من العارض من نجد ـ وممن كان يجلبها من الرياض شبيب بن جميع القريشي ـ ومِمَّنْ بدأ في التدين كذلك ابن سرماد الشّريف والتومان الأشراف، وناصر بن حسين العلوي من بني عمر، فبدأ به أهل حوقان، ورؤوسهم السّراميد، وهم أهل العلالي والقصور، وكان من أراد الخير ذهب إليهم واستفاد من علمهم ودعوتهم، وبدأ الخير يزداد شيئاً فشيئاً، حتّى انتشر في النّاس، وأصبح الناس فريقين، بين عامي: (١٣٣٤) و(١٣٣٥).

هرسان، ورجل يقال له حطّاب، ومشرع بن كريميع أو كريوين وهو الوحيد من الخيّالة الّذي استشهد في تلك المعركة. وفرّقوا الرّصاص بينهم من الخِرْج، قائلين: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] ويكرّرونها، وصاح محسن: والله ليأتينّ إسلامٌ يلحق أهلهم[١] أو كفرٌ ليوم القيامة، يا أهل التوحيد يا عصابة راسي! ثمّ أطلقوا النّار على جيش الشريف الّذي يفوقهم بستين ضعفاً ــ كما رُوي ــ ولكن من نصر الله نصره الله ومن غالب الله غُلِب.

يَا مَنْ يُرَجَّىْ لِلشَّدَائِدِ كِلِّهَا   يَا مَنْ إِلَيْهِ الْمُشْتَكَى وَالْمَفْزَعُ

أمّا الإخوان الّذين كانوا في السّلميّة، فقد كانوا مجتمعين عند الأمير مفرح بن شارع أمير بني ثور من سبيع، قد تحلّقوا في مجلسهم على نارهم، وقد شربوا الطّبخةَ الأولى ـ أي قهوة الصباح ـ ونحروا بعيراً للغداء، وقد طرحوا عنه جلده، والشّمس قد طلعت وارتفعت قِيْدَ العَصَا، وألقت بثوبها العسجدي على الشعاب المرمرية والكثبان الفضية للوادي الكبير، وبيناهم في حديثهم المعبق بالآي المُلهمات الكريمات والأحاديث النبوية العاطرات، في شجونٍ من أخبار وقصصٍ ووصايا؛ إذ سمعوا مثل الدّبكة ـ أي الوجبة والضربة بصوت مرتفع ــ من بعيد، من جهة أعلى البلد أي حوقان، فاستنصتهم مفرح فسمعوا الوجبة الثّانية، فعلموا أنّ جيش الباطل قد وصل. وبدأ بدكّ معقل الموحّدين في حوقان! فهبّوا سراعاً

(١) أي يعيش في ظله أناس آباؤهم لم يتزوجوا أمهاتهم بعد.

يقولـون: يـا أهـل التّوحيـد وقـد جعلوهـا عـزوة لهـم وشـعاراً، بـدلاً مـن اعتزائهم بالإبل أو الخيل أو النّساء[١] وتركوا بعيرهم بحاله ـ وَخَلَفَهُمْ عليه من لم يُنحر له ـ وانقسموا لفريقين، فالفرسان مع الحزم من الجهة الشّمال غربيّة، أمّا ثقل الجيش والإبل فمع بطن الوادي وأسرعوا السّير لإنجاد إخوانهم.

عَسَى فَرَجٌ يَأْتِي بِهِ الله إِنَّهُ   لَهُ كُلَّ يَوْمٍ فِي خَلِيقَتِهِ أَمْرُ

أمّا أهل القصر فقد أخذ زمام قيادتهم فيصل بن عبد الله القريشي، ومعهـم والـده، وغالـب بـن مـصقال القريـشي، والـشّياهين، والـشّلاوا، والحلاحلة، وكان مجموعهم ثلاثين، وقسّمهم إلى مجموعات، فعشرة في مواجهة المدفع، وعشرة يرمونه من اليسار، وخمسة من اليمين، والخمسة الباقين في الخلف لحفظ ظهور أهل القصر من تدخل أهل السّوق، حتّى لا يفاجؤنهم من خلفهم فيطعنون ظهرهم وقت حَمْيِ الوَطِيسِ.

فضرب المدفع ضربته الأولى فأطارت حَمَامَ القصر[٢] ثمّ زفر المدفع بالضّربة الثّانية؛ فأطارت السّطح وهدمت جزءاً من قصر آل مبارك، ثمّ الثّالثة؛ فخرقت الجدار ثمّ خرجت من الجهة الأخرى لعليّة سليم، وكان

---

(١) وأحسن من عزوتهم هذه استعانتهم بالله في قولهم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ لأنّها استعانة بالله وذكر له،كما أنّها عينُ ما قاله رسول الله ﷺ وأصحابه في بعض غزواتهم.

(٢) الحمام: هو زخارف توضع فوق القصور الطّينية على شكل هرميّ صغير.

فيها فيصل بن نايف الّذي أصيب، وغالب بن مصقال الّذي استشهد، فشربت الأرضُ الإخوانَ من الخوف! لكنّهم ثَبَتُوا بعون الله لهم وتوفيقه:

يـوم المكـاين دنـدنت مـا جنبـوا   نـادى المنـادي يـا هـل التوحيـد

وَحَمِيَ حزب الشريف، وأسكرته نشوة البداية، وزمجر مدفعهم على رؤوس الإخوان[1]، وكان الإخوان ينشدون:

بـانت البيّـنة والـدّين ديـن الله   مـا مـشينا في ديـن الـرّب كذّابـة
يا سلامي على من كان طاع الله   واتبـع ملّـة إبـراهيم واصـحابه

وأوّل رصاصة أطلقها الإخوان كانت من يد محمد الأُعيسم[2] وسلّط الله تعالى الرّصاصةَ وأرسلها على رقبة العبد الّذي يصبُّ القهوة لسيّدِهِ الشّريف ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] وكان الشريف حمود بن زيد قد فُرِشت له البسط، وتحلّق كبار قوّاده عليه، ولمّا ذكّت رصاصة الأُعيسم ذلك العبد، انتثر الدّم وطشّ على حمود بن زيد فتشاءم، وتشاءم قوّاده من هذه البداية، فأنزل الله تعالى الدّبرة والهزيمة عليهم، وركبهم رصاص خيّالة التّوحيد ورجاله.

(١) ومكان المدفع هو خزان مشعان الرويس حالياً في عالية حوقان، وكانوا يسمّونه: سيح المدفع، وسرحة المدفع.

(٢) قال عنه ذعار بن مناحي وهو يحكي قصته: (لا والله اللي يستاهل خرفة حوقان) أي: إنه لمن يستحق خُرفة حوقان لدفاعه عنه.

يقول عيّاد الحلحلي العتيبي[١]: والله لقد كنت معه في مجلسه في خيمته حين نحرت الرّصاصة العبد، فألقى الله في قلوبنا فزعاً ورعباً عظيماً، والكثير منّا فزع من فوره لذلوله لا يلوي على شيء.

ثمّ إنّ قنّاصاً من الإخوان ضرب رامي المدفع ففجر رأسه، ثمّ ثنّى على مساعده فألحقه به، وثار الهيْج، فألقى الله الرّعب في قلوب أهل الباطل والبغي، فهربوا وتركوا متاعهم وطعامهم، وركائبهم فلمّا رأت خيل الشريف أنّ الرّجّالة هربت، اتّبعتها هاربة، تاركة خلفها ثلاثمئة بعير موَقّرة الأحمال سلاحاً وطعاماً، كلّ خمسين بعيرٍ في مقطر، ثمّ إنّ الإخوان أحرقوا ذبائح الأعداء وأكفؤا قدورهم لأن القوم ــ في نظرهم ــ كفار وذبائحهم ميتة لا يحلّ أكلها.

فنصرهم الله تعالى، وأنزل مدده وجنده، وقُتل ثمانية وعشرون رجلاً من جند الشريف، وهرب الباقون على رأس حمود بن زيد الشريف، وغنم الإخوان الغنائم الوافرة، ولم يستشهد من الإخوان إلّا اثنين[٢].

---

(١) والد حثيري الذي أدركهم وشاركهم وقد جاوز عمره اليوم القرن أمده الله بعافيته وتوفيقه من الرواة في هذه المقالات ـ وكان مع الشريف ثمّ عاد للحقّ.

(٢) أرسل بعدها خالد بن لؤي رسالة للملك عبد العزيز، وفيها: «... وددنا لو أن ربعنا يهديهم الله، ورفضوا وتجمعنا أسفل ديرتنا وعلوّها، وهم تجمعوا في مثناتها ــ أي وسطها ــ والله ما درينا والطراد بيننا وبينهم حامي، نهار السبت، نهار واحد وعشرين من الشهر قبل طلعة الشمس، إلاّ والمدفع يثور علينا على قصر حوقان....وأعاننا جليل الملك عليهم وكسرهم وكسرناهم وذبحنا منهم ثمانية =

ولمّا هرب جيش الشريف لامَهم من لامهم في الحجاز وقال: كيف تهربون من خمسين رجلاً؟ فقال زعيم حزب الشريف من أهل الخرمة: ليس هؤلاء من طردنا! فأصحابي أهل الخرمة أعرفهم واحداً واحداً، ولكن أتانا أكثر من ألف فارس عليهم ثياب بيض على خيل صفر من السماء، فطردونا حتى أقبلنا على جبل حضن! قلت: إنّ صحّت هذه الرّواية فهي الملائكة عليهم السلام، وأهل السّنة لم يشترطوا نزول الملائكة مع الأنبياء بل مع أتباعهم عند حاجتهم إلى يوم القيامة، كما قرّره شيخ الإسلام وغيره، والله غالب على أمره.

يقول غالب بن فهيد بن شاهين الشريف: كنّا أهل القصر ثلاثين، وجاء خالد بمن معه وكانوا خمسة وعشرين، فاستوفينا العدد خمسة وخمسين فقط، في مقابل كتيبة الشّريف الّتي قوامها ثلاثة آلاف ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠] وكان مع الشّريف شاعر وكان يقول:

يا لله انك لا تعاون خالد   من يحب الله يقول آمين

= وعشرين رجلاً، وأخذنا المدفع ومكينتين.....وظهر الأشرار الذين في الديرة معارضينهم يوم كسرهم الله، وخلّوا الخرمة وهربوا، وباقي سبرتهم وأشرارهم اجتمعوا في تربة....» (لسراة الليل: ١٤٧).

ومن رد الملك عبد العزيز عليه واعداً إياه بالمدد، بتاريخ: (١٨/رمضان/١٣٣٦): «....والله لو يظهر عليكم من الشريف عشرة رجال أو ألف؛ إن نجيكم نحن وأهل نجد بالجمل وما حمل!». (المصدر السابق: ١٥٧).

جـــرها بـــين الولـــد والوالـــد لـين خـاب مـن الـشرف والـدين

قلت: نعم فرّقت بينهما لا إله إلّا الله، كما فرّقت قبلهم بين الصّحابة وآبائهم الكفّار.

فَثِــبْ وَاثِقــاً بِــاللهِ وَثْبَــةَ مَاجِــدٍ يَرَى المَوْتَ في الهَيْجَا جَنى النَّحْلَ في الفَمِ

وبعد معركة حوقان وقف خالد على هذا الشّاعر وهو مجندل تحت نجوم السّماء، قد التوى ميتاً على شجرة فقال: أهذا صاحب البويتات؟!

ووجدوا مع الغنائم أربعين سلسلةً،كان الشّريف قد أمر بأن يُقرن فيها جميع كبار الإخوان، كخالد بن لؤي ومفرّح بن شارع بن هليّمة وناصر الحارث ومنير الحضبي وماجد بن جروة وسعيد بن هميل، ويؤتى بهم إليه مشاة حفاة إلى مكة مقرّنين ذليلين صاغرين لكن أبى الله ذلك.

وبقي المدفع واسمه سرهيد لا يَعرفُ الإخوان كيفيّةَ استخدامه، فسحبوه وأدخلوه القصر حتّى أتاهم سعد بن سهل الرويس من الغطغط ودربهم عليه فقد كان من جنود الشريف سابقاً.

وبجانب السّور كان هناك قصر سليمان الدميجي، في بستانه (معجبة) وكان غائباً في القصيم قبل أن يعود ويشارك مع الإخوان في معركة تربة لاحقاً، فدخل اثنان من الإخوان إلى القصر، وهما حمود بن مبارك وعبّاس بن شاهين، ليضعوه في حمايتهم وصعدوا لسطحه، فهجدهم بعض أهل السوق من حزب الشريف، وأطلقوا النار على أهل القصر فصاح أحدهم في الإخوان يسبُّهُم ويشتُمُهُم ويهدِّدُهم بالقتل وقال:

اخرج يا عبّاس يا خرث الرِّجْل ـ لعرج فيه ـ لأقتلنك قبل الصباح، وكان الظلام دامساً فلا يرى بعضهم بعضاً، وفي حركة هوجاء أحرقوا في زرائب البستان بقصد إتلافه وترويع أهل القصر، وغفلوا عن أنّهم انكشفوا على ضوء النّار لقنّاصة الإخوان، فما راع ذلك الرجل إلا وعباس قد صوّب البندقية جهته واستعدَّ لرميه، فتدرّأَ بنخلةٍ كانت بينهما، ولكنّ الرّصاصة اخترقت النّخلة ثمّ قتلته، وبعد قتله هرب الباقون، وقد وقفتُ على تلك النخلة ومضرب الرصاصة مخترقها!

وفي الصّباح سحب الإخوان جُثّة الرجل وأخذوا يَعْرِضُون عندها ـ أي يرقصون رقصة الحرب ـ والأمير خالد بن منصور يقول:

عقّب اللي يوم يجرون المدافع — ما حمى في دين رب العالمين
من قعد ما عاد نبيله منافع — بنعده من حساب الميتين[1]

❁ ❁ ❁

---

(١) بوّب البخاري رحمه في كتاب الجهاد من صحيحه: (باب: الرّجز في الحرب ورفع الصوت في حفر الخندق) وساق حديث البراء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، لمّا ذكر ارتجاز رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يوم الخندق بِرَجَزِ عبد الله بن رواحة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ:

(اللّهم لولا أنت ما اهتدينا — ولا تصدّقنا ولا صلّينا
فأنزلن سكينة علينا — وثبت الأقدام إن لاقينا
إنّ الأعْدَا قد بغوا علينا — إذا أرادوا فتنة أبينا)

يرفع بها صوته.

مناوشات الدّفعة (السوق)

يعتبر السّوق ويسمّى الآن بالسّوق القديم واسطة عقد البلد ومكان تبايعه، وهو أقدم مكان سكني معمور في الخرمة، ويقع على طرف الوادي على الجهة الغربيّة ليس بينهما إلّا بساتين قليلة.

وبعد معركة حوقان دخل الإخوان القصر (قصر حوقان) وأطلقوا المرأة التي أسروها مع القافلة، وأرسلوها برسالة صُلْحٍ ودعوة لأهل السوق، وقال لها الأمير خالد: اذهبي لهم يا وقولي لهم: يأتوني ظالمين ويعودون سالمين، إلّا ماشيتهم فليست لهم[١].

فذهبتْ لهم وأخبرتهم الخبر وأبلغتهم الرّسالة، فغضب أحد كبارهم وشتمها وضربها بالمشعاب ـ أي الهراوة ـ على رأسها وقال: يا فاعلة! ويا كذا، وفعلوا بك كذا وكذا! والآن جئتي تخوّفين الرّجال، فقالت: لا تضربني يا فلان عسى يضربك العدو.

ثمّ إنّ خالداً أرسل الفارس المشهور منير الحضبي الثوري، ليدعو بني عمومته للدّخول في الدّين، وأن يتعاهدوا جميعاً على إقامة الشريعة، وأنّ البيعة تكون على الكتاب والسّنّة. فذهب لهم خيّال (سرّا) وهي

(١) ولو أنّه ترك أموالهم لهم لكان أدعى لإقبالهم وتأليفهم، فكيف يسلم البدوي ناقته التي يسترخص كل دنياه عندها؟! مالم يكن هناك مقابل أثمن وأسمى منها! والمؤلفة قلوبهم لهم سهم من الزكاة فضلاً عن رد الأموال لهم. والترغيب مقدم على الترهيب، والجزرة قبل العصا، ولعل لخالد نظرة أخرى لم تتبين لنا والله أعلم.

فرسه، فأتاهم ودعاهم بالحسنى، فردوا قوله عليه بأن قالوا: تكلّم يا حطّاب ــ ولعلّه مجنون سخرية بمنير ــ فقال منير: أنا أخو نورة أهديكم للإسلام والمسلمين وتقولون تكلم يا حطّاب! فأخذت امرأة منهم عموداً وهي زوجة الرجل الذي ضرب المرأة بالهراوة، فضربت فرسه ضربة شديدة كادت تفتك بها، فقال منير غاضباً: «أنا خيّال سرّا! والله لئن أحياني الله ليعرقنّ مركبي من حربكم يا.....» ثم لوى عنق فرسه وعاد للإخوان.

وَمِنَ البَلِيّةِ عَذْلُ مَنْ لَا يَرْعَوِي   عَنْ غَيِّهِ وَخِطَابُ مَنْ لَا يَفْهَمُ

وحينما أمسى الليلُ أهلَ السّوق، سروا مع مسيل الوادي بأهلهم، وتركوا بعض القنّاصة خلفهم، اثنان استسلما وتديّنا في الآخر أمّا الثالث فقُتل قتلة رديئة لأنه نزل من القصر على أمان أحد الإخوان، فلمّا نزل هجم عليه رجل آخر من الإخوان فقتله على ثأر كان بينهما وذِحْلٍ في الجاهليّة، فلامه الإخوان على خفر ذمّتهم على إِحَنِ الجاهلية، ومهما كان تبريره فقد ارتكب منكراً بخفر ذمة أخيه المسلم. وذمة المسلمين واحدة ويسعى بها أدناهم[1].

---

(١) قال العلماء: ولو أن امرأة من طرف المسلمين أمنت حربيّاً لوجب إبرار ذمتها. وفي حديث معاوية والزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**الإيمان قيد الفتك**» رواه أحمد. وقد أقر صلوات الله وسلامه عليه إجارة ابنته زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لزوجها أبي العاص بن الربيع قبل إسلامه.

وكان دخول الإخوان للسّوق بعد أسبوع تقريباً من معركة حوقان، وقد أرسل الشريف دعماً من سلاح وذخيرة لأهل السوق لكن تلقّفَهُ الإخوان وغنموه.

إذا لم تكن ليثاً على الأرض أطلساً كثير الندى بالت عليك الثعالب!

وأخذ مفرح في نداء الناس ومن أجابه دخل مع الإخوان مباشرة، وفي الصّباح أغار الإخوان على السّوق ، ولم يجدوا فيه سوى هؤلاء الثلاثة ورابعهم رجل من أفتك الناس وأشجعهم وأرماهم وكان لا يزال في القصر.

ثمّ إنّ الإخوان من حوقان وافاهم إخوانهم من الصّملة في السّوق، فرمى ذلك الفاتك ابنَ ندانٍ الصميلي فقتله، وألحق به روضان الثوري، ثمّ أتبعهما بثالث! مع أنّ الإخوان كان ينادونه بالأمان إن سلّم نفسه، لكن أبى حظُّهُ العاثر إلّا المنيُّة الحاضرة، ولمّا رفع رأسه يبحث عن ضحيّةٍ رابعة، إذ رامٍ من الإخوان قد جهّز حتفه وعجّل حِمامه، فرماه برصاصة أطارت قُحْفَ رأسِه من فوق القصر وفجرت دماغة، فخرّ صريعاً لليدينِ وللفمِ. وهذا القتيل قد كان سابقاً يستهزئُ بالأذان فكان إذا سمع المؤذّن أخذ يلاحيه ويسخر منه، فدعا عليه غالب بن ناصر بن لؤي وكان الأمير في ذلك الوقت، وقال: غيّر الله صوتك جزاء ملاحاتك للمؤذّن، فابتلاه الله بمرض الشجر فأكل أنفه. ولمّا وَلِيَ الإخوان السّوق فرحوا به كأنهم قد ولوا الطّائف.

ثـم أمدّهـم الله بإخوانهم مـن أهـل الغطغـط البواسـل، ويُقـال إنّ أوّل سريّةٍ وصلت منهم هي سريّة سعد بن سهل الرّويس العتيبي في ثمانين من إخوان الغطغط، منهم محسن بن رجاء الّذي قُتِلَ بعد السّبلة مع ابن بجاد رحمهما الله، بل لعلّ هذه السريّة كانت بقيادته، ومعهم مقعد الدّهينة أمير المساعيد من الغطغط، الّذي خرج على الإمام عبد العزيز فيما بعد، ثـمّ رجع تائباً فعفا عنه، وكان قدومهم بعد معركتي حوقان والسّوق فشهدوا معركة جبّار وما بعدها، والله أعلم.

وبعـد حوقـان كتـب خالـد بـن لـؤي للإمـام عبـد العزيـز يستنـصره لإرسال قوّة تدافع عن الخرمة ضدّ هجمات الشريف وألـحّ عليه بذلك وأغلظ له القول. وقديماً قالت العرب: قد ذل من لا ناصر له، ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه يهدّم..

تَعْدُوا الذِّئَابُ عَلَى مَن لَا كِلَابَ لَهُ ... وَتَتَّقِي صَوْلَةَ المُسْتَأْسِدِ الضّارِي

وفي تقرير (جون فلبي) رئيس البعثة المُوفَدة إلى نجد سنة: (١٩١٨م) ذكر «إن الشريف قد غزا الخرمة بالقوّة الأولى غضباً على الإخوان من أهل الخرمة وزعيمهم خالد الّذي طَرَدَ القاضيَ المُرسل من قبل الشريف، وبعد الموقعة أرسل خالدُ الرسولَ للإمام عبد العزيز ليبشّره بالنّصر، ومع مرور الرّسُلِ بـالغطغط دعـوهم للنّصرة فلبّوهـا سِرَاعـاً وأرسـلوا فريقـاً قويّـاً، وضـجّت الرّيـاض تطلـب الحـرب مـع الـشّريف، وعـلى رأسـهم الإمـام عبـد الـرحمن والـد الإمـام عبـد العزيـز، لكـن عبـد العزيـز قـاوم الـضّغط

الشّديد عليه، واستدعى فريق الغطغط وأرسله دعماً لابنه تركي في حربه شمّر! وكتب إلى خالد بن لؤي: أنّهُ قائم بالاحتجاج عند البريطانيين ضدّ الشريف، ثمّ إنّ الشّريف غزاهم مرّة أخرى ودحروه، ثمّ أرسل خالد إلى عبد العزيز: إنّك إذا لم ترسل النّجدة فسيضطرّ أهل الخرمة لإرسال أطفالهم لطلب مساعدة أهل نجد، فكتب له عبد العزيز: أنّهُ لا زال يبحث مع الحكومة البريطانية هذه الأزمة، وأنّه في حالة توقّعِ هجوم ثالث فسيهبّ لنجدتهم.... »[1].

وبعد أربعة عشر ليلة هجم أهل السّوق الّذين كانوا قد خرجوا منه على الإخوان هجوماً صادقاً شديداً، من طلوع الشّمس إلى مغيبها بلا انقطاع، وتفجّرَ أكثر السّلاح من حرارة الرّصاص وغزارته، ولم يَعْتُقْ ويصمد معهم من السّلاح السّليم غير البنادق أمّهات إحدى عشر، وصَدَقَ الإخوان اللّقاء وصبروا، حتّى دفع الله أعداءهم عنهم، فسمّيت

---

(١) ومن رسالة الملك عبد العزيز للملك حسين بتاريخ: (١٣٣٦/١١/٧) وفيها: «.... ثم لا بد حضرتكم متشكك أن لي في أمر أهل الخرمة سبباً؟ لا ورب إبراهيم ومحمد! فأنا من العام الماضي لكم عليهم....» (لسراة الليل: ١٣٥). والغريب أن الملك عبد العزيز قد رد على خالد بن لؤي لما ألح عليه بالمساعدة ــ وقد مرّت قريباً ــ واعداً إياه بالمدد، بتاريخ: (١٨/رمضان/١٣٣٦): «....والله لو يظهر عليكم من الشريف عشرة رجال أو ألف؛ إن نجيكم نحن وأهل نجد بالجمل وما حمل!». (المصدر السابق: ١٥٧). ولكنها السياسة النفعية! وانظر كذلك: الوثائق الريطانية: (٧٦٧/٣) ورسالة ابن لؤي: (٣/ ٨١٢) ثمّ رسالة الإمام لفلبي: (٣ / ٨١٨).

معركة (الدفعة).

وأُصيب في ذلك النهّار نايف بن منصور الشريف، وسلطان بن خالد الشريف، في آخرين كُثُر من الإخوان.

وبعدما انهزم أولئك وتراجعوا، استفزعوا بالشّريف الّذي أرسل لهم كتيبة عظيمة، حتّى لاقوا بها الإخوان في معركة جبّار، ومن لُطْفِ الله تعالى أنّ أَمْدَادَ أهلَ الغطغط قد وصلت أوائلها، فثبّت الله أقدام الإخوان.



حادثة مقتل بعيجان بن منصور رَحِمَهُ ٱللَّهُ

بعد معركة السّوق (الدّفعة) وقبل معركة جبّار، وفي أثناء مرابطة أهل الغطغط في الخرمة، وبناءِ خالد للهجرة سنة: (١٣٣٦) ونزلها الإخوان حدثت مشكلة ذات عُبَرٍ كادت تفتك بتجمّع الإخوان وائتلافهم لولا رحمة الله الذي جعل الأمر في يد المجرّب الحكيم خالد بن لؤي، ووفقه للخروج بالإخوان منها، تلك هي حادثة مقتل بعيجان[١] بن منصور أخو الأمير خالد، فبعد مجيئ أهل الغطغط لهجرة خالد بن لؤي، خيّموا تحت أثلة عظيمة، وبعد أيّام شكّكَ بعضهم في ولاء بعيجان بن منصور بن لؤي للإخوان والتّوحيد، واتّهمه بعضهم بالنّفاق بدون دليل، وهذ من أثر الحماس غير المنضبط، ولعل السبب هو غلظته عليهم في التّعامل، فقال سعد بن سهل الرويس: أنا طبيبه! وكان كلاهما في الغاية من النُّبل والشّجاعة والفروسيّة والحذق في الرّماية، ولكن كان في خلق بعيجان خشونة وشراسة. ولمّا ضاق من صَلَفِهِ بعض إخوان الغطغط شكوا ذلك لابن سهل العتيبي الّذي مرّ ذكره، وتداولوا الرّأي وقالوا: إنّه قادم للتّو من الشريف، وهو الآن يؤذي الإخوان، من ينتدب لقتله؟ فعزم ابن سهل على قتله! فوضع ابن سهل شارة[٢] عند قصر بعيجان، وأخذ يرميها بالبندقيّة، اختباراً وإغضاباً لبعيجان الّذي خرج مغضباً، وقال: أنا

---

(١) اسمه ناصر ويلقب بعيجان وغلب لقبه اسمه.

(٢) الشارة: هي الغَرَض الذي يُرمى بالسّلاح.

لست بشارة، لَتَكَفُّنَّ عن ذلك أو لأرمينّكم رمياً ليس برمي الشّارة! ثـمّ دخل بيته وصلى الضحى، ثم اضطجع خلف زربة له[١] فلمّا وضع جنبه رماه ابن سهل برصاصة في رأسه فقتله! فانزعج الإخوان! وثارت حميّة بعضهم، وكادت عراهم أن تنفصم! وصار الحال كما قال العباس بن الحسن: من كان كله لك كان كله عليك.

ولا شكّ أنّ هذا التّصرفَ الأرعن قد بلبل الأمور، وكاد يعصف بوحدة جند الإيمان، ويفرّقهم، لولا لطف الله تعالى، ثمّ حلم وحكمة خالد، الذي فقأ عين الفتنة، وأخمد أوارها، وقد كان طبيب زمانه رَحِمَهُ اللَّهُ، لذا فمن حين وصول خبر الفاجعة إليه كان عنده بضعةٌ من الإخوان القريشات الّذين ثاروا وطالبوا بالقصاص فوراً، لكنّه نهرهم بشدّةٍ وقال: هل هو أخي أم أخوكم؟ قالوا: بل أخوك. قال: إذن الشّرعَ الشّرعَ.

وفعلاً جعل الحديد والقيد في قدمي ابن سهل، وحبسه في أم الكُرْش[٢] ثمّ حاكموه إلى الشّيخ فقال: القاتل يُقتل مع وقف التنفيذ؛ حتّى يغتسل محمد بن بعيجان من الجنابة،كناية عن البلوغ، فلعله يعفو أو يأخذ الدّية[٣].

---

(١) الزربة: هي حائط وساتر من جريد النّخل، والجمع زرائب.

(٢) أم الكُرْش: اسم سجن الإمارة، وفيه دُويبةٌ تؤذي من مرّت عليه في ذلك السّجن يسمّونها (الكُرْش) فسمّي بها.

(٣) فالقصاص لا يتبعّض، فلو عفا عنه أحد أولياء الدم سقط، وعُدل عنه إلى الدية، أو الصلح.

ولا خـير في حلـم إذا لم تكـن لـه بـوادر تحمـي صـفوه أن يكـدرا
ولا خـير في جهـل إذا لم يكـن لـه حلـيم إذا مـا أورد القـوم أصـدرا

ثمّ ذهب خالد إلى العطيّب بن بعيجان، وكان قد احتزم بالبندقية كي يقتل قاتل أبيه، فحضنه وضمّه وصاح فيه قائلاً: إن قتلنا ابن سهل والله لتتركنا الرّجال، ولينسحبوا عنا ولينفردنّ بنا الأعداء! ولكن خذ الشّرع من ابن سهل، وأبوك قد مات ولن تعيده بقتلك الرّجل، فألقى العطيّب البندقية، وَوُضع القاتل في الحبس[1]. وكأنما عنى الحسن بن سهل خالداً حينما قال المقولة الشهيرة: لا يصلح للصدر إلا واسع الصدر. وفي هذا عِظه واعتبار لخطر انشقاق الصفوف بسبب بعض التصرفات الحماسية غير المنضبطة التي قد تعصف بالمؤمنين من حيث أراد المتحمّس نصرهم!

وبعد أيّام ثارت معركة جبّار، فكان ابن سهل يقول لهم كما قال أبو محجن الثّقفي لزوجة سعد بن أبي وقّاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: أطلقوني حتّى أقاتل العدو، فإن مُتُّ فهو ما تريدون، وإن سلّمني الله فوالله لأعودنّ حتّى أضع رجلي في القيد! وقال بحاله ما قاله أبو محجن بحاله ومقاله:

كفى حزناً أن تلتقي الخيلُ بالقَنا وأُتـرك مـشدوداً عـليّ وثاقيـا
إذا قمت عنّاني الحديد وأُغْلّقتْ مـصارعُ مـن دوني تـصمّ المُناديـا

---

(١) قيل: إنه قُتل أخيراً وهو راع لإبل محمد بن عبد العزيز آل سعود «بشّر القاتل بالقتل، ولو بعد حين». وقيل: بل قد استشهد في الخرائق وهو على صهوة جواده مقبل على العدو، رَحِمَهُ اللَّهُ.

ولله عهــد لا أخــيس بعــهده　　　لئن فرّجَتْ عني أن لا أزور الخواليا

فأطلقوه فرأى النّاس منه العجب فكان لا ينبطح عند ثوران النيران، ولا يُدبر، ولا تخطئ له رميه، فبلغ قتلاه في ذلك النّهار سبعة[١] وقيل أكثر من ذلك من جيش الشّريف ثمّ عاد لقيده، وكلّما ثارت حرب أطلقوه ففعل الأفاعيل بأهل الباطل.

والنـاس ألـف منهمـوا كواحـد　　　وواحـد كـالألف إن أمـر عنـا

ثمّ إنّ علّوش بن خالد بن حميد[٢] قال لخالد لمّا وصل من الغطغط ورأى ابن عمّه في السجن منتظراً السّيف، وكان قَتْلُهُ لبعيجان على تأويل وليس عن دنيا، فقال لخالد: يا خالد اعلم أنّا لم نعلم بما كان يريده ابن سهل، ولم نرض بفعله، ولكن إن قتلتموه والله لا نشعل عندكم وقيدة! أي لا نبقى معكم ليلة. وذهب خالد للعطيّب وقال: يا ولد بعيجان! فقال: سمّ[٣] فقال: ماذا لي منك؟ قال: كلّي لك. فقال: أعتق ابن سهل. فأتاه ثمّ جزّ ناصيته، وقال: تحاسب أنت وبعيجان، فأطلقه. وأطفأ الله

---

(١) وهو الأقرب.

(٢) علّوش بن خالد: قائد الإخوان أهل الغطغط من قبل سلطان بن بجاد، وقد جاء قائداً للسّرية الثّانية، وضم معها السرية الأولى، فصار هو القائد العام لكتائب أهل الغطغط في الخرمة، وحضر معركة الحنو، وما بعدها. كانت نهايته السجن مع سلطان بن بجاد وآخرين بعد معركة السبلة عام:(١٣٤٧) وقيل: إنهم قتلوا في الدهناء بعد سجنهم بسنين، والله أعلم.

(٣) سَمّ: هي كلمة يعتبرها أهل نجد أرقّ من كلمة نعم ومعناها تفضل قل ما شئت.

الفتنة بعد ما كادت، رحم الله العطيب وأبيه.

وَمَا قَتَلَ الأَحْرَارَ كَالعَفْوِ عَنْهُمُوا وَمَنْ لَكَ بِالحُرِّ الَّذِي يَحْفَظُ اليَدَا؟

❁ ❁ ❁

معركة (جبّار) (الرّضم ـ أبو بغيث)

(١٧ رمضان ١٣٣٦ وهو الموافق ليوم غزوة بدر الكبرى)

بعد معركة حوقان وانكسار أهل السّوق في الدّفعة، جهّز الشّريف جيشاً آخر، لعلّه يردّ له كرامته وهيبته بعدما مرّغها إخوان من أطاع الله في التراب، فجهّز جيشاً بقيادة حمود بن زيد بن فوّاز[1] ولسان حال الإخوان:

إِنْ عَادَتِ العَقْرَبُ عُدْنَا لَهَا وَكَانَتِ النّعْلُ لَهَا حَاضِرَة

واجتمع مع حزب الشريف من لم يحضروا معركة حوقان[2] واشتدّ الكرب على الإخوان ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥،٦] ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢] فرحمهم الله تعالى بوصول مددٍ من إخوانهم أهل الغطغط، أقبلوا كالغمائم قد سدلوا العمائم، فأرسل سلطان بن بجاد بعد استنجاد إخوان الخرمة،كتيبة قوامها مئتين، وقيل ثلاثمئة، وقيل ثمانين وهو الأشهر، عليهم سعد بن سهل الرّويس[3] ــ كما مرّ ــ ومعه المتيّن من الدعاجين، ومعهم عبد الهادي المقاطي[4] فحضروا جميع

---

(١) حمود بن زيد: قائد جيش الشريف الّذي هُزم في حوقان.

(٢) كان الناس في ذلك الزمان يسمّون المعركة (كون) والجمع (أكوان).

(٣) الذي قَتَلَ بعيجان بن منصور لاحقاً.

(٤) عبد الهادي: يُذكر عنه أنّه رفع صوته بالتّكبير في بداية المعركة وقال: لا إله إلّا الله، =

مغازي الإخوان، ولم يفتهم غير حوقان والسّوق، والتقى الجيشان ونصر الله أهل الحق والتوحيد. ويُقال إنّ أوّل من رمى برصاصة في جبّار[١] هو الأمير مفرّح بن شارع، إذ أنّه كبّر، ثمّ رمى حامل راية الشّريف، فصرمت الرّصاصةُ يدَهُ، وكَسَرَتِ الرّايةَ فسقَطَتْ، ثمّ ثارت عَجَاجَةُ الخيل، وَرَهَجَتِ بفرسانها، وتعانق الفرسان، وتطاعن الأقران، وتقطعت السيوف، وتكسرت الرماح، وردّد الوادي صدى الرّصاص والتّكبير، وحمي لهيب الرّصاص بين حزب الرحمن وحزب الشيطان، وأمر مفرح عشرة من القنّاصة[٢] على طرف الوادي في رأس الجُبُوب[٣] وقصد بذلك أن يصيدوا الجيش عن قرب إذا مرّ بهم، وما علموا أنّ رجّالةً من جند الشّريف قد أتوهم من خلفهم، فغدا الصائدُ مصِيداً، فأتوا مع (اللّوي)[٤]

= بيعة يا إخوان بيعة! أي بايعوني على الموت! فتقدّمَ الصّفوف حتّى ألهبه الرّصاص وخرّ شهيداً، رحمه الله.

(١) كانت رحى المعركة في بطن الوادي، لذا فاختلفت مسمياتها، فمن نظر للجهة الغربية من الوادي (جبار) ألحقها به، ومن نظر للجهة الشرقية (الرضم) ألحقها به، كذلك (أبو بغيث) وهو شعب قريب منهما.

(٢) ومنهم محمّد بن عبد الله بن مزينة، وغالب بن حمود، وذعار بن زايد، وقطيم، وعبد الله بن بطي، وفاصل بن مناحي بن زنعاف، ودهيران بن هذال، وابن حرقان العمري ـ كلّهم من بني ثور عدا ابن حرقان ـ رحمهم الله تعالى.

(٣) الجُبُوب: الجزء المرتفع من الأرض الصّلبة.

(٤) اللّوي: واد يجاور الحرّة من جهة الغرب، ويصب في وادي (حثاق) وبالقرب من اللوي خبراء الزاحمة وجبال القوس، وتنبت أرضه أشجار السمر والسلم والقتاد والخريط. =

فأشرفوا على الإخوان، فإذ ظهورهم إليهم مذابيح، فرموهم من خلفهم، فلم يسلم منهم إلّا القليل ــ رحمهم الله ــ لأنّهم أُخِذوا على غرّة، ثمّ عاد المهاجمون ودخلوا معرّة جيشهم، فأمر الله بهبوب رياح النصر لأهل التّوحيد، وَكَسَرَ اللهُ جيش الباطل، وقُتل منهم الكثير[1] وَهَرَبَ الشّريف وعاد لمركز تموينه في عشيرة، يتجرّع كأس الذّلّةِ والمهانة وحسرة الهزيمة والشّنآن، وليس من قلّة في العتاد ولا في الرّجال ولا في الشّجاعة، ولكن من غالب الله غُلب.

وقُتِل من حزب الشريف سبعون، وياللهِ! لقد قاتل الابن أباه والأخ أخاه من أجل لا إله إلّا الله! وهذا هو حال الإخوان، ثمّ يأتينا اليوم من صِبْيَةِ الكُتّاب من يزعم أنّهم يريدون الدّنيا بذلك الجهاد! ياللعار والشنار!

= قال نصيب:

وقد كانت الأيام إذ نحن باللوى تحسن لي لو دام ذاك التحسن

وبالقرب من اللوي وادي اللّوا بين الذريبة والحرّة. (الخرمة، للحضبي: ٨١).

(١) من رسالة خالد بن لؤي للملك عبد العزيز عام: (١٣٣٦) ولعلّها بعد معركة جبّار: «....ونحن الإخوان تعدادنا أربعمئة وخمسين رجلاً، وظهرنا عليهم......وأخذنا جميع ما معهم من صلم ومدافع ومكاين وفشق، كما أخذنا منهم مئتي ذلول، وقتلنا منهم مئة وخمسة عشر رجلاً، وقد استشهد منا عشرة رجال منهم محسن بن تركي من الأشراف، ووالله ما عاقنا عنهم إلاّ أننا كنا مشاة وهم على جيش ــ أي الإبل الرواحل ــ وإلا كان ماهرب منهم قليل ولا كثير، ومن طرف الغنائم؛ عندنا ثلاث مكاين وثلاثة مدافع......» (لسراة الليل: ١٤١).

متَى تَصِل العِطاشُ إلى ارتواء إذا استقتْ البِحارُ مِنَ الرّكايا
ومَمْ يُثْنِ الأصاغِرُ عن مراد وقد جلسَ الأكابرُ في الزوايا
إذا استوتِ الأسافِلُ والأعالي فقد طابتْ منادمةُ المنايا

ولم يُقتل الكثير من الإخوان في معركة جبّار[1] وكان جيش الشّريف هو الوارد في البداية وقتل من الإخوان من قتل، ثمّ هبّت رياح نصر الله للموحِّدِين فدارت الدّائرة على حزب الشريف، وفي هذه المعركة استُشهد محسن بن تركي بن ماضي الشّريف، وغصن الصّميلي السّبيعي، وممن قاتل مع الإخوان في هذه المعركة شباب بن جروة ـ أمير الصملة فيما بعد ـ وكان رديفاً لوالده على الحصان[2].

وبعد معركة جبّار عاد مجموعة من أهل الغطغط لبلادهم فاستقبلهم سلطان بن بجاد غاضباً وهو يقول: تركتم إخوانكم مظلومين وجئتم تبحثون عن النّساء! والله لا ترونهنّ، فارجعوا من حيث أتيتم. ثمّ جهّزَ معهم علّوش بن حميد في خمسمئة مقاتل، وقيل أربعمئة، وذهبوا للخرمة

(١) وكأن خالد والإخوان أحسّوا فتوراً من عبد العزيز بعد معركة جبار، فأرسل خالد إليه عام: (١٣٣٦) رسالة فيها: «....أما إرسال الرجال ـ أي لطلب نجدتك ـ فلن يحصل مرة ثانية، ولكن المركوبة الثانية لك ولأهل نجد؛ والله مايركب إلا حريم......لك الله لا تجعل الران على قلبك!.....تكفى يا عبد العزيز ياوالله اللي ترديت فينا!...». (لسراة الليل: ١٤٢).

(٢) وهي أولى المعارك التي شهدها، وهو معدود من صغار الإخوان، وكان يقول: كنت رديف والدي على حصانه، وكان يرمي وأنا أرمي.

فحضروا معركتي الحنو والقرين، حتّى أدركهم سلطان الدّين بن بجاد[١] بجموعه البالغة: (١٢٠٠) مقاتل، فحضر تربة وما بعدها.



(١) سلطان بن بجاد بن حميد الكريزي البرقاوي، الملقب (سلطان الدين) الذي تولّى مشيخة برقا عام: (١٣٣٣) بعد وفاة الفارس الشهير محمد بن هندي، وتوفي عام: (١٣٥٣) رحمه الله.

معركة الحنُو

(في يوم عرفة التّاسع من ذي الحجة ١٣٣٦)

وهـي معركـة عظيمـة، وموقعـة شـديدة، استُشهد فيهـا الكثـير مـن الإخوان، ومبدؤها؛ أنّ شاكر بن زيد بن فوّاز العبدلي الشريف، وهو أخٌ لحمـود بـن زيـد وهمـا مـن أبنـاء عمومـة الـشّريف حـسين، وشـاكر يُعتـبر الـشّخص الثّـاني في القيـادة في جيـوش الأمـير عبـد الله (البيـه) وكـان مـن خاصّة الملك حسين وقد أمّره على عُتيبة، وشاكر هذا أرسله الملك حسين لسحق الإخوان وكبسهم من أسفل البلد، بينما حمود بن زيد ينحدر عليهم من علوّه، حتّى تصير البلد بين فكّي الكمّاشة. وقيل: بل كان شاكر هو من قدم عليهم في القرين أيضاً. وهذا ما تؤيّده مراسلات حسين للبريطانيين كما هو منشور في الوثائق البريطانية، والله أعلم.

قومي إذا ما لضيم حلّ بهم فهم ... أسود الشّرى في مدلهم العواتيا
يريدون بذلاً للنفوس وقد سمت ... بهم همم نحو الجنان العواليا
فئيهٍ حماة الدين جاء عدوّكم ... يريد بكم كيداً عظيم الدواهيا
فإن تستجيبوا للكفور فخبتمُ ... ألا حبذا قرماً عن الدين حاميا
وقد هبّت الأرواح نصراً ونجدة ... فحيهلاً بالحرب زادت شعاعيا

وخيّم شاكر في (دغيبجة)[1] حتّى تكاملت جموعه ثمّ ذهب بجيشه

---

(١) قرية عتيبية على نحو تسعين كيلاً شمالاً عن الخرمة.

للحنو[١] وخيّم على (مرّان) بقُرب (الحنو) وجاءته البادية أرسالاً تريد غنائم الخرمة، بل وصل بالشريف الغرور إلى أن قسّم البساتين على كبار جنده الذين معه، الذين أتوا بأهلهم ونسائهم على (الغبطان)[٢] واثقين من نزول البلد، خَلَفَاً لأهله (المديّنة) قالت إحدى نسائهم:

تـــشيّلوا ورعـــانكم وارّاح   لعـــاد تطـــرون المديـــد
قـــدامكم حـــسو قـــراح   ومخالطـــه تمـــر جديـــد

وقبل المعركة بثلاثة أيام كانت إبل جند الشريف على (اللّميسة)[٣]

---

(١) قرية زراعية كانت قديماً منهل ماء ترده الأعراب من كل جهة أما الآن فهي منطقة زراعية غزيرة المياة، تبعد عن الخرمة مسافة خمسة وعشرين كيلاً، ووادي الخرمة حينما يصل إلى الحنو يتجه شرقاً إلى عرق سبيع والخضر وكتيفان بعد أن كان متجهاً إلى الشمال الشرقي، ولذلك سمّي: (الوادي العوج).
قال الشاعر:
حلّت سليمى بذات الجذع من عدنٍ   وحلّ أهلك بطن (الحنو) من حضن
(الخرمة، للحضبي: ٤٥)

(٢) الغبطان: واحدُها (الغَبِيط) وهو الهودج.

(٣) اللميسة: بئر قديمة تقع في سمارة الحمار، شمالاً من جبال غُرَّب، وغرباً من جبال بني غَيْ، حفرها هجرس أخو فيصل الجميلي، ثم تملّكها ابن هملان السبيعي، ثم اشتراها ابن لؤي: (الخرمة: ٩٧)
قلت: وهي واقعة شمال شرق الخرمة، على مسيرة يوم تقريباً، وقد جرت بسببها قصة طريفة؛ وهي أنه قد جرى نزاع في المراعي التي حولها بين قبيلتي سبيع وعتيبة، وكانت البئر في ذلك الوقت مملوكة لأمير الخرمة حينها سعد بن خالد بن لؤي، =

و(الحمار)[1] و(الحُفَيرة)[2] فقال الإخوان لناصر بن مشاري القريشي: أرنا فعلك، فأخذ مجموعة معه فرساناً فأغاروا على إبل جند الشريف فأخذوها، وبينا هم مقتفينها يسوقونها؛ لحقتهم خيل الشريف ففكّت إبلها ثمّ رجعت بها، وكان أحد كبار القوّاد غائباً وهو من المقرّبين للشريف، فلمّا قدم أخبروه الخبر وقالوا: إنّ ابنك فلاناً لم يخرج معنا كي يردّ الإبل! وهذه من الكبائر في عرف البادية، فغضب وملأ مشط بندقيته أمّ ركبة، وقال: سأذهب حتّى أضع هذا المشط في (بني رقعان)[3] ثمّ أعود وأفرغ آخر المشط[4] في رأس ولدي فلان، فركب وركب معه خيّالة فلمّا أقبلوا

= وعلى ذلك فجهة سبيع أقوى لأن البئر مملوكة لأمير بلدتهم الخرمة. فأراد الملك فيصل بدهائه أن يسوّي المسألة ــ أو ربما ليهبها لعتيبة المقربين لديه ــ فقال لسعد وهو في مجلس الملك: يا سعد! أنا طالبك طلب، قل: تم. فقال: آمر علي ــ أطال الله عمرك ــ ولكن لا تطلب اللميسة! فقال: بل هي طلبي، وأريد أن أسبّلها سقياً ووقفاً لوالدي. فقال سعد: أطال الله بقاءك، أنت تملك السعودية من بحرها لبحرها فسبّل لأبيك ما شئت! أما أنا فلا أملك سوى اللميسة وأشهدك أني قد سبّلتها لأبي! وبذلك قطع عليه الطريق، فالوقف لا يوهب.

(١) الحمار: هضبة مرتفعة سوداء، ويقال لها: سمارة الحمار؛ لسوادها. يتوسطها ظهر مرتفع يشبه ظهر الحمار، تقع جنوب جبل ظلم، وشمال الخرمة (الخرمة: ٧٦).

(٢) الحفيرة: على الشمال من الخرمة على بعد ثلاث مراحل تقريباً.

(٣) بني رقعان: ينسب الإخوان للمعمّ الذي يلبسونه لأنه من الرقاع، أي الخِرَق، فينبزهم ويعيرهم به.

(٤) المشط: مجموعة من الرصاص وغالباً عددها خمس أو ست رصاصات أو أكثر، تجمع =

على الإخوان، رموه برصاصة وهو على حصانه ففجرت نحره، فسقط ميتاً يتشحط في دمه، فحمله أصحابه وعادوا به، وقد قال أحد أصحابه فيما بعد مبيّنا خسارتهم لشجاعته وفروسيته وقوة رأيه: والله لقتل فلان علينا ككسرة الحنو(١).

وكانت تلك المعركة عشيّة عرفة، حين هبّت رياح النصر لجند الله، وكانت جنود الشريف قد ملأت الوادي كثرةً، وقد جرّ المدافع، وأحضر الرشاشات، وجمّع الجموع، ونزل الحنو، ولكن:

وهل ينفع الجيش الكثيف التفافه   على غير منصور وغير معان؟

والإخوان لا يدرون من أين سيهجم عليهم الشريف ، أَمِنْ أسفلِ البلدة أم أعلاها؟ وقدّر الله أن أحد الإخوان ، وهو غازي بن جرمان الثوري ذهب يبحث عن ناقتين له ، ومعه ابن عمه مرزوق فركبا ذلولهما ، قاصدين أسفل الوادي حتّى وصلا (غثاة) وكانت مشهورة بشجر الأراك، وهي محَلّةٌ بالمنتصف تقريباً بين آبار الحنو وبين (أبو جميدة)(٢) فلـمّا وصلا (غثاة)(٣) سألا بني عجاج عن ناقتيهما، فأشاروا إلى جهة

= لبعضها بواسطة مخزن خارجي صغير، ينتظمها سوية.

(١) أي أن مصابهم بفقده كمصابهم في هزيمتهم في معركة الحنو.

(٢) أبو جميدة: قرية زراعية، تربتها طينية، شمال الخرمة بنحو اثني عشر كيلاً،نزلها الحميدي بن مفرح حتى وفاته رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٣) غثاة: قرية زراعية شمال الخرمة بنحو ستة عشر كيلاً، على ضفة الوادي الغربية، آبارها عذبة ومياهها وفيرة وتربتها جيدة للزراعة. (الخرمة: ٤٤)

الوادي، فتركا ذلولهما عند بني عجاج وقصّا الأثر، حتّى وجدا أثر الناقتين فتتبّعاه على أقدامهما وسارا، وبينا هما يمشيان إذ رابهما عجاج الخيل والجيش، وما راعهما إلّا وعشرون فارساً قد نزلوا عليهما من الحزم، من جُبُوب الخيل ــ ولازال هذا اسمه ــ فهربا على أقدامهما، فأدركتهما الخيل بقيادة أحد كبراء البادية وقد وضع نصل سيفه بين آذان الفرس، وهو يقول: لن أقتل (المديّنة) إلّا بهذا السّيف، احتقاراً للإخوان، فالتفت إليه غازي بعدما كاد أن يصل إليهما، فأطلق عليه النار فأطارته الرّصاصة من فرسه صريعاً، فركض غازي ولسان حاله:

تَرَكْنَا الخَيْلَ عَاكِفَةً عَلَيْهِ مُقَلَّدَةً أَعِنَّتَهَا صُفُونَا

وضرب صاحبه إحدى الخيل فقتلها، وسَلِمَ فارسُها الذي أردفه أصحابه وعادوا وانهزموا، أمّا غازي ومرزوق فأطلقا ساقيهما للرّيح بعد ما رأيا حِمام الموت، وبينا هما يركضان إذ أطلق أحد الفرسان رصاصة، فأصابت ساق مرزوق، فأسنده غازي على كتفه حتّى وصلا الذلول، ومنها أسرعا للأمير ابن جروة في السّلمية[١] الّذي أرسل من فوره فارسين ليخبرا الأمير خالد بن لؤي الخبر. ثمّ ندب خالد الصّملة للتمركز أمام العدو، وأرسل فارسين لتقدير حجم العدو ومكان تمركزه[٢] فانطلقا وهما غزّاي بن محمد الحارث، ومنير الحضبي، فلمّا أقبلا

(١) السلميّة: قرية زراعية قديمة، تقع في الجهة الشرقية من الوادي، تقع شرق شمال الخرمة بنحو عشرة أكيال.

(٢) بوّب البخاري رحمه في كتاب الجهاد من صحيحه: (باب: فضل الطليعة) وساق =

على القوم، هالتهما كثرة الجند وقوّة الجيش يجرّ ستّة مدافع، فعادا لخالد، ولمّا دخلا عليه مجلسه كان عنده جماعة من الإخوان، فقال منير: إنّهم قوم ليسوا بشيء، يريد طَمْأَنَةَ الإخوان وعدم ترويعهم، ثمّ اختصر بخالد ومفرح، وقال: إنّهم كثير، والله لقد كررت سرّاء ــ فرسه ــ ثمّ أَنْكَفَت ما قَطَعَتْ أثرَهُم من كثرتهم![1] فقال خالد: لا تخبر الإخوان بما رأيت.

ثمّ إنّ خالداً كان قد أرسل فارسين ليأتياه بخبر الجهة الجنوبية الغربية، أي أعلى البلد مع الوادي وجهة تربة وحضن، فأرسل منصور بن غالب الشريف وناصر بن جازع العمري السبيعي، فركضا فانطلقا إلى (الغريف)[2] ولمّا

= حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال النبي ﷺ: «**من يأتيني بخبر القوم؟**» يوم الأحزاب، قال الزبير: أنا، ثم قال: «**من يأتيني بخبر القوم؟**» فقال الزبير: أنا، فقال النبي ﷺ: «**إن لكلّ نبي حواريّاً، وحواريّ الزبير**».

(١) أي كررت فرسي سرّاء، حتى قطعت عرض أثر حوافر خيلهم وخفاف إبلهم، حتى رجعت ولم أصل لنهاية أثرهم من كثرة جيشهم.

(٢) الغريف: هي قرية كثيفة البساتين، خصبة التربة، متنوعة الزروع والفواكه والمحاصيل، في أعلى الخرمة في الجنوب الغربي،تبعد قرابة الأربعين كيلاً، وتسمّى في كتب التاريخ ببستان بني عامر وصلها عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قائداً لإحدى السرايا. قال عروة بن الورد:

كأن خوات الرعد رز زئيره ... من اللاَّء يسكن الغريف بعثرا

وقال الخطفي، جد جرير:

كلفني قلبي ما قد كلفا ... هوازنيات حللن غريفاً

وصلا (القُرَيْن)[١] قال ناصر: لنرجع فليس أمامنا أحد، هذا القَطَا قد طار لمّا رآنا فليس أمامه أحد[٢]. وعادا للإخوان الّذين اطمئنوا أنّ الجيش الّذي أمامهم واحد، خلافاً لِمَا بلغهم عمّا خطّطَهُ الشّريف بأن يكمش الإخوان بين جيشين من أسفل الوادي وأعلاه، لكن رحمهم الله بتأخّر الجيش الآخر الّذي لم يصل إلّا بعد نحو شهرين.

ووحّد الإخوان وجهتهم، وانطلقوا للحنو، وقد تركوا في حوقان عشرين بوارديّاً، أي قنّاصة لحماية الجهة الجنوبيّة للخرمة، فصلّوا الظهر والعصر جمع تقديم في (غثاة) ثمّ تقدّموا، واستظل الأمراء الثّلاثة تحت دوحة كبيرة للمداولة ولقطع الرّأي، وهم خالد ومفرّح وعلّوش، وظهر تلك العشية رأي وعزم مفرح بن هليّمة الثوري حينما استشاره خالد وعلّوش في وقت الرّواح للحرب، هل يروحون على الأعداء أو ينتظرون الصّباح؟ بيات أم غارة؟ فركب مفرح ناقته وأشار للشّمس وقد مالت بعصاه وصاح: صبيّ التوحيد وأنا أخو من طاع الله، والله لا تغيب الشمس حتّى يكون الوادي لنا أو لهم بأمر الله! فقالا: رأيك رشيد يا مفرح. فهبّ جند الرحمن وحماة التّوحيد، ثمّ استلم منير الحضبي الخيّالة، الّتي ذهب

---

(١) القرين: في المنتصف بين الخرمة والغريف، وهو جزء من وادي سبيع، وسمي القرين لأنه يقترن ويجتمع ويكون ضيق المجرى، ومنهم من يطلق القرين على الشعب الذي يصب في وادي سبيع على المضيق المذكور من الوادي، ويمتاز بنداقة أرضه، وكبر سرحه، يبعد عن الخرمة نحو عشرين كيلاً جهة الجنوب الغربي.

(٢) وهذا من فراسة البادية، ومعرفتهم بأحوال بيئتهم وطباع طيورها.

بعـضها مـن الجهـة الـشّماليّة للـوادي، حتّـى يقطعـوا الطّريـق عـلى فرسـان الـشّريف، مـن أجـل ألاّ يكـرّوا عليهم مـن خلفهـم فيخـالفونهم عـلى الرّدفـاء الّذين في مؤخرة الجيش قد قعدوا عند إبل الإخوان، وينتظرون السّلاح من غنيمة إخوانهم حتّى يكرّوا به معهم، فاستشهد من الفرسان هزاع بن محمد الحارث، وجذيع بن هملان، ومحسن القصيّر أبو مطلق، قتلهم الهمرق أحد رجـال الـشريف، وألحـق بهـم ثلاثـة آخـرين وأصـاب منـيراً في جنبـه، وأول عِنَاقِ الفرسانِ وطعان الأقران لبعضهم كان في زريبة[1] (ابن تني) الثوري، الّذي استشهد في أوّل المعركة، ودُفِنَ في زريبته رَحِمَهُ اللَّهُ.

وركض البوارديّة[2] على أقدامهم، وخلفهم مفرح على حصانه وكلّما أراد أحدهم أن يفرّ أقبل عليه بحصانه، فيخجل الرجل ويرخى عمامته على وجهه كي لا يعرفه الأمير مفرح! ثمّ عاد وكرّ على لهيب المعركة.

وَقَـدْ يَغْـشَى الْفَتَـى لُجَـجَ الْمَنَايَـا حَـذَاراً مِـنْ أَحَادِيـثِ الرِّفَـاقِ

واستشهد من أهل الغطغط ستةٌ وثلاثون، لمّا هاجموا المدافع الرّشّاشة لجيش الشّريف[3] وبعد استيلائهم على مدافع الشّريف دارت الدّائرة على

---

(١) الزريبة: حائط من جريد النخل، يصف ويربط بعد إزالة الخوص(السعف) عنه، ويكون بديلاً عن حائط الطين أو الحجر، ويكثر بين المزارع لإظهار حدودها، أو لحجز الماشية وحبسها ونحوه.

(٢) البواردية: جمع بواردي، والمراد بهم الرماة.

(٣) وسبب استحرار القتل فيهم أنّهم كانوا يصفّون في القتال كالصّلاة، وهذا مما يسهّل قنصهم، وهم يتقدّمون للمدافع الرّشّاشة، وكلّما سقط صفّ قام خلفهم صفّ آخر، =

الشّريف شاكر، فانهزم وهرب بعد أن قُتل من جنده الكثير، وأدار الله تعالى الدّائرة على أهل الباطل، وأنزل بهم بأسه على أيدي الموحدين، وهبّت رياح الدّبور عليهم، ومنح الله أكتافهم لجنده، وانطلق الإخوان خلفهم يقتلونهم بالعشرات، وبعضهم ينشد:

ذا يـــــــوم الحجـــــــة ذا يـــــــوم العـــــــيد
فـــــــتح بـــــاب الجـــــنة يـــــا أهـــــل التوحيـــــد

وهربت الخيّالةُ النّاجية وأبعدت، لكن الرّجّالة الّذين على أقدامهم لم تحملهم أقدامهم بعيداً، فكانت سيوف ورصاص الإخوان أقرب لقطف أرواحهم، واستحرّ القتل فيهم، كما قال تركي بن حميد:

من طاح في الميدان ماهو بمرحوم يا كود من ربّ السّما شافع له

فأدبروا حاملين أسلحتهم الّتي لم تُغن عنهم من الله شيئاً، عليهم المُذَلَّقَات[1] وكانت البنادق تسحقهم، والسّيوف والرّماح تحصدهم، ثمّ إنّ خمسة من الخيّالة الّذين مع منير داروا على المنهزمين والتفّوا عليهم، لكي يردوهم على الإخوان لكن المنهزم لا يردّه شيء، وكانت هذه غلطة من أولائك الفرسان دفعوا ثمنها أرواحهم رحمها الله، فإنّهم لما داروا عليهم وكمنوا أمامهم ورموهم، أجابهم أولئك بالمثل، ووقعوا بين يدي

= حتّى يصلوا لصاحب المدفع فيذبحوه ذبحاً.

(١) المذلّقات: هي ثياب لها أكمامٌ واسعةٌ جدّاً تكاد تمسّ الأرض، وكان الإخوان ينهون عنها لأنّها من سيما المتكبّرين.

رامِي محترف وهو ابن صنيهيت، الذي رمى منيف بن هبسا الثوري مع بطنة فسقط، ثمّ رمى حمود بن صقر الثوري فأصابه إصابة غائرة[١] ثمّ ضرب مناحي بن وندان القريشي فقتله، وقتل حصانه، ثمّ ألحَقَ بهم خالد بن شبش القريشي، وكلّ هذا بسرعة البرق الخاطف لسرعة رميه وحذقه! وهرب خامس الإخوان على حصان أحمر عن مصارع أصحابه! ثمّ إنّ ابن صنيهيت ركض إلى فرس منيف فركبها، ثمّ جرّ فرساً أخرى وجنّبَها معه، ثم ركض لأصحابه، ولعلّه الوحيد الّذي كسب الغنيمة من قوم الشّريف تلك العشيّة، ومع العشاء الآخرة عادت الخيل تحمل الأربعة قد حُملوا عليها عَرْضَاً، وكانت روح منيف لم تَفِضْ بَعْدُ، فأقبلت الفرس يقودها أحدهم يمشي بها الهوينى، والآخر قد أمسك منيفاً حتّى لا يسقط، وكان منيف مشهوراً بالفروسيّة والشّجاعة والسّخاء، فقد كان من الخمسة الّذين يُبكى عليهم، وهو من أحبّ الناس للأمير مفرّح وكان جاراً له، فلمّا أقبلوا به وكان الظّلام قد حطّ رحاله وأسبل وَبْلَهُ وسِبَالَهُ،

---

(١) وفي رواية حمود بن صقر رَحِمَهُ اللهُ، يذكر قصته بعدما سُئل عنها فكشف عن ساقه فإذا أثر الرصاصة فوق الكعب مباشرة. وقال: رأيت في القوم عبداً منهزماً، فأخذت أطرده أريد أمساكه حيّاً حتى أبيعه، لكنه كان عاقلاً، فأخذ ينصحني ويحذّرني، ويقول: ارجع لا تمت! فلم استمع لنصحه، وأخذت في مطاردته، فلما رآني لا أتركه؛ صوّب بندقيته فضربها برصاصة فكسرني، ولو شاء لقتلني ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ [الأنفال: ٤٣] فلعلّ ذلك الرجل هو من ذكرنا ،أو هو غيره، كما هو ظاهر السياق، والله أعلم.

قال مفرح: من الرّجل؟ فسكتوا ثمّ تحامل منيف على نفسه، كي يُطمئِنَ صديقه فخانته الحروف وضعف صوتُه وهو يقول: آآآآآ يريد أن يقول: أنا طيّب فلم يسطِع، فسقط مفرح على ركبتيه وهو يقول: يا الله الخيرة![١] وبعدها بساعة فاضت روحه لبارئها رَحِمَهُ اللَّهُ، فبكاه صاحبه ولسان حاله:

وليس الذي يجري من العين ماؤها ولكنّها روحٌ تذوب فتقطرُ

وغنم الإخوان مدفعين من شاكر[٢] وقسموا الغنائم، وكان

(١) يا الله الخيرة: عبارة تفجّع وتسليم، تذكرها العامة عند شعورهم بنزول كارثة، ومعناها: اللّهم نسألك لنا الخيرة في هذا الأمر.

(٢) هذه رسالة تشابه وصف معركة الحنو لولا تاريخها! فقد كانت في: (١١شوال١٣٣٦) أي قبل المعركة بشهرين! وقد تكون وصفاً لمعركة جبار التي كانت في (١٧رمضان١٣٣٦) لولا أن القتلى هناك حسب رسالة خالد المرسلة للملك بينت أنهم مئة وخمسة عشر فقط وهنا ثلاثمئة، فإن قلنا إن هذه هي وصف لجبار وتلك أخرى، لأنها غفلٌ من الشهر، فيُورد عليها ذكر وفاة محسن بن تركي فيها، وقد استشهد في جبار كما في رسالة خالد لعبد العزيز، أما القائد فقد ذكر هنا أنه: (ولد زيد) وهذا محتمل للمعركتين فهناك حمود بن زيد، وهنا شاكر بن زيد، على كلٍّ فهي في حاجة لتحرير، خاصة أنّها كما هو مذكور في الرسالة معركة كبيرة، أو لعله خطأ في التاريخ! وقد يكون المقصود بها معركة عشيرة الكاسحة! حينما هاجموا مركز التموين لجيش الشريف، لكن عشيرة بتاريخ: (١٣٣٧/٣)...عجبي! أو أنها إحدى معارك الريعان، والتأمّل قد يفتح آفاقاً أخر، والشاهد من نصّ الرسالة: «.....وجميع القوات والبيرق أخذناها، وذبح منهم عدد (٣٠٠) وأميرهم ولد زيد مصوّب....». (لسراة الليل: ٩٢).

هاجد بن جروة قد أصيب في معركة جبّار فقالوا: أنت قد عذرك الله فاقعد، فقال: بل احملوني وضعوني في وجه العدو، فإن انهزمتم مرّوا علي واحملوني، وإلا فاتركوني أرميهم، ففعلوا ووضعوه أمام جدار صخري صغير ووضعوا البندق أُم ركبه عنده، فرمى القومَ رمياً هائلاً ولمّا رجع له أصحابه، إذ خلف ظهرِهِ مثل إِلْيَةِ الشاةِ من الصِفر[1] وكان رامياً رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وبعضهم يلقّبه بفارس الطَّرَف.

وكان الإخوان قد قسموا جيشهم قسمين، فطائفة مع الزّرائب والحزم، وهم أهل البلد وكانوا قرابة الثمانمئة، وطائفة مع بطن الوادي وهم أهل الغطغط وهم الّذين صاروا في وجه رصاص المدافع الرشاشة فأثخنتهم المقتلة رحمهم الله.

قال علي النّاقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والله إنّي لأنظر إلى أهل الغطغط، وعليهم ثياب بيض يركضون في بطن الوادي مُصْعِدِينَ لجيش الشريف، والمدفع الرشاش يحصدهم حصداً، فيسقط أوائلهم صرعى، ويقوم من يليهم على بيرقهم ـ لوائهم ـ حتّى وصلوا لأصحاب المدافع فذبحوهم، وللرّصاص فرقعة في شجر العشرّ مع الوادي.

إِذَا مَـا غَـضِبْنَا غَـضْبَةً مُـضَرِيَّةً هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ تَقْطُرُ الدّما

وأنزل الله نصره قبل مغيب شمس عرفة من عام: (١٣٣٦) وكان

(١) الصِّفر: هو فشق الرصاص (بيت الرصاصة) والمراد تشبيه أعداد الفشق وتكوّمها بإلية الشاة، من كثرة ما رمى من الرّصاص.

شاكر الشّريف ينظر للمعركة بمنظاره[١] المكبِّر، ويتعجّبُ من بسالة الإخوان وفدائيتهم، فالتفت إلى صنيتان بن هليمة الثوري ــ وقد كان من رجاله ــ[٢] وقال له: أهولاء المديّنة لا يردهم الرّصاص؟ فقال صنيتان: هؤلاء لا يردّهم شيء! فقال شاكر: لقد جاءنا جندنا هاربين قد ركبهم العدو. ثمّ أمر بخِرْجِهِ الّذي فيه الذهب فَرُفِع على حصانه ثمّ انطلق هارباً.

تمتع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشية من عرار

ووصل الإخوان لواء الشريف، وتناوله اثنان منهم، أحدهما من المدارية[٣] قد مسك رأس اللواء، والآخر ابن سهل قد مسك عصاه ويهزّانه.

لَوْلَا المَشَقّةُ سَادَ النّاسُ كُلُّهُمُ ... الجُودُ يُفْقِرُ وَالإِقْدَامُ قَتَّالُ

وكان من ضمن جيش الشريف أحد أمرائه الكبار وهو محمّد العبّود[٤] وكان عنده زوجتان الأولى ابنة عمّه، والأخرى من سبيعيّات الخرمة وهي (قوت) الغُزيليّة الثّوريّة، فارتحل مع جيش الشريف بثقله وحريمه على الغُبطان وبينما هم في الطّريق لغزو الخرمة قالت الأولى

(١) يسمّيه العامّة: (الدربيل) و (الناظور).

(٢) وقد هداه الله تعالى، فعاد للإخوان فيما بعد.

(٣) المدارية: فخذ من بني عمر الذين هم بطن من قبيلة سبيع، واحدهم مديري.

(٤) وقد قتله الإخوان لاحقاً مع صاحبه راقي الفرد، عام: (١٣٤٢) والعامة تؤرخ بمقتلهما فتقول: سنة ذبحة الفرد والعبّود.

للثّوريّة: يا قوت سترين بني عمّك غداً مقتولين، وسترين نساءهم عاصبات أقدامهن بالخرق راكضات لرنية! فقالت: لا يتمُّ قولك إن شاء الله، ولعلّي أراك غداً هاجّة على بعيرك حِرْذون[1] وكان ما قالت، فقد كانت قوتٌ قد حملت غبيطها على بعيرها من حين نزولها متفائلةً بفرار الجيش، أمّا الأخرى فاتّكأت على غبيطها وبنت بيتها وكأنها في الحَرَمِ! فما راعها إلّا وزوجها العبّود يركض فزعاً، وقد مرّ بها على فرسه، ونهمها: العجلةَ العجلةَ لا رَحِمَ اللهُ والديكما! أمّا السّبيعية فركبت بعيرها الّذي كان جاهزاً، أمّا الأخرى فركبته حرذوناً كما وصفته جارتها، ولا تهزأ بأخيك، فيعافيه الله ويبتليك!

واستُشهد فيها الكثير كما أسلفنا كفهيد بن شاهين الشريف، وهزاّع بن محمّد الحارث الّذي قال ضُحى ذلك اليوم: الّلهم إن كانت المنيّة قريبة فاجعلها اليوم، فاستجاب الله دعوته، ومناحي بن وندان، والكثير من الغطغط، قال عمر بن علوش: النّساء اللاتي لزمهن الإحداد في الغطغط بعد الحنو لا يحصين من كثرتهن! وشارك مع أهل الخرمة خمسمئة من أهل الغطغط، ومئتان وخمسون من أهل الرّين ـ إن صحت رواية مشاركتهم في الحنو ـ أمّا أهل الخرمة فقرابة الثمانمئة.

قال دندن العصامي المطيري:

بانــت البيّــنة والــدين ديــن الله   مـا نطـاوع هـل الـردات والجـافي

---

(١) أي هاربة على راحلتك بدون الهودج وبدون الشّداد.

ومن يشكك في كفر البيه عبد الله ذاك ما قلبه على التوحيد ميلافي

يـوم سرنـا عـلى الكفـار بـامر الله حجـّة حجهـا مـن نـار واطـافي

يوم شاكر جمع جنود عاصية الله ومشره نفسه بتصبيح الأسلافي

يالإمام ارتحل يا شيخ جند الله يـوم ضلوا طريق الحق الأشرافي

يالإمـام اجتهـد فـيما يحـب الله وان صدقنا مع الله هو لنا كافي

وبعدها لام الشريف حسينُ شاكر بن زيد، وقال: أنت لا تصنع شيئاً! فقال: اذهبوا لهم وسترون فعلهم فيكم. فقال عبد الله (البيه): أنا من سيؤدب (المديّنة). فبدأ بالتخطيط لمعركة تربة الرهيبة! والتي هدّت عروشهم، وأخرجتهم من الحجاز ـ وقد حكموه ألف سنة إلّا ستة عشر عاماً ـ. كتب الله أنّ من نصر الدّين نصره، ومن خذل الدّين خذله، والله غالب على أمره. وكما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فإن ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله. وبعد (الحنو) أرسل الملك عبد العزيز الكثير من السّلاح للإخوان، حتّى كالوا قسمة الرصاص كيلاً بعدما كانوا يعدّونه عَدّاً، وقسموا الغنائم وجعلوا المزاد على البيوت الكبار، فاشترى مفرح بيت العبّود بثلاثين جنيه فرنسي[١] وقال: هذا لبدراء[٢] وعيالها.

قال ابن مسفر:

جانـا فاجـر والـشريف شـاكر يمـشون مـن الحـرة للأفيـاح

---

(١) العامّة تختصر كلمتي: (جنيه فرنسي) فيكتفون منهما بقولهم: (فرانسي).

(٢) (بدراء): زوجته من الرّوقة العتبان، ومن أبنائها (الحميدي) شيخ بني ثور بعد والده، وكان حاضراً غزوة الحنو وعمره عشر سنوات، وهو أحد رواة هذا الكتاب.

يمشي على قومه ويقول اردوا	اردوا على تمر من قراح
تنادبوا هل التوحيد وسبلوا	تسالموا وكل قال مباح
كل كتب دينه ولبس احرامه	وقال امشوا هذي حجة الأرواح
وقمنا عليهم قومة بأمر الله	لين الأوايل عودوا طفّاح
يازين صقع سيوفنا في جباههم	صقع الصواقع من السما طياح
ذيابة الخلا أكلي وغبّبي	ملّي المجاحر واهتني بارواح

وبعد معركة الحنو راسل الإخوان أهل تربة للدخول معهم في التديّن والجهاد فحصل نوع موافقة من بعضهم، وذهب إليهم بعض الدّعاة الذين قبض عليهم عبد الله (البيه) فيما بعد وقتلهم[١].

مكث أهل الغطغط بعد معركة الحنو في الهجرة عند خالد قرابة شهرين، وبعد برء جراحهم قالوا: قد انتهت مدّة الجهاد، فبعضهم وبخاصّة أهل السّريّة الأولى كان لهم ما يزيد عن الخمسة أشهر عن بلادهم بعد معركة جبّار، وعادوا لديارهم، وأثناء سيرهم جاءهم صارخ الإخوان؛ أن عودوا فقد عاد الشريف مع (القرين). فقالوا: اطلبوا الله لسنا بعائدين إليكم قريباً!

ولما وصلوا نهرهم سلطان بن بجاد، وهجرهم ثلاثة أيام لقدومهم قبل استغناء إخوانهم عنهم، وأقبل الشريف حمود بن زيد على القرين.



(١) وهما الطّعيمي وابن مسيّب، رحمهما الله تعالى، حيث ضربهما بالمدفع.

معركة القُرَيْن

(١٧ صفر ١٣٣٧)

القرين مضيق في الوادي الكبير، ويصب فيه شِعْب متوسط، ويقع جنوب غرب الخرمة بنحو عشرين كيلاً.

جاء جيش الشريف بقيادة حمود بن زيد، الذي كان قد هُزم في حوقان وجبّار، وقد تأخر بحمد الله عن القدوم للخرمة، ولم تتم خطته مع أخيه شاكر حينما اتفقا بأمر حسين على غزو الخرمة من الجهتين ــ إن صحّت الرواية ـ وعلى الرواية الأخرى؛ أنّ قائد جيش الشريف في القرين هو شاكر وليس حمود، الشّاهد أنّه بعد وقعة الحنو بشهرين جاءه الإخوان وهو يجهّز لهم في القرين، فغزوه في ثكناته وكما قيل: ما غُزِيَ قومٌ في عقر دارهم قطّ إلّا ذلّوا، فكانت معركة القرين عظيمة، مع عدم التعبئة الكاملة للإخوان، لكنّ الله أنزل نصره وأعزّ جنده وهزم الأحزاب وحده، وطارد الإخوان فلول الشّريف حتّى مغيب الشمس وحلول الظلام، كما حدث في الحنو، وكان شاعر الشريف يهجو الإخوان بقوله:

يــا تيــوس يقوّدهــا خــروف ... واجتلبهــا عــلى المــوت الحمــر
حالــف مــا أديّــن لــين أشــوف ... لــين أوصّــل لبــو فيــصل خــبر

فقال الإخوان: ردّ يا مناحي عليه، قال: ليس الآن. فقتله نايش بن هرسان في القرين[1] فلمّا جندله ورآه الإخوان قال شاعرهم مناحي بن

(١) وقيل في حوقان، وهو الأظهر من الأبيات إلّا أنْ يكون هناك تحريف للبيت، فقد =

غبيشان حينئذ:

عيّدوا بفلان أهل السيوف	ونحمد الله على البيه الخطر
نحمد اللي جمع كل الشفوف	نصرة للدين طار بها الخبر
يا كليب بقلفته محذوف	عند حوقان دعته القدر

كانت مجموعه من الإخوان يصلّون صلاة العصر في شعب الجوفاء(١) فجاءهم الصّائح وهم يصلون خلف إمامهم ابن حسين، فأوجزَ الصّلاة، ثمّ تواثبوا على ظهور الخيل، معهم محسن بن خالد، وطاردوا خيل الشريف، وقتلوا منهم الكثير، ووصلوا القرين والشريف نازل فيه، وتتابعت نجدات الإخوان واشتدّتِ المعركة، إلاّ أنّ الليلَ منع الإخوان من مطاردة العدو، فهرب الشريف ومن معه، وقتل مع الشريف رجل كان من قدماء الإخوان، قبل أن ينقلب على عقبيه لخوفه على نخلاته من قطع الشريف لها! نعوذ بالله من الحور بعد الكور، ومن الضّلالة بعد الهدى.

وفي رواية مشرع الكرناف قال: أرسلنا الشريف من القرين للإخوان وأَمَرَنَا باغتيالهم بالرّصاص أثناء صلاتهم. قال: إذا كبّر بنو رقعان للصّلاة فضعوا الرّصاص في ظهورهم، قال: فانطلقنا عشرة فرسان، ولمّا أقبلنا عليهم - وكان تحتي فرس صفراء - إذ لمحتنا امرأة كانت تحتطب، فأسرعت

= تكون كلمة حوقان محرّفة من القرين.

(١) وهو شعب صغير يتوسط جبّار ويصب في وادي سبيع.

لخالد فأخبرته الخبر، فكمنّا ننتظر وقت صلاتهم حتّى نقتل كبارهم وهم في الصّلاة، ولمّا علم خالد، أمر بضعة فرسان عليهم ابنه سعد ومعه العطيّب وهو عبد الله بن بعيجان ومجموعة من الفرسان الأشدّاء؛ بأن يدوروا من خلفنا ويرموننا من ظهورنا، وفعلاً لمّا كنا ننتظر وقت الصّلاة ونحن على خيلنا، إذ تَعَقّدَتْ ظُهُور الخيل من تحتنا من أجل سماعها دَكَكَ الخيل من خلفها، ولم ننتبه إلّا ونواصي الخيل نازلة علينا من خلفنا هابطة من الشعب، فرمونا بالمشط الأول وهربنا، وأسقطوا أحد فرساننا من فرسه وأسروه، وأسقطوا آخر، لكنا أردفناه معنا وغنموا فرسين، فلمّا أقبلوا به على خالد قال لهم: هل أمّنتم الرجل أم لا؟ فقال الإخوان: لا، فقال خالد: اذهب به يا فلان ـ ابن عم الأسير ـ فاقتله، فضربه برصاصة في رأسه. فَأَمَرَ الرجل بقتل ابن عمه كما طلب عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من رسول الله ﷺ أن يقتل قريبه بعد بدر، وأن يقتل عليٌ قريبه كذلك، ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

ثم انطلق الإخوان قد ثار غبار خيلهم، حتّى وصلوا (القُرَيْن) فنازلوا الشريف، وقتل من جند الشريف ذلك النهار أكثر من سبعين.

واستشهد من الإخوان الكثير في تلك المعركة، منهم محمد بن زايد كذلك ابنه عجب، ثمّ هرب الشريف لمركزه في عشيرة بعد هذه الهزيمة، ورحم الله ابن المبارك حينما قال حاثّاً على الجهاد:

رِيْحُ العَبِيرِ لَكُمْ وَنَحْنُ عَبِيرُنَا رَهَجُ السّنَابِكِ وَالغُبَارُ الأَطْيَبُ

ويقال: إنّ الهجوم من الإخوان كان في اليوم الثاني بعد صلاة الظهر، واستمرت المعركة إلى قبيل المغيب قبل انهزام جيش الشريف، وطاردوا فلول الشريف إلى العشاء الآخرة، وقد حضر المعركة من كبار الإخوان صقر العواجي ومن معه من بيشة ــ وهو الذي أسقط ذلك الرجل الذي كان من الإخوان ثم انتكس على عقبيه ــ ثم سدد فم البندقيّة له، فصاح فيه ذلك الرجل: أنا فلان! فقال صقر: ما حضرت إلا لقتل المرتدين أمثالك فقتله.

يُذَكِّرُنِي حَامِيمَ والرّمْحُ شَاجِرٌ فَهَلّا تَلَا حَامِيْمَ قَبْلَ التّقَدّمِ

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [الحج: ١١] اللّهم لا تجعل مصيبتنا في ديننا. وصدق البستي رحمه الله إذ يقول:

وَكُلُّ كَسْرٍ فَإِنَّ الدِّينَ يَجْبُرُهُ وَمَا لِكَسْرِ قَنَاةِ الدِّينِ جُبْرَانُ

وكان سلطان أبا العلا قد وصل للإخوان، معه أربعة عشر من جماعته أهل سَنَام، وليس معهم سوى فرس سلطان (الوشعاء) فحضروا القرين

مع الإخوان، كذلك ابن عفيصان معه الدواسر، وآخرون من مدد الإخوان الذين شاركوهم معركة القرين. قال المؤرخ محمد بن بليهد يذكر بعض معارك الإخوان:

قُرَيْنٌ وَحَوْقَانٌ وَحِنْوٌ مَصَارِع　　　وَجَبَّارُ لِلْبَاغِيْنَ لَيْسَ بِجَابِرِ

❁ ❁ ❁

معركـــة عشيرة

(ربيع الأول ١٣٣٧)

وبعد القرين هجم الإخوان على عشيرة، وتقع شرق الطائف بمرحلة، وتعتبر مركز التموين لجيش الشريف، وقد بدأت جموع الشريف تجتمع فيه انتظاراً لعبد الله البيه القادم من المدينة النبويّة بعد قضائه على التّرك فيها، فجاء متفرّغاً لحرب الإخوان، وللوفاء بوعده الذي قطعه لوالده بتأديب المديّنة، وكان عدد الإخوان المهاجمين ثلاثمئة، ثمانين من الخيّالة والبقية من الهجّانة ـ بناءً على تقرير وزير حربية الشريف ـ أتوا من الخرمة رأساً إلى عشيرة، فبدّدوا مَنْ كَانَ بها من جنود الشريف وأخذوا مدفعين جبليين، وغنموا ثمانمئة كيس من الدقيق والأرز، ثمّ عادوا للخرمة.

قال المؤرخ محمد العلي العُبيّد رَحِمَهُ اللَّهُ وكان قد سكن الخرمة قبيل اشتهار التديّن كظاهرة، سنتي (١٣٣٠ ـ ١٣٣١) عند خالد بن لؤي. قال عن معركة عشيرة بتصرف واختصار: إنّ الإخوان قدموا عليها تحت ثمان رايات، خالد بن لؤي، وسلطان بن بجاد، وسلطان أبا العلا، ونجر بن حجنة، وناصر بن عمر، فلما دنوا من الأبرق تشاوروا، فقال خالد: نقسم خيلنا قسمين كلّ قسم مئة مردفة بمئة، فقسم يغيرون عليهم شمالاً حتّى ينزلوا عليهم من الحرة، ثمّ ينزل الردفاء وهم الرماة في الأرض معهم الخيّالة، ويمطروا الرّصاص على أهل الماء ومن حولهم، أمّا المئة الثّانية

فتغير عليهم مُجنِبَةً حتّى تستقبلَهم إذا فرّوا سِرَاعاً مبادرين الرّيع المؤدي إلى السّيل وهو وادي محرم، أمّا الجيش براياته الثمان؛ فيُغيرُ غارةً واحدةً على المدافع وعلى الجموع المحتشدة في عشيرة، فمن قُتِلَ قبل أن يصل فهو شهيد، ومن لم يقتل فليقاتل على قدر شجاعته لا يدّخر منها شيء. فرضوا رأي خالد وعملوا به، فهزموا الجموع الغفيرة من جند الشريف وقتلوا أكثر رجالهم، ولم يمض ثلاث ساعات حتّى خلا المَطْرِحُ(١) إلّا من القتلى أو الإخوان الّذين بقوا يومين يقسمون الغنائم.



(١) المَطْرِح: مسمّى تطلقه العامّة على مركز القيادة والسيطرة للجيش، كذلك يعنون به ميدان المعركة كَكُلّ، والبعض يخص به الجند النظامي.

معارك الرّيعان

(١٣٣٧-١٣٤٣)

(معارك متعددة بعد معركة تربة)

(جليـل، العرفـا، الأُخيـضر، الخرائـق،كـلاخ، العبـيلا، الجرشـيّة، أمّ الجرفان، السّمرة، العقيق، القرشيّات،مقتل الفرد والعبّود،..... في ستّ سنوات متفرّقة بعد تربة).

الخرائـق

عام (١٣٤٠)

وهي معركة عظيمة شرسة، يحلف بعض من حضرها ــ وهذا من المبالغة ـ أنّ الرّصاص كان يضرب بعضه بعضاً في الهواء من الفريقين من كثرتـه وغزارتـه وكثافتـه، وأنّ الأرنـب لتمـوت بـين الجيـشين مـن ضربهـا بالرّصاص.

أرسـل خالـد بـن لـؤي مجموعـة مـن الرّجـال ليعـسّوا الأرض لإبـل الإخوان جهة جبل حضن، وأمّر عليهم ابن فاحس القريشي، فصادفهم صِنهات المزيني بسريّته وكان من رجال الشّريف، فقتلوا منهم مجموعةً على رأسها ابن فاحس، ثمّ إنّ الإخوان جمعوا الإبل ثمّ ساروا بها لحضن، وخيّموا على الخرائق آمنين، وبينا هم نائمين وقت القيلولة، إذِ الرصاص قد ثار فيهم، فقد هجم عليهم جيش الشريف من قبل شاكر وقتلوا منهم

بضعة رجال، ثمّ هبّ الإخوان للسلاح، وهم يهلّلون ويكبّرون واشتعل الهواء من البارود، وكثر الرمي فهرب الغزاة المهاجمون، فركبهم الإخوان يصيدون ظهورهم، فقتلوا منهم الكثير حتّى إنّ الأرض قد اسودّت فيما يُروى من جثثهم، وقد استشهد من الإخوان عشرة، وقيل بل أكثر بكثير والله أعلم.

وفيها استشهد محسن بن خالد بن لؤيّ على حصانه (كحيلان) وهو ينشد أبيات بن رواحة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ:

يَـا نَفْـسُ مَالَـكِ تَكْـرَهِينَ الجَنّـةَ　　هَــلْ أَنْــتِ إِلّا نُطْفَــةٌ فِي شَــنَّة

واستشهد سعد بن مفرج، وجبر بن عبيدان، وقيل بل استشهد في تربة، وأبو حماد، وعبد الله بن ثعلي أبو ثعلي، والدّريبي، ورباح بن دغش، ومهدي بن زايد، ودميخان.

ويقول البعض: إن غزو الإخوان لجليل والأُخيضر كان بعد الخرائق بسنتين، والأشهر أنّ تلك الغزوة كانت قبل الأخيضر بثلاث سنين، إلاّ إن كانت غزوتان، وهو متجه، والله أعلم.

****

يوم الغلطة

(مقتل منير الحضبي في نحو عشرين من الإخوان رحمهم الله)

نتذكّر قتل اليمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في أُحُدٍ، وهو أبو حذيفة صاحب سرّ النبيّ ﷺ، حينما شَاطَ في رماح المسلمين بالخطأ، فقتلوه حين ظنّوه من المشركين، ولم تفلح صيحات ابنه في تنبيههم إلّا بعد فوات الأوان، فما ملك بعدما رأى أباه مُجندَلاً إلّا أن قال: «يغفر الله لكم» فما زال الخير في حذيفة حتّى لحق أباه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فلحِكْمَةٍ يريدها الله تعالى أجرى على اليمان ذلك المقدور فله الحمد على كلّ حال، وهو المحمود بكلّ حال، وله في ثنايا مِحَنِهِ مِنَحَاً ونِعَمَاً يُدركها الموفّقون من المؤمنين. ولعلّ منها تعجيل شهادته وأجره وجنّته، والإخوان الّذين حرصوا على اقتفاء آثار ذلك الجيل الطّاهر الصّادق من الصّحابة أصابهم ما أصاب الصّحابة من الخطأِ في ظنّ من أَمَامَهُم من المشركين، وكلّ يتقرّبُ إلى الله بقتل مَنْ أَمَامَهُ يظنّه مشركاً، ولم يعلم أنّه أمام ثلّة من صفوة الأمّة في ذلك الزّمان، ولا نزكيهم على الله تعالى. ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] و«**إنّما الأعمال بالنّيات**» رواه البخاري.

فكان هناك سريّة جوّالة من إخوان الخرمة، قد أرسلهم خالد بن لؤي مقدمةً للجيش، وقال خالد لمنير الحضبي: كن مع الجيش، فقال: دعني أذهب مع السريّة، حين دعته منيّته واستعجله قبره، فذهبت السريّة وفيها فيحان الغرمول، وذعار بن حنيف، وابن درع، وصالح بن حمد

الروقي، ولمـاّ أقبلت السريّة على المحاني أرسلت سُبُوراً لها ــ أي مجموعة استطلاعيّة ــ فأشرفت المجموعة على أحد المياه فرأوا الإبل وعندها أصحابها، ولم يعلموا أنّ أصحاب الإبل هم إخوانهم من أهل (نفي) ومن معهم، وقد جاؤا يريدون مثل الذي يريده إخوان الخرمة من الهجوم على ذلك التجمّع لمـن سمّوهم بالمشركين، ولم يك هناك تنسيق بينهم، وقد وضعوا المعامّ عن رؤوسهم من الحرّ، وتفرّقوا لصيد الأرانب، وكان منير يسير مع أصحابه على قدميه وهو ينعُس، وقد ترك لفرسه (سَرّا) عنانها على رقبتها، ويسير وهي بجانبه تبتعد وتقترب، وتتأخر هنيهات لتأكل العشب، ومعه تمرات يمدّهنّ إليها فتقبل لها حمحمة، فيلقمها اللّقمة ثم تعود لحالها.

ثـمّ إنّ المجموعة الاستطلاعية عادت وأخبرتهم خبر القوم فنادى فرسه فأقبلت عليه تخبّ خبّاً خفيفاً، فألجمها ووثب عليها، وأخذ الإخوان أهبتهم وهجموا على تعبئة تامّة، وقد أخذوا إخوانهم على حين غرّة، وهم ثلاث رايات من الإخوان من أهل (نفي) وغيرهم على الماء، فرموهم وقتلوا منهم سبعة عشر، وقيل بل ثمانية، وردّ أولئك عليهم وقتلوا منهم أربعة؛ اثنين من بني وبدان، والثالث من كبار الإخوان، فارس لا يشقّ غباره، قد ملأه الله شجاعة وفروسيّة وكرماً وشهامة ونبلاً، وفوق ذلك تديّناً وصلاحاً ووقوفاً عند الحدود، ولا نزكيه على الله، ذاك هو منير الحضبي. الذي كرّ فرسه على رجل فرماه، فلمّا سقط إذ صاحبه قد جهّز الطّلقة لمنير فرماه فأصابت زرار الصّدر على كبده

فأطارته من فرسه رحمهم الله جميعاً، وَرَهَجَ الرصاصُ وَوَهَجَ شرره بين القوم، وكان إخوان الخرمة يتقدّمون، فمرّ أحدهم وهو صالح بن حمد الرّوقي على أخٍ له من أهل ساجر يسبح في دمه، ولم تفض روحه فعرفه، وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، أأنت فلان؟ قال: نعم، فصاح بأعلى صوته صياح الفزع ويقول: الإخوان يا إخوان! الإخوان يا إخوان! أي كلّكم من الإخوان.

يقول أحدهم: والله لقد مددت البندق على أحدهم وقد أحميتها وهو بين يديّ حتّى رأيت صالح بن حمد يصيح، قال: فرفعتها عنه فوقاه الله ناري! حالهم كما قال الأشهب بن رميلة راثياً قومه:

وإن الذي حانت بفلجٍ دماؤهم هم القوم كلّ القوم يا أم خالد[١]

ثم إنّهم تقاضوا عند الشّيخ عبد الرّحمن بن داود، قاضي أهل الخرمة، وكان نادرة زمانة في العلم والعبادة وتربية الرجال وتزكيتهم، فأتاه الإخوان من الفريقين فأخبروه خبرهم فقال: قد حصل هذا على من قبلكم من الصّحابة وهذا من الابتلاء والتّمحيص، قوموا عنّي ليس لأحد على أحد شيء لا في الدّنيا ولا في الآخرة ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦] فقاموا راضين رحمهم الله تعالى فما أطيبهم من جيل وقّاف عند الحدود.

---

(١) الذي: تأتي بمعنى الواحد والجمع، حانت: أي سالت.

وقال أحدهم لآخر: قد قتل منّا سبعة عشر رجل، فقال صاحبه: اسكت فلقد قتلتم رجلاً يزن البيرق كلّه ألا وهو منير الحضبي. وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**تجدون الناس كإبل مئة لا يجد الرجل فيها راحلة**». قال ابن الدمينة:

أَلاَ هَل مِن البَينِ المُفَرقِ مِن بُد ... وَهَل لِلَيَالٍ قَد تَسَلَّفنَ مِن رَد

وَقَد زَعَمُوا أَن المُحِب إِذَا دَنَا ... يَمَلُّ وإِن النأي يَشفِي مِنَ الوَجدِ

بِكُل تَدَاوَينَا فَلَم يُشفَ مَا بنَا ... عَلَى أَن قُربَ الدارِ خَيرٌ مِنَ البُعدِ

هواي بهذَا الغَور غَور تِهَامَة ... وَلَيسَ بهَذا الحَي مِن مُستوَى نَجدِ

فَوَ الله رَب البَيت لاَ تجِدينني ... تطَلّبتُ قَطعَ الحَبلِ مِنكُم عَلَى عَمدِ

وَلا أَشتَرِى أَمراً يَكُونُ قَطِيعَةً ... لِماَ بَينَنَا حَتى أغيّب في اللحدِ

ألا ياصبا نجد متى هجت من نجد ... لقد زادني مسراك وجدا على وجد

رعى الله من نجد أناس أحبهم ... فلو نقضوا عهدي حفظت لهم ودي

إذا هتفت ورقاء في رونق الضحى ... على غصن بان او غصون من الرند

بكيت كما يبكي الوليد ولم أكن ... جليدا وأبديت الذي لم أكن أبدي

وقد زعموا ان المحب إذا دنا ... يمل وأن البعد يشفي من الوجد

بكل تداوينا فلم يشف مابنا ... ألا أن قرب الدار خير من البعد

****

مقتل الفرد والعبّود

عام (١٣٤٢)

منهجي في الكتابة ــ قدر الطاقة ــ تجنب التصريح بالأسماء التي ربما يلحقها مذمة أو نقص أو شيء، خلا من كان له إسهام مباشر في الأحداث كأن يكون قائداً أو نحوه وكان أمره مشتهراً، وإنه ليعزّ علي ذكر أحد بذلك كالفرد والعبود والأشراف وغيرهم ولكن لأمرين آثرت التصريح في أضيق نطاق بتلك الأسماء؛ الأول: اشتهار أخبارها عند العامة، وآمل من المحبين تصحيح الخلل وتجلية الخبر إن كان ثمّ زيادة أو نقص أو اختلاق أو مبالغة أو نحو ذلك فلا أفلح من كان عباد الله بين يدي ربهم يوم القيامة خصماء له! الثاني: وجود عبر وعظات من ذلك كما في الخبر التالي:

راقي الفرد من قوّاد الشريف، قُتِل أخوه هوصان في تربة بأيدي الإخوان، فقلبهُ غليلٌ عليهم فهو يبحث عن غرّة من الإخوان كي ينتقم منهم، ومعه محمّد العبّود الذي أظهر التديّن وعاهد الإخوان وسكن معهم في هجرة خالد وبنى بيته هناك، وكان سخيّاً جواداً نبيلاً، يطبخ الشاة في مرقة الأخرى، ولقلّة الزّاد فقد كان يقدّم الذّبيحة ملَطاً ليس ليس تحتها خبز ولا أرز، فكان يقول: كلوا والله لئن عاش رأسي لأذهبنّ لدار لا أضعها ملَطاً. فبلغت هذه الكلمة الإخوان فتوجّسُوا من الرّجل وقالوا: يا خالد الرجل نافق، فقال خالد: اتركوه فإن غدر سيخذله الله،

وكان قومه بإبلهم مربّعين في (الهَضْب)[١] وقد مرّت سنوات انقطع عنهم الكثير من مدد الشريف لهم بالأطعمه والجنيهات، وقلّ المطر ذلك العام، فركب العبّود في إحدى الليالي إليهم في الهضب، وترك زوجته (قوت) الثورية في البلاد حتّى لا يُستنكر ذهابه، ثم أمر قومه بالذهاب إلى مكان أخصب من مكانهم، يقال له (الحمار) أسفل وادي الخرمة، ففعلوا، وعاد للخرمة، ولمّا ارتحل قومه للحمار إذ سريّة من سرايا الإخوان من الخرمة قد هجمت عليهم وسلبتهم الإبل، أما الرّجال ففرّ أكثرهم لكن تلقّفَهُم الإخوان أهل(نفي) في (بِسْيَان) و(دغيبجة) فقتلوهم، فلـمّا أصبحوا إذِ العبّود قد سرى بالليل من الخرمة وعاد للشريف.

ثمّ أخذ في الإغارة على إبل الإخوان، ونهب ما استطاع منها، فأخذ إبل ناصر الحارث، وبعض بني ثور في العوجا في الحمار، ثمّ أعاد الكرّة فأخذ أبل بني رشدان، واشتدّت عداوته وحربه، وكان في معيّته ابن عديس وجماعته.

ووافق العبّود راقي الفرد، وكان راقي الفرد هو الأخ الأكبر لهوصان المقاطي وزير عبد الله البيه على ماليّته، فلما قُتل هوصان في تربة عقد راقي العزم على الانتقام من الإخوان ولكنّه كان كثير الإبل وهي في مفالي الإخوان، وكان عددها (١٦٠) من كرائم الإبل كما ذكره العبيّد في تفصيل خبر راقي الذي نحن في سياقه نقلاً عنه، هذا غير زَمْلِ بيته[٢] وكان

(١) الهَضْب: مراعي عند نهاية وادي سبيع.

(٢) الزّمْل: متاع البيت.

سلطان بن بجاد كثيراً ما يدعوه لبيع الإبل والسكنى معه في هجرته الغطغط، ولم يكن يحفل بكلام سلطان حتّى عزم وآلى على نفسه الانتقام من الإخوان. فأتاه وهو يحمل معه (١٠٠) ريال فرنسي، وقال: يا ابن عمّي أنا تحولت من شداد الدنيا وركبت شداد الآخرة، وأحب أن أجاورك وأبيع الشّقاء والعذاب ـ وهي الإبل ـ وأريدك أن تعيّن لي أرضاً عندك قريبة من منزلك، وتعطي المئة ريال هذه رجلاً يشتري بها خشب لعمارة الدار، وأنا سأجلب كل ما أملك من الإبل لعنيزة، وأبيعها وآتي بثمنها دراهم وأجاورك، وأجاهد معك في سبيل الله.

وقد تنزع الحاجات يا أم معمرٍ كرائم من رب بهن ضنين

فقال سلطان: الحمد لله على هدايتك وتوفيقك للرّشد، ثمّ أمر الإخوان بالسّلام عليه وتهنئته بالهجرة بعد الجفاء والتعرّب، بعدما كان الإخوان هاجرين له. ثمّ مشى معه لأرضٍ قريبة ورسم له حدّها، ثم انطلق راقي لجمع إبله من الفلوات، فحازها وجمع كلّ ماشذّ منها وساقها لعنيزة، وباعها بثمن غالٍ، وقبض ثمنها ثلاثة آلاف جنيه إفرنجي ذهباً، فأعطى رعاته أجرتهم وصرفهم بعد ما أعطاهم مطيّة، ثم أبقى معه أحد عبيده وكان يجيد الرماية، ثمّ استدعى رجلاً يُدعى دابي القسّامي فأفضى إليه بسرّه واستكتمه إيّاه، فلمّا توثّق منه أخبره عن إرادته المسير إلى مكة، وأنّه ليس له معرفة بديار الرّوقة وطلب منه المسير معه، فوافق القسّامي، فمشى الثلاثة من عنيزة على مطايا من سوابق الجيش، وكانوا يسيرون بالليل ويكمنون بالنهار غالباً، فإن رأوا شبحاً من النّاس انحازوا عنه،

حتّى وصلوا إلى آخر عَرَبٍ من الإخوان مما يلي الحجاز، وكانوا قد رأوهم بعد العصر لمّا نزلوا عند جبل أبيض يقال له: (عبل مقذل) وهو واقع بين سجا وعفيف ممّا يلي (المردمة) فلمّا علموا أنهم وقعوا في الورطة إذِ القوم أمامهم وقد رأوهم، وفي علم الجميع أنّ من اجتاز هؤلاء لجهة الغرب فهو منحاز للشريف! وكانوا لا يدرون عن القوم الّذين هذه خيامهم هل هم من الإخوان أم من الأحزاب؟ فقال راقي لصاحبه: هات الرّأي. فقال دابي: الرّأي أن ننهزم للخلف، فإن أدركونا بالخيل قتلناهم، وإن طردونا بالجيش فأنّى لهم إدراكنا فجيشنا سوابق. فلم يقنع هذا الكلام راقياً، ثمّ إنّه مَدَّ يده لخرجه، وأخرج منه نصف طاقة شاش أبيض قد اشتراها وأعدّها للطّوارئ، فقطع منه ثلاث عمائم ثمّ وزّعها على صاحبيه واعتمّ بالثّالثة، ثمّ قال: صدّرُوا للبيوت، فذهبوا ومرّوا بامرأة ترعى الغنم فسألوها عن البيوت، فقالت: هم آل فلان، وكان يعرف أميرهم، فساق الركاب لبيته، وكان قومه قد تحلّقوا حوله، ويقال: إنّ في تدينهم لَوَث، فلم يكونوا مصافين للإخوان لكنهم خافوا على إبلهم، فلمّا أقبل عليهم عرفوه وهو على ناقته، فرحبوا به وحيّوه، ولم يرد عليهم شيئاً، فلمّا نزل قال بكلِّ دهاء ومكر: قفوا مكانكم فإنكم مهجورون، يا ابن فلان! من يلقى مثل ما لقيت؟! الإخوان يطاردون الكفار على سِيْفَ البحر ويشربون الماء المالح، وأنت تصلح مرعى إبلك وتقطع الرغاة عن خشمك وعن براطمك أنت وجماعتك، والإخوان من ورائكم يجاهدون! فلمّا انقضى توبيخه لهم، التفت بعضهم إلى بعض وقالوا: اتركوا الإخوان لا

تغضبوهم، وإذا لم يريدوا سلامكم فلا تسلموا. فلمّا رأي راقي أنّ حيلته بدأ نفعها، استرسل في مكره فقال لهم بلسان طلقٍ ذلقٍ: عجّلوا ضيفتنا فإنا على عجل. فقام أحدهم مسرعاً إلى إحدى مطايا الضّيوف فركبها وذهب للمرعى فجلب شاة ذبحها حين إنزالها من ظهر المطية، ثمّ إنّ راقياً إتّكأ على الشّداد وقال: أبشّركم يا من تحبّون مكة ورُزَّها؟ قالوا: بشّرنا ، بشّرك الله بالخير. فقال: هذا الخِرْج الذي على جنب الذلول ليس فيه غير مكاتيب ابن سعود وابن بجاد والاخوان، يسعون بالصلح مع الشريف، ثمّ تكون نجد والحجاز سعوديّة. ففرحوا واستبشروا، وقالوا: هذا مطلوبنا.

فلمّا صلّوا المغرب قدّم العشاء، ثمّ انطلقوا لمكّة، فلمّا وصلوها ذهب من فوره لإبرار قسمه لحرب الإخوان، ووجد محمد العبّود قد رأى رأيه، فاتفقا على ضرب الإخوان ضربة موجعة، وجهّزهما الشريف بالعتاد والإبل، ولمّا خرجت سريتهما من مكة وكان قوامها السّبعين من المقاتلة، وبينما هم في أوّل انطلاقهم رآهم رجل يُقال له أبو ليلة فصاح فيهم: والله لا يعود منكم أحد حتىّ ردّاد الخبر يا ويلكم ويلاه من الإخوان! فدخلت هذه الكلمة في صدور بعضهم، فصاح أبو ليلة في السريّة بالرجوع، لكن الحتف كان أمضى، والمنيّة كانت أقرب، فردّوا عليه كلامه ونصحه، فكان وإياهم كما قال دريد بن الصمّة الهوازني سيد بني جشم وفارس هوازن:

أمرتهم أمري بمنعرج اللِّوَى فلم يستبينوا النّصح إلا ضحى الغد

فساروا يريدون أسفل الوادي كي ينهبوا إبل الإخوان التي ليس عندها إلاّ القليل من النّاس، وبينما هما في سريّتهما، إذ أبصرها رجل من الشيابين، وهو شعيفان الشّيباني عند جبل حضن، ورآهم متّجهين نحو بِركة العقيق، فأسرع بإبلاغ الأمير خالد، ومن حين عَلِمَ خالد أمر بنشر البيرق في المناخة في الهجرة[1] وكان من عادته أنّه إذا أراد غزواً نشر البيرق ثلاثة أيام حتّى تتسامع به البادية وتترادّ الخبر عنه في رنية وتربة ومادونهما، فَتَقْدُمُ عليه لمشاركته في مغازيه.

ثمّ إنّ خالداً سار بجيشه ولم يكن كبيراً في تلك الغزوة، ثم اتّجه شمالاً ثمّ غرّب، حتىّ جعل (رضوان)[2] على يساره ولمّا تجاوز رضوان مرّ على (المُحْدَثة) في طرف حرة كشب وجد آثارهم، فجرّد تجريدة وأمرها بالالتفاف على سريّة القوم، وتواعدوا أبرق عشيرة، وخالد وجيشه يتبعون الأثر مجدّين السير، فذهبت التّجريدة بقيادة ابنه سعد، ومعه فهيد بن مبارك، ومحمد بن سرماد، وهزّاع الصفرا من القواوده البقوم، وبتّال بن هبسا، وسعود بن هبسا وقد استشهد ذلك اليوم، والحميدي بن مفرح، وغزاي بن جرمان وقد استشهد ذلك اليوم، وعريج بن حنتوش، وعايض السميّ، وشجاع بن بادي وقد استشهد ذلك اليوم، وبجاد بن بادي، وعجب بن وبدان، وأخوه شارع، ومنيف الحويزي.

---

(١) هجرة خالد بن لؤي بناها عام: (١٣٣٦) وصارت مهاجراً للإخوان في الخرمة.

(٢) رَضوان: قرية بقميّة بين الخرمة وظلم وحضن إلى الشمال الغربي عن الخرمة بنحو ثمانين كيلاً.

وقال سعد لمن معه: اسلكوا الحِشّة[1] مع اليمين لعلّكم تدركون القوم، ومع ابتعاد سعد وتجريدته عن الجيش إلّا وهم يسمعون صوت الرّصاص، ولمّا تبيّنوا الخبر إذْ معرّة جيش خالد قد تصادمت مع سريّة راقي الفرد ومحمد العبود، وقد انحرفت سريّة الفرد والعبّود وأدبرت وما راعها إلا تجريدة سعد مقبلة نحوها، فاقترح أحد الرجلين إمّا راقي الفرد أو محمد العبود الفرار جهة اليمين لعلّه يبقى لهم باقية، فنهره صاحبه وقال: لعن الله من مدحك لي! فثارت غضبة ونعرة الآخر وهاجت حميّته؛ فقال: إذن فلعن الله قوماً أنا ذليلهم! فضرب رأس ذلوله بالرّسن، فبركت، فأناخت جماعته عليه، والآخر كذلك أناخ عليه قومه، وخجلوا من الهرب:

وقد يغشى الفتى لجج المنايا   حذار من أحاديث الرفاق

فنزلوا لحتفهم ونادتهم مناياهم، فتطابح الردفاء أولاً، ورموا جيش الإخوان وهم يتمثلون:

يابو قذيلة يارفروف   ليتك تحلى وتشوف

وقيل إنّهم التقوا وهم على شعب العقيق، ثمّ إنّ القنّاصة تدرّؤا بالإبل اللّتي ارتفع رغاؤها من ضرب الهيْج[2] لها أمّا الإخوان فيتمثّلون بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. وقد أحموا بنادقهم في وجوه القوم

(١) الحشّة: هي الأرض الصلبة الخشنة.

(٢) الهيج: هو الرّصاص الكثيف المتوارد.

وصدقوهم اللّقاء. وكما قيل: لا يبلغ المجد من لّا يدرك الخطرا.

فنصر الله الإخوان وقتلوا جميع السريّة، ولم يسلم إلا المخبر وهو غازي القصّاص كما تنبأ أبو ليلة[١] وقد أصابته رصاصة فأخذ يزحف والدّم يتناثر منه، فهمّ به بعض الإخوان فقال خالد: اتركوه يخبرهم الخبر، وحانت إحدى صلاتي العَشِيّ إمّا الظّهر أو العصر فصلّوا ثمّ قال خالد: خذوا من لحم جيشكم ما شئتم ــ أي بعد نحره ــ ثمّ ارحلوا، ذلك أنّ خالداً كان من سياسته ألّا يبقى في مكان المعركة بل يبرز عنها ويبتعد، حتىّ لا يدركه من لم يحسب له حساب، فيؤخذ على حين غرّة.

وقد استشهد من الإخوان عشرة. ووقفوا على جثّة راقي الفرد، وكان قد أحمى عليهم الهيج وقتل بعضهم، وقد تهوّلوا من عزمه وحزمه، فقد وجدوه قد حفر لقربة الماء ثمّ أدلاها عند فمه حتّى يشرب وهو يرمي القوم، وقد فتح خِرج الرّصاص بقرب بندقيته أمّ ركبة، ولمّا عَدُّوا الصِفْر الّتي أطلق رصاصها إذ هي ثلاثٌ وستون صفرة، لقد كان عند هؤلاء شجاعة وفروسيّة وبطولة ورجوليّة، لولا خذلان الله لهم بحربهم للموحّدين.

وممّن قُتِلَ مع الفرد أحد الأشراف وقد كان مع الإخوان فنكص على عقبيه، وورد من خبره أنه كان مع الإخوان في الخرمة، فلما أراد الله خذلانه طرأ عليه أن يتبع الشريف وحطام دنياه ، فقال لأخيه: يا فلان

---

(١) وقد هدى الله ذلك المصاب فيما بعد فتديّن مع الإخوان.

أعطني شدادك[١] سأذهب لابن سعود، وكان عبد العزيز في ذلك الوقت يستدني الأشراف ويقرّبهم ويعطيهم ويستميلهم، لكن ليس كعطاء الشريف، فقال أخوه: خذه، فأخذ الشّداد ثم انحدر مع الوادي واشترى ذلولاً نجيبة من أحد بني ثور القاطنين أسفل الوادي، ووعده بالثّمن حين رجوعه من ابن سعود كما زعم، ثم رَكّبَ عليها الشّداد، وانطلق مغرّباً للشريف، وحينما ورد بنو ثور قالوا لصاحبهم: وجدنا أثر ناقتك الفلانية مغرّبة قد جعلت الشمس بين عينيها وقطعت الشعب الفلاني! فقال: الخَلَفُ على الله! خسرت ذلولي ودراهمي، وحينما وصل للشريف إذ هو يجهّز حملة الفرد والعبّود فطلب منه السّلاح، فأمدّه ببندقية وحزام ملئ بالرّصاص، فركّب شداد أخيه على ذلول الثوري، ثمّ عاد مع جند الشريف غازياً قومه الإخوان فقُتِل! وقيل إنّه لما أشرف على الموت واقترب منه وبل الرصاص صاح في الإخوان: يا إخوان أنا فلان أخوكم. فقالوا: بيّن رأسك يا فلان. فلمّا أشرف عليهم برأسه رموه بالرصاص فقتلوه، وتُذكر هذه الحادثة كذلك على رجل آخر في تربة ، قال شبيب بن جميع:

قمنا عليهم صِفرٍ كنها الجلّة   كم فاطر فرقوها هي وراعيها

قال فايز الحارث: صبّحْنَا الشريف حسين وهو جالس في مجلسه مكتظم ومغتاظ، وسواكه في يده، ورجليه كلّ واحدة على الأخرى، يردّ

(١) الشِّدَاد: هو الرَّحْل، يوضع على ظهر الراحلة.

هذه على تلك ثمّ العكس دواليك، فقال علي بن الحسين: يا سيدي ما أخبار قومنا الذين أرسلناهم؟ قال: راحوا. فقال: أين راحوا. فقال: تحاربوا مع قوم خالد وجت الطائلة لقومنا. فقمنا ونحن في شكّ وريبة من كلامه، فلمّا مررنا بالمعابدة إذِ النّساء في صياح ونحيب، هذه على أبيها، وتلك على زوجها، وأخرى على ابنها، وقالوا: لم ينج إلا شريدتهم غازي القصّاص. فقلنا: نعم هذا الخبر وليس خبر حسين.

لعمرك ما لام ابن أخطب نفسه	ولكنّه من يخذل الله يخذل
لجاهد حتى يبلغ النفس عذرها	وقلقل يبغي العزّ كل مقلقل

وجميع الأخبار كانت ترسل للإمام عبد العزيز في الرّياض، ولمّا وصله صامل بخطاب خالد، قال: من كم يوم وأنت تسير؟ قال: جئتك في ثلاثة أيام. فقال: عزّ الله إنك على اسمك صامل.



يوم عوينة كنهل ـ العيينة
(١٩/ ١١/ ١٣٤٧)

ومن أخبار الإخوان بعد السّبلة[1]، قتل الأمير فهد بن عبد الله بن جلوي بعد السّبلة بشهر، وفهد هو ابن الأمير عبد الله بن جلوي ابن عم الإمام عبد العزيز، ومن المقرّبين إليه، ومن قدماء أصحابه حيث عاش معه في الكويت، ورافقه في دخول الرّياض، وغزا معه باقي مغازيه، فولّاه المنطقة الشّرقية، وكان ابن جلوي شديد البأس، عظيم البطش، فأصبح الكلّ يخافه حتى أنّهم لقّبونه بـ(جبّار آل سعود) وكان بينه وبين الرّياض قبيلة العجمان، وهي قبيلة شرسة، وكثيرة الحروب، وهم من قَتَلَ الأمير سعد بن عبد الرّحمن أخو الإمام عبد العزيز، وأصابوا الإمام في تلك المعركة بعد (جراب) بطلقة في بطنة فانفجر الرّصاص في بطنه ففتحت جرحاً عظيماً كاد يودي به، فتحامل على نفسه، وكتم ما به حتّى نصره الله، ولعلّ هذا هو سبب إعراض الإمام عنهم، وعدم إشراكهم في حروب الإخوان الكبيرة ضدّ أعدائه لمّا أضحى العجمان فيما بعد من جُمْلة الإخوان بعدما جاءهم الدّعاة بالخير، فصاروا من المتديّنين.

ولمّا حبس الإمام عبد العزيز أهل السبلة، توجّس العجمان خيفة من الإمام ومن ابن جلوي، فانحازوا عنه، فلم يعودوا يدخلون عليه ويزورونه كما عوّدوه، فأرسل لهم ابنه فهداً فأناخ قريباً منهم، وكانوا على

(١) وللسبلة حديث خاص يأتي إن شاء الله في الفصل السابع.

(عوينة كنهل) بقرب هجرتهم (الصرّار) ـ بينهما قرابة الأربع ساعات ـ فنزل بجيشه حذاءهم، وكان جيشه مكوّن من بني هاجر وبني خالد وابن عريعر وحاضرة الشّرقيّة وقبائل كثر، وكان أمير العجمان حينها ضيدان بن حثلين، وكان من ضمن العجمان أمير فخذ منهم، يقال له ابن سُفران، وكان مقرّباً من فهد بن جلوي، وكان من جملة أصحابه، ونزل العجمان بإبلهم وماشيتهم على العيينة أو العوينة، ثم قال لهم شيخهم ضيدان: سأذهب لابن جلوي إتّقاء شرّه عنا، فهو لم يُنخ قبالتنا إلّا وهو يريد شيئاً، فرفض أصحابه رأيه ومنهم ابن سفران، وقالوا: إن ذهبت فلن تعود، لكنّ داع المنيّة كان أكثر إلحاحاً منهم، فذهب برفقته اثنان من خاصّته إلى فهد ودخل عليه وحيّاه، لكنه رد التّحيه بأن أمر العبد فأوثق قياد أضيافه، وجعلهم في خيمة مقابلة له، ولعله كان يريد سجنه في سجن (غَبْرَان) عند والده، وقيل: إنّه ذَكَرَ لضيدان سبب مجيئه، وهو أخذ إبل وسلاح العجمان بأمر من الإمام، لأنّهم لم يشتركوا مع الإمام في حربه في السّبلة، وقال للعبد بعدما أوثقهم: إن سمعت البندق قد ثارت فثوّر الرّصاص في رؤوسهم. فقال ضيدان: القوم سيأتونك إن لم تطلقني، فاستَمِع مشورتي ودعني أعود إليهم. فقال: اقطع واخسأ، ولا تقل شيئاً!

فلـمّا هوّد الليل، وألقى السّواد البهيم بِجِرَانِهِ على النفود، ولم يعد ضيدان، اجتمع رؤوس العجمان ومعهم ابن سفران، وقرّروا بيات فهد. واتّفقوا على البيات ولكن خافوا من قتل بعضهم لبعض، فاقترح أحدهم أن ينزعوا ثيابهم وأن يكتفوا بسراويلهم وعمائمهم ففعلوا، وهجموا مع

هجعة الليل، وبروك سواده على سنا الأفق، وبسط فراشه على أديم الثّرى، وهم ينادون شيخهم ضيدان، ويهتفون باسمه لعلّه أن يردّ عليهم صوتاً أو يسمعهم ركزاً: يا ضيدان سمّعنا صوتك، فكانت رصاصة العبد هي الجواب، فقُتِل الشيخ وانتقم الأتباع، ولكل باغ مصرع، وعلى الباغي تدور الدوائر، فإنّهم لمّا لم يسمعوه، شهروا سيوفهم وهجموا ببنادقهم، ومن حين سمع العبد دندنة الرّصاص بادر بقتل أسيره، ورهجت الخيل، وتعانقت الفرسان بالرّماح والسّيوف، وعلا صوت الرّصاص والصّهيل، وكثر الطّعن والتّقتيل في جيش ابن جلوي الذي ركب فرسه وأرخى عنانها وجَلَدَهَا بسوطه عَلَّهَا تنقذه من حتفه، وتبعده عن منيّته، لكن ابن سفران كان حاضراً، فمدّ البندقيّة عليه قائلاً بصوت يقطر منه الدم: ذُق ما ذاق ضيدان، ورجفه بالرصاصة فأطاره عن فرسه صريعاً. وكان ذلك عام (١٣٤٧) فزادت ثارات الملك مع هذه القبيلة، ومع مرور الوقت بردت العداوة، وحلّ مكانها الألفة والتعاون، بحمد الله تعالى[١].

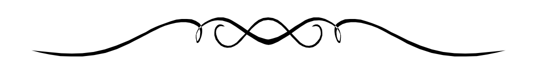
وقيل: إنّ ضيدان لمّا يئس من موافقة فهد له بالعودة، طلب منه أن يكتب لهم كتاباً حتّى لا يهجمون، فوافق الأمير فهد، وأرسل الكتاب الذي لم يصل إليهم لسبب ما! فهجموا، والله تعالى أعلم.

(١) علماً بأن الإمام عبد الله الفيصل ـ عم الملك عبد العزيز ـ كان قد هزم العجمان حين ثاروا عليه، فغرقوا في البحر في معركتي الطبعة الأولى في: (١٧/رمضان/١٣٧٦) والثانية بعدها بسنة، في رمضان: (١٣٧٧). وفي الثانية كان الغرقى من الرجال والنساء والأطفال (١٥٠٠) رحمهم الله تعالى.

ثـم إن نـايف بـن حثلين ــ أبـو الكـلاب ــ والـذي استلم زمـام قيـادة العجمان، ذهب بقبيلته للكويت خوفاً من انتقام الأمير عبد الله بن جلوي فنزلوا (الوفراء) وانضموا إلى الإخوان المنشقين هناك من مطير، وانضم إليهم جاسر بن لامي بحشود من مطير، ونزلت عليهم بعض عتيبة وعنزة، كذلك فرحان بن مشهور الرّويلي، وقيل إن الدهينة أرادهم ثم تركهم إلى العراق.

ومرت الأيام والأحداث، حتى كانت نهاية أكابرهم بين يدي الإمام حين سلمتهم بريطانيا له، وانطفئ بحمد الله شرر الفتنة والفرقة.

يـدفّنُ بعضنا بعضاً وتمشي أوائلُنا على هامِ الأوالي
وكمْ عينٍ مقَبّلةِ النّواحي كحيلٍ بالجنادل والرمال



الفَصْلُ الرَّابِعُ

عن شيوخ الإخوان في الخرمة، وخالد بن لؤي

هذه وقفات عجْلى في بستان الإخوان الشذي، لنقطف شيئاً من ثماره، ولنشم بعض رياحينه وأزهاره، ولنمتّع البصر بمروجه ورياضه، وسنطل عليهم هنا من نافذتين؛ الأمير خالد، وبعض العلماء الذين وجّهوا دفّة المسيرة الإخوانية، وأُنبّه إلى أنّ الكلام عنهم هنا ليس استقصاء ولم يلتزم الاستيفاء، فليس في حوزة القلم الكثير، وعند غيري أكثر مما عندي فلعلّهم ينشطون لذلك، والشيء بالشيء يُذكر، والحَيَا يذكّر بأهل المرابع.

****

الأمير الموفّق والقائد الحكيم والمجاهد المظفّر خالد بن لؤيّ

قال ابن غبيشان:

معه شريف الهدى ما هو بملالي   مسلم روحه يبي مرضات وجه الله
يا بو سعد جعلها تفداك الأنذالي   ولعل يفداك جند ما يخافون الله

يجمل بنا ذكر شيءٍ من أخبار القائد خالد بن منصور بن لؤي لأن التاريخ لم ينصفه، فمع مقاماته العظيمة في الجهاد؛ إلا أن غالب الناس لا يُدركون حجم ذلك الأمر، وليس كلّ الناس جاهل به فبعض أهل نجد ـ كما ذُكر لي ـ كانوا يضحّون عنه أضاحي في العيد الأكبر عرفاناً بجميله على الأمة، فرحمه الله تعالى.

يُقال: إنّ أوّلَ أميرٍ للخرمة من قبل الشريف هو لؤيّ بن غالب بن زامل الشريف الّذي نُصّبَ من قبل شريف مكة، عام: (١٢٠٦)[1] من

(١) ولعل هذا التاريخ: (١٢٠٦) هو أول نزول الأشراف الخرمة على أهلها السبعان، وربما أن الأمير لؤي بن غالب قد صحبه بعض قومه الأشراف من آل لؤي كعبد الله أبو شوارب بن لؤي ـ جد خالد لأبيه ـ وماضي بن هزاع بن لؤي ـ جد خالد لأمه، ويقال إنّه عمّ للملك حسين ـ ولعل ممن قدم معه كذلك صالح الحارث ـ أبو محمد وجد ناصر وغزاي وغازي ـ كذلك فقد أتى معه أخوه صامل، ويذكرون كذلك رجلاً يقال له زامل بن لؤي، ويقال إنه من أوائل الأشراف نزولاً الخرمة، وقد يكون نزولهم الخرمة قبل هذا التاريخ، والله أعلم.

قبل أمير مكة غالب بن مساعد تكريماً لوالده غالب بن زامل على طرده قبيلة الظفير من الحجاز، فكافأه بأن عيّن ابنه لؤيّاً أميراً على الخرمة، وعلى إثره توارث الأشراف إمارة البلدة إلى يومنا هذا، وآخرهم حتّى تاريخه (١٤٣٠) ـــ بعد انقطاع دام نحو أربعين عاماً ـــ هو الأمير خالد بن عبد الله بن الأمير خالد بن منصور بن لؤي، من (العبادلة) نسبة إلى عبد الله من (ذوي حمود).

والخرمة كانت ولا تزال من ديار قبيلة سبيع الكبيرة، ويسكنها أربعة أفخاذ منهم، فسوادها الأعظم هم بنو ثور ثمّ القريشات والصّملة وآل عمر.

نزل الخرمة عبد الله أبو شوارب العبدليّ، وهو من ذرّية الحسن بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وصلى الله وسلم على جدّه. ثمّ إنّ عبد الله وُلد له ابنان ناصر ومنصور، أمّا ناصر فوُلِد له غالب الذي كان أمير الخرمة في أول أمر الإخوان، وهو والد منصور الّذي كان من كبار الإخوان، أمّا منصور بن عبد الله فوُلد له ثلاثة وهم خالد وهو أمير الإخوان وبعيجان ونائف.

وُلِدَ خالد في الخرمة من أسرة سلفيّة المعتقدِ هاشميّة المَحْتِدِ، وتربّى على صفاء الفطرة ونقاء العقيدة الّتي لم تتلوّث ببدع ذلك الزمان، وترعرع شيئاً فشيئاً في أكناف الكرم والنبل والشهامة، وتربى على الرّجولة والفروسية والشجاعة، وقبل ذلك على العبادة، وكان خير معين لابن عمه الأمير غالب بن ناصر بن عبد الله حتّى توفّي قرابة عام: (١٣٣٢) فتولّى

أمارة الخرمة من بعده.

وبعد نحو ثلاث سنين وصلت الحسين في مكة أخبار سلفيّة خالد ودعوته، فاستدعاه إليه، وأبقاه عنده بضعة أشهر، ثمّ بعثه مع ابنه عبد الله الملقب بـ(البيه) لمحاصرة من تبقّى من الأتراك في الطّائف إبّان الثورة العربيّة على الأتراك، ثمّ للمرابطة بوادي (العيص) شرق المدينة، ثمّ إنّ خالداً ترك ابن عمه (البيه) وانفتل معه بضعة رجال لنجد مهاجراً إلى الله ورسوله ولا نزكّيه على الله تعالى.

ولم يكن خالد في بدايته بذلك المتديّن الّذي يلفت الانتباه بصلابة تقواه، حتّى دخل الدّين قلبه بِقُوَّةٍ وتدثر بدثار الدين، وتشرّب حب الشريعة، فغيَّر الإيمان وِجْهَتَهُ من حرب الترك مع عبد الله البيه، إلى حرب البيه وأبيه لمّا حاربا التّوحيد وأهله.

وكان خالدٌ يحبّ البادية، ولا يعود لنخله إلّا مع القَيْضِ مع باكورة الرّطب كعادة أهل الخرمة. ثمّ ذهب لمكّة وحصل ما حصل حتّى تولى أمارة الخرمة بأمر الإمام عبد العزيز بعدما بايعه في الرياض. ويقال بل كان أميراً للخرمة أربع سنين بعد وفاة ابن عمّه غالب بن ناصر، فتولّى الإمارة وأقرّه عليها الحسين، وهذا هو الرّاجح. وبعد مبايعته للإمام عبد العزيز أقرّهُ على إمارته للخرمة.

وبعد انتهاء المغازي الكبار، نزل أخوه نايف بن منصور (الوطاة)[١]

---

(١) الوطاة: مَحِلّةٌ صغيرة في أسفل وادي سبيع تبعد عن الخرمة قرابة ثمانية أكيال شرقاً.

وكان نائف قبل ذلك يريد (القنصليّة)[١] ولكن أبى عليه أخوه خالد وقال للملك عبد العزيز: لا تعطه أمراً على القنصليّة حتّى لا يذهب عنّي بعيداً، ولكن أعطه أمراً على الوطاة وهو ما حصل، فنزل عليه بعض القريشات من سبيع والسّميان من البقوم وبعض الأشراف.

ولخالد من الأبناء، عبد المحسن الأوّل وهو بِكْرُهُ واستشهد يوم الخرائق، وكان فارساً نادراً، وسلطان وهو الثّاني بعد محسن، وسعد وهو الأمير من بعده كان مقداماً مغواراً، وإن كان في سيفه رَهَقٌ وبطش، عفا الله عنه، قد حباه الله بقوّة جسد، وقوّة رأي، وقوّة قلب، ولمّا توفي بالطّائف غسّلَهُ الشيخ محمد بن رشيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فكان يتعجب من كثرة مجافر البنادق[٢] في جسده من المغازي[٣].

---

(١) القنصلية: ماء لسبيع القريشات من أهل الخرمة، شرق الخرمة بمسيرة يومين قاصدين تقريباً، وهي الّتي كان فيها عبد العزيز بجيوشه لحظة وصول البشير إليه بسقوط تربة.

(٢) مجافر البنادق: مضارب الرّصاص.

(٣) ومن أخباره رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يُقال: كان في الخرمة رجل مصاب بمرض عصبي ينتابه بين الحين والآخر، وذات يوم تشاجر مع أحد أقاربه وضربه، فأمر الشيخ بسجنه، ولم يأمر بضربه مراعاة لحالته النفسية. كما قيل: (مجنون وطِقّ بعصا). وبعد انتهاء مدة الحبس أُطلق، فمرّ بالأمير سعد وهو في مجلسه، فقال: إيه يا سعيدان، تعرف تحبس الرياجيل! فقال الأمير: ردّوه. قال الراوي: فظننا أنه سيضربه أو يسجنه مرة أخرى. ولكن الذي حدث هو عكس ما توقعناه، فقد دخل الأمير بيته وجاء بثوب وعمامة، وقد وضع

في طرفها قهوة، وفي طرفها الآخر بهار، ومعها (ثلاثة أريل فضة) أي: ريالات، ثم قال: هاتوه، فلما حضر قال له الأمير: أنا ما حبستك، لكن اللي حبسك الشيخ لاعتدائك على ابن عمك، ولكن هذي كسوتك وقهوتك وشرهتك. فقام الرجل وقبل رأس الأمير، وقال: الله يخليك لنا يابو نايف. فلما ذهب، قال أحد الحاضرين: يا لأمير: هذا مجنون. قال: خابر، حنّا ما ذبحنا إلا المجانين! والا العاقل بيرده عقله عنّا. ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

ومن أخباره رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما رواه محمد بن الحسين الشنبري الشريف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: اعتمرنا مع الأمير سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة من السنين،في يوم: (٢٦) من رمضان، فدخلنا مكة بين المغرب والعشاء، ليلة: (٢٧) محرمين ملبين، فلما توسطنا في الحرم، وقف الأمير وقال: يا محمد بن الحسين، يامحمد بن بعيجان، يافلان، ويافلان: أليس هذا المكان هو أشرف مكان في الدنيا؟ قلنا: بلى. قال: أليست هذه الليلة هي أشرف ليلة في السنة؟ قلنا: بلى. قال: فإنّي أُشهدكم بأن فلاناً وزوجته وأولاده عتقاء لوجه الله تعالى. فقال أحد الحضور: لا ياالأمير لكن أعتق بعضهم واترك بعضهم. فقال: اسكت، فإني في حرب مع الشيطان منذ هممت بهذا الأمر، فلا تعنه عليّ! ثم قال: واشهدوا أن عرينين من نخلي الدوّار مسقيات. (أي تسقى دون أن يؤخذ من ثمرتها شيء مقابل ذلك، والعرين ويقال له الشطيب: هو الصف الممتد من النخل من أول البستان لآخره) فلعلّ الله أن يعتقه من النار لإعتاقه لهم، ومن أعتق مملوكه أعتق الله كل عضو منه بكل عضو منه.

وفي سنة مجدبة قل فيها الحافر، مر أحد كبار الدولة ويقال له الجبرين معه بعض المسؤولين بخيمة سعد في الفلاة وقد أصابهم الجوع وهم في طريقهم من الرياض للحجاز، فاستقبلهم أحد مماليكه فرحب بهم وقرّب لهم كبشاً سميناً، فلما وضعه بين

ومن أبناء خالد كذلك زامل وحسين وعبد الله وعبد المحسن الثّاني.

لقد كان خالد مثالاً نادراً لصفات عديدة، قلّما تجتمع في شخص، من عمق التديّن، والحكمة، والرّأي المسدد، والحلم، والكرم، والشّجاعة، وتعظيم كلمة العلماء ولزوم غرزهم، وحفظ العهد وإتمام العقد، وحفظ البيعة لإمام المسلمين ولزوم طاعته وحرب من شقّ عصاه ونقض عهده، وإلى شيء من متفرق أخباره:

أيديهم قال: حياكم الله عند عمّي اللي إذا حضر كفانا وإذا غاب وصّانا، فدخلت كلمته إعجاب ابن جبرين فما زال يرددها حتى وصلوا الحجاز، ويقول: هذا المملوك، أجل وشلون سيده؟!

ومن شدة بأسه في الحرب وإقدامه ما وُجد في مقدم جسده بعد معركة الخرائق من تسع مضارب للرصاص ليس فيها واحدة من خلفه.

وليس على الاعتاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا يقطر الدمُ

ويُروى عن الملك فيصل رحمه الله أنّه قال ذات يوم: لم نحكم الخرمة حقّاً حتّى زال عنها سعد بن خالد من شدّة اعتداده بنفسه واستقلاله بقراراته.

ولمّا حدث ما حدث بين الملك سعود رحمه الله والملك فيصل رحمه الله قال الملك فيصل للأمير سعد: بلغني أنك على "المردمة" تجمع الجموع عليّ. فقال الأمير سعد: أصلح الله الأمير، أنا على المردمة بإبلي وجماعتي وأقاربي وعبيدي، وليس عندنا شيء ممّا ذكرت، ولو أمر الملك سعود بحربك لكنت أنا أوّل من يرميك بالرّصاص! فغضب الملك فيصل، وقال: ولم ذاك؟ فقال: لأن في عنقي بيعة للملك سعود، ولم تسقط حتّى طرحها العلماء وألبسوك إيّاها. فزال الغضب عن وجه الملك فيصل وأعجب بكلامه وقال: هذا الولاء الذي نريد. توفي سنة: (١٣٨٥) بالطائف، رحمه الله.

فمن حرصه على مصالح المسلمين واهتمامه بالعامة:

فيروى عن سليمان الحجي رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: قال لي الأمير خالد رَحِمَهُ اللَّهُ: يا مطوّع، مسألتين استعن بالله وابدأ فيهنّ، حتى أساعدك عليهنّ وأنا حيّ؛ حسو العباسا(١) ومسجد قمزان(٢) وكان حسو العباسا في حي السوق القديم، مطويّاً بالخشب، وكان الأمير يريد رصّه بالحجر، أما مسجد قمزان فقد كان عشّة، والأمير يريد بناءه بالطين واللبن، وقد تم تنفيذ هذين المشروعين الخيريين في آخر حياته أو في سنة وفاته رحمهما الله وتقبل منهما.

ومن زهده في الدنيا وإكرامه لأهل العلم:

أرسل له الملك عبد العزيز له كسوة العيد في إحدى السنين، فأمر أهله أن يغسلوا ثياباً مستعملة عنده، وعيّد بها، وأعطى الكسوة الجديدة لأحد طلبة العلم. وعادات السادات سادات العادات.

وبعد فتنة السبلة تسوّر بعضهم قصره لينهبوه فلم يجدوا سوى تنك تمر مسوس! وهو الذي لو أراد لملأها ذهباً، فلم يكن إمامُه يرد له طلباً، ولكن أبى الزهد على الحرص فغنم.

---

(١) الحسو: بئر ضيّقة، لاطئة بالأرض، ليس لها جدار خارجي، والعادة أنها تكون ملحقة بالمساجد أو البيوت.

(٢) قمزان: هو حي آل حجي بقرب السوق القديم.

قال أحمد شوقي:

وكن في الطريق عفيف الخطى   شريف السماع كريم النظر
وكن رجلاً إن أتوا بعده   يقولون: مَرَّ وهذا الأثر

ومن ذكائه وصدق فراسته وحزمه:

قال ثامر بن حمد بن هليمة رَحِمَهُ اللَّهُ: كنا في غزوة من الغزوات، وكان معنا رجل له غنم كثيرة من أهل تلك الناحية، وقد لبس المعمّ، وكان يزورنا كلّ ضحى يستمع للحديث، ويتحدّث مع الإخوان، وقد جعل نفسه واحداً منهم، وفي ليلة من الليالي؛ سمع الأمير كلب هذا الرجل ينبح نباحاً متواصلاً، فقال لاثنين من الإخوان: اذهبا واختبئا بعيداً عن بيته، فربما تجدان أحداً خارجاً من عنده، فأتياني به ولا يشعر ذلك الرجل بشيء، فذهبا فوجدا مطيّة معقّلة، فراقباها من بعيد، حتى جاء صاحبها، وأطلق عقالها، وركبها فلمّا أبعدا عن بيت الرجل قربا من مطية الرجل واعتقلاه وأخذا بخطام ناقته يقتادانه للأمير خالد، فهدده الأمير بالقتل إن لم يخبره بالأمر، فأخبره أنه يأتي لهذا الرجل بين الحين والآخر، ويأخذ أخبار الإخوان منه، ثم يذهب بها إلى أمير تلك المنطقة، وهو بدوره يبعث بها إلى أمير الطائف، وذاك يبعثها لشريف مكة أوّلاً بأوّل. فأمر الأمير بحبسه، وفي الصباح جاء ذلك الرجل (الجاسوس) كعادته، فقال الأمير: خذه يا سعيد، ومرّ به أولاً على الرجل المربوط في الخيمة، حتى يراه جيّداً، ثم ضع الرصاصة في رأسه. أمّا صاحب المطيّة فقد عفا عنه الأمير،

وانضم إلى الإخوان وصلح حاله. وفي البخاري: أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الجاسوس وهو عينٌ للمشركين، لمّا جلس إليهم، ثم وثب على راحلته، وذهب للعدو بأخبار المسلمين، فأمر الصحابة بلحاقه، فأدركه سلمة بن الأكوع فقتله. فقال ﷺ: «**من قتل الرجل؟**» فقالوا: ابن الأكوع. فقال: «**له سلبه أجمع**».

ومن فراسته كذلك:

قال سيف بن سعد العبيسي رحمه الله: ضاع لرجل شاة، فأخذ يتجوّل في الشوارع ويسأل عنها، فمرّ على بيت قد عُرِف أهله بالسرقة! فشمّ رائحة الدسم من عندهم، فظنّ أنها شاته، فطرق عليهم الباب فلم يجيبوه، فدخل مسرعاً وذهب من فوره إلى المطبخ، وفتش القدر، وأخذ منه قطعة لحم فإذا هي لحم جزور! فصاح به أهل البيت: الحمد لله الذي فشّلك (أي: أخجلك بفعلك) تظنّ أنها شاتك، والله لنشكونك غداً للشيخ والأمير، تتهمنا بشيء لسنا من أهله! فأسقط في يد الرجل، وأخذ يعتذر ويطلب السماح. فلم تسمح نفوسهم بالعفو. فخاف الرجل على نفسه ولم ينم تلك الليلة، ومع الفجر ذهب للهجرة (هجرة خالد والإخوان) وصلّى مع الأمير، وأخبره الخبر، فقال الأمير: دعهم يشكونك، ولا يعلموا أنك جئتني، ولا عليك إلا العافية، إن شاء الله.

ولمّا جاء وقت الجلسة، مرّ أولئك النفر على ذلك الرجل وقالوا: هيّا بنا إلى الشيخ. فقال: سمعاً وطاعة. وذهب معهم، فلمّا جلسوا إلى الشيخ (القاضي، ولعلّه ابن داود) ذكروا دعواهم ضده، وطلبوا من الشيخ

إعطاءهم الحق من خصمهم في دخوله بيتهم بدون إذن، واتهامهم بأمر ليسوا من أهله. فلمّا همّ الرجل بالكلام، أمره الأمير بالسكوت، ثم التفت إلى المدّعين وقال: أنتم يا عيالي لحم الجزور هذا من أين جاكم؟ اشتريتموه من جزّار؟ أخبرونا به. أو مطعمكم إياه أحد؟ أخبرونا من هو؟ قالوا: سبحان الله! حتى أنت يا أمير تتّهمنا!

قال: لا بد أن تخبرونا، وإلا جلدناكم. فلمّا رأوا أن الأمر جدّ وأنهم سيُجلدون، اعترفوا بسرقتهم للحم الجزور!

ومن فراسته وهي عجيبة: (خبر الذهب المدفون):

قال عقاب أبو وطبان السميّ البقمي، وكان من رجال الشريف:

قال لي الشريف حسين: يا عقاب أريدك أن تذهب للبقوم في (قطان)[1] لعلنا نسبق خالداً عليهم فنستميلهم فيكونوا في نحر خالد دوننا، فخذ معك صاحباً واختر راحلتين من خيار الجيش. قال: فأخذت ابن أختي وكان قلبه على قلبي، وأخذنا اثنتين من خيار الجيش وحملنا معنا

---

(١) قطان: واد يقبل من ناحية الجنوب الغربي شرقي جبل حضن، ويصب نحو الشمال الشرقي. وتكثر حوله البراث والبرقان والأودية الصغيرة والأشجار التي تزين رقعة الأرض، والسهول والحزون، ودونه قارة أم السباع والشويري وضعان ووادي "بطان". قال الحطيئة:

عوابي بين الطلح يرجمن بالقنا ... خروج الظباء من حراج قطان

وقال آخر:

إذا بلغ المطي بنا بطانا ... وجزنا الثعلبيّة والشقوقا

جنيهات الذهب الأحمر، فحملناها وركبنا إلى قطان، فلما وصلنا خيامهم إذ ليس فيها سوى النّساء، فسألناهنّ فقلن: الرّجال عند خالد بن لؤي منذ أربع ليال، فتركناهن ثمّ ذهبنا إلى ضُليع في جبل حضن، فأنخنا ثمّ أخذنا قُطَمَ الذّهب ودفنّاه، ثمّ برّكنا رواحلنا على مكان الدّفن حتّى نُعفيَ أثره، وقلت لابن أخي: يا ابن أخي هذه أمانة تبرّأت منها السّماوات والأرض، ونحن سنذهب لخالد ولا ندري ما وراءه! ثمّ انطلقنا لخالد، فوجدناه في عِشَّةٍ في حوقان مقابل قصر الدميجي، إذ لم تُبْنَ بعد عِشّةُ (المناخة) في الهجرة، فأنخنا عليه وقد أحاط به الرّجال وقد أنصتوا للشّيخ عبد الرحمن بن داود وهو يحدّثهم ويعظهم، فسلّمنا عليهم، ثمّ جلسنا ولمّا أنهى الشيخ حديثة قال خالد: عقاب أبو وطبان أرسله الشريف للبقوم، ولم يجد إلاّ النّساء وأرسل معه بذهب، والله ليكفينّ الإخوان سنتين أو ثلاث! فقلت: خف الله يا ولد منصور أنا عقاب أبو وطبان مثل ما قلت، وقد أتيتك بجيش العدو وسلاحِهِ وجئت أبتغي الإسلام. فقال: ماذا تقول يا شيخ والله لو أخذت عليه العصا فضربته ضربتين لأخبرنا خبره، ائذن لي فيه يا شيخ. فقال الشيخ: اتّق الله يا خالد ألم تسمع ما قال؟ فقال خالد: إيه يا عقاب! سَلِّمُوا عليه يا إخوان، واللهُ أعلمُ به! قال: ونظرت إلى البقوم فرأيت أنّهم قد تغيّروا من بعدي وتديّنوا ولبسوا المعامّ، ولمّا صِدْنَا منهم غفلة سرينا وتركناهم، ثمّ أسرعنا الخطى للذّهب فاستخرجناه، ثمّ ذهبنا للشّريف وأعدناه له، وقلنا: يا سيدي هذه أمانة قد تبرأت منها السموات والأرض وهاهي بين يديك، وأخبرناه الخبر. وفي

حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «**إنّ لله عباداً يعرفون الناس بالتوسّم**»[(١)]. قال الأول وكأنما عنى خالداً رَحِمَهُ اللَّهُ:

إذا ما أجالَ الرأي أدركَ فكرُهُ	غرائبَ لم تخطُر ببالٍ ولا فكر
ولا يجمعُ الأموالَ إلا لبذلها	كما لا يُساقُ الهديُ إلا إلى النحرِ

ومن تحرّيه وتأنّيه:

في إحدى الغزوات شك في حقيقة القوم الذين أراد أخذهم، فأرسل عيناً له، وقال: ادخل بين القوم وتثبّت لي من حالهم. فذهب الرجل ومشى بين البيوت لعلّه يسمع ما يثبت أو ينفي من أنّهم تركوا الشريف ولم يبقوا من جنده. فبينما هو كذلك إذ سمع صوتاً من أحد البيوت بين الأم وابنتها وأبيها، والبنت هاجرة لزوجها قد طمحت عنه (ربّما لقلة ذات يده) وأبوها يقول لها: يا بنيّة زوجك فلان مقلّ، ولكن غداً يذهب للشريف ويغزو معه ويعطيك ويعطيك...) قال فعدت لخالد فأخبرته، فقال: قد علمت أنّهم قوم (أي أعداء) ولكن أحببت التثبّت، فصبحهم وأخذهم.

قال ذعار بن مناحي الشريف رَحِمَهُ اللَّهُ: قال الإمام عبد العزيز: يا

---

(١) قال الهيثمي: رواه البزار والطبراني في الأوسط، وإسناده حسن، وحسَّنه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة فهو يغني عن الحديث الضعيف المشهور على الألسن: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله».

والتوّسم: هو التفرّس. وفي التنزيل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥] أي: المتفرسين.

خالد يا عصابة راسي؛ بيني وبينك نجد لم ينظف! فجهّز خالد بسريّة، وحينما أقبلوا على (مراغان) عند (حلبان) أمساهم الليل، فقال خالد: انظُرُوا هل ترون أحداً من القوم هنا أو هناك؟ فنظروا فلم يروا أحداً فأمرهم بالنزول فنزلوا. ثمّ قال لهم خالد: احذروا الرّجال فإنّهم سوف يأتونكم جُرداً ــ أي بلا ثياب ــ فلا يقتل بعضكم بعضاً، ثمّ وضع أربعة من الحرس يسهرون على حماية السريّة، اثنان في كلّ جهة من جهتي الإخافة، فنام الحرسُ، ولم يشعروا إلّا بإطلاق النّار في الخيام، إذ أن القوم قد هجموا عليهم ليلاً وكانوا عُراةٌ ــ إلا من ما يستر العورة ــ كما قال خالد! فقتلوا بعض الإخوان على حين غِرّةٍ،كمحيسن العدواني، وابن مصيبيح من بني عمر، ومغيب، وإذا أميرهم يقول: لقد عرفت خيمة خالد، وهذا المشط سأضعه في رأسه، وأقبل راكضاً لخيمة خالد فإذا منصور بن نايف الشريف، وزامل بن فدغوش، وشلش، دون خيمة خالد؛ فتناوشوه بالرّصاص حَتّى بَرَد.

ثمّ عاد خالد لإمامه عبد العزيز مبشِّراً بِكَسْرِ أولئك القوم، فإذا إمامه قد جهّز له مهمّةً أخرى وقال: فلانٌ ثوّر علينا ــ أي خرج ــ عليك به، فكان يوم البدنة، فقد ثار أحد كبار الإخوان على الملك عبد العزيز بعد السبلة، فطاردته سريّة خالد بمعيّته أهل الخرمة ومن تبعهم، ولمّا توغّل ذلك الرجل بجنده في نجد وأشمل، طاردوه حتّى نفد منهم الماء وكانوا على أمل الورد على عِدٍّ من العدود ــ وهي الآبار ــ لكن لمّا أتوه إذ فيه جيف، قيل: إن فلاناً ــ المُطارَد ــ قد رماها في القليب حتىّ يمنع خالداً

ومن معه من الماء، ويقتلهم عطشاً.

قال غالب التّويم الشّريف: والله لآخرُ جيفةٍ أخرجناها، لجيفة كلبةٍ قد يبس جلدها عليها، فلمّا أخرجوها إذ الماء مخضرّ من العفن قد مشى فيه الدّود، وقيل: كان فيها جثّة رجل! وكانوا على شفا هلكة، فأمر خالد بإخراج الجيف، ثمّ أمر بنزح البئر ثلاث مرّات حتّى صَفَت، وبقي ريح الجيف عالقاً في الماء، فأمر خالد الإخوان بأكل البصل ودلك شفاههم به، ثمّ أدنى الإناء إلى وجهه وجعل لحيته الطويلة تشخل الماء وتقي فمه من الشوائب، ثمّ سمّى الله وشرب، والإخوان ينظرون فلم يضرّهُ، فشربوا وسقوا خيلهم، ونجّاهم الله من الهلكة بعدما كادوا. ثمّ انطلقوا لِطِرَادِ ذلك الرجل ومن معه حتّى قطّعوهم حدود العراق. وبعدها بسنين عاد ذلك الرجل للملك عبد العزيز تائباً نادماً فأكرمه وقرّبه. وقديماً قال الضبّي: من خشن مقره حسن مفرّه، ولكن هيهات! فأين الفرار للمشركين من الفرار لدار المسلمين؟!

ونقول فلانٌ حبيبنا ولكن الحقّ أحبّ إلينا ممّا سواه، وأمرُ نبيّ الله ﷺ فوق كلّ أمر، وسنّته ألزم علينا ممّا عداها، وهو الذي أمر بدفع صيال البغاة وقتالهم حتّى يفيئوا للحقّ، والحمد لله الذي ردّه للحق والهدى، والطيب من عُوده لا يستغرب، ولكلّ جواد كبوة، ولكلّ عالم هفوة، ولكلّ عاقل زلّة. والعبرة بكمال النهايات لا بنقص البدايات كما قرّره شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ.

وقد قصّ ذلك الرجل ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ قصّته فقال: حينما لَحِقَنَا خالد وأهل الخرمة نهار البدنة، وخيّموا في (مراغان) من دون (عفيف) وتتبّعوا أخبار تحرّكاتنا، وعلموا بمكاننا، فقلت لأصحابي: خيّال العليا نوّخوا عِزِّي لقوم لا يطارد شيخها! فقال أحد من معي وكان قد سكن الخرمة حيناً: يا فلان لا تنوّخ، هؤلاء لا تعرفهم أنا الذي أعرفهم ليس لهم سُؤر، والله لئن نوّخت إنّه لمناخ الفرد والعبود ــ ممن سحقهم الإخوان سابقاً ــ فحذف هذه الكلمة في قلوب أصحابي، فألحّوا عليّ، فهربنا حتّى عدّينا البدنة، ثمّ تفرّقوا عنّي، ووالله إنّ الغالي من أصحابي لهو أوّل من تركني، ولم يبق معي إلاّ القليل، فبقيت أمرُّ على بعض القبائل، فإذا أقبلت غمّضتُ عينيّ قليلاً كأن بي رَمَدٌ حتّى لا أُعرف، ثمّ ارتحلت مع مَدِيْدٍ من مطير للكويت، ومنها ذهبت لأبي حنيك (الجنرال غلوب) عند الشّريف، فبقيت ثمان سنوات في الأردن وإنّ الدّود ليرعى قلبي من الهمّ، من البعد عن أهل الدّين، وغربة الوطن، فصار حاله كما قال أبو الطيب:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوّاً له ما من مصاحبته بدّ

ثمّ أقبلت علينا كُتُب ابن سعود: أنّ من رجع لنا تائباً قبلناه، فأزمعت الرجوع، فنهاني من معي عن ذلك مخافة الغدر، فقلت: الحياة والموت قد استويا عندي! فقدمت فلم أر يوماً أكرهه بعد بحمد الله. وأعلنت ندمي وتوبتي ودخلت عليه في قصره في المربّع كأنّه الأسد بين الحضور، والنّاس قد كثروا عليه والمشايخ. فجلست في طرف المجلس. وبعدما انصرف الناس أقبلت عليه وحيّيته وقلت: السّماح أطال الله عمرك. فقال: التّوبة

تجبّ ما قبلها والإسلام يجب ماقبله، ثمّ لم يلتفت لي حتّى أقبل الظّهر، ثمّ خرجنا وصلّينا، ثمّ عدنا وتغدّينا، ولمّا انصرفت أرسل لي رسولاً يخبرني بأنّ الملك ينتظرني بعد العصر، ففعلت فلمّا جلست وخرج أكثر من في المجلس سألني: يا فلان أنت حضري أم بدوي؟ فقلت: كلّ على أصله أطال الله بقاءك أنا بدوي. فقال: تعال إلينا غداً. فلمّا حضرت من الغد إذ بسيارتين من نوع الهاف مملوءتين عن آخرهما من الكسوة والأرزاق والخير. فقال عبد العزيز لمن هم عند السيارات: إذهبوا بها معه حتّى تنزلوه ما شاء من المواطن، ثمّ ضعوا له جميع ما في السّيارات، ثمّ عودوا بواحدة واتركوا عنده الأخرى.

بشاشة وجه المرء خير من القِرى فكيف بمن يأتي به وهو ضاحكُ

قال: فذهبنا حتّى أتيت مكان كذا فقلت: هذا مكاني وبنيت فيه هجرة، رَحِمَهُ اللَّهُ.

وفي عام (١٣٦٤) كان عند الملك فيصل رَحِمَهُ اللَّهُ شاعر الزوران الشهير أحمد بن حمد الأزوري فأراد الملك الشاعر من ذلك الشاعر أن يُرادّهُ ويحاوره بالشعر عن طريق نظم القلطة، فوافق الشاعر لكنه تحرّز لنفسه بدهاء، إذا اشترط الأمان ليقول ما شاء، فوافق الملك، ثم بدأ الملك بقوله ـ وللأبيات روايات مختلفة وهذا هو المشهور ـ:

يا حمد اسمع كلام اباالسعود ابن عبد العزيز الفيصلي
يوم جينا عميت عين الحسود واخذناها بالسيف الآصلي

يـوم جينـا واذا الـديرة مهـود كـل حـاجر يفـيض ويمـتلي

فرد الأزوري:

مرحبـا يـا فهـد جابـك فهـود جابـك الله وحظـك معـتلي
أنـت خلـوك في تـال الجـرود مـا فـتح بابهـا إلا ابـن لـؤي
يـوم جيتـوا مـن العـارض سنود عبـدلي اطّـرد لـه عبـدلي

مغازيه في الجنوب:

بعد مشاركة سريّة خالد في إخماد فتنة (ابن رفادة) وبعد عودتهم إلى بلادهم، أرسل الإمام عبد العزيز ثلاثين سيّارة؛ للخرمة عشر، ولرنية مثلها، ولتربة كذلك. يطلب كبار البلد كي يكرمهم، وكان الإمام عبد العزيز نازلاً في قصر شِبرا في الطائف. فقال خالد لمرافقيه: لا يلبسنّ أحد منكم مشلحاً[1] ولا تحتّوا الغبار عنكم، ولا تضعوا أسلحتكم من أيديكم، فلمّا نظر الإمام عبد العزيز لهذا التّصرف، قال: يا خالد، أنت تكحّلنا ــ أي: تستصغرنا ــ، أم تنصب ــ أي تختال ــ عند بنات عمّك الشّرايف؟ فضحك خالد قال: بل أنصب[2] عند بنات عمي. ثمّ أكرمهم الإمام عبد العزيز وكساهم ثمّ انصرفوا. وبعد أيّام انطلق غازياً غزوته إلى الجنوب وجيزان، الّتي لم يعد بعدها، رحمه الله.

(١) المشلح: العباءة.
(٢) أي أتجمّل وأختال.

وحين رجوعهم من عند عبد العزيز قال أحدهم:

مـــدري نـــسافر عـــلى البـــابور	والا عـــلى الـــلي لهـــن حنّـــه[1]
أحـــدٍ عـــلى ركـــبهم مـــستور	وأحـــدٍ فـــرح يـــوم مرنّـــه
يـــتلن خالـــد ولـــد منـــصور	والـــلاش مـــاهن بيتلنـــه
وحـــسين بالمرجلـــة مذكـــور	وابـــن بعـــيجان ينـــصنه

غزا الإخوان بقيادة الأمير خالد بن لؤي ثلاث غزوات للجنوب وضمّوه للملكة السعوديّة، كذلك فقد شارك سلطان بن بجاد في بعضها، ودخل اليمن مع الأمير فيصل بن عبد العزيز حينئذ.

وهناك قال هاضل بن ناجي[2]:

---

(١) البابور: السفينة ذات المحرك. واللاتي لهن حنّة: السيارات.

(٢) وكان هذا الشاعر صغيراً في ذلك الوقت، لكنّه غزا مع خالد غزوات الجنوب، يقول: كنت مع الصّبية نحرس الإبل ونطعمها في غياب الإخوان الكبار، الذين هجموا على قرية من القرى، فقلت لمن معي: ابق مكاني وسأذهب أستطلع أخبار القوم، فدخلت قصراً قد هرب منه أهله، فلمّا دخلته إذ شيخ كبير يستدفئ بنار قد أوقدها، ففزع لمّا رآني فقلت: سالم سالم ــ أي لن ترع ــ أين الدّراهم؟ فأشار إلى صندوق عنده، مقفل بالحديد، فأخذت الفاروع وضربت الصّندوق حتّى كسرته، فتهوّلتُ من كثرة الذّهب والسّلاسل والجنيهات فيه! فأخذت كيساً ووضعت فيه ما استطعت حمله، ثمّ عُدت لأصحابي الصّغار، فإذا البواردية ـ أي الرّماة ــ قد أقبلوا، وإذا معهم منير صاحب الذّلول الّتي أعتني بها، فقال: هل حشّشت للذّلول ياولدي؟ فقلت: الصبيان حشّوا لإبلهم وأنا جئتك بالذهب. وأريته مامعي فأخذه =

نمشي بحد الهنادي في سبيل الله | في راي عبد العزيز الميسم الحامي
مهب ترقد عيونه ليلها كله | حُرّ على ماكره الماكر العالي
من دون بيت الحرم كني على ملّة | يا هني من يستعي وسطه بالاحرامي

قال مناحي بن غبيشان: حجّ الملك عبد العزيز في إحدى السنين فزاره الإخوان من أهل الخرمة وهو في عشيرة[(١)] قال فدخلنا وسلّمنا وأكرَمَنَا من جنيهين جنيهين، ثمّ قال: كما ترون إنّي ذاهب للحجّ، فمن

= وانطلق بي إلى القائد سلطان بن بجاد وأخبرته الخبر ونثرنا له الكيس، ثمّ بعث من أتى بالصندوق، ففرح بأمانتي وعدّ لي عشرين فرانسياً، وأعطاني مثل غنيمة المقاتلة، أما بقيّة الصغار فرضخ لهم رضخاً.

وكان هذا الرجل أي هاضل بن ناجي الثوري؛ يحمد الله أن يديه لم تلتطخ بدم مسلم قط، حتى في معاركه، كان يتجنب القتل. وهذا الشعور كان يجري في دم غير قليل من الإخوان خاصة في معارك الجنوب، وكانوا يتحرّجون من القتل، وممّا تناقلوه على سبيل الأسى والتفجّع ما حدّثني به عمر بن سليمان الدميجي رحمه الله عن أحدهم، وسمّاه، قال: كنت في إحدى المغازي للجنوب، فلمحت سواد رجل بطرف عيني فالتفتّ فإذا رجل مستوفز وقد رفع عنّي البندقيّة ولو شاء لقتلني فلم يكن بيني وبينه شيء، قال: فالتفتت عليه من الخلف ثم قفزت عليه وطرحته وبركت عليه، ولم يعقني طرحه فقد كان شيخاً مسنّاً، ثم أخرجت الخلب (خنجر صغير) فرفعته فوق رقبته، فلمّا أيقن بالهلكة؛ أغمض عينيه وقال: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله. قال: فطعنته فمات. قلت: رحمه الله فقد قتله ورعه وتقاه، وكان ذلك القاتل كثيراً ما يبدي ندمه على ذلك الفعل، والله المستعان.

(١) وهي مركز تموين جيوش الشّريف سابقاً.

أراد الحجّ معي فمرحباً وإلاّ فهو في إذن بالرجوع، فقمت أمامه على ناقة لي صفراء وقلت:

يالله ياللي تنثر الماء من السماء	يجيله من غُرّ السحاب دفوق
إنك تثبتنا على سنة النبي	وتطعمنا في دين الرسول وفوق
تعاهد خالد وسلطان على التقى	أمراء ضواري هرجهم صدوق
لا رفعوا بأصواتهم ثم هلّلوا	ينبت للقلب التقي عروق

فرأيت تغيّراً في وجه عبد العزيز إذ لم أذكره فقلت:

عساك يا عبد العزيز الله يعزك	ويذل من يفتق عليك فتوق
اهتزت الأمصار واستسلم البحر	وعطاك الانجليزي جزيته مطبوق
إمامنا قوّاد حمر السرايا	مودع على كبد العدو حروق

أنا احمد اللي نصرنا على بني مخلوق

قال: إيه إيه يا مناحي.

وقد غزا خالد الجنوب ثلاث مرات، إحداها كان قائداً لسريّة من ضمن ثلاث سرايا لحرب الأدارسة، وعلى الأخريتان محمد بن شهيل وعمر بن ربيعان، ثمّ أردفهم بجيش كثيف بقيادة الأمير عبد العزيز بن مساعد بن جلوي، حتّى قضوا على حكم الأدارسة. وفي الغزوة الأخيرة للجنوب مرّ برنية، وارتحل معه أميرها الشاعر فيحان بن صامل الشّريف، الذي وصف تلك الغزوة، ورثى قائدها بشعر من أعذب القريض وأجزله، وارتحل معه كذلك ابن غنّام، وجماعة من الإخوان، إضافة إلى

كتيبته من أهل الخرمة، وكان في رأسه جرح من المعركة، وقيل: بل كان مريضاً من حين خروجه من الخرمة، ويزعم البعض أنّه أصيب برصاصة من إحدى المعارك، وهذا لم يثبت، والعلم عند الله.

وازداد به المرض، وحينما وصل جيشه أبها، قال له كبار جنده: أقم هنا أيّها الأمير ومن شئت من أصحابك، فبقي بعدهم ثلاثة أيام، ثم لحقهم إذ لم يطب نفساً بالبقاء خلفهم، وأصرّ على مواصلة القتال ضدّ الأدارسة في حرب صبيا حتّى مع اشتداد المرض به في أبها، وحينما نزل من العقبة لم يطق الجلوس على شداده، فتعاقب أصحابه حمله على خشب كالنّعش، فلـمّا مرّوا بشعب (البَيْض) بقرب وادي بيش، ازداد مرضه، فنزلوا في بطن الشّعب، وفي الضّحى أسلم الرّوح لبارئها، رحمه الله سنة: (١٣٥٢) وقد جاوز السبعين عاماً، وكانت فترة إمارته قرابة الثلاثين عاماً، قد ملأها جهاداً في سبيل الله تعالى.

نُعدّ المشرفيةَ والعوالي وتقتلنا المنون بلا قتال
ونرتبط السوابق مقربات وما ينجين من خَبَبِ الليالي
نصيبك في حياتك من حبيب نصيبك في منامك من خيال

ولـمّا دفنوه جاءهم أمر عبد العزيز بأن ابنه سعداً خليفته في الإمارة.

قال بعضهم معلّقاً على إمارة سعد:

لا غدا خالد سعد يمرق بديله مثل حُرّ اصطفق شرق وشامي
مثل سيف الهند ياكل في مشيله في نحرهم بين مرميٍّ ورامي

فسعى بعضهم في إبعاده عن الإمارة لشدّته وسطوته، إذ لم يكن فيه ليونة والده ولكن عبد العزيز ألزمهم بسعد، لعلمه بكفاءته لأعباء الإمرة وقيادة ذلك الجيش، فهو ابن بجدة الحرب، خاصّة في ذلك الوقت العصيب والجيش لا زال في حروبه في الجنوب.

وبعد تكرار بعض الإخوان حتّى من بعض بني عمومته، وإلحاحهم على الإمام عبد العزيز، أقال سعداً عن الإمرة، فركب إليه سعد وهو غاضب ولما استوى به المجلس عند إمامه قال: أربعة عشر كون ــ أي غزوة ـ قد جرّدتُ لك بنودها الحُمُر ضدّ أعدائك، وأَبِي لم تنفضخ عينه في قبره بعد، حتىّ أخمدت لك الجنوب بعدما كان يفور، وهذا جزائي منك! فقال الإمام عبد العزيز: أنا أخو نورة وش ذا الكلام؟ فقال: وأنا أبو نورة أقول الّذي سمعت. فكظم الإمام عبد العزيز غيظه رحمه الله، فالملوك لا يرضون الاعتزاء أمامهم، وسعد قد اعتزى أمامه، فحلم عليه وحفظ له سابقته، ولما خرج سعد قال الإمام لمن عنده: لا تعجبوا، فهو قول وفعل! وأعاده للإمرة بعدما توجّس محبّوه من فتك الإمام به، وقد توفّي الأمير سعد سنة: (١٣٨٥) رحمه الله.

ومن باب ذكر الشيء بالشيء؛ فيُروى أنّ الأمير فيصل بن عبد العزيز ــ الملك فيما بعد ــ لمّا فتح الحديدة ومعه جموع الإخوان، ذهب كبير من كبراء اليمن ويُسمّيه الإخوان: أحمد حنّة، إلى الإمام عبد العزيز، وقال: إن أخذتم الحديدة فخذوا اليمن كلّه فهي عصب اليمن وميناؤه. ثمّ دارت المفاوضات حتّى ردّ الملك إليهم الحديدة، على أن يسلم اليمن نجران

للإمام عبد العزيز، وعلى أن يسلم كذلك الأدارسة الذين كانوا عنده. في شروط أُخَرَ، واعترض الأمير فيصل على تسليم الحديدة، وقال فيما يُروى: لئن أعطيتهم الحديدة لأقتلن نفسي! فقال الإمام: إن قتلت نفسك فأنت في النار[1] وأبنائي سواك أربعون، وأمّا اليمن فلا نريد حرمانهم من مصدر رزقهم، وقد أخذنا نجران.

ومما رُثِي به رحمه الله تعالى:

ممّا قيل في الأمير خالد إضافة لما ذكرنا في تفاصيل المغازي: رثاه الأمير فيحان بن ناصر بن صامل الشريف أمير رنية بقصيدتين رائعتين، تحكيان ملحمتة رحمه الله، وهاتان القصيدتان إحداهما بالعربي الفصيح، والأخرى بالعاميّة الدّارجة، وقد أحسن في الاثنتين، فلّله درّه من شاعر مصقع، ومجاهد وفيّ.

قال في داليته الشهيرة:

لك الحمد يا مولاي يا ذا المحامد على السرّ والضرّاء في كل وارد
فجعنا فسلمنا بما كان قد جرى لموت الهمام الشهم غيظ المعاند

---

(١) خرّج الإمام مسلم عن أبي هريرة قال: قَال رسول الله ﷺ: «**من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبداً، ومن شرب سماً فقتل نفسه فهو يتحسّاهُ في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً**» والملك فيصل لم يكن ليفعل ذلك لكنه من باب الضغط على والده، ولبيان شدة امتعاضه من القرار.

لقد ساءنا شخص على البَيْضِ قد ثوى ... رجـعنا فخلفنـاه في القـبر واحـد
فيا قبر فيك الجود والدين والندى ... تـضمّنه أضـلاع الـذي فيـك راقـد
وإني لبـــاك مـــا بقيـــت وذاكـــر ... مـــآثر شيـــخ مجـــده متزايـــد
وإني لبـــاك مـــا بقيـــت وذاكـــر ... كـريم المساعي فـضله غـير نافـد
وسيّد حـي مـن لـؤي بـن غـالب ... ســـلالة أســـياد كـــرام أماجـــد
فبـتُّ قـرين الحـزن والهـم ليلتـي ... وقد أخضبت خدي دموع شدائد
يقـول أنـاس هالهـم كثـر عـبرتي ... أصابك جن أم من الموت شارد؟
فقلـت لهـم لا ذا ولا ذاك صـابني ... ولكن أصيب القلب من موت خالد
تقـوى بـدين الله والـتزم الهـدى ... ونـال العـلى والفخر يـوم التجالـد
صـبور عـلى حلـو الليـالي ومرهـا ... ومسعر حرب يتلف النفس ماجد
لــه فتكــات في الأعــادي شهــيرة ... فـدونك منـها في رمـادان شـاهد
ومنهــا بجبــار فــالقرين ومثلهــا ... عـلى الحـنو منهـا شـاكر فـر شـارد
ومنهــا بــأطراف الحجــاز وقائــع ... علــيهن في كــل الــبلاد شــواهد
ولا تنس يوم الطائف الذي كان بعده ... طوافــك حــول البيــت لله عابــد
وتنـــشره أم القـــرى في صحافـــها ... وتنـــقله عنهـــا جميـــع الجرائـــد
وقائـد جـيش مـن سـبيع عرمـرم ... وقامـع أهـل الكفـر مـن كـل مـارد
وفـيهم مـن الأشراف كـل مجـرب ... بأيـــديهم صـــنع عـــديم الفوائـــد
لقد حاز فخر العقل والمجد مذ نشا ... وجمـــع شراد المعـــالي الـــشوارد
وقــامع حــق الــنفس في شهــواتها ... ولـو حـل في العـالين فـوق الفراقـد
سيبكونه الفقراء من بعد ما مضى ... لقــد كــان ذخـراً لهـم في الـشدائد

وتثني لـه الخرمـة بكاهـا وشجـوها ونـسوانها تبكـي وأهـل المـساجد
وإني لأرجـــو الله جـــل جلالـــه يذيـق العـدا مـن نـسله في المـوارد
وما هـو إلا فـرع خـارج مـن أصوله وهـل تلـد الأجـواد إلا الأجـاود
وهـل تنبـت الأشـجار إلا غـصونها ونسل الأفاعي مثلُها في الأساود
فيـا راكبـين العـيس مـن كـل ضـامر موصـلة الجـدين تطـوي الفدافـد
إذا مـا رأت شـخص الزميـل تخـالها تفـــر كأمثـــال النعـــام الـــشوارد
صـــهابية العثنـــون وجنـــاء حائـــل وتـشرد كالـسكران إذ ظـل شـارد
تمـــل هـــداك الله منـــي رســـالة إلى خير من يجلس متكي عل المساند
إمام الهدى عبد العزيز أخو الندى مذيق العدا كأس الردى في الموارد

أما قصيدته الأخرى فهي:

أول بــــــادي مانقـــــول صـــــلاة عـــــلى الرســـــول
عـــدد مـــن لـــزم الحـــجول يطـــوف بالبيـــت الحـــرام
والـــــثاني جانـــــا نـــــضاد بكتـــــاب فيـــــه الجهـــــاد
قربنـــــا جـــــيش جيـــــاد يـــــشبه لجـــــول الـــــنعام
مـــا شري مـــن بيـــت المـــال مخـــــتارينه في الـــــحلال
ركبـــه شيـــــبان وعيـــــال بامتـــــثال أمـــــر الإمـــــام
أول زهابـــــه في بيـــــــشة أربعـــة أريـــل مـــن العيـــشة
تقــــدم خالــــد في جيــــشة متــــغانم أبهـــــا قــــــدام
مـــا قـــصر عبـــد الوهـــاب أبـــرق لهـــم في الـــزهاب

أظـــهر مدحـــه يالنجـــاب	إذا لفـــــــيت الإمـــــــام
ملفانـــا في أبهـــا عـــسير	صـــــخن عـــلينا الأمـــير
رضـــينا بـــأمر القديـــر	تـــسليم لأمـــر العـــلام
وبعـــد مانـــزلنا البيـــض	تـــــوفي ذاك الـــــمريض
والدمـــع منـــي يفيـــيض	مـن مـوت الليـث الصمصام
يـــا قـــبر يـــاللي ملـــحود	دفــن فــيك معــدن الجــود
ومـــدبر حمـــر الجـــرود	موتـــه ثـــلم في الإســـلام
وقايعـــــه في الكفـــــار	مـــا تخـــفى مثـــل النـــهار
جعـــله يـــنجا مـــن الـــنار	يـسكن مـع حـور الخيــام
فــــنه غيـــث لليتــــمان	يـجري مـصروف العميـان
يـــخفي عطايـــا الإحـــسان	ويــــصلي والنـــاس نيـــام
في قـــصره حـــسو الرجـــال	ينقـــض ملـــوي الحبـــال
أقـــول إنـــه في الرجـــال	مـــثل القمـــر في الظـــلام
يـــبكونه رجـــال سبـــيع	لا جـــا الـــدهر مابـــه بيـــع
كـــم قـــد هجـــا مـــن جويـــع	بالـــشحم فـــوق الطعـــام
يـــبكونه أهـــل الإســـلام	والمــــشايخ والإمـــــام
والأرامـــــل والأيتـــــام	والخـــرمة تبكيـــه اشـــمام
الى ذكـــر بـــالخير خالـــد	يكـــتب في التـــاريخ مجاهـــد

غـيض الكـافر والمعانـد واللـي يرتـكب الحـرام
ذا قليـل مـن كثيـر مـن مناقـب ذا الأمـير
الـلي في العـالم شهـير وشـهودي كـل الأنـام
فلـما مـات بعـده عيـال ليـث مـن نـسله أشـبال[(١)]

---

(١) وتمام القصيدة:

سـعد بانـت لـه أفـعال في الـسيد وأهـل التهـام
أولهـا كـون المظـايا مـع ترويحـات العـشايا
والمحـصب جـا بلايـا كـم طـريح ماقـد قـام
والآخـر مـن ورى بيـش هـي مبـتدانا بـالجيش
والحـجر وابـو عريـش والزخـمية جـت هـدام
واكـوان في العيـد منـها الـسيد جـا شريـد
عنـد الجـبل ذا فريـد نـزل مـهدي للـسلام
أبـذكر لـك أهـل الوديـان وامـدح جـموع الـسبعان
نعـم والله يالاخـوان أهـل الـيمن واهـل الـشام
وابـو لعثـة في قحطـان وابـن مـشيط في شـهران
والمـدحمي مـع جـرمان واولاد زايـد قـدام
واهـل بيـشة والبقـوم واهـل المـواتر عمـوم
قبلـهم فهـد مـلزوم لهـم تثـنات الـسلام
نعـم والله ياهـل اللنـج تقـول شاربيـن بـنج
طـشوهم طـش الـشطرنج طقـوهم طـقة ادهـام
قـوم مقـودهم فـراج ماهـابوا ضـرب الأمـواج

شـــــجاعتهم ماتحتـــــاج	الحـــق فيــــهم يالفـــصام
يـــالله يـــاوالي العبـــاد	يـــاللي تحـــكم في الميعـــاد
ارفـــع مقـــام الاجـــواد	وارفـــع مـــقام الحكـــام
خمـــسة شـــهور في الغـــور	في دار بـــــردها نـــــور
أرض الوبـــا والدبـــور	مـــاها وبـــاء واسقـــام
صـــبرنا صـــبر الرجـــال	بلغنـــا مـــشكل الحـــال
والزهـــادة في النـــوال	الله يبـــــيح الإمـــــام
أحـــد ميّـــت واحـــد حـــي	والغنيـــمة راحـــت فيّ
للمـــشايخ وابـــن لـــوي	صـــدق هـــذا في الكـــلام
والـــمزهب مـــد بخيـــس	كـــل أربعـــين في كيـــس
ملـــكنا مـــا هـــو فلـــيس	أبرقوهـــــا للإمـــــام
ويدامـــه مـــن ربـــع ريـــال	يهدونـــــه للـــــرجال
معـــروف مـــن بيـــت المـــال	هـــذا مـــانراه انـــعام
الله أكـــبر يالإخـــوان	هـــذا نـــكر في الزمـــان
شـــحذتكم لابـــن سليمـــان	رز مـــا علـــيه ايـــدام
أبـــو تركـــي لـــو دريـــت	بالزهـــادة مـــا مـــديت
جـــودك راسي عـــلى بيـــت	محـــد مثلـــك في الإكـــرام
ترانـــا أهـــل التوحـــيد	سيـــف لـــك ضربـــه سـديد
مـــا نـــستحق الزهيـــد	كـــرام وابـــناء كـــرام
يانـــديبي عـــلى حـــيل	خـــفف لـــهم في المـــشيل
لا تلهـــيهم في المقيـــل	واســـر في ليـــل الظـــلام

رحم الله الأمير خالد ولا أقول فيه إلا كما قال أبو تمام:

ألا أن في كف المنية مهجةً   تظلُّ لها عين العُلى وهي تدمعُ
هي النفس إن تبك المكارمُ فقدَها   فمن بين أحشاء المكارم تُنزع

مر ابن معمر مقيال   فانه ملفى للرجال
قد جاله في نجران أفعال   في تاريخ ابن غنام
عقب اربع ممساه   عند اهل وادي المياه
وادي ما يحمك ماه   جعله يسقيه الغمام
بدو من ربع هذال   عندهم سلوة البال
في سرح كله اظلال   يعدا لك بالكيف شمام
عقبهم ممساك البلاد   هي ادنا نبت الاجواد
رنية حط بها الشداد   غرس نبته في عدام
أهلها يقرون الضيف   أهل بن واهل كيف
أهل دار لاجاها الضيف   يختلط الغرس بجهام
أرض عذا فيها قوز   ما باعوا خضرة الموز
مشتاهم خشم طرعوز   والاحوضي في العدام
دار فيها قد نشيت   ودي فيها قد مشيت
وآخر واول مانقول   صلاة على الرسول
عد من لزم الحجول   يطوف بالبيت الحرام

«عَتَبُ الأحبّة»

يعتب البعض من رفقاء الدّرب وقدماء الأصحاب وأصفياء الإخوان، خاصّة من سكّان الخرمة على خالد؛ أخذه لنخيل وإبل وبيوت بعض أهل البلد خاصّةً من بني ثور، وإعطاء هذه الأموال لغيرهم، مع كونهم قد عادوا لبيضة الدّين، وتديّنوا مع الإخوان، وهذه هي أكبر ما ينقم بها بعض الناس عليه إلى هذا الزمان. ويُجاب عن ذلك بأمرين:

الأوّل: أنّ هذا التّصرف لعلّه كان بأمر وقضاء القُضاة كالشّيخ ابن حسين وابن داود، وليس من رأي نفسه. ويكدّر على هذا الظن أن هذا التصرّف قد انتهجه بعد معركة حوقان، فهل كان ذلك برأي الشيخ ابن حسين ذلك الحين أم لا؟

والثّاني: أنّ هذه الأموال حينما صُودرت من أهلها، كان أهلها لحظة الحكم بمصادرتها في حكم المحاربين المرتدّين عن الإسلام ـ في نظر جمهور الإخوان ـ [1] حلالي الدّم والمال، لحربهم الموحّدين، ومحكوم عليهم

(١) في رأي السّواد الأعظم من الإخوان، بناء على فتاوى علمائهم، لذا فقد كان الشيخ عبد الرحمن بن داود رَحِمَهُ اللَّهُ إذا أُتي إليه برجل فقال: برئت منه الذمة. فإن الأمير خالد يأمر بقتله مباشرة. وعلى كل حال، فنحن ننظر لهذه المسألة ونحن نعيش الأمن والسلم والرغد، وقد نرى أموراً وتخفى عنا أمور، أو خلفيّات، أو وقائع، أو أحداث، أمّا هم فكانوا يعانون ويلات الحروب، ويصطلون بنارها، ويكتوون =

بالكفر، فصودرت تلك الأموال وصارت فيئاً للمجاهدين، ومن ثَمَّ قُسِمَت حسب القسمة الشرعية، ولمّا عاد أصحابها السّابقون، عادوا للإسلام من جديد بأموال مستأنفة معهم، أمّا ما مضى فقد قسم وانتهى، ولمّا طلب منه بعض الأكابر ردها، تعلل بأن المقاسم قد استنفذتها ـ ولو أنّه تركها لهم في البدء كان أولى ـ والله أعلم، وفي الحديث المرفوع: «**وما أخطأك لم يكن ليصيبك**» (رواه أحمد).

ومسألةُ أموال المرتدّ مبسوطة في المطوّلات الفقهيّة، فهناك من يقول:

بأنّها فيء، وفريق آخر يقول: أنّها تقسم على ورثته، وفريق ثالث يقول: بحبسها حتّى يعود صاحبها أو يموت. والقاعدةُ المضطردةُ أنّ حكم الحاكم في مسائل الاجتهاد يحسم الخلاف، بمعنى أنّ الحاكم إذا أخذ بقول فقهيّ مُعتبر فلا يُفتأت عليه بخلاف بل يكون اختياره قاطعاً لدابر النّزاع، والله أعلم[١].

= بحرّها، وتدهمهم الأمور الكبار، وتتطاحن بين أيديهم وعن أيمانهم وشمائلهم الفتن العميّة، فصدروا عن ذلك بفتاوى حاسمة، وبمسؤولية تامّة، إذ هم قد بلغوا من العلم بالشرع والحال ما يؤهلهم للقيام بهذه المهمات الجسام. رحمهم الله تعالى. وقديماً قيل: إذا لم تقل الحق، فلا تقل الباطل.

(١) في رسالة للملك عبد العزيز بتاريخ: (١٣٤٧) موجهة لفيحان بن صامل الشريف أمير رنية في وقت الشريف وأقرّه الملك عبد العزيز على إمرته: «....ورد علينا السبعان هم ورجال خالد بسبب مشاقتهم ـ أي خلافهم ـ هم وخالد، وأحضرناهم =

قال بشار بن برد:

إذا كنت في كلّ الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

فعش واحداً أو صل أخاك فإنّه مقارفُ ذنبٍ مرّة ومجانبه

إذا أنت لم تشرب مِرَاراً على القذى ظمئت وأي الناس تصفوا مشاربه

❁ ❁ ❁

= عند المشايخ، ولا صارت لهم حجة شرعية، إنما هي علوم خبلة! وعلوم بدو! ثم بعد ذلك طلب السبعان أن نتوسط بينهم، ونمضي عليهم بما نبي، وقلنا لهم: ما فات راح، منكم ومن خالد، وعاهدونا إن دربهم درب خالد على حكم الشرع، والأمور الفايته مطروحة وميته....» (لسراة الليل: ١٧٣).

مشايخ الإخوان في الخرمة

منهم الشيخ إبراهيم الحِجّي المطرفي الهذلي (بن حجي) الّذي كان يعلّمهم القرآن الكريم، وكذلك سليمان الحجّي، أمّا القضاة فقيل إنّ أوّل من جاء للخرمة منهم هو الشّيخ عبد الرّحمن بن عبد العزيز الرّشيد العجمي (بن رشيد). وكان صغير السّنّ حين قدم للخرمة، قيل كان قاضياً، وقيل بل واعظاً مرشداً والثاني أقرب. وقد قدم معه أخوه الأكبر العلّامة محمد الرشيد فقد أتى معه في بدء أمره للاطمئنان عليه، وكان أبوهما عبد العزيز الرشيد قد قتل في وادي الرّمة في طراد الخيل بعد معركتي البكيريّة والشّنانة وكان من الفرسان البواسل، ويقال إنّه كان أوّل قتيل من جيش الملك عبد العزيز في الرّمة لمّا كانوا يطاردون خيل ابن رشيد والأتراك الذين معه[1] ومات وترك هذين الابنين الّذين سافرا من الرّس إلى الرياض مشياً على أقدامهما لطلب العلم! فكانا يقرءان مع جملة من الطلبة على عدد من المشايخ لكل فنّ شيخ، الأصل على عبد الله بن عبد اللطيف، والفقه والنحو على حمد بن فارس، والفرائض على ابن راشد، وحصّلا علماً غزيراً، حتّى قدم إلى الملك عبد العزيز وفد من الخرمة، فيهم عبد المحسن بن شاهين الشريف، واتّفق بهما أعني الشّيخ محمداً وأخاه عبد الرحمن، عبد المحسن بن شاهين عند أحد الأصحاب، رحم الله الجميع، وهو لا يعرفهما، فختم المجلس عبد الرحمن بقراءة

---

(١) روى أبو داود وصححه مرفوعاً: «**ومن قتل دون أهله فهو شهيد**» ومعلوم فجور الترك بالجزيرة.

شجيّة، فسمع قراءته عبد المحسن بن شاهين، فأتاهما وطلب من عبد الرحمن أن يأتي معه إلى الخرمة داعياً إلى التّوحيد، ومعرّفاً معلّماً له، وطلب من الملك أن يطلب منه ذلك، فكأن الملك عبد العزيز تصاغر سنّه، فقال عبد المحسن: نحن البادية كإبلنا تَحُنُّ إلى الصوت الجميل وتتبعه! وطلب من عبد الرحمن الذّهاب والنّقلة والسّكن معهم، فمال عبد الرحمن إلى ذلك، فسمح له أخوه الأكبر محمد، فأتى معه في البداية حتّى يطمئن على بقيّةِ والده وهو أخيه الأصغر عبد الرحمن، وأقبلت عليه قلوب الراغبين إلى ما دعا إليه من التّوحيد والرّقائق والزّهد في الدّنيا، والتّفقّه في الدّين، وحسن الخلق، والرّحمة بالخلق، وغير ذلك وتأثر به الأشراف والسّبعان من أهالي الخرمة، ومن جاورهم، وتزوّج أمّ أولاده من القريشات من سبيع، فلمّا أقبلت ثورة الرِّمَايةِ للحرب والفُرقان بين أهل الحقّ والباطل، وسمع بها أخوه محمد جاء إليه ليأخذه ويرجع به خشيةً عليه، فلمّا وصلهم وهم في البرّ، وتبيّن لهم مقصوده، وذكر له أخوه محمد مراده، إذا هو راغب ومرغوب، فقال لأخيه محمد: أنا على ما ترغب إن رغبت رجوعي معك وإن رغبت بقائي ولا أخرج عن رغبتك. وقال لهما الّذين هو معهم من الأشراف والسّبعان: والله لئن ذهبت به لا يتأخّر عنه واحد منّا! لنذهبنّ معه لأيّ جهةٍ يتوجّهُ إليها! فلمّا رأى أخوه محمد ذلك رجع، وبقي عبد الرحمن مع الأشراف والسبعان ومن جاورهم، ثمّ نزل في حوقان لأنّ حوقان هو منزل الإخوان، وسائر الخرمة ومن خالطهم إلاّ القليل مع الشريف حسين والي مكة شرّفها الله،

وعبد الرحمن على ما هو عليه من القراءة والدّعوة ومحبّة المحبين له، ولم تزل قلوب أهل البلد ومن جاورهم من سائر القبائل على تقديره ومحبته وعدم مخالفته فيما يأمرهم به وينهاهم عنه، فمن ذلك أنّه إذا سمع أنّ أحداً منهم جرى بينه وبين أحدٍ اختلافٌ وشقاقٌ وتنافسٌ في أيّ شيءٍ، فإن كان قريباً منهم مشى إليهم، وإن كان بعيداً ركب حماراً وجاءهم، فإذا وصل إلى القريب أو البعيد اسبشروا به وفرحوا، فإذا تكلّم معهم امتثلوا ما أمرهم به، واجتنبوا مانهاهم عنه، بدون مراجعة لقوله، وزال ما في نفوس بعضهم لبعض وكانوا كأن لم يكن بينهم شيء.

وكان هو كما ذُكر بعاليه رَحِمَهُ ٱللَّهُ حتّى توفّي راجعاً من الحج، أصابه مرضُ وفاتِهِ نهار خروجه من مكة واشتدّ عليه مدّة سفره للرجوع، ووصل إلى أهله، وهي زوجة ثانية أيضاً من القريشات، تزوّجها رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد وفاة زوجته الأولى أم أولاده، وتزايد عليه المرض، وكان أهله في شعبٍ من ضواحي البلد حتّى توفّي فيه، ودفن فيه وسُمي الشِّعب باسمه (شعب ابن رشيد) وكانت وفاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ آخر شهر الحجّ عام (١٣٥٤)[١]

(١) أهل الخرمة يؤرخون بسنة الحمّى الأولى: (١٣٥٥) ثم سنة الحمّى الثانية: (١٣٥٦) والشيخ عبد الرحمن توفي في آخر: (١٣٥٤) وهو أول من مات من هذا الوباء، ولحقه بأيام: سليمان بن صالح الدميجي في حوقان، ثم سمرة بن زيد الرشود في السلمية، ثم هب الوباء في الناس، فصار طاعوناً فلم يبق بيت في الخرمة إلا مات من أهله، بل وبعض البيوت سكرت أبوابها لموت جميع سكانها، وإذا أقبل المساء رأيت الكثير من الناس قد اتكؤا على جدران بيوتهم من الخارج، مخلفين أحباباً لهم قد ماتوا =

وتوفّي وهو شاب في الخامسة والثلاثين من عمره القصير المبارك، فلمّا توفي قدم أخوه محمد وباع النّخل، وأخذ ابنه عبد الله ورجع الى بلده (الرّس).

ومن سيرة عبد الرّحمن في مدّة حياته أنّه كان يصلّي كلّ جمعة إذا كان في البرّ في جامع البلد صلاة الجمعة، وكان يعتكف في كل عام في رمضان، وكان ذا خلق جميل، يأسر الناس بحسنه ودماثته وسعة صدره وجميل أسلوبه وحلاوة منطقه رَحِمَهُ اللَّهُ. انتهى بتصرف بسيط من خط صهره الشيخ محمد بن سليمان الدميجي (١٣٣١ ـ ١٤١٥) رَحِمَهُ اللَّهُ.

ذمّ المنازل بعد منزلة اللوى   والعيش بعد أولئك الأقوام

ولمّا علم الشريف بوصول عالم من علماء نجد إلى الخرمة وهو عبد الرحمن بن رشيد، رَحِمَهُ اللَّهُ، غضب وقال لشرطته: من رأيتموه في مكّه

= في الداخل ولا يستطيعون تجهيزهم، لأنهم على وشك اللحاق بهم من الحمّى! ولعلّ هذا الوباء قد جاء مع الحجاج بأمر الله تعالى، أو أنّه من الغيْل وهو الماء الراكد في وادي الخرمة فتكاثر عليه البعوض فسبب الكوليرا أو الملاريا، وبعضهم يسميها الحمّى الصفراء، والله أعلم.

وكان للأمير سعد بن خالد مواقف مشكورة في التعامل مع هذا المرض والموت العامّ، فكان يشرف على زيارة الأطباء للناس ويمشي معهم بنفسه، كذلك كان يمشي على بيوتهم ويأمر بغسل الموتى وحفر القبور التي شقت على الصحاح، لكثرة الموتان! والله المستعان، وفي البخاري في كتاب الجهاد: (باب: الشهادة سبع سوى القتل) وساق حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال النبي ﷺ: «**الطاعون شهادة لكلّ مسلم**».

من أهل الخرمة فأتوني به. وكان محمد الطويل العبيسي قد قدم مكة لشراء بعض الطعام ومعه صاحبٌ له من بني ثور من آل مرقب. قال محمد فيما يرويه عنه أخوه سيف رحمهما الله: فلمّا تجهّزنا للخروج إذ برجال الشريف معنا، فأخذونا إليه. فقال محمد: يا أبا علي نحن عيالك من أهل الخرمة، قد اشترينا بضاعة ونريد السفر إلى أهلنا، ورجالك قد منعونا من ذلك. فقال: نعم يا عيالي؛ أنتم جاكم نجس! أرأيتك إذا كان عندك ماء طاهر ثم سقطت فيه نجاسة، هل تشرب أو تتوضأ منه؟ والله لولا قبر عمي ماضي عندكم في حوقان لأفعلنّ ولأفعلنّ! فأخذ يزبد ويرعد ويتوعد ونحن نهدئه ونقول: لا علم لنا بما ذكرت، ونحن في السوق، ولا علاقة لنا بأهل حوقان، فأذن لنا بالخروج بعد ذلك.

ومن مشايخ الإخوان القدامى القاضي دحيّم بن ناصر آل حسين، من وادي الدواسر كان في رنية، وكان يأتي للخرمة للإخوان.

وكذلك أخوه إبراهيم بن ناصر آل حسين، الذي كان مقيماً في الخرمة وكان له مواقف عظيمة مع الإخوان، بل ربّما هو الأبرز على الإطلاق من مشايخ الإخوان كافّة الّذين كانوا في الخرمة، وهو كما يقال: الشّيخ الفارس[1] وقد عُيّن قاضياً من قبل الشريف الذي عزله فيما بعد، وقد غضب الشريف على الشيخ إبراهيم بن حسين لأنّه كان يدعوا للعقيدة السّلفيّة، وسجنه سنوات حتّى توسّط له خالد بن لؤي، حاله كما قال

(١) في الخرمة كان الناس لا يطلقون كلمة شيخ إلاّ على من كان قاضياً، أما الواعظ والمرشد والمعلم فيطلق عليهم مصطلح: مطوّع.

محمد الزبيري اليماني:

خرجنا من السجن شمّ الأنوف	كما تخرج الأسد من غابها
نمر على شفرات السيوف	ونأتي المنية من بابها
ونأبى الحياة اذا دنست	بعسف الطغاة وإرهابها
ونحتقر الحادثات الكبار	اذا اعترضتنا بأتعابها
ونعلم أن القضا واقع	وأن الأمور بأسبابها
ستعلم أمتنا أننا	ركبنا الخطوب حناناً بها
فإن نحن فزنا فيا طالما	تذل الصعاب لطلابها
وإن نلق حتفاً فيا حبذا	المنايا تجيء لخطابها
أنفنا الإقامة في أمةٍ	تداس بأقدام أربابها
وسرنا لنفلت من خزيها	كراماً ونخلص من عابها
وكم حيّة تنطوي حولنا	فننسلّ من بين أنيابها

والشّيخان إبراهيم وأخوه دحيّم من وادي الدّواسر، وطلبا العلم في نجد على يد علاّمة ذلك الزمان خالهما سعد بن حمد بن عتيق، وكان أهل الخرمة يدينون في العِلْمِيّات والمعتقد بالدّعوة السّلفيّة، وفي العمليّات بالمذهب الحنبلي، على طريقة أهل العارض، ولما عزل الشريفُ الشيخَ إبراهيم طلب منه خالد إرسال قاض بديل فرفض، ووجهه لسلوم الآباء والأجداد الطّاغوتية! وقال: احكموا بسلوم آبائكم وأجدادكم، وبعد تمكّنِ الإخوان أرسل الشريف من قِبَلِهِ قاضي الضِّرار بعد قوّة شوكة

الإخوان حتّى يأخذ له البيعة، ويكون قاضياً للإخوان لكنّهم طردوه.

ومن أخبار الشّيخ ابراهيم بن ناصر بن حسين؛ أنّ أحد أعيان الخرمة وهو نائف بن منصور وهو أخٌ للأمير خالد طلّق زوجته ثلاثاً على غضب، فاستفتى الشيخ إبراهيم فأفتاه أنّها قد بانت ولا تحلّ له حتّى تنكح زوجاً غيره، فراجعه أنّه طلّقها على غضب، فأبى الشّيخ تحليلها له، فطلب منه أن يكتب لخاله الشّيخ سعد بن عتيق في الرّياض بالمسألة كتاباً، فأجابه وكتب له، وكانت هذه القصّة في الشّهور الأُوَلِ لتديّن الإخوان، وقد افترق الناس ولم يفصل بعضهم من بعض إنّما هو توجّس وحذر، فلمّا أصبح نائف سافر للرّياض، ومضى للشّيخ سعد بالكتاب، فلما فضّه غضب وطرده من المجلس، وقال: الشيخ إبراهيم حرّمها عليك، وجئتني من أجل أن أحللها لك! فقام من عنده، فلمّا أصبح دخل على الإمام عبد العزيز وقال: إنّ لي عندك حاجة. قال: أبشر إن كنت أقدر عليها. قال: تستطيع ذلك، أريدك أن تلزم الشّيخ سعد بالفتيا في مسألتي. فأرسل الملك للشيخ أحد رجاله وقال: قل له: يسلّم عليك الإمام ويقول: من حقّي عليك أن تفتي نايف في معزّبته، أي زوجته، أهي حلال أم حرام؟ فلمّا دخل الرّجل وسلّم وبلّغ سلام الإمام، قال مرحباً وسمعاً وطاعة ماذا يريد الإمام؟ قال: يريدك أن تفتي منصور في معزّبته أهي حلال أم حرام؟ فتغيّر وجه الشّيخ وحوقل وحسبل، ثمّ اتّكأ على الجدار وقال: أُدخل يا نايف فدخل. وقال: أخبرني بطلاقك. فلمّا أخبره واستظهر نطقه للطّلاق وحاله ووقته. قال: يا معشوق ـ خادم عبد العزيز ـ هذا الرّجل لا أريد أن

أراه مرّة أخرى، وتجد الجواب صباحاً عند الإمام. ولمّا فتح كتاب الشّيخ وإذ فيه: إلى المكرّم ابن أخي إبراهيم بن الحسين.....بعد السّلام، أمّا بعد: رُدَّ عليه زوجته إذا رضيت بعقد جديد، واحتسب ما مضى طلقة واحدة.

ومن أخبار الشيخ إبراهيم كذلك، أنّه لمّا مَرَّ ركب عقيل من جهة الشّريف، دخلوا المسجد الجامع يوم الجمعة، وبعد الصّلاة صعد المنبر أحدهم وهو العسّاف، وقرأ ورقةً من قبل الشريف، وفيها: أنّ سوق الخرمة كأسواق مكّة وجدّة والطّائف لا يُستنكر فيه الدّخان ولا غيره! فلمّا نزل صعد الشيخ إبراهيم بن حسين، وكان عالماً فارساً يقود حُمْرَ السرايا، فلمّا استوى على المنبر نَقَضَ كلّ ما أتى به مرسول الشريف بالأدلة، ثمّ نزل. وبعد زمنٍ أرسل الشريف من يأخذ له البيعة من أهل الخرمة وألزمهم بذلك ــ أو أنّها في نفس المرّة ــ وكان ذلك في بدايات التديّن وشوكة الإخوان لمّا تشتدّ، فأخذ زمام المبادرة الشيخ إبراهيم وقال للإخوان: كونوا معي وسيفرجها الله. ثمّ قال لمندوب الشريف: نبايعه على الكتاب والسنة. فقال المندوب: إنّ الشريف على الكتاب والسنة. فقال الشيخ: إن كان عليها فالله ربّنا وهو إمامنا. ثمّ التفت للإخوان وقال: ألا ترون أنّ الله فرّجها، فما دام على الكتاب والسّنة، فلا يجوز الخروج عليه، ولكن أفعاله ليست عليهما.

ومن أخباره كذلك: أنّه لمّا اشتد عُودُ التدّين في الخرمة، وانتشر في

النّاس، طلب منه الإخوان أن يساعدهم في بناء مِسْهَرٍ لهم[١] وكان قد كَبُرَ وضَعُفَ فحمل الطين على رأسه، ولمّا تعب استأجر بديلاً عنه عاملاً يكفيه يقال له ابن مونس، ثمّ قالوا: أنشد ياشيخنا. فقال:

مــا ذكــر في الكتــاب والــسنة كـــــود تـــــسبيلة قــــدام
وينـــك يـــاللي تريـــد الجـــنّة التـــــزم ذروة الـــــسنام

ومن مشايخ الإخوان الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن داود، شيخ الإخوان حين دخلوا مكّة شرّفها الله، جاء للخرمة من الرّياض في بداية الجهاد، وقيل بل بعد تربة، وكان شيخاً جليلاً مُهَابَاً حكيماً مربّياً عابداً، وتوفّي سنّة الحمّى فأصابته الحمّى الوبائية في تلك السّنة: (١٣٥٦) فتوفّي، وكان ابنه محمد مريضاً بنفس المرض فأتاه من أخبره بوفاة أبيه ففاضت روحه فَدُفِنَا في وقت واحدٍ، رحمهما الله تعالى.

نزف البكاء دموع عينك فاستعر عينـــاً لغـــيرك دمعهـــا مـــدرار
مـن ذا يعـيرك عينـه تبكـي بهـا أرأيـــت عـــيناً للبكـــاء تعـــار

وكان برنامج الشيخ عبد الرحمن بن داود اليومي، وتأمّل مَصْنَعَ الرجال والقادة:

أنّه كان يقوم إذا انتصف الليل أو قبله بقليل، فيتوضّأ ويطيل الوضوء لأنّه كان مصاباً بمرض الصّدر، فيكثر السعال ويظلّ قرابة نصف ساعة على وضوئه من شدّة السّعال، ثمّ يَصُفّ قدميه لصلاة الّليل، وفي هذه

(١) المسهر: هو البرج الحربي من طين أو حجر ونحوه.

الأثناء تكون زوجته حسناء العايد، قد أيقضت الطّلاب الّذين كانوا يسكنون مع الشّيخ في بيته مُلازَمةً لشيخِهم، ومنهم محمد الدميجي، وصالح الفريج[١] في ثلّة من طلبة العلم، ثم يُخرج لهم القهوة والهيل من جيبة، ويتابع صلاته، والتّلاميذ بين قراءة وصلاة، وشيخهم قد نصب قدميه كالخشبة في ربعته يصلي صلاة طويلة، ثمّ يقبل عليهم عند المقهاة فيصبّون قهوته وهم معه، ثمّ يأمر ابنه محمداً فيقرأ عليه من حفظه غيباً قرابة ثلاثة أجزاء، حتّى أنّ الصّبيّ ربّما قرأ الجزء التّام وهو نائم من طول قراءته ودقّة حفظه، ثمّ يقومون إلى صلاة الفجر، وبعد الصّلاة يقعد في مصلّاهُ بين ذكر وقرآن حتّى ارتفاع الشمس، ثمّ يدخل بيته قرابة نصف السّاعة، ثمّ يجلس في بيته وقد اجتمع الناس، ويقرأ عليه الطّلاب متون العلم، ويبدأ درسه بشرح الزّاد ومعه نسخة مخطوطة لها أكثر من مئة سنة نُسخت بخطّ جميل وعليها حواش كثيرة، وأحياناً يقرؤون في المطوّلات، ويحضر الأمير مجلسه في الرّبعة ويستمع مع النّاس، وعند السّاعة الرّابعة ضُحىً[٢] يستأذنه الأمير للقهوة، فيذهبان لقصر الحكم فيقضي بين الخصوم إلى قبيل الظّهر بنصف ساعة، فيدخل بيته إلى الأذان فيخرج للصّلاة، ثمّ يجلس في المسجد لجرد المطوّلات عليه من قبل تلاميذه، بعدها يدخل بيته ويُلقي دروساً خاصّةً على كبار المجاهدين؛ أمثال

---

(١) ويقال: إن الشيخ صالح الفريج لم يسكن عند الشيخ ابن داود مع من سكن عنده من طلبته، والله أعلم.

(٢) الرابعة ضحى بالتوقيت الغروبي تقارب العاشرة صباحاً بالتوقيت الزوالي.

صايل بن عيد، وعبد المحسن بن شاهين، في آخرين من مبرّزي الإخوان وقيادييهم، ويظلّ معهم إلى العصر، وبعد العصر يكون موعد العشاء، لا سيما إن كانوا مدعويّين لمناسبة فيذهب بمعيّةِ الأمير إليها، حتّى المغرب. وبعد المغرب تكون في بيته دروس في المطوّلات إلى صلاة العشاء، ثمّ يعود إلى بيته بصحبته تلاميذه، فيقرؤون عليه الفرائض والنّحو إلى قرابة السّاعة الرّابعة مساءً[1] ثمّ ينصرف لأهله ومبيته إلى منتصف الليل، رَحِمَهُ اللَّهُ.

وكان الشيخ ابن داود وأربعة من المشايخ من بعده وهم الشيخ إبراهيم بن سليمان الراشد (ت: ١٣٧١) والعلّامة فيصل بن عبد العزيز بن مبارك،صاحب المختصرات المشهورة (ت:١٣٧٦) والشيخ محمد بن عبد العزيز الرشيد (محمد بن رشيد) (ت:١٣٩٥) والشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم، هؤلاء المشايخ الخمسة كان لهم إسهام قوي ودور مهم في نشر العلم في الخرمة[2].وقد تخرّج من هذه المدرسة المباركة، أو بالأحرى الجامعة؛ ثلّة من طلبة العلم، وإن لم يكونوا معدودين من الإخوان لكنهم تربوا على أيدي مشايخهم، وانتهجوا نهجهم، وقد نفع الله بهم، ومنهم:

الشيخ سعد بن عبد العزيز الحلّاف (مطوّع السوق) الذي كان مفتي الخرمة في زمانه، وإمامها وخطيبها في الجمع والأعياد والاستسقاء، وعاقد

---

(١) قرابة العاشرة مساءً بالتوقيت الزوالي.

(٢) استطراداً: يقال إن الشيخ عبد الله الخليفي رَحِمَهُ اللَّهُ إمام الحرم المكي قد أمّ في أحد مساجد الخرمة نحواً من سنتين: (١٣٦٠ ـ ١٣٦١).

الأنكحة، وعضواً من أعضاء هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رحمه الله(١).

ومنهم: الشيخ سعد بن علي التويم، الذي شغل منصب القضاء في تثليث، ثم في الخرمة، ثم في رنية حتى توفي بها رحمه الله، وقد كان بالإضافة إلى القضاء؛ مفتياً وواعظاً ومرشداً في البلدان التي تعيّن فيها، وكان للخرمة أوفر الحظ من ذلك عندما يأتي إليها في صيف كلّ عام. وكان من الذين يقرؤون عليه؛ الشيخ يوسف بن صالح العبيسي رحمه الله.

ومنهم: الشيخ محمد بن سليمان الدميجي المشرّفي التميمي (مطوّع الهجرة) الذي كان له دور كبير ونافع في الهجرة وحوقان وما حولهما،

(١) رُئيت له منامات طيبة، منها أن أحد أصحابه كان نائماً في البر عند إبله، بعيداً عن الخرمة، وكان من الصالحين ولا نزكيه على الله، فرأى في منامه: أن السماء قد فتحت، ومناد ينادي الحلّاف أو يذكر اسمه، أو نحو هذا، قال: فقمت من فوري فنزلت البلد فإذا جنازة الشيخ سعد الحلّاف تغسّل، رحمه الله. وقد وافقت رؤياه وقت رؤيا أحد أصحابه في الخرمة بمن يبشر الحلاف بالجنة.
وقبل وفاته بقليل توضئ فأحسن الوضوء بمساعدة ابنته ثم صلى ركعتين فمدت عليه ابنته علاجه فقال: يابُنية إني راحل إلى ربي، وإني إن شاء الله قد أفلحت، فألحت عليه بالدواء فقال هاتي حبة واحدة مع مذقة لبن تطييباً لخاطرك، وبعدها اضطجع وتشهّد وفاضت نفسه، رحمه الله.
ومن حرصه على مدارسة العلم فقد كان بينه وبين الشيخ محمد الدميجي ساعة أو نحوها وقت الضحى، يتدارسان العلم، فإما ذهب الأول للهجرة، أو الثاني للسوق، رحمهما الله تعالى.

وكان إماماً وخطيباً لجامع الهجرة وله دروس ومواعظ في هذا الجامع ما بين أذان العشاء إلى الإقامة كلّ ليلة، وقد عيّن عضواً في هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في بداية تأسيسها، ثم استقال منها خشية المسؤولية(١).

(١) كتب ابنه الشيخ عبد الرحمن كلمات في سيرة والده نقتطف منها ما تيسّر مع بعض الزيادات، قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

أما نشأة الوالد رَحِمَهُ اللَّهُ فقد نشأ في الخرمة. وكان مولده في عام: (١٣٣١) ونشأ الوالد في ظل والديه مع أخيه وأخواته في بيت عز وكرم، واستفاد الطفل من والده الصبر والعمل الجاد منذ الصغر، وكانت الحياة السياسية في عهد طفولته غير مستقرة حيث كانت بلدته الخرمة تابعة للأشراف بمكة، ثم تغيرت بعد تولي خالد بن بن منصور لؤي الأمارة عليها ومعاداته لشريف مكة ثم الحروب المعروفة.

وأما صفات الوالد الخَلْقِيَّة؛ فهو رجل مربوع القامة، جهوري الصوت، يحترمه من يراه لأول وهلة، وأما صفاته الخُلُقِيّة؛ فكان محباً للخير وأهله، مبغضاً للشر وأهله، لا يخاف في الله لومة لائم، شديد الإنكار على أهل المعاصي والمنكرات، يحب في الله، ويبغض في الله، لا يخشى أحداً إلا الله، ولا نزكيه على الله، وكان مشهورا بالصدع بالحق والإنكار على أهل المعاصي والفجور.

أما طلبه للعلم؛ فقد وفّق لطلبه منذ صغره؛ فقد رحل في صغره للرس لطلب العلم على شيوخه، ثم انتقل إلى عنيزة لطلب العلم على الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ. ولكن والده لم يطق صبراً عنه، فأعاده للخرمة بعد شهرين أو ثلاثة من سفره، ثم طلب العلم بالخرمة حيث طلب العلم على ثلاثة من قضاة الخرمة وهم: الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن داود قاضي الخرمة في ذلك الوقت، ويعدّ شيخه الذي استفاد منه كثيراً حيث لازمه ملازمة تامة في الليل والنهار، ودرس عليه علوم =

الشريعة واللغة العربية.والثاني هو الشيخ إبراهيم بن سليمان آل راشد حيث استفاد منه الوالد كثيراً ودرس عليه علوم الشريعة واللغة العربية. والثالث هو الشيخ فيصل بن مبارك، حيث درس عليه علوم الشريعة. وغيرهم من المشايخ وطلبة العلم في وقته. ثم تولى إمامة مسجد حوقان، ثم إمامة مسجد الهجرة بخطاب من الملك سعود بن عبد العزيز رحمه الله بأمر من والده الملك عبد العزيز رحمه الله حيث ولّاه إمامة المسجد المذكور وفتح مدرسة لتعليم القرآن الكريم وعلوم الشريعة وعلوم اللغة العربية حيث استفاد منها الكثير من طلاب العلم قبل فتح المدارس الحكومية، وأذكر منهم على سبيل المثال فيصل بن منصور بن لؤي، وابنه سليمان بن محمد الدميجي رحمه الله، وكاتب هذه السطور وغيرهم كثير.

ومن أخباره رحمه الله: أنّه ركب معي ونحن قادمان من الرياض، فشرع في الفاتحة مع نزولنا من "ديراب" واستمر في القراءة عن ظهر قلب بلا انقطاع فلم نصل شعف ـ وهو ضليع قبل الخرمة بنحو: (٣٠) كيلاً ـ إلا وهو يدعو دعاء الختمة. وبي الخرمة والرياض قرابة: (٧٠٠) كيل.

ومن شجاعته في الحق: أنّه كان في مجلس يضمّ الأمير سعد بن خالد، وبضعة رجال، وكان بين سعد وأحدهم خصومة ثم إن سعداً غضب غضباً شديداً وسبّ الرجل مسبّة موجعة، ولاندري هل هي موجبه لحد في ظهره أو في مادون الحد، وكان في المجلس الوالد المطوع ثم انفض المجلس، وتفرق أهله فلحق الأمير سعد بالمطوع ودخل عليه منزله وقد خاف من حكم القاضي، وقال: احذر أن تشهد للرجل إذا طلب شهادتك، فإن شهدت علي فسترى ما أصنع بك، وتوعده وهدده! وكان سعد عفا الله عنه، مشهوراً بقوة بطشه وشدة سطوته. فقال المطوع بكل هدوء: يا سعد: أمّا خصمك فلن أذهب إليه وأخبره بشهادتي، فهو يعلم بشهودي ذلك المجلس، ولكن إن طلبها مني فو الله لأصقعك بها في رأسك (أي لأضربن

بالشهادة رأسك) فأنت الظالم، والشهادة والله لا أكتمها ولو فيها قطع رأسي! وفعلاً جاء طالب الشهادة في اليوم التالي، فوجدها جاهزة فذهب معه للقاضي وأدلى بها. وفي المساء جاء الأمير سعد فدخل عليه وسبه سباً شديداً. فلم يجبه إلا بقوله: يا سعد لعلمك ترى ما انتظر من شهادتي مدح ولا ذم، لا منك ،ولا منه، ولا انتظر ذخرها إلا من الله وحده، وأما غيره فما علي منه، وبعد مدة من الزمن، جاء سعد فدخل عليه وقبل رأسه واعتذر وقال: بيّض الله وجهك يا ولد سليمان ما حسبت حساب الخلق. وللعلم فقد كان بينهما محبة شديدة متبادلة، ومصاهرة فقد كانت أخته هيا زوجة لسعد وأنجبت له نورة، رحمهم الله تعالى.

ورعه الدقيق: لم يكن يلبس الثياب الملونة في الشتاء، لخشيته أن يكون فيها حرير ولو من بعيد، وقد كان في الشتاء يلبس ثوبين أبيضين فوق بعضهما وقماشهما من الساحلي " البفّ " وهو القطن المصري الصافي. وقصة ذلك: أن ابن بشيّر ـ وكان من طلابه ـ وكان يقرأ عليه يومياً بعد الفجر، فأراه طاقة قد جلبها من تلك الثياب الملونة وهي من قماش " الدوبلين " وكانت ناعمة، وكان الناس قبلها يلبسون ثيابا من قماش " التترو " الخشنة. فقال المطوع: أخشى أن تكون هذه النعومة هي نعومة الحرير، ولكن سأفحصها لك، وكانت بين يديهما نار القهوة، فقصّ المطوع قطعة صغيرة من القماش ثم أدلاها من النار بدون أن تمسها فذابت وانماعت، وقطّرت على القماش، فقال المطوع: عزّ الله إن قماشك بريء من الحرير فالحرير يرمد ولا يذوب، ومع ذلك فلن يمس جلدي منه شيء. فأعطاه أم سليمان " زوجته" رحمها الله وقال: يا حصة قطّعيه لعيالك، وأما أنا فلا تفصلين لي منه شيء واتركيني على ساحليي الأبيض.

قال خالد بن حسين بن خالد حفظه الله: أتيت للمطوع الدميجي بقهوة وهو في المسجد وبجواره صاحبه محمد بن بعيجان، وحينما مددت له الفنجان ومددته له ردّه، وقال: لا تمد قهوتك لي! ثم مددته لخالي محمد بن بعيجان فقال: وأنا كذلك لا

تمدها لي! قال فقلت: علامكم علي يا ابو سليمان؟ فقال: بلغنا أن في بيتك تلفزيون. قال: فركضت لبيتي فأخرجت التلفاز وضربت به الأرض، ولم أتركه حتى هشمته، وأتيت بكسره إليهما ـ دليل توبتي ـ فقال المطوع ووجهه يتهلل: الحين طاب كيفك يا خالد، صب لنا من قهوتك.

ومن إنكاره للمنكر: عقد أحد المشايخ عقد زواج، وكان ولي المرأة الذي جرى العقد على يديه ليس هو أقرب ولي، بل كان دونه من هو أولى منه، فأرسل مباشرة لذلك الشيخ العاقد مخبراً له ببطلان العقد المذكور، لعدم جريانه على الصفة الشرعية المعتمدة، وطلب تصحيح العقد وهو ما كان.

ومن حرصه على نصح الناس: لما طلّق وظاهر أحد جيرانه من زوجته، فقال لها وهو غاضب: تراك طالق ثم طالق ثم علي مثل أمي! جاء له يستفتيه، فأحاله على الشيخ محمد بن رشيد رحمه الله في الطائف، فسافر إليه واستفتاه، فأفتاه بكفارة الظهار بعتق رقبة، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا. فقال: إن رزقي قائم على السفر وأنا جوال في الأرض " كداد " ولا أطيق صيام الشهرين متتابعين. فقال الشيخ: إذن فأطعم ستين مسكينا. فأطعم وعاد للخرمة وسمع المطوع برخصته فناداه ونهاه وقال: لايجزئك الإطعام فأنت تطيق الصيام فأنا عالم بحالك، ومدخلك ومخرجك. فرفض الرجل طاعته في تلك الفتوى وقال: أنت الذي أحلتني على الشيخ محمد وهو الذي أفتاني، فقال المطوع: يافلان: أخشى أن ترى غبّ ذلك في عيالك.

وكان رحمه الله ذا همة عالية وصبر وجلد، وكان قوياً وحازماً في تعامله مع طلابه ومحاسبتهم على التقصير سواءً في الحفظ أو المتابعة، وكان يضرب ضربا مبرحاً عند الخطأ أو التقصير. وكان رحمه الله يحبه من عرفه وكانوا كثيري الثناء عليه بعد مماته فلا يسمع له ذكر إلا قرن بالدعاء له بالمغفرة والرحمة، وكان زاهداً في الدنيا كريماً، وكان

بيته رَحِمَهُ اللَّهُ مفتوحاً لمحبيه وزائريه والمحتاجين، وكان مجلسه بقصره بالهجرة مأوىً للقادمين من خارج الديرة لأداء صلاة الجمعة، حيث كانوا يتناولون القهوة قبل الصلاة وبعد الصلاة يعودون للقهوة والغداء.

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ صبوراً، وظهر أثر ذلك بعد وفاة والده وكثرة الديون عليه، وحيث عمل بنفسه بالفلاحة رغم مشاقها، وكان يقوم بالتلقيح والتعديل والصرام والوزن مع أخيه عمر وأبنائه حتى يسر الله له إبرار ذمة والده من الدين خصوصاً بعد عمله إماماً للمسجد فراتبه غالبا يذهب للدائنين مع قيمة التمور والحبوب من النخيل والمزارع.

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ قانتاً كثير العبادة طويل الصلاة والتهجد وقراءة القرآن وصيام الأيام الفاضلة، بل قد سرد صيام ستة أشهر متتابعة ولولا أن عزمت والدته عليه بالفطر لزاد! وكان يختم القرآن في رمضان يومياً، أمّا في شبابه فكان يختم مرتين؛ مرّة في النهار ومرّة في الليل، وقد كان حافظاً للقرآن الكريم ولا يكاد يخرم حرفاً من حفظه، وكان يقرأ بصوت مرتفع ندي حيث أعطي حسناً في الصوت أثناء القراءة.

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ كثير الخلوة بنفسه لعبادة ربه، وكان يختم القرآن كل ثلاث ليال في غير رمضان.

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال

وكان كثير القراءة في الكتب الأخرى وله تعليقات على كثير منها، وكتب منتخبات من تاريخ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ، وكان لا يمل من القراءة سواءً قراءة القرآن أو كتب التفسير والحديث والعقيدة واللغة العربية وغيرها. وكان فرضيا متقناً لعلم الفرائض والنحو والحساب مع غيرها من العلوم الشرعية والعربية.

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ واصلاً لرحمه يزور والدته وأخيه وأخواته وأصدقائه ومحبيه.

توفي عليه رحمة الله في الخامس عشر من شهر ذي القعدة عام: (١٤١٥) الساعة

التاسعة مساءاً. وصلى عليه جمع غفير من أهالي الخرمة وغيرها ودفن بجوار والديه وأخواته في مقبرة حوقان بالخرمة، ورؤيت له العديد من المنامات المبشرة، نحسبه والله حسيبه، رَحِمَهُ اللَّهُ وغفر له وللمسلمين.

وقد كنت أرجو أن أُمَلاَّكَ حِقْبَةً فحالَ قضاء الله دون قضائيا

ألاَ لِيَمُتْ من شاء بعدك إنّما عليك من الأقدار كان حذاريا

وللعظه فكاتب سيرة هذا العلم قد لحقه ورحل عن الدنيا وهو ابنه الشيخ عبد الرحمن رحمهما الرحمن.

قد كنت تكتب في التاريخ متئداً وقد رأيتك اليوم في التاريخ مكتوباً

وسأنقل ما كتبه أحد أبنائه رَحِمَهُ اللَّهُ:

(صفحات مشرقة من حياة الشيخ عبد الرحمن بن محمد الدميجي)

الحزن يقلق والتجمل يردع والدمع بينهما عصيّ طيّعُ

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وبعد:

فهذه الوريقات ليست سرداً لسيرة ولا تأريخاً لزمان ، بقدر ما هي إضاءات وإشراقات لرجل غاب عن عيوننا ولم تغيبه قلوبنا , وغرب جسده عن أبصارنا لكن ذكرياته ووصاياه قائمة مقامه ، فلله دره من جبل أشم , ومعراج نور أتم ، هو الأب والمربي والمعلم والداعية والمكافح والمحب

ما لاح برق أو ترنم طائر إلا انثنيت ولي فؤاد شيّق

صنع جيلاً وربّى أمّة.

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجساد

له جاذبية غريبة ومغناطيس عجيب لأفئدة الناس ، كأنه لا أعداء له ، فالمزارع والعامل والخادم والأعرابي والعالم والتاجر والذكر والأنثى ممن لهم أدنى خلطة به ، يذكرون ذلك، ولعل هذا من قبول الله تعالى له ولا نزكيه على الله تعالى ، وفي

الحديث «**إذا أحب الله عبداً نادى: يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل وينادي جبريل في السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء ويوضع له القبول في الأرض**».

كفل الثناء له برد حياته لما انطوى فكأنه منشور

تلك الليلة ليلة السبت الخامس عشر من جمادى الآخرة عام ١٤٢٨هـ رحلت روح الحبيب وخلفتّنا في دار كلنا فيها غريب ، لولا اليقين بموعود الله تعالى ورحمته وتثبيته لرحلت أرواحنا تاركة دنياها الأليمة، ولكنا نرضى ونسلم ونحمد الله على كل حال، وإنا لله وإنا إليه راجعون، وفي الحديث الذي رواه الحسين بن علي رضي الله عنهما عن أبيه عن جده ﷺ: «**ما من مسلم يصاب بمصيبة فيذكرها وإن طال عهدها فيحدث لذلك استرجاعاً إلا جدَّد الله له عند ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب**» رواه أحمد وابن ماجه والبيهقي في الشعب.

يا من يعز علينا أن نفارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عدمُ

وقال أبو الطيب:

من لم يبت والحب ملء فؤاده لم يدرك كيف تفتت الأكباد

هذه حروف نبضها الفؤاد ، ودفقها الشجن , وتأوهها الصدر ، ليست مدوّنة جامعة ، إنما هي محطات في حياة ذلك السخي الزاهد , والتقي العابد رحمه الله رحمة السابقين وأعلى نزله في عليين ووالديه وأهله ومن له حق عليه ، آمين. صدّرتها بكان، تسهيلاً للقارئ حتى لا يخرج من حديقة إلا وهو ببستان ، ولا من روضة إلا لربيع أفيح.

كان رحمه الله عابداً وله عبادات سرّ بينه وبين مولاه من صدقات خفية وركعات سريّة وغير ذلك من قرباتة.

كان مجاب الدعوة في كثير منها ، وكان الكثير يطلبون منه الدعاء لهم ويخافون دعاءه

عليهم , دعا على أربعة نفر آذوه فمات ثلاثة منهم في زمن متقارب أما الرابع فأدركه وتحلله فأمهله الله تعالى.

دخل صديقه المقرب إبراهيم العبيسي عملية خطيرة فقال قبل أن يخدر بالبنج: أوصوا الشيخ عبد الرحمن أن يدعو لي ، وفعلاً كان في العشر الأخيرة من رمضان فوالله لقد رأيته مصلياً ورافعاً يديه الوقت الطويل يدعو ويلح بالشفاء لصديقه وبحمد لله أنجاه الله وشفاه.

دعت أمه فقالت: اللّهم لا تذيقني حر عبد الرحمن فقال آمين وأنا بعد ، فاستجاب الله دعاءهما فرحلت ولحقها مباشرة، إذ توفيت قبله بجمعة رحمها الله تعالى ، فقدمها بين يديه واحتسبها وقال: تمنّيت لو صليت عليها، والحمد لله على كل حال فلم يلبث بعدها إلا أسبوعاً رَحِمَهُ اللَّهُ.

كان رَحِمَهُ اللَّهُ باراً بوالديه ، ولم يطيّب نفسه بالسكنى في الخرمة إلا سكناهما فيها فبقي حتى توفيا رحمهم الله.

قد كنت أشفق من دمعي على بصري فاليوم كل عزيز بعدكم هانا

قبل وفاته بأسبوع في يوم جمعه ولما صعد الخطباء المنابر كان على السرير الأبيض لا يستطيع حراكاً ، وقد ثقلت حركته، لكن قلبه كان حاضراً، فرفع لربه يدين أنحلهما المرض وأجهدهما الضنى، فرفع لمولاه كف الضراعة وحمد الله تعالى بمحامد عظيمة وأكثر من الصلاة والسلام على نبيه ﷺ ثم قال: اللّهم قد اشتقت للقائك واخذ يكررها حتى خفض يديه مصلياً حامداً ذاكراً ، ثم صلى الظهر والعصر ثم غفى ، فعلمت أنه راحل.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في مدارج السالكين: إن من أعظم منازل السالكين هي منزلة الشوق إلى لقاء الله تعالى ومنشؤها محبة الله تعالى وحسن الظن به وخبيئة من أعمال صالحة.

كان رَحِمَهُ اللَّهُ صادق النصح للأمة فإن علم بأخبار سيئة للمسلمين ظهر ذلك عليه بل أثر على صحته ونومه ولطالما قنت قنوت النوازل لهم.

كان معظماً للتوحيد والسنة ولا أنسى بكاءه في خطبة في التحذير من وصية المزعوم خادم الحجرة النبوية.

كان رَحِمَهُ اللَّهُ حريصاً على الدعوة إلى الله تعالى بكل سبيل يطيقه ، بل لقد كان من أركان الصحوة المباركة في الخرمة حيث كان مديراً للمكتب التعاوني فيها منذ تأسيسه وحتى إنشاء إدارة الأوقاف ، كما كان في المدرسة يحرص على جلب الدعاة والأخيار لنصح الطلاب وإرشادهم.

تولى رَحِمَهُ اللَّهُ إدارة المدرسة قرابة ثلاثين عاماً تخرج على يديه الألوف من الرجال الذين يذكرونه بكل خير ، وقديماً قيل: ما تركت الآباء للأبناء أعظم من أيدي بر وإحسان في أعناق الكرام.

كان رَحِمَهُ اللَّهُ جواداً سخياً ، يضرب المثل بسخائه ورياله ليس له كما يقال ، وإن طلب منه شيء ليس عنده اقترضه وأمنه بالغاً ما بلغ.

ما قال لا قط إلا في تشهده   لولا التشهد كانت لاؤه نعم

سأله أحدهم سيارته ليذهب عليها مشواراً فوهبها له.

طلبت منه إحدى العزيزات على قلبه مبلغاً وقدره خمسين ألف ريال ولم يكن عنده يومها إلا الديون التي يئن ظهره منها بعد بنائه منزله الجديد بحوقان لكنه بكل سخاء قال لابنه: يا فلان اذهب لفلان وسلمني عليه واطلب منه خمسين ألفاً ، وفعلاً أرسلها لها مباشرة وبعد مدة أرسل لها بأنها في حل من ردها وانه يعتبرها هدية لها.

ألا بلّغ الله الحمى من يريده   وبلغ أطراف الحمى من يريدها

أنفق الكثير من ماله في إصلاح ذات البين ، له معاريف وأيد كثيرة في أعناق الكرام بل واللئام ، فهو لا ينتظر منهم جزاءً ولا شكوراً ، بل كما قيل: يعمل المعروف

ويرميه في البحر ، والموعد الله.

قال لي أحد كبار السن في الحج: والدك عبد الرحمن أشبه الناس بجده عبد الرحمن الرشيد لولا حدّة في طبعه ، كان يشبهه في شكله وطيبته وحب الناس له حتى حدته كان يغلبها بسرعة الفيئة رَحِمَهُ اللَّهُ.

من اهتمامه بالدعوة إلى الله ، لما كان الأقارب مسافرين للشمال عند حفر الباطن ولم يمضِ على نزولهم إلا يسير، فأصر رَحِمَهُ اللَّهُ على قطع سفره والعودة إلى الخرمة ليستقبل أحد المشايخ الذين دعاهم لإلقاء محاضرة في أحد المساجد , بل كان هو ممن يلقون المحاضرات العامة في البلد. وكان ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ يشكر له جهوده في الدعوة إلى الله تعالى ولما ذهب أحدهم لابن باز يريد النيل منه نهره الشيخ وقال: أنا أعرف عبد الرحمن الدميجي الداعية إلى الله لا تقل فيه إلا خيراً.

من مشايخه القدامى ، الشيخ مناع القطان والشيخ صالح الفوزان حفظه الله تعالى وكان يقربه ويجعل القراءة عنده وكان من القلة الذين حصلوا على الامتياز في الفرائض عند الشيخ صالح في تلك السنة.

كان المشايخ قد وضعوا العين عليه لما كان في كلية الشريعة لنبوغه ونزاهته فأرادوا ترشيحه للقضاء فأبى فرفعوه إلى الإمام الشيخ عبد الله بن حميد رَحِمَهُ اللَّهُ فأصر عليه فأبى واستعان بخاله عبد الله الرشيد رَحِمَهُ اللَّهُ حتى خلصه من القضاء.

كان يختم القرآن في رمضان في أقل من ثلاث وكان صوته شجياً جميلاً لذيذاً تكاد سواري الجامع أن تتمايل مع نغماته إن قرأ أو أذن وبخاصة إن قرأ بحزن ، وفي الحديث: «**إن من أحسن الناس صوتاً بالقرآن من إذا سمعتموه يقرأ حسبتموه يخشى الله**» رواه ابن ماجه وغيره وفيه مقال.

يقول أحد كبار السن: والله إنا لنصلي خلف غيره الصلاة القصيرة فتثقل علينا فإذا صلينا خلفه أطال الصلاة فلا نجد لها ثقلاً.

كان يعتكف كل رمضان ويختلي خلوة كاملة في العشرين الأول حتى يدركه أصحابه في العشر الأخيرة، وقد بحث هذه المسالة حتى وجد كلاماً للسلف بمشروعية ذلك منهم ابن حجر ومن المعاصرين ابن باز.

أكرمه الله تعالى في إحدى ليالي العشر برؤية ليلة القدر فقد كان متوضئاً في السحر وذاهب لداخل المسجد ليوقض رفاقه فرأى في السماء شعاعاً أزرق أبيض كضوء اللحام ولا يشبه أضواء الدنيا واستمر برهة من الوقت ثم غاب.

كان يختم بالمصلين في رمضان ختمتين الأولى ليلية سبع وعشرين والثانية ليلة تسع وعشرين.

في إحدى السنين دخلت ليلة الثلاثين ولم يختم الثانية وفي أثناء العشاء في المسجد بعد التراويح قال والده هذه السنة لم تختم الثانية يا عبد الرحمن ، فقال:أبشروا ، فبكر بالتهجد وقرأ ستة أجزاء أو نحوها في تلك الليلة وختم بها ، وبعد الصلاة إذ حسين بن خالد رحمه الله يعاتبه على هذا التطويل فاقترب الصديق الوفي لوالده محمد بن بعيجان رحمه الله فشكره ودعا له أما والده فكان يبتسم وقد تحققت أمنيته بالختمة رحمهم الله تعالى.

وكان يصلي التراويح بأهل حوقان لما كان والده يصلي بالهجرة فيذهب بالدراجة من الهجرة إلى حوقان كل ليلة وقد وضع كتاب الوعظ على الكرسي الخلفي.

صلى بجامع الهجرة وخطب به نحواً من أربعين سنة. بل لقد خطب خطبتين في يوم واحد الأولى بالهجرة والثانية بجامع العزيزية حيث لم يكن له إمام في ذلك الأسبوع.

كان لدعائه هيبة ويحس من يسمعه بصدقه وكان يكثر من المحامد والصلاة على النبي ﷺ.

كان لا يرضى بالظلم على أحد من المسلمين مهما كان ومن أي شخص كان بل ربما غامر بصداقة عقود من أجل إنكار منكر أو إزالة مظلمة فقد كان قوياً بالحق لا تأخذه فيه لومة لائم ولا ملامة عاذل.

كان جاداً في أموره ويأخذ نفسه الحزم ولا يدع مجالاً للمفاجآت كما يقال ، بل كان أحوذياً يعد للأمور أقرانها.

كانت له هيبة من بعيد وسهولة من قريب، كان طيب المعشر سهل الخلق دمثاً يعرف ذلك من عاشره.

يُغـضِي حيـاءً ويُغـضَى مـن مهابتـه فـلا يُكلَّـمُ إلا حـين يبتـسم

انتدب لدورة في مكة المكرمة لمدة ستة أشهر ومع ذلك لم يغب يوماً واحداً عن درس ولم يغب جمعة عن منبره. الجدية بحذافيرها والحزم مع النفس وأخذها لمعالي الأمور ، فكان نعم الخليفة لوالده رحمهما الله وكان والده يقول: يافلان؛ إن جيت مثل أبوك ترى ما عليك خلاف.

تهـون علينـا في المعـالي نفوسـنا ومـن يطلـب الحسناء لم يُغلهـا المهـر

كان قلبه أبيض من اللبن وقد حلل وسامح كل من اعتدى عليه بمظلمة من أي شخصكان وقال: اللّهم كلهم في حل. وهذا يذكرنا بفعل الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ لما عفا عن كل من آذاه وكان يقول: ما ينفعك أن يعذبه الله بسببك ، بل يذكرنا بحديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في الرجل المبشر بالجنة وكان أرجى عمل له انه كان لا يبيت ليلة وفي قلبه شيء على مسلم.

كان يذم نفسه ولا يراها شيئاً هاضماً لذاته منكراً لفضله ، يذكرنا حاله بحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حين سئلت عن قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [فاطر: ٣٢] فقالت: أما السابق بالخيرات فهم أصحاب رسول الله ﷺ الذين تابعوه والمقتصد هو من سار على نهجهم والظالم لنفسه مثلي ومثلك!! وهذا من هضمها لنفسها وإلا فهي من أعظم السابقين بالخيرات.

كان صابراً على مرارة التعليم ثلاثين سنة، وكان جاداً حازماً لا يقبل أنصاف

الحلول، وكان قلمه ولسانه وجنانه جريئاً يهابه ولي أمر الطالب قبل ابنه ,قال عنه سعد بن عبد الواحد مدير تعليم الطائف السابق: إنه أحد أفضل ثلاثة مدراء مدارس على مستوى منطقة الطائف.

كان على شدة حزمه وهيبته عطوفاً على من يستحق العطف من الطلبة بل والمدرسين وجميع العاملين تحت إمرته ، ولما استدعى ولي أمر أحد الطلبة المشاغبين ليحل مشكلتة دخل الأب غاضباً ولعن ولده ووالديه ! أي لعن نفسه! فهدّأ الوالد رَحِمَهُ اللَّهُ من غضب هذا الأب الطائش وصرفه ثم قرّب الطالب وقال: يا ولدي تراي أبوك في المدرسة وأبوك هذا لن ندعوه مرة أخرى رحمة به وبك.

ومن أحداث التعليم أنه كان يوماً في مكتبه في الإدارة فدخل عليه رجل كّثّ اللحية فقبل رأسه وقال: ألم تعرفني يا شيخ عبد الرحمن؟ فقال: لا. قال:فلان الفلاني من طلابك سنة كذا جئت أستسمحك في كسري للزجاجة الخلفية لسيارتك الكابرس البيضاء في إحدى السنين ، فضحك رَحِمَهُ اللَّهُ وقال: يا ولدي ما حملت عليك شيئا من تلك الساعة لأني أعرف جهل الطلاب وضعف أحلامهم.

ومن البلية عذل من لا يرعوي عن غيه وخطاب من لا يفهم

يقول أحد زملائه واسمه راتب مدرس الفيزياء: كنا نشرف في الفسحة على الطلاب وكنا نعاني من إدخالهم الفصول بعد نهاية الفسحة لتثاقلهم عن المسير وتضييعهم الوقت فشكونا ذلك له فقال: إذا دق الجرس فادخلوا أنتم واتركوهم لي. فلما دق الجرس قام على باب الفناء وبيده العصا فكأن الطلاب إصابتهم سكته وكأن على رؤوسهم الطير من حين خروجه فطأطؤا رؤوسهم وقاموا مباشرة لفصولهم وهو لم ينبت ببنت شفة لكنها الهيبة التي جلله الله إياها.

إذا بدا حجبت عينيك هيبته وليس يحجبه ستر إذا احتجبا

له هيبة عظيمة في المدرسة فيكفي أن يقال الدميجي فتنزل السكينة على أعناق الطغاة الجفاة.

كان شأنه عجيب مع الناس فعلى قدر ما كان يهرب من خلطتهم وسلامهم ومن مقابلتهم والاستئناس بهم كانوا يلاحقونه ويشيعونه بالدعوات والمحبة ، وهذه عجيبة من عجائبه رَحِمَهُ اللَّهُ.

كان يكره الغيبة وينهر من يغتاب عنده أحداً ويقول: فلننشغل بعيوب أنفسنا.في صغره درس في الكتاتيب في مسجد الهجرة على راشد بن عوض في البداية حتى يتعلم الهجاء وقراءة القرآن ثم انتقل للدراسة على الوالد محمد في نفس المسجد ثم انتقل للمدرسة السعودية وقبل في السنة الثانية وأكمل حتى السنة الرابعة ثم ذهب للرياض وسجل في التمهيدي.

ونشأ عند خاله القريب لقلبه عبد الله الرشيد ــ نائب رئيس تعليم البنات سابقاً ــ رَحِمَهُ اللَّهُ وخاله يعتبر والده الثاني حيث رباه واعتنى به أكثر من عنايته بأولاده وبادلَهُ الوالد هذه المحبة والمودة حتى رحلا رحمهما الله تعالى.

ومن أخباره مع خاله المفضال انه أثناء دراسته في شبابه أراد أن يتوظف ، فقدم أوراقه وتسهلت معاملته ولم يتبق إلا توقيع المسؤول وهو خاله عبد الله ! قال: فدخلت عليه في مكتبه وأنا كلي فرح وشوق للتوظيف والمرجلة ولما أخذ خالي الورقة وقلّبها نظر إلي بغضب ثم مزقها وقال دحيم تبي الوظيفة ؟! ما عندنا وظايف !! كان تبي تطلب العلم وإلا ارجع لبوك ! فتأثر تأثرا بالغا وبلغ الأسى منه مبلغه وعزم على الرحيل للخرمة وما كاد يصل البيت إلا وخاله قد أدركه وقد نزع عن وجهه قناع الحزم وأظهر وجهه الحقيقي الذي يقطر أبّوةً وحناناً وحباً ورقةً ، وقال: يا ولدي ، أبوك خلاّك عندنا وداعة ، وأنت من عيالي ولا أبغاك تنشغل عن الدراسة ، قال: فما استتم كلامه إلا وقد وانطفأت جمرة غضبي كأن لم تكن.

وكان يقوم بخدمة خاله والقيام بشؤون أهله وفي إحدى المرات وبينما هو راجع من أحد المهمات لخاله اصطدم بشجرة ضخمة وستر الله عليه والعجيب أن والده

المطوع رَحِمَهُ اللَّهُ رآه في المنام وهو يصدم فلما عاد للخرمة وسلم عليه قال له مباشرة: أنت صادم ! وليست هذه بغريبة على الوالد المطوع رَحِمَهُ اللَّهُ فلقد رأى أخاه عمر يسقط في البئر رؤيا منام في الوقت الذي سقط فيه أخوه في الحفرة ! وذهب مباشرة لحوقان ليطمئن عليه رحمة الله عليهما ، كذلك فقد قال لي ذات مرة وهو يذكر رؤياه لانقلاب الخال عبد الله بن عمر بسيارته ومعه أولاده ولله كأني معهم اسمع بكاء الأطفال والنساء!

نعود للوالد عبد الرحمن رحمه المنان فقد أعطاه الله تعالى نصيبه من الرؤيا والمنامات فكان كثيرا ما يرى أقاربه وأحبابه الأموات ، وأعجب رؤيا في حد علمي أنه رأى قصره في الجنة وقصر والده وقصر أحد الصالحين ، ولا يزال حياً وقت كتابة هذه السطور ، فكان كثيراً ما يرى والده أو خاله أو خالته أو أخاه سليمان فقد رآه مضطجعا على بساط اخضر معشب وأراد بلوغه والجلوس معه فقال: يا عبد الرحمن ما تشوف النهر بيننا. أي لا تستطيع بلوغي الآن لأنك حي. ولما مات خاله عبد الله كان حزينا عليه جدا وذلك للديون التي كانت في ذمته ولما سددت القروض مر فترة طويلة ولم ير خاله فيها في المنام حتى كان يوم من رمضان دخلت عليه وإذا هو فرح مستبشر مسرور فقال: أبشرك يا ولدي شفت خالي في أحسن صورة ، شفت عليه ملابس بيض وبشت ابيض وسلمت عليه وضمني بقوة وقال: الحمد لله تو ما ارتحت.

أشرف على بناء جامع لأبيه بعد وفاته وأنفق فيه بسخاء بمعونة إخوته وأبناء عمومته وخطب فيه أول خطبه جمعة وسعد بها جداً لأنه رأى والده في المنام تلك الليلة وهو جالس في روضة المسجد ، وقال لعلها دليل القبول إن شاء الله تعالى. وفي الحديث في السنن: «**ذهبت النبوة ولم يبق منها إلا المبشرات ، الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو تُرى له**» وفسر بعضهم قوله تعالى: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

وَفِي ٱلْأَخِرَةِۚ ﴾ [يونس: ٦٤] بالرؤيا الصالحة.

كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ زاهداً في الدنيا حيث كانت الدنيا في يده وليست في قلبه وكان لا يرد سائلاً ، قيل للأمام احمد: أيكون الرجل زاهدا وعنده مئة ألف درهم ؟ قال نعم إذا كانت في يده لا في قلبه.

كان كريماً جداً مضيافاً خاصة عندما كان في بيته في الحزم قبل أن يعتزل الناس كثيرا في آخر عمره ، باختصار هو إناء مُلىء كرماً، قد ملأ السخاء جلده ففاض جوداً وكرماً.

تــــراه إذا مـــا جئتــــه متهـــللاً كأنــك تعطيــه الــذي أنــت سـائله

ولــو لم يكــن في كفــه غــير روحــه لجـــاد بهـــا فـــليتق الله ســـائله

هــو البحــر مــن أي النــوحي أتيتــه فلُجَّتُــه المعــروف والجــود ســاحله

كان يؤثر على نفسه بكل ما يملك قد برّأه الله من الشح ولا نزكيه على الله. كان عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يطوف على الكعبة ولا يزيد على قوله: اللّهم قني شح نفسي. فقيل له في ذلك فقال: ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].

كان يحب الترتيب والتنظيم ويكره العشوائية ، وكانت جُلُّ أعمال المدرسة الإدارية لا يكلف بها أحداً بل يكتبها بنفسه.

كان عزيز النفس جداً ويأبى أن يطلب من أحدا شيئا ولو من أبنائه ، ويلحقه الحرج الشديد والغم إن اضطر لذلك.

كان (جمعية بر مصغرة) لما يقع على يديه من أموال المحسنين الذين يثقون به ، وللفقراء عنده جداول وأسماء مرتبه ومخصصات فقدوها بفقده رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

كان محباً لأخيه سليمان محبة طاغية عليه ولا يمل من ذكره وأخباره والدعاء له.

تيقَّـــن أن الله أكـــرم جـــيرة فـأزمع عـن دار الفنـاء رحـيلاً
فـإن أقفـرت منـه العيـون فإنّـه تعـوَّض عنهـا بـالقلوب بـديلاً
ولم أر أُنـسـاً بعـده صـار وحـشةً وبـرداً عـلى الأكبـاد صـار غلـيلاً
ومَـن كُـنَّ أيـامُ الـسرور قـصيرةً بـه كـان ليـل الحـزن فيـه طـويلاً

نظر إليَّ بعينين حزينتين في أيامه الأخيرة وقال: يا ولدي لا يضيع حفظك للقرآن تراي من مدة ما أقدر أراجع القرآن من مرضي. اللّهم أجعلها آخر عنائه وعوضه عنه رضاك عنه يا حي يا قيوم.

طالت معاناته مع أمراض عديدة من السكر والفيروس الكبدي وحمّى لا تكاد تفارقه وآخرها سرطان الغدد اللمفاوية نسأل الله بمنة ورحمته أن يجعلها شهادة له ، فقد كان يطلبها كثيراً وفي الحديث: «**من سأل الله الشهادة بصدق بلَّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه**» رواه مسلم، وفي الحديث الآخر عن رسول الله ﷺ: «**المبطون شهيد**» رواه أحمد وغيره وصححه الألباني.

كان معظماً لـ:

١ ـ التوحيد ونشره وتعليمه.
٢ ـ السنة (ويحرص على إظهارها).
٣ ـ الصدقة (ويحرص على إخفائها).
٤ ـ الإصلاح بين الناس وبخاصة إذا كانت بينهم قرابة.
٥ ـ الأضحية والمغالاة في سمنها وثمنها.
٦ ـ الدعوة إلي الله تعالى.
٧ ـ الدعاء في كل وقت.
٨ ـ الاعتكاف. وفي أُخريات عمره كان يعتكف رمضان كاملاً.
٩ ـ تلاوة القرآن الكريم بصوته الشهي الحزين.

١٠ ـ صلة الرحم حتى لو كانوا أصغر منه بعقود.

١١ ـ أما الصلاة فلم يكن محتاجاً لمنبه ينبهه لها فقد كان القلب بها معلَّقاً.

ماتــت لفقــد الظَّــاعنين ديــارهم فكــأنهم كــانوا لهــا أرواحــاً
ولقــد عهِــدتُ بهــا فهــل أُرَيَنَّــهُ مغــدىً لمنتجــع الــصِبَى ومراحــاً

كان رحيماً عطوفاً خاصة على الأطفال والنساء والعمال والخدم.

كانت العين سريعة إليه فكان كثيراً ما تصيبه العين من الناس ، وقد أخذت له الأغسال من بعضهم فبرأ منها ، وبعضها في علم الله تعالى.

كان عفيف البطن واليد والعين ، ويبتعد عن كل ما فيه شبهة.

كان وفياً لأصدقائه وكان أقربهم لقلبه سعد العبنق الذي ترك الخرمة وهجرها بعد وفاة خليله وقال: معاد لي فيها مقعاد عقب عبد الرحمن !

كان شديد المحبة والمودة والوفاء لزوجته أم عبد الله حفظها الله تعالى تعلَّقها منذ الصغر.

تعلَّقــتُ لــيلى وهــي ذات ذؤابــة ولم يَبْـدُ للأتـراب مـن ثـديها حَجْـمُ
صـغيرين نرعـى الـبهم يـا ليـت أنَّنَـا إلى اليــوم لم نكــبر ولم تكــبر الــبهمُ

لم يَرُقْنَهُ ترفات الرياض ولا تمدنهن ولا تنعمهن ولا حسنهن إذ أن القلب قد تربعت فيه بنت عمر (ما الحب إلا للحبيب الأول) ومحبوبته طفلة صغيرة فخطبها فقال أهلها: إنها صغيرة. فأراد والده أن يبحث له عن غيرها ، فأنهى القضية بأن قال بكل شوق وحب: (أَبَنتظرها لين تكبر ثم بتزوجها). وفعلاً تزوجها بمهر قدره ريالين في اليد وقلب لا تسعه الدنيا مَليءٌ بالحب والصفاء والود. وفعلاً عاشا بالمودة وحسن العشرة قرابة خمس وأربعين من السنين وولدت له ثلاثة عشر بطناً قد مات منهم أحمد الأول توفي وهو في مهده جعله الله شافعاً مجاباً.

وكان لا يمل من ذكرها والثناء عليها ولا يأنف من ذكر مكانتها عنده والثناء عليها وبيان حبه لها عند أصحابه ـ مع أن البيئة ريفية ـ بل إذا رضي عن أحد أولاده ناداه:

تعال يا ولد هيا.

ولم أر في حياتي قصة حياة سطرها الحب والوفاء كالتي رأيته فيهما ، وههنا عجيبة من العجائب وموقف يذيب الصم الصلاب كادت الوالدة هيا تفارق الحياة بسبب هذا الموقف الرهيب ، ففي اليوم الذي توفي فيه وهو يوم جمعة كان ابنه احمد ـ رعاه الله ـ عنده مرافقاً من الصباح وكان الوالد رحمه الله في شبه غيبوبة لايحس بأحد ولا يستجيب لأي نداء مع ذلك فكان كُلَّما مرت دقائق نادى هيا..... هيا....... هيا........ هيا كأنما راعه قرب الفراق.

لا تعـذل المـشتاق في أشـواقه	حتـى يكـون حـشاك في أحـشائه

وكلما مَرَّ أَحَدٌ ظنه هيا فهتف باسمها بصوت ضعيف حزين ، حتى أقبل المغرب فزارته حبيبته هيا. وقد كنت واقفاً عند رأسه وهو في شبه غيبوبة أي لا يحس بمن حوله وعيناه مصفرتان من اليرقان شاخصتان إلى السقف ليس فيهما بريق حياة ، بوجه كليل قد نحل من طعن الأمراض والآلام ، فوقفت الوالدة عند رأسه فقلت له: أبوي هذي أمي هيا اللي تناديها من الصبح وكان قبلها لا يستجيب لأي نداء ، ولما قلت هذا الكلام مد يده إليها بصعوبة وثقل شديد فانحنت له لتقبل رأسه فجعل ذراعه خلف رقبتها وضمها لصدره وهو في شبه غيبوبة فذابت الوالدة من البكاء وتهشمت كبدها وانماع فؤادها وكادت روحها أن تخرج لولا لطف الله تعالى، ثم مالت يده جانباً ولم يرفعها حتى قضى وأسلم الروح لبارئها. فلا اله إلا الله ما أعظمه من وداع!!

إذا اشـتبكت دمـوع في خـدود	تبـين مـن بكـى ممـن تبـاكى

رُوِي أن قيس بن الملوّح ـ مجنون ليلى ــ لمّا اختُبِل عقله،كان يخرج في فيافي الشام ، فيقول: أين أرض بني عامر؟

فقيل له: أين أنت من أرض بني عامر ؟ عليك بنجم كذا فَسِر عليه.

فانصرف وسار حتى أتى أرض بني عامر فوقف على جبل يقال له التَوْبَاذ ثم أنشد:

ومنهم: الشيخ صالح بن عبد الله بن فريج الناصري التميمي، الذي كان قاضياً في ظلم والدفينة ونِفِي والحنابج، وكان مجلسه عامراً بالعلم، ومعطراً بالسيرة النبوية، وقد نفع الله به في إزالة كثير من المنكرات في ظلم والدفينة إبّان وجوده فيهما، كما توسط عند الحكومة وبعض الأمراء لبناء مساجد كبيرة؛ كجامع الأمير سلطان في عفيف، ومسجد الدفينة القديم، وحفر بئر حكومية للشرب على نفقة الملك سعود رَحِمَهُ اللَّهُ. وكان للشيخ صالح دروس يومية في جامع الأمير سلطان بعد الفجر والعصر، وبين أذان وإقامة العشاء، إضافة لإمامته وخطابته له، ولمصلى العيد والاستسقاء في عفيف.

ولا يزال الشيخ صالح وحتّى كتابة هذه الأحرف مستفاداً منه في الفتاوى عبر الهاتف، وفي دروس مسجد الحي الذي يسكنه في الرياض حاليّاً، أطال الله في عمره على طاعته، وأحسن له وللقارئ وللكاتب الختام[1].

وممن أفادوا البلد في التعليم الشيخ ناصر بن حمد الراشد، وسعد بن

وأجهشت للتَّوباذ لمّا عرفتُه ... وكبَّر للرحمن حين رآني
فأذريت دمع العين لما رأيته ... ونادى بأعلى صوته فدعاني
فقلت له أين الذين عهدتُهُم ... بجنبك في أمن وطيب مكان
فقال مضوا واستودعوني ديارهم ... ومن ذا الذي يبقى مع الحدثان

(١) لتلميذه الشيخ ندا العضياني، كتيب حافل في سيرة شيخه الشيخ صالح حفظه الله تعالى.

رشيد، وسعد بن عبد الله الحجي، وعلي العدواني، ومحمد الحميدي، وسمرة بن زيد الرشود كلّ هؤلاء في مرحلة الكتاتيب، قبل إنشاء المدارس النظامية عام: (١٣٧٠) رحمهم الله جميعاً.

ومن مشايخ الإخوان في غير الخرمة، الشّيخ ابن بليهد شيخ إخوان حرب في القصيم، ومحمد بن عثمان الشّاوي الدّهيمي البقمي صاحب كتاب (القول الأسدّ) وصاحب القصيدة المشهورة في دخول الإخوان لمكّة وقد كان معهم حينها، وغيرهم مشايخ كثر رحمهم الله تعالى ورفع منازلهم في عليين.

كذلك فقد ذكر علي الناقول وذعار بن مناحي رحمهما الله أنّ العلاّمة الشّيخ سعد بن حمد بن عتيق[1] كان مع الإخوان في معركة تربة، والله أعلم.

(١) ذكر عنه الشّيخ عبد الرحمن الدّميجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ت:١٤٢٨) قصّة ذات عبر، فقال: كان الشّيخ يحدِّثُ النّاس تحت قصر الحُكُم، ووافق ذلك اليوم وجود أحد القناصل النصارى عند الإمام، وَعَلِمَ الشّيخ بذلك فأخذ يفسّر قول الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢] ورفع صوته بحديثه، وكان القنصل يعرف العربيّة، فأمر الإمامُ أحد خدمه أن يذهب للشيخ ويقول له: يقول الإمام: بَرَكَة ـ أي أَنْهِ حديثك ـ فقال له الخادم ذلك. لكن الشّيخ لم يمتثل وأكمل حديثه، فردّ عليه الخادم مرة ثانية، فلم يمتثل الشيخ. فأمر الخادم في المرّة الثالثة، وقال: قل له: بركة، وقُمْ. فلمّا قالها له، قال الشّيخ: سمعاً وطاعة. فختم مجلسه ثمّ قام من فوره وأمر خادمه بشراء مطايا للسّفر، من أجل أن يعود لوادي الدواسر مسقط رأسه.

ولا عـار إن زالـت عـن الحـر نعمـة ولكـــن عـــاراً أن يـــزول التجمّـــلُ

فبلغ الخبر كبير علماء ذلك الوقت الشّيخ عبد الله بن عبد اللّطيف آل الشيخ، فذهب للإمام من ساعته وقال له: يا عبد العزيز هل أغضبت الشّيخ؟ فقال: إن الشيخ هداه الله يتكلم في الولاء والبراء ونحن عندنا القنصل. فقال الشّيخ: يا عبد العزيز لِعِلْمِك، إذا خرج الشيخ من الدروازة ــ البوابة ــ الجنوبيّة للرّياض فسأخرج من الدروازة الشّمالية، وسنترك الرّياض لك أنت وفلان، وسمّى شيخاً من شيوخ السّلاطين. فقال الإمام: لا يكون إلا خيراً اذهب يا شيخ عبد الله، وأَرض الشّيخ وقل له: يرجع ويعود. فقال الشّيخ: ليس أنا من يذهب إليه ولكن اذهب له أنت وعساه أن يقبل بالرجوع! فذهب الإمام لبيت الشّيخ سعد وطرق الباب، فأمر الشّيخ من عنده أن يقولوا: إنّه غير موجود (وهذا من المعاريض والتورية) فطرق الإمام الباب للمرّة الثّانية والثّالثة وهو يعرّف بنفسه، فبعد الثّالثة؛ خرج عليه وقال له كلمته المشهورة: يا عبد العزيز أنت حقّك علينا عظيم، و لكن حقّ الله أعظم! وأنا أرى أشياء لا أطيق السكوت عليها. ثم رجع لدروسه وإفتائه.

فرحم الله أولئك العلماء الأفذاذ، ورحم الله ذلك الإمام الذي لم يمنعه ملكه وسلطانه من الذّهاب للشّيخ واسترضائه، ولا حرم الله أمّتنا في هذا الزّمان بمثل أولائك النّجوم الزّاهرة والبدور الظّاهرة والشّموس السّاطعة.

تسمية بعض الإخوان من الخرمة

من مشاهير الإخوان وقدمائهم؛ كما بعاليه؛ الأمير القائد خالد بن منصور بن لؤي الشّريف، وأبنائه محسن وهو بكره واستشهد يوم الخرايق، وسعد وهو أمير الخرمة من بعده، ومنهم نائف وسلطان أخوا خالد وهما أصغر منه وقد التزما وتديّنا قبله. وبعيجان بن منصور وهو أخٌ للأمير خالد وكان في بداية أمره مع الشريف حسين ثم هداه الله للتّوحيد وأهله.

ومنهم الإخوان الأشراف؛ منصور بن الأمير غالب بن ناصر بن لؤي وهو من هدم المشهد الذي على قبر أم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في مكة ومعه ناصر بن محمد الحارث لمّا فتح الإخوان مكة المكرمة.

ومن آل لؤي كذلك ذعار بن سلطان التويم، وبجاد التويم، وجدّهما لإمهما محمد بن هندي الفارس المشهور، وشجاع التّويم الشريف، وعلي بن ناصر بن سرماد، وكان طالب علم وحافظاً للقرآن عن ظهر قلب، فإذا سافروا على الرّكائب فإنّ أصحابه يقرأون وهو يصحّحُ للجميع في وقت واحد عن ظهر قلب! ولمّا قفلوا من أحد أسفارهم وكانوا قافلين من المدينة النبوية على ساكنها أفضل والصلاة والتسليم، وكان عليٌّ مريضاً، ثمّ توفّي بينهم، وليس معهم ماء ولا أدوات يحفرون بها القبر، فبينا هم في حيرتهم وقد سجَّوه بثوب، إذ أرسل الله سحابة فغسّلوه من غُدرانها، ثمّ مرّت بهم قافلة فنزلوا وصلّوا عليه معهم، ثمّ وجدوا بقربهم حجراً مستطيلاً فرفعوه فإذا هو كهيئة القبر من الدّاخل، فأضجعوا عليّاً فيه، ودفنوه رَحِمَهُ اللَّهُ.

يقول الشّيخ محمد الدّميجي رَحِمَهُ اللَّهُ: والله إنّي لأقرأُ على الشّيخ عبد الرّحمن بن داود رَحِمَهُ اللَّهُ في مَنَاخَةِ ابن لؤيّ في الهجرة، وإنّا لنتابع قراءة عليّ وهو يصلّي في حوقان، من قوّة صوته وجهوريته، وكان بينهم قُرابة الكيلين!

وأولُ من تديّن من الأشراف؛ هم الشياهين، ومنهم عبد المحسن بن ناصر بن حسين بن شاهين الشّريف، وإخوته حسين واستشهد في الجرشية، وعبّاس الّذي كُسرت رجلُه في حوقان، وعبد الله، كُلُّهُم أمّهم سفرة الرّوقية.

وشرف بن راجح بن شاهين الشريف.

ومن الإخوان الحرّث الأشراف؛ فهيد بن مبارك الشريف الذي استشهد في معركة عسفان، وبجاد بن ثامر أبو خالد، وناصر بن محمد بن صالح الحارث، وأخوه شجاع، وأخوه غزّاي الّذي استشهد في الحنو.

ومن الإخوان الشّنابرة؛ الحسين، وابنه محمد، وناصر بن عبد الله الشنبري الشريف.
ومن الّذين تديّنوا من البداية من بني ثور من سبيع أميرهم وفارسهم مفرّح بن شارع بن سلطان بن هليّمة، وهو من القوّاد الكبار للإخوان ومن قدمائهم في التديّن. وكان مفرّح يشرب عُشْبَةً معروفة عند البادية يستنشق دخانها ولعلّها المسمّاة بـ"عرق السّوس" فسأله الإخوان وهم على أوّل التديّن عن سبب شربه للدخان. فقال: أصابني مرض فوُصِفَ لي هذا العلاج. فقال محمد بن شافي: والله لئن شربت التّتن لنهجرنّك. فقال مفرّح: أنا أخو سارة ، ثم أمر بالنّجر فوضع الغليون فيه ثمّ ضربه بالحديد حتّى صيّره طحيناً! فقد كان الإخوان ينكرون أشد النّكير على شارب الدخان ، وربّما قال أحدهم إذا رأى شخصاً يدخّن: أعوذ بربّ الفلق من شرّ ما خلق!
ومن قدماء الإخوان آل زايد الصوّل ــ وهم من خيار الإخوان ــ محمد بن زايد، وأبناؤه عجب وعجّاب أبو الحميدي، ومهدي، وذعار بن زايد، وصايل بن عيد، وغزّاي بن جرمان.
ومن قدامى من تديّن محسن بن عجل، وهو من شعراء الإخوان وهو صاحب الأرجوزة المشهورة:

يالنشاما ما به إلا الله ... ودّعوا ذا النفس واليها
ربع ساعة في سبيل الله ... تازن الدنيا وما فيها

ومنهم محمد بن عبد الله بن مزينة، وقد قاتل ضد أبيه في معركة جبار، وقد مات في الحمّى الثانية سنة: (١٣٥٦) وهو من خيار الإخوان. ومنهم محمّد بن مفرّح بن شارع، وأخوه الحميديّ شيخ بني ثور بعد والده مفرّح، ومطلق بن عليان قاتل اللّواء حلمي، ومحمد بن ذيخان، وحسين بن ثفنان، وقطيم بن ختّام، ومحمد العماني، وهذال بن رشدان، وهذال الغزيلي وكان الإمام ابن باز رحمه الله يُقرّبه ويدنيه منه إذا وفد عليه، ويستمع منه أخبار الإخوان وقصص مغازيهم، ومنير الحضبي، وبتال بن

بشر، وسعيد بن مقعد بن دعيج، وذعار بن زايد، وغالب بن حمود، وعبد الله بن بطي، وفاصل بن مناحي بن زنعاف، ودهيران بن هذال، ومفرح بن رِجْعَة، وعبد الله أبو صلعاء، ومشيلح بن مناحي بن حمد، وعبد الله بن عوشز، وظافر بن جراش، وعريج بن حنتوش، وفايز بن محفاش، وخشمان بن شارع وقد كان مع الشريف ثم رجع للتوحيد وأهله بعد معركة تربة.

ومن الإخوان من قريشات سبيع عبد الله بن فيصل، وابنه فيصل، وبجاد بن بادي، وشبيب بن جميع وهو مراسل الإخوان مع الإمام عبد العزيز، وآل وبدان، وعبيد الطاحون، وعبد العالي بن زويد، وابن ثواب بن جهامان، ومحمد بن عبد الله بن كايد، وبجاد بن دجوى، وابن هملان، وناصر بن مشاري، وأبوه كانا مع الشريف ثم رجعا للإخوان في الآخر. ومنهم آل وندان وقد تلكّؤا في البداية ثم دخلوا بقوّة. والصّملة من سبيع جُلُّهُم مع الإخوان، ولمّا ضايق حزب الشريف خالداً وهمّوا به، ذهب إلى ماجد بن جروة وهو على خبراء "الرويبي" فقال خالد: لم لا تناصرنا في حربنا مع هؤلاء؟ فقال: أنصرك على من؟ مفرّح يطارد أخاه خشمان، وعبد الله بن فيصل يطارد أخاه مشاري، وأنت تطارد أخاك بعيجان وبقيران ومنصور. فقال خالد: فإن زُحِمَت الخرمة من بعيد؟ قال: فأنا لها. قال فابسط يدك، فبايعه على ذلك، أمّا ابنه هاجد فكان مع الإخوان من بداية أمرهم.

ومنهم هادي بن نصّار، وشباب بن جروة، وبتال الكدّة، وشاعر الإخوان مناحي بن غبيشان، ومنهم ظافر النّاقول، وعلي الناقول، ومسلّم بن ناصر بن جروة، وجراد بن شعير وكان الإخوان يقولون: والله ليبعثنّ الله جراداً على حصانه لأنه قد استشهد على ظهره.

ومن قدماء الإخوان سمرة بن زيد الرشود وكان مطاعاً فيهم، خاصّة أهل السلميّة وكان مسؤول الزكاة في تلك الجهات، وكانت له دروس في القرآن الكريم ومبادئ الشريعة.

والعُمَرِيّة كان الكثير منهم من الإخوان على رأسهم أميرهم وفارسهم جبر بن عبيدان.

ومن المعلوم أن قبيلة سبيع كانوا ولا زالوا عَيْبَةَ نُصْحٍ لآل سعود، تشهد بذلك المراحل الثلاث للملكة السعودية، بل إن الستين الذين خرجوا من الكويت مع الملك عبد العزيز لدخول الرياض كان منهم سبعة من قبيلة سبيع، وفيهم بأس وفروسيّة. قال راكان بن حثلين:

بنـي عمـر في حربـهم سـمّ سـاعة ... والى كـسرناهم هـل الغلبـا يعيّـون

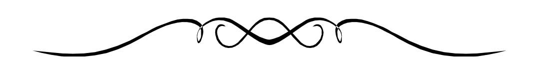
ومن الإخوان سعيد بن هميل وقد قدم من رنية.

ومن الإخوان القدامى العباسا آل سيف محمد وعبد العزيز وقد صُوِّبَا في معركة الحنو، وراشد بن عوض، وسليمان الدميجي، وإبراهيم الحجّي، وسليمان الحجّي، ومحمد الطويل، وعلي التويم، ومحمد وعبد الله المؤذّن، ومحمد القصيمي، ومحمد الخرجي، وفايز الصائغ، وآل سيّار محمد وصالح وإبراهيم، ويوسف بن شعيل، وعبد العزيز الراجحي، وأحمد اليعيش، وابنه صالح، وعلي بن قشاش، وغير هؤلاء من الحاضرة كثير.

وهذه الأسماء ليست للحصر إنّما إشارات وشذرات ممّا وقفت عليه من أفواه الرّواة، ولاشكّ أنّ هناك الكثير ممّن هم أولى بذكرهم من بعض هؤلاء ولكن الذّهن الكليل، والحيلة القاصرة، والنقص المكتوب، والعجز المقدور، حائلة بين الأماني وتحقيقها، وإن غفلنا عن تخليدهم في هذا السِفْرِ فما عند الله خيرٌ وأبقى، ولكن لا يحضرني الآن لهم أسماء، والجميع الآن عن هذا الذّكر أغنياء، مَنْ ذُكروا ومَن أُغفِلوا، ونحسبهم والله حسيبنا وحسيبهم، وندعو الله أن أن يجعلهم في جنّات النّعيم يتقلّبون، ولا نزكي على ربّنا أحداً.

حـيّ المنـازل إذ لا نبتغـي بـدلاً ... بالـدار داراً ولا الجـيران جيرانـاً

متـى رُفِعـتْ لهـا بـالغور نـار وقـرّ بـذي الأراك لهـا قـرارُ
فكـلّ دمٍ أراق الـسيرُ منهـا بحكـم الـشوقِ مطلـولٌ جُبـارٍ



الفصل الخامس

أثر الإخوان على توحيد المملكة

معركة تربة أنموذجاً

قد جعل الله تعالى للإخوان دور عظيم وفضل جسيم في توحيد المملكة العربية السعودية، فقد كانوا قوات البلاد الضاربة في العمق البعيد، والسوط المؤدب للمناكف العنيد، ولله درّ الإمام عبد العزيز الّذي وفّقه الله لنشر كتب الدعوة السّلفيّة، والعقيدة السنيّة المرضيّة، وإرسال الدّعاة الصّادقين، والعلماء الربانييّن[1] لتوجيه وتفقيه ذلك الجيل

---

(١) لأسرة آل سعود فضل عظيم في نشر الدين الصافي والدعوة الماجدة السلفية، وإذا أردت مصداق ذلك فانظر لحال جزيرة العرب قبل ولايتهم، أو عند ضعف حكمهم ولين شوكتهم، أو ظهور تفرقهم، كما قال أبو الطيب:

والضد يظهر حسنه الضد ... وبضدها تتميز الأشياء

فمن ذلك أنه لما اختلف أبناء الإمام فيصل عبد الله وسعود وتفرقت قلوب العباد وتشتت نظام البلاد؛ اضمحلت على إثر ذلك سطوة الدين في تلك البقاع، وضج العلماء برفع تلك النوازل، وتأمل قصيدة الشيخ أحمد بن إبراهيم بن عيسى، يحثهم على التعاضد لأجل رفعة الدين، ومنها:

متى ينجلي هذا الدجى والدساكر ... متى ينتهض للحق منكم عساكر

متى تتجدد منكم دعوة حنفية ... يكون لها بالصدع ناه وآمر =

المثالي الصّادق، الّذي ضرب أروع الأمثلة في التّضحية لدينه، بعدما كان من سُنيّات قلائل تائهاً بين سراديب الزّمان، ضالًّا في حنادس الظّلام، طعامُهُ دمُ جارِه، وفخرُهُ التّرابُ والنّاقةُ! فللّه الحمد أولاً وآخراً في بعثه لهذا الجيل الصّافي التّليد، الّذي جدّدَ سير صحابة محمّد ﷺ في زمان الغربة والهوان. ورحم الله تلك الجماجم والعظام، الّتي ظلمها بعض المؤرخين ظلماً فادحاً وبخسوها قيمتها بخساً فاحشاً، فبدلاً من إعطائهم حقّهم من الثّناء والتبجيل والدّعاء، وهو أقلّ القليل من حقوقهم ومكانتهم، والغضِّ عن قليل هفواتهم وزلاتهم الّتي لا يخلوا منها بشر، فبدلاً من ذلك، رأينا بعض الكتابات المؤسفة من مؤرخين فيهم نوع سذاجة، أوكُتّابٍ سطحيين، أو أُناسٍ ـ وهم قلة ــ قد فاض حقد قلوبهم على أفواههم وأقلامهم، فلطخوا صفحة الإخوان البيضاء بكذب صريح، وبهتان قبيح، بما ظنّوه غطاءً لشمس حقيقتهم، ونور دعوتهم، وصدق

= فحتى متى هذا التواني عن العلا كأنكم ممن غيبته المقابر
ألم يكن للإسلام منكم مناقب ألم يك للأخلاف منكم مفاخر
وفي آية في الفتح قد جاء ذكركم(أ) وقد حرّك التفسير فيها أكابر
أيا مفخر العوجاء ذو البأس والندى أجيبوا جميعاً مسرعين وبادروا

(أ) يقصد قوله تعالى: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الفتح: ١٦] فسرها بعضهم ببني حنيفة، وآل سعود من بني حنيفة. والعوجاء في البيت التالي هي الملّة الحنيفية، ومن أبيات الملك فهد بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ:

حنا هل العوجا ولا به مراواة شرب المصايب مثل شرب الفناجيل

جهادهم، والله الموعد!

وفي ظني أنّه لولا أنّ الله تعالى قيّض لهذه البلاد من مهدها أولئك الأماجد الأسود، والأشاوس الصيد، لم يكن الحال كالحال، والله أعلم، وله الحمد.

ومن أراد أن يعرف فضل الإخوان على هذه الدّولة السّعودية، ورؤية قوّتهم الضّاربة، وكسرهم لميزان القوى الإقليميّة، فليتأمّل معركة تربة كمثال حيّ شاهد! وإذا أردت مزيد إيضاح فانظر تفاصيل المعركة، وتأمّل نوعية أولئك المقاتلين، الّذين لا يتكرر مثالهم إلّا بين مئات السّنين، فالزّمان بأشباههم ضنين، حين قَضَى الله قِلّة ذلك المثال، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم.

وسأقول كلمةً رُبّمَا لم تُكتب من قبل في كتاب ولم تسطر بمداد، ولكنّي أراها حقيقةً كالشمس في رابعة النّهار، وهي أنّه لولا أنّ الله تعالى يسّر أمر هذه السّرايا الإخوانيّة في الوقت المناسب، لربّما لم يكُ هناك حجازٌ سعوديٌ البتّة! بل ربّما ـ والعلم عند الله ـ لو سار دولاب ذلك الزمن بدون وجود الإخوان في رَحَاهُ، لَرُبَّمَا كانت الدّولة السّعوديّة الثّالثة نَسياً منسياً! ولتعرّضت لخطر التلاشي تحت ركام الزمان! وغبار الليالي والأيام! لا يُذكر منها إلا تاريخ مسطور في بضعة كتب! أو لربما تكون دويلة بين دول! لكن الله حفظ بها التوحيد والجهاد والدعوة السلفية الصافية النقية.

وحتّى لا أكون متهوّكاً، أو مبالغاً، فلنتكلّم بلغة الأرقام ولنتأمّل معاً تلك الليلة الّتي أرسل فيها عبد الله (البيه) لوالِدِهِ: أنّه سيكلمه بعد شهر من البحرين بعد أن يضمّ نجداً والأحساء لمملكته الهاشميّة! وهو ما ردّ به الحسين على الإنجليز حين سألوه عن تحركات جيش ابنه عبد الله، فقال: خذوا الجواب من عبد الله من البحرين بعد واحد وثلاثين يوماً لا غير! وأرسل عبد الله كذلك للإمام عبد العزيز وكان في آخر شعبان: أنّه سيقضي عيد الفطر في الخرمة، والأضحى في الأحساء، وَصَدَقَ لولا عِنايةُ الله ولطفُهُ، فكلّ الحسابات المادّيّة الأرضيّة تنطق بذلك، فجيشه الكثيف مع أنّه كان لا يُمَثِّلُ إلّا نسبةً من الجيش الحجازيّ لوالده، كان قوامة قرابة الأربعين ألفاً على بعض الروايات، ومعهم المدافع والرّشّاشات، والجنود النظاميّة، وفوق ذلك ألوف الجنيهات الصّفراء، والسبائك الحمراء، مُغَيِّرَةَ النّفوس ومُبَدِّلَةَ الولاءات! الذّهب الّذي يُغْرِي الحاضرة فضلاً عن البادية! ويَجلب ولاءهم ويُحيله من ذلك الخندق للآخر كما هو معلوم، وفوق هذا كلّه بريطانيا الّتي أعطته الضّوء الأخضر لفعله، عِرفاناً منها لجميله عليها في مناصرته لها في حرب أعدائها الأتراك. بينما في الخندق الآخر، نجد جيش الإمام عبد العزيز ـ بدون الإخوان ـ قرابة (١٢٠٠٠) وبأقصى تقدير فلم يتجاوز (١٥٠٠٠) من العارض وما جاورهم، وسلاحهم البنادق العتيقة القديمة!

لذا فلولا أنّ الله تعالى قد اقتضت رحمتُه وحكمتُهُ وُجُودَ أولائك الأسود الأشاوس، لربّما كُنّا نقرأُ الآنَ ملحمةً ثانيةً لهدم الدّرعيةِ ولكن

باسم جديد هو الرياض! وبباشا جديد وهو (البيه) وبشهيد جديد! ولكنّ الله سلّم، فله الحمد أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، ولا يعني هذا إلغاء دور الإمام عبد العزيز وإنكار فضله، بل له فضل وريادة وتوجيه وإعانة رحمه الله وإياهم.

وبالجملة فالملك عبد العزيز قد استفاد كثيراً من الإخوان، وكان لهم فضل كبير بعد فضل الله تعالى في تعزيز ملكه وبسط سلطانه كمّاً وكيفاً[١] كما كان له فضل عليهم بإمدادهم بالعلماء والدعاة والكتب والسلاح، وأكثر ما عكّر صفاء جوّهم واتحاد وجهتهم؛ اتفاقاته المسبقة مع الإنجليز في ترسيم الحدود الشمالية، ممّا حداه فيما بعد للوفاء بهذا الالتزام ومنع الإخوان من تجاوز حدوده إلى دول الجوار، وهو ما كان يأباه فريق كبير منهم طمعاً في مواصلة الجهاد لفتح القدس وتحريرها من الصهاينة! بينما آثر الملك عبد العزيز بناء دولته، وتقويتها من الداخل، وتحصين حدودها وأقاليمها الشاسعة؛ إذ يرى أنه لا طاقة له بنزال الجيوش المدمرة في

---

(١) حتّى وإن قيل بأن التديّن قد صار ظاهرة قبل انتباه الإمام له، فلما تبين له تنامي التدين علم أنه سلاح عظيم لمن سبق إليه، وأنه موج قادم يكتسح من خالفه، فاغتنم الفرصة، واهتبل المرحلة، وأحسن التعامل مع هذه الظاهرة، وتوجيه هذا التيار؛ لإقامة ملك آبائه وأجداده ــ نقول: حتّى وإن كان هذا الاتهام صحيحاً ــ فللإمام فضل عظيم في توجيه التدين واحتضانه ورعايته، فهو أشبه الولاة في عهده بسمت السلف الصالح وبهديهم وبدعوتهم وجهادهم، وعنده من التأله والعبادة ومشورة أهل العلم والرأي، ما جعله موفقاً مسدّداً، رحم الله الجميع.

الشمال، وهي المغامرة التي قد تكون مقامرة! فلو خسرها لربما دُمّرت مملكته، وسُحق شعبه! وعلى كلٍّ؛ فحكم الحاكم يرفع الخلاف المعتبر، والسمع والطاعة واجبان له عليهم، والمقصود: أن الملك عبد العزيز قد استفاد منهم وهم كذلك قد استفادوا منه، رحم الله الجميع.

يا سِعْد من يسبق زمانه على ظهور	نجايب تدرك مسيرات الإخوان
روحه على كفه سعيد ومسرور	يقول وين أقرب طريق من جنان
يرمي شعيل النار ويصوّب ظهور	في ساعة صارت لهيب ودخّان
عِزِّه بدينه ما هو بالجهل مدمور	ما همه أصله من تميم وقحطان



معركة تربة الملحمة

(٢٥شعبان ١٣٣٧)

وفي الأشهر الثّلاثة الأولى من هذه السنة انتشر وباء حمّى الإنفلونزا ـ ولعلها الإسبانيولية ـ وقد توفّي بسببها الألوف من أهل نجد منهم الأمير تركي بن عبد العزيز عن تسعة عشر ربيعاً، والّذي اشتهر ببسالته العسكريّة وهو أكبر أنجال الإمام ـ وبه يُكْنَى ـ وَوَلِيَ العهدَ من بعده سعود، حتّى سمّوها بسنة الرّحمة تفاؤلاً برحمة الله لموتاهم.

وهي السّنة الّتي انتهت فيها الحرب العالميّة الأولى، والّتي كانت شرارتها قد اندلعت عام (١٣٣٢).

كان أهل تربة قد بايعوا الإمام عبد العزيز بن محمد عام: (١٢١٢) في عهد الدّولة السّعوديّة الأولى[١].

وتُعَدُّ معركة تربة للمتتبّعِ لتاريخ نجد الحديث، هي المعركة المفصليّة الحقيقيّة، الّتي غيّرت وجه الخرائط الجغرافيّة الحدوديّة الحديثة في جزيرة بني يعرب، فَقَبْلَها كان هناك توازنٌ في القوى الإقليميّة، وبخاصّة الوسطى ممثلة بنجد آل سعود، والشّماليّة بدولة أمراء الجبل آل الرّشيد، والشّمال الشرقيّ ممثّلة في الكويت وآل الصّباح، أمّا الشّرقيّة والجنوبيّة فوضعهما كان أقلّ من أن تُحسب له الرّهانات الكبيرة في توازن القوى

(١) كما ذكره ابن بشر (١ / ٢٠٣).

الإقليميّة في ذلك الزّمان. فالبترول لم يُكتشف بعد في الشّرقية، وليس هناك كبير مُخرجاتٍ اقتصادية لليمن، أمّا بالنسبة إلى القوّة الرّابضة في الحجاز فقد كان يُحسب لها ألف حساب، ولم يفكّر أحدٌ ممن ذكرنا بأخذ شبر منه، دعك من مناكفتها فكيف بغزوها وطردها! لأنّها كانت مُحاطة بحواجز عالية؛ من تعظيم الأمّة للقتال فيها، مع ضميمة حمايتها من الباب العالي مباشرة، كذلك دخولها في دهاليز ووعود التّاج البريطاني، إضافةً إلى غِنى شريفها ذَهَبَاً وَنَسَبَاً، وحقّهم المستقرّ في نفوس العوامّ بوصايتهم التّقليديّة على الأراضي المقدّسة قرابة الألف سنة. فعبد العزيز كان يُصارع الدّول القرينة له من الرّشيد والصّباح، أمّا الشريف فقد كان عبد العزيز يَرْضَى منه بالكفّ عنه، وترسيم الحدود ولو بشيء من الضّيم، دفعاً لجشع المارد الغشوم، ألا وهو الشّريف حسين بن علي، الّذي آذاه بتبعيّةِ العتبان له لمّا صبّ عليهم الذّهب والعساكر، وهم من هم في ميزان القوى القبلية؟! كذلك فهم الجيران القريبون من العارض حصن آل سعود الحصين بسواعد أهله وولائهم لبيت ملكه.

بيد أنّ معركة تربة قلبت الطّاولة على المقامرين الدّوليّين الكبار، وألجمتهم أمام معادلة جديدة في توازن القوى ،كان بيدقها الرّابح وحصانها السّابق جيش الإخوان بإمامة عبد العزيز، الذي عركته الحوادث بثِفَالها، وغذّته المجامع بِلَبَانها، وَتَرْكَتْهُم هذه المعركة بين واضع كفّ حائرٍ على ذقنٍ أو قارعاً سنّ نادمٍ! فحتّى المخابرات الإنجليزيّة لم تكن تتوقّع هذه القوّة الضّاربة من الجيش الوليد الفتيّ، وجنديّه المقدام

الأبيّ، وقُدرتِه العجيبةِ على التّعبئةِ الكاملة في ظرف محدود، ووقت قصير، فمِن حين وصول الأمر بالجهاد، إلّا والجنود كلٌّ قد أخذ سلاحه على متنه، حاملاً خِرجَه وقد جهّزه بما استطاع من الذّخيرة، ومعه بضع تمرات في مزودته يقمن صلبه الباسق، ونُطفةَ ماء في قربته تكفيه عن طلب الإمداد (اللوجستي!) ثمّ انطلق على ذلوله إن كانت، وإلاّ رَكِبَ قدميه اللّتين عرَكَتْهُمَا حياةُ الباديةِ والصّحراء والشّظف والشّدّةِ، وَأَلْبَسَهُمَا الإيمانُ قوّة وشدّةً ومَضَاءً وتصميماً، فصارتا عينين نفّاذتين، فوق محرّكين نفّاثين لا يكلّان ولا يفتران من المشي الدؤوب، لحين الوثوب على أعداء الملّة وغُزاة الدّيانة، وما هو إلّا العدوّ أمامه والأمر بالهجوم خلفه، إلّا وترى البسالة النّادرة، والمهارة الفائقة، في جندلة الفرسان، وسحق الرجّالة، وقطف الهام، وإغراق العدو في الهزيمة، الّتي أجحظت عيون المراقبين دهشةً ورُعباً، وتعجّباً وفزعاً، حتّى أنّ أحد المؤرّخين الغربيّين لَيَتَفَاخَرُ عند بني جلدته أنّه قد رأى أحد الإخوان رؤيا عين! ثمّ أخذ يصف شكله ولونه وطوله وشعره ومشيته،كأنّما يصف مارداً يطرد عفاريت الشرّ بوجوده.

لسان حالهم:

جيش من الكفر مهزوم إذا صَدَقَت	نيّات قومي إلى أعلى أعاليها
نمشي حفاة على الرّمضاء تأسرنا	فردوس ربي فلا الدّنيا تدانيها
نسعى بعزم وفي الأنفال شرعتنا	يا أبلغ الله أجناداً أمانيها

فتربة تعتبر البوّابة الطّبيعيّة للطّائف، والّذي هو بدوره البّوابة الطبيعيّة لمن أراد دخول مكّة المكرّمة المشرّفة.

وقبل معركة تربة كانت بريطانيا تُراهن على الشريف وتغريه وتُمنّيه، بينما كانت تعلّل عبد العزيز بالكثير من الوعود وبالقليل من الوفاء، حتّى كانت كاسحةَ المعاركِ في تربة، وَظَهَرَ ضعف الشّريف وقلّته وهزيمته، أمام الطّرف الأقوى والحظ الصاعد في ميدان السّياسة والحرب، إنّه عبد العزيز بكتائب الإخوان العاصفة وسراياهم القاصفة.

وكانت سياسة بريطانيا قبل تربة في صفّ الملك حسين دون عبد العزيز الذي كان يخطب ودها راغبة عنه ولم تُرعِهِ بالاً، وفي تقرير الكرنل (ويلسون) المعتمد البريطاني في جدة إلى الجنرال "وينغت" المندوب السّامي في القاهرة قال: «ولا يُخامرني أدنى شكّ في أنّ من الضّروري حقّاً أن يُعيد الملك حسين احتلال الخرمة وأن يَطرد خالد من تلك المنطقة...الخ»[١] وفي تقرير آخر بَعَثَهُ بعد عدّة أشهر، لماّ ازدادت قوّةُ الإخوان التي وصلت أصداء انتصاراتها خارج الحدود قال ــ بعد أن قارن بين الملك حسين والإمام عبد العزيز ــ: «هذان هما الرّجلان اللذان كما يبدو لي يجب أن تختار حكومة صاحب الجلالة بينهما وأن تختار سريعاً»[٢].

(١) الوثائق الريطانية (٣ / ٤٣٢).

(٢) الوثائق البريطانية (١ / ٦٢٨).

وبعد هذه المعركة حَسَمَت بريطانيا أمرها، ورأت قوّة جيش عبد العزيز الجديدة الكاسحة، فأخذت العجوز الماكرة بريطانيا تخطب ودّ عبد العزيز وتتزيّن له، علّهُ يرتبط معها بعهود ومواثيق جديدة، تنفعها وتحيّد أعداءها وقرناءها الكبار، كروسيا وفرنسا بل وألمانيا ـــ قبل سقوطها الأول ـ اللّاتي بَدَأْنَ بإرسال الوفود لعبد العزيز وكلٌّ له أَجِنْدَتُهُ وأهدافه، خاصّةً أنّ الحرب العالميّة قد وضعت أوزارها. واستنفذت بريطانيا جهد الحسين وسرقت عسله وشمعه، فاحترقت ورقته وصار عِبْئَاً عليها. أمّا ابن رشيد في حائل فانتهى أمرُهُ وَحَسَمَتْ أَمرَها فيه بعد تربة! وكيف ذاك؟ فالجواب: أنّ من انتصر على جيش الشريف العربيّ التّركيّ النّظامي الحديث، فليس من الحكمة إغضابه بدعم جيش قد غربت شمسه وآذن مأتم ملكه.

ونعود إلى ثرى المعركة، فبعد معركة القُرَيْنِ تسامع الإخوان في أرجاء الجزيرة بأحداث الخُرمة، والحملات العسكريّة الظّالمة عليها، في حوقان وجبار والحنو والقرين، والخامسة في تربة تمهيداً لغزو الخرمة وما بعدها شرقاً، فتتابعت أرسالهم وأفواجهم من كلّ فجّ من بيشة ورنية والغطغط والرّين وسنام وساجر ونفي والأرطاويّة...وغيرها، فجاء سلطان بن بجاد بن حميد أمير برقا من الغطغط بألف ومئتين من المجاهدين[1]

(١) ومن لُطْفِ الله تعالى أنّ أَمْدَادَ أهلَ الغطغط قد وصلت أوائلها، نصرة لأخوانهم أهل الخرمة مع بداية عدوان الشريف عليهم، فلم تفتهم سوى معركتي حوقان (رجب ١٣٣٦) والسوق (رجب ١٣٣٦) أما معارك جبار (١٧ رمضان١٣٣٦) =

والحنو (يوم عرفة ٩ / ١٢/ ١٣٣٦) فكان لهم حضور مشكور ومشاركة فذة وبخاصة معركة الحنو وأهلُ الغطغط بالذّات من بين المهاجر الأخرى ـــ بدون قصورٍ ولا نقصٍ فيهم ـــ من شأنهم بعد توفيق الله لهم أن يقلبوا موازين القوى العسكريّة لصالحهم، وذلك لاستبسالهم العجيب، وطلبهم الشّهادة، وحرصهم على الموت، وتشهد لهم بذلك معركتا الحنو وتربة، فقد كانوا هم أجرأ الإخوان على المدافع الرشّاشة للأعداء، فيسعون على هيئة صفوف متراصّة ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤] ومتتابعة، وكلّما جُندلَ صفّ قام الّذي خلفه على أثره، حتّى يتمكّنوا من رماة المدافع الرّشّاشة، فينحرونهم بحرابهم، ويذكّونهم بسيوفهم، مكبّرين مهلّلين، فللّهِ درّهم من مغاوير، وما أعظم مقاماتهم في الجهاد، فقد بلغوا الذّرى العالية، ولكم قدّموا من الشّهداء هم وباقي الإخوان من جميع المهاجر الذين لا نهضمهم حقّهم، ولا يكاد الناظر فيهم يفرّق بينهم، في همّتهم، أو زيّهم، أو جسارتهم، أو عبادتهم، فاتحدّت العقيدة، واتحدّ الهدف، واتحدّت الغاية، وحُقّ لهم ذلك فسلعة الله الغالية دونها خرط القتاد، والجود يفقر والإقدام قتّالُ.

وللعلم فهذا البحث ليس مفصّلاً محلّلاً لأخبار الإخوان في أرجاء الجزيرة، إنّما هو ذكر لبعض جهودهم في الحجاز خاصّة، مع الإشارة إلى بعض أخبارهم الأخرى على سبيل الإيجاز دون البسط، وهذا لا يعني أنّ من لم نذكر دون من ذكرنا من أهل الخرمة أو الغطغط، فهناك الإخوان الّذين كانوا على الثّغور الأخرى، كالشّمال وغيرها، من مطير أهل الأرطاوية، الّذين لهم مواقف مشهودة، وتكفيهم فخراً وقعتا حائل والجهراء، وما قدّموا فيهما من فائق التّضحيات والشّهداء،كذا الإخوان من العجمان أو حرب أو غيرهم، ممن لهم إسهامات جبّارة في إعزاز بلد التّوحيد والشّريعة، حرسها الله وبارك فيها. والسعيد من كان ديدنه الإخلاص والاتّباع، لا الرياء والابتداع.

إِذَا نَحْنُ أَدْلَجْنَا وَأَنْتَ إِمَامُنَا   كَفَى لِمَطَايَانَا بِذِكْرَاكَ هَـادِيَا

وجاءت قحطان بقيادة معيض العبّود من الصبيخة من تثليث، كذلك حمود بن عمر ومن معه من قحطان، وجاء الدّواسر بقيادة ابن قويد، كذلك عمر بن ربيعان أمير الرّوقة ومن معه، أمّا أهل بيشة فجاؤا تحت خمس وعشرين راية، وتكاملت جموع فرسان التّوحيد، وبينما هم في سيرهم لقيهم عند الدوّارة أهلُ عشرِ ركائبٍ من القواودة البقوم، فبايعوا خالد بن لؤي على الكتاب والسّنّة، وهو بدوره قد بايع عبد العزيز من قبل، وأخبروه بجيش الشريف وقوّاته وعددها وعتادها وأماكنها، وأبلغوا الإخوان أنّ جيش الشريف أفسد في الأرض، ثمّ أقبلت عليهم امرأة وصاحت فيهم ووصفت فسق القوم بهنّ، قال أحدهم: والله لكأنّي أراها الآن قد تحلّب ثديُها وهي مرضع، وتصيح في القوم عند خيمة القيادة: كيف وَسِعَكُمُ القُعُودُ بينما التّركُ يفعلون الأفاعيل بالحريم؟! فاخضلّت لِحَى الإخوان من البُكاء، وقال بعضهم: انتظروا وصول إمامكم فهو في الطريق، وقال آخرون: بل أغيثوا إخوانكم. وكانت كلمة الفصل عند علمائهم الّذين قالوا: حَرُمَ القُعُودُ.

أقول وقولوا معي يا أباة	بصوت يطول أعالي القممْ
إذا الدّين أضحى ينادي رجالاً	فلا خير فينا إذا لم نقمْ
ولا خير فيمن يصيح به الدّين	صيحة غوث فلم ينتقمْ

فساروا ثمّ أناخوا على (القويعيّة) ــ بين الخرمة وتربة ــ ونادى خالد فيهم: لا يبت أحدٌ إلّا وذلوله عند رأسه، ثمّ باتوا لصبح أكبر معركة لهم في تاريخهم.

وجهّزَ الشّريف حسين طوابير من جيوشه فجهّز ابنه عبد الله (البيه) معه الكثير من التّرك والشوامّ والعِراقيين الّذين رافقوه بعد حصاره للمدينة النبوية وَفَلِّ جيشِها التركيّ واستسلام الباشا، ومعهم الجموع من مكّة والطّائف من القبائل الموالية للشّريف، وخرج في جيش كثيف يدقّ الحجر من كثرته وثقله، لا تعدّه الأقلام، قدّرهُ بعضهم بخمسة وعشرين ألف مقاتل، وقال آخرون بأنّ عددهم قرابة ثلاثين ألف مقاتل، منهم خمسة آلاف من الجنود المدرّبين النّظاميّين، والبقيّة من الأعراب والمتطوّعة ـــ وبعضهم قد أوصل العدد إلى أربعين ألفاً ـــ. وقال آخرون: كانت القوات النّظامية ستّة أو خمسة آلاف، ومن البادية عشرة آلاف. وقال بعضهم: إنّ القوّات النّظاميّة ثمانمئة والأعراب عشرة آلاف، والله أعلم. والجيش يجرّ المدافع والسّلاح الّذي غنمه من التّرك، كذلك الّذي أمدّته بريطانيا به.

أمّا جيش الإخوان، فقرابة الخمسة آلاف، وقيل بل ثلاثة آلاف فقط، وبهذا ـ إن صحّ هذا العدد ـ يكون الواحد من الإخوان يقابله العشرة من العدو ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٥]. والأقرب أنّهم خمسة آلاف مقابل خمسة عشر ألف، أما الباقي فمبالغ فيه والله أعلم.

ثمّ إنّ الشّريف خيّم على سفح جبل حضن شهراً كاملاً عند عشيرة، وأصابه الغرور الشّديد لكثرة جموعه، ولمّا أرسل له الإمام عبد العزيز مستفسراً عن سبب اقترابه من الخرمة، ومتوعّداً إياه إن قدم بالعذاب

الإخواني، ردّ عليه عبد الله بأنّه سيصوم رمضان في الخرمة والأضحى في الشّرقيّة ــ بعد سَحْقِهِ لنجد وسيره على جثّتها للشرقيّة بالطبع بزعمه ــ وكتب لوالده حسين: بأنّه بعد شهرين سيكلّمه من البحرين بعد أن يضم نجداً والشّرقيّة لمملكته! وقد ودّ بعدها لو كان قد قنع من الغنيمة بالإياب!

ومما كتبه لعبد العزيز كذلك في ذلك الكتاب ـ وهي كلمات تدل على فصاحة عالية، وبلاغة باذخة، ولكن ليته كان على المنهج الأسمى والفعل القويم، ومنها: «وهل تذكر رجلاً من قريش، ثم من بني عبد مناف، ثم من بني هاشم، جده الرسول ﷺ وعلي بن أبي طالب؛ يقعقع بالشنان؟! ويردع بمثل تلك الأقاويل؟!»[1].

---

(١) في الحديث: «**من بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه**» رواه مسلم.

إذا افتخرت بأقوام لهم حسبٌ ... قلنا صدقت ولكن بئس ما ولدوا

إذن فقد اكتمل غرور الشريف وتيهه وعلوه في الأرض، ورحم الله أبا العتاهية حين قال:

إِذَا اسْتَوَت لِلنّمْلِ أَجْنِحَةٌ ... حَتّى يَطِيْرَ فَقَدْ دَنَا عَطَبُه

وأعظم وأبلغ من ذلك قول ربنا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤]. إذن فالقوة المادية راجحة للشريف رجحان الحصا بالعصى والحديد بالعهن! ولكن سنن الله تعالى حاضرة ولا تتخلف كما قال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ =

ثمّ دخل الشريف عبد الله (البيه) تربه، بعد معركةٍ مع صالحي أهلها دامت ساعة ونصفاً، وقيل بل لم يحدث قتال أصلاً، وهذا ما دعى شاكر الشريف أن يقول له فيما بعد ـ كما ذكره العبيّد ـ لماّ حذّره من أهل الخرمة، واحتجّ عليه عبد الله بسهولة دخوله تربة، فقال شاكر: إنّ تربة هي الّتي دعتك لنفسها أمّا الإخوان فهم أمامك فخذ حذرك. وكان دخوله لتربة في (٢١شعبان ١٣٣٧) ثمّ أَسَرَ بعض الموحّدين الّذين كانوا يستخْفون منه حتّى لا يقتلهم بتهمة الوهّابيّة، فوضع فيهم الحديد وعددهم اثنا عشر رجلاً، ثمّ أهان منهم اثنان وقال أنتم تكفروننا؟ فقالا: لا نكفّر إلّا من كفّره القرآن والسّنّة. ثمّ أمرهما بتكفير الإمام المجدّدّ محمّد بن عبد الوهاب رحمه الله، فأبيا ذلك وهما عامر بن مسيّب[1] والثّاني هو الطُعَيْمِي، ويقال إنّ الشّريف (البيه) قال لهما: كفّرا محمد بن عبد الوهاب. فصاح أحدهما: الكافر أنت وليس محمد بن عبد الوهاب، قال: سأقتلكما. قالا: إن قتلتنا فهي الشّهادة.

وقَوْلي كُلّما جَشَأت وَجَاشَت مَكَانَكِ تُحْمَدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي

فلمّا أعيته الحيلة في استخلاص ما يريد من الشّماتة بالموحّدين، ولما

= [النور: ٥٥] فشرط التمكين هو التوحيد، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠].

(١) عامر بن مسيّب أو المسيّب: من طلّاب العلم، وكان حافظاً للقرآن، وقد بقي زماناً مع الإخوان في الخرمة مع مفرّح، ثمّ ذهب لتربة لدعوة الناس للتّوحيد، وصار له قبول هناك، حتّى لحق بربّه شهيداً ولا نزكّيه على الله.

أراد الله لهما من الشهادة في سبيله، ولا نزكيهما على الله، أمر الطّاغية بوضعهما على فم المدفع، ثمّ أطلق قنابل المدفع الّتي نثرت أشلاءهما الطّاهرة الشّاهدة بحجم الظلم والاستعباد والجبروت من ذلك الطّاغية الفاسد البائد، الّذي لم يَعْلَم أنّهُ بعد أربع ليال سيفرّ هارباً بثياب نومه جريحاً على فرس عُرْيٍ ليس لها لجام، بعد أن صَرّعَت جندَهُ شَفراتُ البِيْضِ، ومُرهفات الهنادي، بأيدي الموحّدين أنصارِ الموحّدين ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

فما هو إلّا الوحي أَو حَدُّ مُرْهَفٍ ... تُزِيلُ ضُباهُ أَخدعَي كُلّ مائلِ
فَهَذَا شِفَاءٌ للّنفوسِ من العَمَى ... وَهَذَا شفَاءُ العِيّ مِنْ كُلّ سَائلِ

فما راع (البيه) وهو في خيمته إلّا وإخوان من أطاع الله يصيحون مكبّرين مهلّلين في أرجاء صيوانه بعد أن ذبحوا علوجه الترك، وغسلوا الأرض بدمائهم لأنّهم دنّسوها البارحة بمعاصيهم وبغيهم وفجورهم، وسَالَت أرواحُهم على ضُبَاتِ سيوف الحنفاء أنصار الملة من الإخوان، وأحدهم يهتف مكبراً وقد وصل لخيمة البيه: صبي التوحيد وأنا أخو من أطاع الله! لكن الحكيم أمهله لحكمة أرادها جلّ جلاله، لعل منها أن يشهد سقوط أمبراطورية والده، وحتى يستمر مسلسل إذلاله، وهو الذي لا يقعقع له بالشنان بزعمه! فتذله العرب ثم تذله العجم والروم، ولكل باغ مصرع، وعليه تدور الدوائر، وما يد إلا يد الله فوقها، وعند الله تجتمع الخصوم، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

قال محمد الوابلي: والله لقد قرنونا بالسّلسلة وسجنونا ونحن اثنا عشر رجلاً كي يقتلوننا بعد الطعيمي وابن مسيّب بتهمة أننا وهّابية، ولم يطلقنا إلّا الإخوان.

وقال محمد العلي العُبيّد في مخطوطته النجم اللامع: إنّ عبد الله البيه قد أمر بحصر كلّ المقيمين من أهل نجد بتربة، فحصروا ثمّ حبسوا في أحد المنازل هم ونساؤهم، وبلغ عددهم مئة وأربعون، وأمر بتجهيز الرّواحل في الصّباح كي يُرسَلوا للطّائف ومكة وجدة على أنّهم أُسَارا حرب من (المديّنة) ــ أي المتديّنين ــ ولكنّ الله سلّم، ففي الصّباح كان الفرج قد لاح بإذن الله تعالى، ثمّ بسيوف أهل التّوحيد الأقحاح، الّذين سطّروا على ثرى تربة ملحمةً بطوليّةً بِطُولِ الزّمان، وهتفت سيوفهم بنصر الإسلام، ونطقت رماحهم بعزّة الإيمان، رحمهم الرحيم الرحمن.

وقُتِلَ من الإخوان الكثير، فقد كانوا يرمون بأجسادهم على فوّهات المدافع والرّشّاشات، ليتحرّروا من رِبْقَةِ أجساد الدّنيا للخلود الأبديّ في نعيم الجنّات، لا حرمهم الله مقصودهم ولا نزكيهم عليه. واختلفت الرّوايات في عدد شهدائهم فمن قائل بأنّهم قد بلغوا (٤٠٠) ومن قائل (٥٠٠) ومن قائل (١٥٠) إلى غير ذلك، والله أعلم.

قبل معركة تربة بيوم أو ساعات، ناوشت بعض خيل الشريف تجريدة للإخوان عند مكان يقال له (العِرْقَين) فقتلوا أحد كبار الإخوان وهو من قحطان من أهل الرّين، ثم إنّهم جزّوا رأسه وحملوه للشريف، وقالوا: هذا رأس واحد من كبار المديّنة، فنظر الشريف عبد الله البيه، ثمّ

قال: تريد الجنة والله لن تراها عينك!

وأخذ المدفع يزفر ويزمجر فسمعه الإخوان وظنّه أحدهم رَعْدَاً، فقال: كريم كريم[١] أبشروا بالمطر هذا الرّعد. فقالوا له: هذا رعد لن تربّع فيه العشار! هذه بندقية الشريف الكبيرة تزلزل. ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي﴾ [البقرة:١٥٠].

وكان الإخوان يقولون:

استعنا بالإله المعتلي   يوم النصارى تعتزي بجنودها

وكانوا قد أرسلوا للإمام عبد العزيز وهو في الرّياض بسرعة القدوم للموقعة الفاصلة، فأرسلوا شبيب بن جميع بكتابهم إليه فوصل بعد أربعة أيام فأعطاه الكتاب، فتغير وجهه وتغيض على الإخوان لأنهم حركوا عليه الشريف! وهو ليس على استعداد الآن لمواجهته، فخشي شبيب أن لّا يعجل الإمام بالنّجدة، لذلك فمن حين خروجه من مجلسه قعد عند جدار القصر وأخذ يرتجز أبياتاً بصوت عال ومنها:

من تدبّر تالي الأنفالِ   جانا قدام يجيه داعينا

وَأَسْمَعَ الإمامَ وتسامع من حول القصر من أهل الرياض، وبدأ بعضهم يرتجز معه ويعرضون عرضة الحرب النجدية، فناداه الإمام وأعطاه كتاباً للإخوان: إنّي إليكم بالأثر، وعلى الله الظفر. فقال الإخوان:

---

(١) كريم: تقولها العامة في نجد تفاؤلاً بنزول الغيث، أي اللّهم يا كريم أغثنا.

مرحباً بالإمام.

أرسل الملك عبد العزيز كتاباً للشريف (البيه) مع صِيتان قال: خُذِ الكتاب ولا تَعُد إلا بردّ الشريف معك. فذهب صِيتانُ إلى تربة وكان عبد الله البيه قد دخلها فأناخ على ابن عمّه هَوْصَان المقاطي[1] وكان هوصان عند الشريف كابن جميعة عند عبد العزيز، أي وزيراً لعطايا البادية، فقال: ما تريد؟ قال: كتاباً معي من عبد العزيز إلى معزّبك ــ أي الشريف ــ فقال هوصان: خِبت ياصيتان لن يأخذ منك الشريف شيئاً، الشريف يريد الرّياض والشّرقية، ومعه هذا الجيش الّذي تراه فلن يردّه إلّا بحر الشّرقيّة، وهو لايراكم شيئاً من الاحتقار. فقال: اذهب بي إليه ولا يهمّك ما يكون. فقال: نَمِ الآن وَغَدَاً لكلّ حادث حديث. فباتا فلمّا أصبحا قال: والله ماغمضت عيني على نوم، فطول ليلي وأنا بين جاءكم وجاءكم، أرِحني من الكتاب، وادخلني على الشريف، أو خذ كتابي له. قال انتظر، فلمّا ارتفعت الشّمس وقام الشّريف من تصفيرته ــ أي نومه بالضّحى ــ ذهب لكتائبه يتفقّد أحوالها فقال هوصان: قُمْ ياروقيّ هذا الشّريف عند فرسه، فقام صيتان وقال: ياسيدي[2] أنا صيتان معي كتاب

(١) قتل نهار معركة تربة في خيمته، وجدوه قد دخلت الرصاصة مع بطنه وخرجت من ظهره، ومن ثم خرج أخوه راقي الفرد المقاطي طالباً لثأره حتى ألحقه الإخوان به عام: (١٣٤٢).

(٢) أتباع الشريف أو ضيوفه الذين ليسوا في مقامه، يخاطبونه بالسيادة، فيقولون: يا سِيْدِي ـ مُخففة ـ أي: يا سَيِّدِي.

لك من عبد العزيز جئت من أمس ولم أجد من يأخذ كتابي، فلمّا أنهى كلامه صعّر له خده، ثمّ أعرض عنه، وركب فرسه وكأن لم يكن عنده أحد من احتقاره لعبد العزيز والإخوان. ثمّ أن هوصان قال لصيتان: اهرب قبل أن تُقتل فمثلك مقتول منهوب! ففرّ صيتان بكتابه وانطلق، ولمّا وَصَلَ لـ(العِرْقَيْن)[1] إذِ الإخوان قد أناخوا فيها، وأمامهم رُتْبَة للشريف ـ أي كتيبة ـ من بني سفيان في مكان يقال له: (ركبة الذراعين) وتناوشت الخيل واشتبكت، واستشهد اثنان من كبار الإخوان؛ أحدهما من بني عمر والآخر من قحطان، ثمّ إنّ صيتان لمّا سأله الإخوان وقد اجتمعوا عليه؛ هوّن عليهم أمر الشريف وقال: لم يمنعكم منه إلّا ذنوبكم، وليس معه إلّا دراويش الحجّاج. ثمّ إنّه أناخ على ابن بجاد، ففرح به سلطان وسأله الخبر، فأخبره أنّ جنود الشريف كالجراد قد جمع التّرك وقبائل الحجاز والقصيم، معه المدافع الجرّارة والرّشّاشة، وأنّهم لا يرونكم شيئاً، ولا أقوى منهم إلّا الله، ونصحه ببياتهم في الّليل، فقال سلطان: سيكفيناهم الله. إذهب إلى خالد وأخبره الخبر، فذهب لخالد وأخبره ثمّ قال: لكن سينصركم الله عليهم، فقال خالد: وما حملك على ذلك؟ فقال: لأنّهم لا يصلون، يؤذّن ابن حجلان فربّما أتاه الواحد والإثنين، وربّما صلّى وحده! فقال خالد: اذهب لسلطان فأخبره، قال: أخبرته.

قال محمد العبيّد: «ثمّ اجتمع كبار الإخوان وقادة الكتائب

---

(١) بين الغريف وتربة، وهي الآن قرية تابعة لمحافظة تربة.

وعقدوا مجلس شورى، فأشار عليهم خالد بن لؤي بقوله: أرى أن نرسل رسولاً لعبد الله نُهدِّدُهُ ونتوعّده فإنّ هذا سوف يشتّت ذهنه من الانزعاج، ثمّ إنّه لن يأخذ بمشورة من عنده من أهل الحزم فهو ماقد علمتُهُ من معاشرتي له: لا يريد ذلك، حتّى لا يُقال: أصاب برأي غيره. فوافقه الإخوان فأرسل أمّ سلطان العبّود[1] فأرسلوها برسالة شفهيّة وفيها: يقول الإخوان: إنّا مصبّحينك فجر الغد! فإن كنت يا عبد الله ولد الحسين وأتيت من عَصَب ظهره، فاثبت إذا هلّلنا عليك وعلى جندك! فأوصلت المرأة الرّسالة من الرأس دون القرطاس كما قال عبيّد العلي الرشيد:

يا دارنا من جاك جيناه عجلين	بالليل نسري والعصر والقوايل
فان كانهم عنا بالانشاد محفين	فمن الراس ما نعتاز رد الرسايل

ثمّ إنّ المرأة سألت عن شاكر بن زيد بن فواز، نائب البيه فأخبرته الخبر، فدخل من حينه على البيه وأخبره، ولم يزد عبد الله أن ردّ عليه: قد بلغ بك الجبن إلى هذا الحدّ، كيف يجرؤ المدينّة على هذه النيران الملتهبة معنا، الّتي سيأكلهم شررها قبل لهبها! فارجع لفراشك وَنَمْ واترك عنك الوساوس. فرجع شاكر وخرج متعثّراً في ثيابه، ثمّ التفت عبد الله إلى من عنده، وجمع عشرة من كبار القوّاد، ومنهم شرف بن راجح بن فواز

(١) سلطان العبّود: قائد خيل الشريف، قُتِل في اليوم التّالي أي في معركة تربة، وكان من خاصّة الشريف.

الشريف، وعبد الله بن دخيل الله، رئيس عقيل وكانوا زُهَاءَ ألفين كلّهم من أهل نجد، وغازي بن محمد بن صالح الحارث الشريف، وسلطان العبّود قائد الخيل، وعبد الله بن عسيلان شيخ المعابدة، فاتفق رأيهم على سحب الجند لداخل تربة وأن يتحصّنوا بها إلى الصباح، لكنّ عبد اللهً رفض ذلك قائلاً: أتريدونا أن ندخل تربة وننجحر فيها، ونهزم أنفسنا قبل هزيمة عدوّنا لنا. فقال غازي الحارث: يا عبد الله هؤلاء الإخوان والله لا ينهزمون حتىّ تقتلهم جميعاً، وقومك ليسوا بقوم بيات. فسفّهَ عبد الله رأيهم، غَيْرَ أنّه أَمَرَ قوّاد العسكر بتنظيم عسكرهم ومدافعهم)[١] ثمّ اجتمعت كتائب الإخوان وسارت مع (ريع الثنية) بقرب قرية (شِعْر)[٢] ثمّ أناخت في (القويعيّة)[٣] ثمّ اجتمع كبارهم في الثّلث الآخر من الّليل عند السَّحَر على رأس خالد بن لؤي، وسلطان بن بجاد، وسلطان أبا العلا وغيرهم، وكانوا عند قويعيّة المرازيق، وتشاوروا في تكتيك المعركة ووقت الهجوم، فاتّفقوا على تقسيم الكتائب الهجوميّة إلى ثلاثة أقسام، فقسم على الذّراعين والرّكبتين من جهة الحرّة، وقسم مع بطن الوادي باتّجاه السّوق، وقسم على رمادان وخيمة الشريف.

وقال سلطان بن بجاد: يا خالد سر مع بطن المسيلة حتّى تدخل مخيّم البيه والسوق ورمادان ومنيف، وأنتم يا أهل الحرّة العمريّة والصّملة فمع

(١) مخطوط النجم الّلامع ص (٢٠٥) بتصرّف.

(٢) شِعر: قرية صغيرة على الجنوب من الغريف بنحو ثمانية أكيال.

(٣) قرية شمال تربة بينهما مرحلة.

الحرّة وأمامكم كتيبتان للشريف كلّ كتيبة قوامها ثمانمئة مقاتل، وأنا معي الخيل على راس الحيّة يا موسى سنهجم على مطرح الشريف، ويعني بها الجنود النظامية بعد الخنادق والمتاريس. فسعوا وهم يرتجزون:

هبّت هبوب الجنّة وين أنت يا باغيها

وقاتلوا وهم يتلون: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٤][1] وكانت خيل سلطان بن بجاد أسبق في الوصول لمخيّم الشريف الذي فرّ بعدما كاد.

ولتوضيح التّقسيم المذكور نقول: القسم الأوّل وهم العمريّة: فَيَهجمون من الجهة اليمنى لاحتلال المرتفعات الواقعة شمال غرب مخيّم الشريف للهجوم على الكتيبتين الرابضتين هناك، ثمُّ يقطعون خطّ الرّجعة على الشريف وعلى جنده، ومن ثَمّ يكون الوصول لمخيم الشريف وقتله.

وأمّا القسم الثاني بقيادة خالد بن لؤي: فينطلقون إلى الجهة اليسرى عبر الوادي الذي يحدّ تربة من الشّرق، فيسير هذا القسم حتى يلتفّ على الجيوش النظامية من الخلف، ويدخل مركز القيادة ومخيّم الأمير عبد الله.

وأمّا القسم الثالث فبقيادة سلطان بن بجاد: فيتقدّمون مباشرة جهة الجنوب الغربي باتّجاه الجيش النّظامي المواجه للإخوان، وهو ما كانوا

---

(١) من شعارات الصحابة رضوان الله عليهم في حروبهم ومغازيهم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وَ(حم. لا يُنصرون) وَ (يا منصور: أمت، أمت).

يُسمّونه بالمطرِح، وفيه القوّة الرئيسيّة لجيش الشّريف، وقِطع المدفعيّة والرشّاشات، وثِقَل الجيش المدرب، بقيادة الّلواء حلمي باشا.

ثمّ إنّ الشّريف قد وضع له حُبوراً وسَرَايا دون تربة، حتّى تعيق تقدم الإخوان.

وفي ثلث الليل الثّاني قام الإخوان من رقادهم كما قدّمنا آنفاً، إن كانوا قد ناموا أصلاً، واستعدّوا للّقاء الفاصل وهبّت رياح الجنّة فيما نرجو، ويُقال: إنّهم لحرصهم على التّبكير للمعركة ظنّوا الفجر قد ظهر فصلّوا، ثمّ تبيّن لهم أنّه الفجر الكاذب فانتظروا حتّى صلّوا الفجر بعد طلوع الصّادق. ويقال: إنّ الّذي قد صلّى بهم ابن بجاد، وقرأ سورتي الإخلاص في الرّكعتين؛ الكافرون في الأولى، والإخلاص في الثّانية. وقيل: بل صلّى الشّيخ ابن حسين، ومن جَمَال صوته أمّنت الكتائب الأخرى على قراءته الحمْد. ثمَّ: يا خيل الله اركبي[1].

صلّى الإخوان الصبح، ولمّا فرغ الشّيخ من صلاته قام سلطان بن بجاد فقال: يا شجاع الجِلْد، وهو حامل رايته، قال: نعم. فقال: لا تركُز البيرق ـ اللواء ـ إلّا في وسط خيام جيشهم. وفعلاً تقدّم ولمّا وصل لخيام الأمير وقف وركز البيرق[2] وتتابعت عليه الخيل، لسنابكها وَهجٌ،

(١) قيل: إنّ بعضهم أمّن بعد كل آية من الفاتحة! من مسارعتهم للجهاد.

(٢) البيرق: هو اللواء، ويكون لكل جيش لواء واحد، يجتمع الجيش عليه بجميع فرقه، ولكل فرقة، أو قبيلة راية، فالرايات كُثُر واللواء (البيرق) واحد. وقد يطلق تجوزاً على اللواء راية بشرط أن تقيّد براية القائد العام للجيش.

ولهدّها رَهج، ولِصُدُورِها ضَبْحٌ، ولكرّها قَدْحٌ، قد ثار نقعها في البيداء وأرعد حمسها الأعداء.

نَمْشِيْ حُفَاةً عَلَىْ الرَّمْضَاءِ تَأْسُرُنَا فِرْدَوْسُ رَبِّيْ فَلَا الدُّنْيَا تُدَانِيهَا
نَسْعَىْ بِعَزْمٍ وَفِي الأَنْفَالِ شِرْعَتَنَا يَا أَبْلَغُ الله أَجْنَاداً أَمَانِيهَا

فساروا وأقبلوا على سهل تربة، وكان تعداد الأخوان من الخرمة قرابة الألف أو ينقصون قليلاً، ومن الغطغط ألف ومئتان تقريباً، ومن البقيّة قرابة الثّلاثة آلاف مقاتل، فصار مجموعهم خمسة آلاف، وأمامهم جيش كثيف مدرّب مسلّح، يفوقهم بثلاثة أضعاف على أقلّ التّقديرات، وستّة أضعاف على تقديرات أخرى.

وكان عن يمين جيش الإخوان وشمالهم رجلان على ناقتين صفراوين يُذَكِّرَانهم بأمر العلماء بِحُرمة قتل الضعفة، فيصرخان بقوّة: اسمعوا يا إخوان: إن المريض والطفل والمرأة والشيخ الكبير لا يُقتلون، ارفعوا عنهم البنادق، لا يقتل إلا رجل خائن، ومن كذبنا فليسأل الشيخ ابن عتيق. والآخرون بحالهم ومَقالهم: سَمْعَاً وطاعة.

ما نبي منك يا عبّاد الأصنام كود تقرأ الكتاب وتتبع السنة

ومشوا ولأرض الحزم وئيدٌ، وتنزّلت عليهم السّكينة، وأحدهم يقول لصاحبه: كم من واحدٍ مِنّا غَداً في مثل هذه السّاعة ميّت![1] فالحرب

---

(١) كان عبد الله بن رواحة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يرتجز وهو في طريقه لمؤته، التي لم يعد منها: =

سجال وعثراتها لا تُقَال، اللّٰهم رحمتك ونصرك.

وقابلوا خيلاً للشّريف في شِعب (رِيحان) فكسروهم، ثمّ تقدموا لتربة وكان حامل لواء خالد في مغازيه فهد الهلقمي القحطاني، وهو أوّل من نزل هجرة خالد، وفي معركة تربة كثرت رايات الإخوان، وكلُّ قبيلةٍ تحت رايتها أمّا القيادة العامّة فهي لخالد بن لؤي، ومستشاره الأعلى هو القائد سلطان بن بجاد، الّذي يكاد أن يكون هو القائد لكثرة أهل الغطغط في ذلك النهار، وأهلُ الغطغط هم أوّل من دخل قصر منيف في تربة. ويقال: إنّهم أَمَّنُوا مَنْ بداخله لمدّة ساعةٍ واحدةٍ لتسليم أنفسهم، وبعد السّاعة سَحَقُوا مَنْ وَجدوا سَحْقَاً، ويُقال: إنّ عدد من كان في الحصن (قصر منيف) قرابة الأربع مئة، وذكر الرّيحاني: أنّ مِمَّن كان في القصر عون بن هاشم الشريف، وكان وقتها صغيراً، وذكر عن نفسه: أنّه بقي بعد المعركة سنة كاملة وهو يرى الماء أحمراً لغزارة ما رأى من الدّم، وتعجّب مِنْ تَرْكِ الإخوان القتال وقت الصّلاة ودخولهم المسجد لأدائها، وذكر أنّ معه شاكر بن زيد، وأنهما هربا أثناء صلاة الإخوان الظهر.

= إذا أديتنـــي وحملـــت رحــــلي ... مـــسيرة أربــــع بعـــد الحـــساء

فـــشأنك أنعـــم وخـــلاك ذم ... ولا أرجـــع إلى أهــــلي ورائـــي

وجـــاء المـــسلمون وغـــادروني ... بـــأرض الـــشام مـــشتهي الثـــواء

وردك كـــل ذي نـــسب قريـــب ... إلى الـــرحمن منقطـــع الإخـــاء

هنالـــك لا أبـــالي طلـــع بعـــل ... ولا نخـــــل أســــــافلها رواء

وذهب آل عمر مع الحرّة، وهجموا على الكتائب الأماميّة من جهة الحرّة. وكانت رَحَى المعركة من الصّبح حتّى الظّهر، وبعدها هَمَدَتِ الأَرواح. فهجم الإخوان قبل بزوغ شعاع شمس ذلك اليوم الّذي كان رصاصهم أسبق إلى أعناق أعدائهم منه، فهجموا هجوماً كاسحاً يسبقهم التكبير، غير مبالين بالمدافع الرّشّاشة الّتي حَصَدَتْهُمْ حَصْداً، وألقت أوائلهم على أواخرهم صرعى، لكن سلعة الله غالية، والله قد اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، فكانوا لا يفرّون ولا يتراجعون، ولمّا رأى رُماةُ المدافع والرشّاشات هؤلاء الّذين كلّما عضّتهم النّيران ازداد إصرارهم وتفانيهم؛ همّوا بالهروب والانهزام، لكن أنّى لهم ذلك، ففي أرجلهم سلاسل الحديد قد قُيّدوا في مدافعهم، قيّدهم قائدهم البغداديّ الّلواء حِلْمِي باشا، ثمّ ثنى ركبته معهم وأخذ مدفعاً رشّاشاً بعد أن قيّد نفسه فيه، ثمّ ألقى بالمفاتيح بعيداً حتّى يريَهم شدة بأسه وتضحيته بنفسه معهم![1] فوصلهم رجال التّوحيد، وحرّاس الملّة، وطلّاب الجنّة، فذبحوهم بالسّيوف الهندية، وألهبوهم بالرّماح السمهرية، والقَنَى المشرفيّة، حتىّ لم يبق منهم عين تطرف، ولا عرق ينبض، وكانوا كأمس الدابر، وليله الغابر! كأنما عنترة واقف يصف حالهم بقوله:

حكّمْ سيُوفَكَ في رقابِ العُذَّل ... وإذا نزلتْ بدار ذلَّ فارحل

وإذا الجبانُ نهاكَ يوْمَ كريهة ... خوفاً عليكَ من ازدحام الجحفل

فاعْصِ مقالَتهُ ولا تَحْفلْ بها ... واقْدِمْ إذا حَقَّ اللّقا في الأَوَّل

---

(١) وهذا العمل في غاية الشجاعة، أو الغرور!

واخـتَرْ لِنَفْـسِكَ منْـزلاً تعْلـو بـه   أَوْ مُتْ كـريماً تَحْتَ ظلِّ القَسْطَل
فـالموتُ لا يُنْجيـكَ مـنْ آفاتِـهِ   حـصنٌ ولـو شـيدتهُ بالجنـدل
مـوتُ الفتـى في عـزّةٍ خـيرٌ لـه   منْ أنْ يبيتَ أسير طرفٍ أكحل
ورميتُ مهري في العجاجِ فخاضهُ   والنَّارُ تقْدحُ منْ شفار الأَنْصُل
خـاضَ العجـاجَ محجـلاً حتـى إذا   شـهدَ الوقعيـةَ عـاد غـير محجـل
ولقـد نكبـت بنـي حريقـةَ نكبـةً   لمـا طعنتُ صميم قلب الأخيل
لا تـسقني مــاءَ الحيــاةِ بذلــةٍ   بـل فاسقني بـالعزِّ كـاس الحنظل

ثـمّ هجـم الإخـوان مـن جهـاتهم الـثّلاث عـلى جـيش الـشّريف، وذبحوهم مذبحة عظيمة جداً، وتحصّن باقي جيش الشريف الّذي لم يهرب في السّوق، واستصعب على الإخوان دخوله إلّا في اليوم الثّالث حين قطعوا عنهم الماء[1].

وقـد اشـتهر عـن الإخـوان أنّهـم في بـدء أمـرهم لا يـأسرون ولا يمنعون[2] ولعلّهم رأوا أنّ الدّولة الفتيّة النّاشئة إذا دخلت في حروب مع

---

(١) بعد أن هرب أحد سكّان السّوق من السوق وأخبر الإخوان بمنبع الماء ومجراه فقطعوه.
وقبل التّسليم صاحوا في الإخوان بالأمان، وأن يستسلموا وهم في وجه خالد، فكان كما قالوا فأطلقهم جميعاً وكانوا أربع مئة.

(٢) بوّب البخاري رحمه في كتاب الجهاد من صحيحه: (باب: الفتكِ بأهل الحرب) وساق حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من لكعب بن الأشرف؟**».
والحق: أن الإخوان في تعاملهم مع المخالفين كان فيهم شدة بالغة! وهذا ما ساعد =

على انتشار النفرة منهم، وزرع العداوات لهم في قلوب الناس، وفي ظني القاصر؛ أن لو كان فيهم سماحة ولين ورفق مع المخالفين لكان حالهم أفضل، وانتشار دعوتهم أسرع، ولعل شدتهم كانت راجعة إلى أمور ثلاثة:

١ ـ تكفيرهم لكثير ممن حاربوهم ــ وليس هذا مجال الفصل والبيان في ذلك ــ بل روي أن بعضهم لم يكن يترحم على والديه ممن مات قبل الدعوة، ومعلوم شدة سلف المسلمين وقسوتهم مع المحاربين من الكفرة: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٧] وأمره ﷺ بقتل ابن خطل لما وُجد وهو متعلق بأستار الكعبة! وقوله للآخر لما قال يا محمد: من للصبية؟ فقال: النار! وأمر بقتله. وتأمل كيف تصرّف الصحابة مع المرتدين وكيف قتلوا بعضهم، بل قد أحرق أبو بكر وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بعض المرتدين بالنار! وغير ذلك من قصد تشريد وترويع وإفزاع من خلفهم. (وقد سبق تفصيل ذلك في فصل التكفير والقتال).

٢ ـ كانت الفترة بين التعليم والوعظ وبين الجهاد قليلة نسبة إلى حجم مسؤوليات الجهاد وفتوح البلدان المحسوبة على الإسلام والتعامل مع أهلها، وهذا ما نتج عنه جهل بعض أتباعهم مما سبب بعض الممارسات الفردية غير المقبولة التي جُيّرت وسحبت وعُممت على نهجهم ودعوتهم.

٣ ـ لماّ كانت مادتهم وسوادهم الأعظم من البادية؛ فقد يتصرف بعضهم بخلفيات بدوية في بعض تعاملاته وتصرفاته مع المخالف، فمعلوم شدة طبع البادية، وفي رسالة الدويش للملك عبد العزيز: (فلم تتركنا كحالنا الأول يأكل بعضنا بعضاً، ولم تطلق أيدينا في المشركين!). وإن كانت هذه ليست مضطردة لكن الشدة في خلق أهل الوبر أظهر منها في أهل المدر، حتى في الحرب فالبادية أسرع وأشجع، والحاضرة أصبر وأمكر، وكما قال ابن خلدون أو غيره: قوة الجيش وسعده؛ بقلوب

باديته وبطشهم، وبعقول حاضرته وصبرهم، فتدبير الحاضرة بسواعد البادية.

وسكان المناطق المدارية والصحراوية عموماً لا يستغرب من أخلاقهم الشدة والقسوة، وتسلط القوة الغضبية، ولكن القاعدة النبوية المضطردة: «**إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيء إِلاَّ زَانَهُ وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَىْءٍ إِلاَّ شَانَهُ**» خرّجه الإمام مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنِ النَّبِي ﷺ. وهذا لفظ عام لا يخرج منه إلا ما استثني، كفعله ﷺ ببعض أعدائه. إذن فالقاعدة الرفق والاستثناء العنف، والإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ عقد باباً في صحيحه وسمّاه: (باب الرفق في الأمر كله).

والرفق قد أمرت به الشريعة في غير ما نص؛ فمن تلك النصوص ما رواه البخاري عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في قصة سلام يهود: «**مَهْلاً يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّه**».

وروى مسلم عَنْ جَرِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَال: «**منْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الْخَيْرَ**».

وروى مسلم أيضاً عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَال: «**يا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِى عَلَى الرِّفْقِ مَا لاَ يُعْطِى عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لاَ يُعْطِى عَلَى مَا سِوَاه**».

فهذه النصوص النبوية الصحيحة تدل دلالة واضحة في الأمر بالرفق والإتيان به، وأنه لا يكون في شيء إلا زانه وجمله وحسنه، ولا ينزع من شيء إلا شانه وأنقصه وأفسده.

والرفق ضد العنف والشدّة، ويُراد به اليسر في الأَمور والسهولة في التوصل إليها، وأصل الرفق في اللغة هو النفع، يقال: رَفَقَ به، وله، وعليه، رِفقاً. والرفق هو لين الجانب بالقول والفعل والأخذ بالأسهل وهو ضد العنف.

قال الحافظ ابن حجر عند شرحه لحديث عائشة المتقدم: والمعنى أنه يتأتى معه من الأمور ما لا يتأتى مع ضده، وقيل المراد يثيب عليه ما لا يثيب على غيره، والأول

أوجه، وله في حديث شريح بن هانئ عنها أن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه، وفي حديث أبي الدرداء: «**من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من الخير**». وأخرجه الترمذي وصححه وابن خزيمة.الفتح:(١٠/ ٤٤٩)

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا يأمرُ بالمعروف ويَنهى عن المنكرِ إلاّ من كان فيه خصالٌ ثلاثٌ: رفيقٌ بما يأمرُ، رفيقٌ بما ينهى، عدلٌ بما يأمر، عدلٌ بما ينهى، عالمٌ بما يأمر، عالم بما ينهى. الورع للإمام أحمد: (١٦١). وكان ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كثيراً ما يرددها في ثنايا كتبه.

وقد استطردت في هذا الموضوع لأهميّته،وهجر الكثير عن الاتصاف به!وما فائدة العلم إذا لم نتطبع به؟!

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في النونية:

وهو الرفيق يحب أهل الرفق يعطيهم بالرفق فوق أمان

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه لهذا البيت: «ومن أسمائه سبحانه الرفيق، وهو مأخوذ من الرفق الذي هو التأني في الأمور والتدرج فيها، وضده العنف الذي هو الأخذ فيها بشدة واستعجال. والتفسير لهذا الاسم الكريم مأخوذ من قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**إن الله رفيق يحب الرفق، وإن الله يعطي على الرفق مالا يعطي على العنف**» فالله تعالى رفيق في أفعاله حيث خلق المخلوقات كلها بالتدريج شيئا فشيئا بحسب حكمته ورفقه، مع أنه قادر على خلقها دفعة واحدة وفي لحظة واحدة. وهو سبحانه رفيق في أمره ونهيه فلا يأخذ عباده بالتكاليف الشاقة مرة واحدة، بل يتدرج معهم من حال إلى حال حتى تألفها نفوسهم وتأنس إليها طباعهم، كما فعل ذلك سبحانه في فرضية الصيام وفي تحريم الخمر والربا ونحوهما. فالمتأني الذي يأتي الأمور برفق وسكينة، اتباعا لسنن الله في الكون واقتداء بهدي

المشركين، فعليها أن لاّ تأسر ولا تقبل الفداء في مراحل الجهاد الأولى ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٧] فالله تعالى قد عاتب نبيّه ﷺ لمّا أخذ الفداء في أسرى بدر فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧] لذا فقد أكثرَ الإخوان القتل في عدوّهم وأثخنوهم إثخاناً، وصار قتلى الشريف أُلُوفاً، عِلماً بأن الإخوان قد أمّنوا عدوهم مرّتين، فمرةً في قصر منيف قبل اقتحامه، ومرّة في السّوق، لمّا استسلم من فيه واشترطوا الأمان فأمّنهم خالد وأطلقهم وكانوا أربعمئة كما أسلفنا، أمّا أربعمئة منيف فقُتلوا إذ لم يستسلموا، ولم يرع الشريف إلّا والإخوان قد وصلوا خيمته، وَأَحَدُ أهل الغطغط يكبّر

= رسول الله ﷺ تتيسر له الأمور، وتذلل الصعاب».

لقد كان الرفق معلماً واضحاً وصفة مشهودة للنبي ﷺ، والمتأمل في السيرة النبوية سيرى ذلك جلياً بيّناً في كل أمور النبي ﷺ.

روت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه» متفق عليه.

والأمة عموماً والدعاة والمجاهدين خصوصاً حقيق بهم تحقيق الرفق في مجمل وتفصيل حياتهم مع نفوسهم ومع من تحت ولايتهم أو نطاق دعوتهم وعملهم وجوارهم، وقد دلت التجارب على أن الرفيق المتأني يبلغ ما لا يبلغ سواه. وعلى كل حال فحال الحرب غير حال السلم، والتعامل مع المحاربين قد يحسن فيه نواح من الشدة والتشريد، والموفق من وزن الأمور على ضوء الوحي القولي والعملي والله المستعان.

ويهلل ويقول وقد وصل صيوانه ودخل خيامه: صبيّ التوحيد وأنا أخو من أطاع الله، فذُهل (البيه) وصُعِقَ! ثمّ بادر فرسه الّتي ساقها إليه شاكر فركبها عُرْياً، ولم يصل الطائف إلّا وقد حَفِيَت أفخاذه، ومعه ثلاثة عشر من قوّاده، ومنهم شاكر ابن عمه، قال محمد بن صعيبان السبيعي، وقد كان معه في هروبه، قبل أن يهديه الله للحق، ويعود للإخوان قال: لمّا ابتعدنا عن تربة وصرنا في مأمن من فتك كتائب الإخوان قال شاكر شامتاً: هاه يا عبد الله اليوم صارت شاكريّة! يُعيّرُهُ ويذكّرُه بقوله حين ردّ عليه قوله: إنّ الإخوان لا يهربون ولا يدبرون ولا يردّهم شيء، فقال عبد الله حينها:وهل هي شاكريّة؟ أي لستُ مثلك حين هزموك في الحنو، فلمّا سمع عبد الله شماتة شاكر نهره وقال: ليس هذا بوقت الشّماته، ثمّ إنّه بكى واستعبر فسُئل عن ذلك فقال: أبكي أبناء النساء الذين أرسلتهم ولم أردهم لأهلهم![1] ــ يعنى القتلى من جنده ــ ثمّ هرب بمن معه إلى الأُخيضر، وأرسل لوالده يخبره بالفاجعة، وكان معه في الأخيضر أربعمئة هجّان ومئة وخمسين خيّالاً. ثمّ ذهب عبد الله للطائف في يوم تالٍ، وكلّمَ والده هاتفيّاً فلمّا نهره وأغلظ عليه، قال له: هل تريدني أن أنتحر! فأمره بالعودة للأخيضر، فقال: كيف أعود وليس معي رجل واحد! وَأَصْلُ المكالمة موجود في تقرير الوثائق البريطانية[2]. وذكر التّقرير كذلك أنّ الضّبّاط السّبعة الّذين نجوا من القتل قد وصلوا للطائف بملابس النّوم!

---

(١) نص عبارته: (أبكي عيال النسا اللي وديتها ولا رديتها!).

(٢) (٢٢٥/٤).

وقد حصر التّقرير أعداد جيش البيه بـ(٨٠٠) من الجيش النّظامي، ومعهم نسبة كبيرة من المتطوّعين الأتراك من بقايا الحامية التركيّة في المدينة النبويّة، الّذين رافقوا عبد الله بعد دخوله للمدينة النبوية، واستسلامهم له، و(١٠,٠٠٠) من البدو و(١٢) مدفعاً و(٢٠) رشاشاً.

يَا رَاقِدَ الّليلِ مَسْرُوراً بِأَوّلِهِ ... إِنَّ الحَوَادِثَ قَدْ يَطْرُقْنَ أَسْحَاراً

أمّا في رسالة الإمام عبد العزيز للأمير سعود بن عبد العزيز الرّشيد الّتي يبشره فيها بالنّصر، والّتي كانت بتاريخ: (الأول من رمضان لعام: ١٣٣٧) فكان فيها: (أنّه كان مع جند الشريف (٤٠٠٠) تركي انضمّوا إليه من حامية المدينة، و (٧٠٠٠) رجل من الحجاز، مع (٢٠) مدفعاً، و(٤٠) رشّاشاً، ومؤن وعتاد يحملها على (١٠,٠٠٠) بعير. بينما جماعة (إخواننا) لم يزد عددهم على (٢٠٠٠) ومن هؤلاء (٥٠٠) لا سلاح لهم سوى السّيوف والسّكاكين..... وبدأ الإخوان بتقدّمهم في منتصف الليل، وحين وصلوا الصّبح استعانوا بـ(لا إله إلّا الله) ضدّ الشريف ومدافعه، وهجموا عليه من الصّباح، ودامت المعركة النّهار كلّه واللّيلة التّالية، حتّى اندحر الشريف ورجاله.....وأرسلوا لي الأخبار السّارّة حين غادرت القنصليّة[1] لتوّي وأنا الآن قرب الخُرْمَةِ في طريقي إلى تربة مصليّاً لله طالباً التّوفيق. وقد فقد الإخوان (١٥٠) رجلاً و (٥٠) سربة

(١) القنصلية: منهل للبادية، أسفل وادي الخرمة، يحدّها عرق سبيع غرباً، وهي على الشرق من الخرمة، تبعد عنها مرحلتان تقريباً.

ولا يعرف أحد منهم)[١] وفي مخطوطة العبيّد: أنّ جند الشريف كانوا (١٣٠٠٠) والقتلى منهم: (٩٠٠٠) أمّا جيش الإخوان فكان (٣٥٠٠) وشهداءهم (٣٥٠).

إذن فقد اختلفت تقديرات الشهداء والقتلى كما أسلفنا، فالشّهداء تراوحت روايات أعدادهم بين الخمسمئة والمئة وخمسين، وقُدِّرَ القتلى من جند الشريف بين الخمسة آلاف والخمسة عشر ألفاً، منهم مئة وثمانون من الأشراف، وقيل لم ينج من الجيش النّظامي للشريف سوى ثمانية عشر رجلاً منهم ستّةُ ضبّاط، والله أعلم، لكن المؤكد أنّ جثث القتلى في قصر رمادان قد ارتفعت حتىّ السّور الخارجي.

وقال العبيّد: وكان قد انتدب عشرة من الإخوان على قتل الشريف عبد الله البيه، وعلى رأسهم تركي بن شبيب بن حِجْنَة أمير النفعة من برقا، فتعاهدوا على قتله أو الموت دونه، فكبسوه في خيمته، ولم يكن بها غيره سوى شاكر وعبداً له يقال له: ريحان. فتقدّم شاكر مسرعاً بالفرس لعبد الله، وأركبه وخرجا من الباب الآخر للخيمة. وفي رواية أخرى أنّ العبد شقّ الخيمة لسيّده، فلـمّا وصل الإخوان فراشه لم يدركوا سوى العبد فذبحوه[٢]. وقال: عايض بن مهرس وهو من رؤساء الشّلاوا:

---

(١) الوثائق البريطانية: (٢٣١/٤). وتأمّل هذه رسالة خاصة وسريّة من الملك عبد العزيز للرشيد، وقبل قليل مرّت مكالمة الشريف لوالده، والكلّ في سجلّات المخابرات البريطانية!!

(٢) قال ابن محيرش أو حتيرش الحطّابي وكان من قوّاد الشريف: كنّا مع الشريف في =

كنت فيمن فرّ مع الشريف عبد الله وابن عمه شاكر بن زيد، وكان معي أربعة من أصحابي مع الشّريف، ثمّ أدركَنَا آخرون من جماعتي فانهزمنا جميعاً حتّى مسّنا الظُّهر، فنزلنا في ظلّ شجرة، فاتّكأ البيه عليها وقال: يا أصحاب هل معكم زاد؟ فقلت: نعم. فقُمت إلى جراب معي فيه تمر وإقط، وفرشت له جاعداً فوضعته فيه، ثمّ صَببت عليه السّمن من عُكّةٍ كانت معي، فقدّمته للأمير ومن معه، فأكل ثمّ زَفَرَ من صدره زفرةً، وقال: قاتل الله الدنيا، ومن يغترّ بها! بالأمس كان يأكل في كفايتنا ثلاثة عشر ألف، واليوم نحتاج لزاد بدوي!)[1].

فَنَفْسَكَ لُمْ وَلَا تَلُمِ المَطَايَا ... وَمُتْ كَمَداً فَلَيْسَ لَكَ اعْتِذَارُ

وتعاهد مجموعة من الإخوان أهل الخرمة على قتل الباشا قائد الجيش النظامي وهو اللّواء محمّد محمود حلمي وأصله عراقي، وكان قد قيّد نفسه بالسّلاسل في مدفعه الرشّاش، ورمى المفتاح بعدما قيّد جنوده وراءه، وكان أمامه جديّر صغير يتّقي به، فأقبلت عليه المجموعةُ بكلِّ بسالة وقوّة فَسَحَقَ مقدّمتَها بمدفعه، وهو يهوشهم بمدفعه هَوْشَاً مروّعاً، لكنّ الله عقره بأن أَوْصَلَ منهم ستة؛ وهم هذال بن رشدان، وقطيم بن ختّام، وحمود العماني، ومطلق بن عليان، وعبد الهادي الطاحون، ولبيّد، فأوّل

= الخيمة نتشاور في الأمر، فما راعنا إلّا ضرب السّيوف يميناً وشمالاً، وأصحابها يصيحون: صبيّ التّوحيد وأنا أخو من طاع الله، وفي رواية: وأنا أبو محمد.

(١) المخطوط ص: (٢٠٧) وما ضاعت عَبرةٌ كانت لصاحبها عِبرة! فهل اعتبر؟!

من وصله محمد العماني فأطار الباشا ذراعه بمدفعه من مقطع الكوع فسقط على ظهره، ثمّ أسرع قطيم إليه لكن رصاصة المدفع سبقته فرمته بعيداً، ثمّ ألحق به عبد الهادي برصاصة على فخذه، ثمّ أرخى المدفع على قدم هذّال فَعَقَرَهُ، ولم يبق منهم من يطيق القتال سوى مطلق بن عليان الّذي قفز عليه من أعلى الجدار، فَعَدَلَ الباشا رشّاشه عليه فأطارت رصاصاته عمامته، ونجّاه الله ثمّ قفز عليه بالنّمشة[١] فأطار رأس الباشا صائحاً: صبيّ التوحيد وأنا أخو من أطاع الله.

كأنّما عناهما عنترة:

ومدجّج كره الكماة نزاله	لا ممعنٍ هرباً ولا مستسلم
جادت يداي له بعاجل طعنة	بمثقّف صَدْقِ الكُعُوب مقوَّمِ
برحيبة الفرْغين يَهدي جرسُها	باللّيل معتسَّ الذّئاب الضرّم
فشككت بالرمح الأصم ثيابه	ليس الكريم على القنا بمحرّم
فتركته جزر السباع ينشنه	ما بين قلّة رأسه والمعصم
لمّا رآني قد نزلت أريده	أبدى نواجذه لغير تبسّم
فطعنته بالرمح ثم علوته	بمهنّد صافي الحديدة مِخْذَم
عهدي به مدّ النهار كأنما	خُضب البنان ورأسه بالعِظلم

ثمّ أخذ حزامه واحتزم به، وأخذ شرشوره[٢] وعلّقهُ على كاهله،

---

(١) النّمشة: وتسمّى الكَرَدَة، سيف قصير

(٢) الشرشور: هو حزام الرّصاص للمدفع الرشّاش.

وأخذ بندقيته أمّ ركبة[١] وبعد المعركة عاد مطلق بن عليان حاملاً الكثير من البنادق ممّن قتلهم، فسأله الشّيخ ابن حسين: من يشهد لك بقتلك أصحابها؟ فقال: تشهد لي يميني، ثمّ إنّه قد أتى من الإخوان من شهد له ببعضها فأخذها رَحِمَهُ اللَّهُ.

سلي الرماح العوالي عن معالينا واستشهدي البيض هل خاب الرجا فينا؟
لمّا سعينا فما رقّت عزائمنا عمّا نروم ولا خابت مساعينا
وللدماء على أثوابنا علق بنشره عن عبير المسك يغنينا
بيض صنائعنا سود وقائعنا خضر مرابعنا حمر مواضينا
نغشى الخطوب بأيدينا فندفعها وإن دهتنا دفعناها بأيدينا

وفرّ العسكر، ومن لم يفرّ أكلته سيوف الأخوان ورصاصهم. ولمّا تكلّم قوّاد الشّريف معه قبل اللقاء وحذّروه تلك الليلة من هجوم الإخوان وبياتهم قال: لا عليكم، الإخوان ليسوا بشيء ولن يأتوا، فما طلع الشّفق إلّا وسيوف الموحّدين تلمع ظمآنة لدماء الباطل وأهله، كما قال ابن كلثوم في معلقته:

قريناكم فعجّلنا قِراكم قبيل الصبح مرداة طحونا
نطاعن ما تراخى الناس عنا ونضرب بالسيوف إذا غشينا
بسمر من قنا الخطّيّ لُدْنٌ ذوابل أو ببيض يختلينا
نجذّ رؤوسهم في غير برّ فما يدرون ماذا يتّقونا

(١) بندقيّة أمّ ركبة: ويقال لها أمّ خمس وهي أجود البنادق في وقتهم.

بـــشبّان يـــرون القتـــل مجـــداً وشـــيب في الحـــروب مجربينـــا

ولمّا أصبح الإخوان أخرجوا الجنائز الكثيرة من قصر رمادان، وذلك أنّ الجند الأحياء دخلوا تحت جثث الأموات، حتّى وصلت الجنائز للسُقُف كما يُروى، فصار الإخوان يسحبون الجثث، ومن وجدوه تحتها ألحقوه بها.

استُشهد من بني عمر في تربة خمسة وأربعون رجلاً، على رأسهم أميرهم جبر بن عبيدان السبيعي، وقيل إنه استشهد في معركة الخرائق.

واستُشهد عبد الله بن حامد، الّذي كان يقول: الّلهم اجعل قتلنا مقبلين غير مدبرين؛ فأصابته الرّصاصة مع نحره رَحِمَهُ ٱللَّهُ. كما قيل:

وَلَسْنَا عَلَى الأَعْقَابِ تدْمَى كُلُومنا وَلكِـنْ عَـلَى أَقْـدَامِنَا يَقْـطُرُ الـدَّمُ

وقتل من التّرك الكثير، منهم قائدهم اللّواء حلمي باشا، وهو الّذي حذّره غازي الحارث من هجوم الإخوان ليلاً فلم يعبأ به، وقتل معه سعيد جودة.

وقال رجل من إحدى القبائل: كنّا تسعمئة جندي من آل فلان مع الشريف ولم يبق منا بعد تربة غير تسعة والبقيّة قتلوا.

وكان رجال من إحدى القبائل ينشدون:

نحـــاك يـــا ســـاحق الريحـــان مـــــن فـــــصاع المديّنـــــة

يـــالابتي يـــا بنـــي (فـــلان) جانـــا مـــن الـــشرق غـــيّره

وَكَذَبَ فالإخوان قد بلغوا في العفاف الذّروة رحمهم الله، بل لم يكونوا يسبون الحريم، بل ولا يُلحقون بهن أذىً إنّما بطشهم في المقاتلة من الرجال، الّذين رأى الإخوان أنّهم قد أرتدّوا عن الإسلام وخرجوا من الملّة، بحرب التّوحيد وأهله، ونقض لا إله إلّا الله بتولي المشركين، وبمعاونتهم ونصرهم ضدّ جند الإيمان.

وللقسط نقول: إن تكفير هؤلاء وأشباههم ليس بإجماع من علماء الوقت، بل قد وقع اختلاف في شأنهم، وهذه من المسائل الخلافية التي اختلفت فيها مدارك العلماء وفتاواهم، فهناك طائفة من أهل العلم لم تر تكفير أولئك، ولهم في ذلك حيثيات؛ منها دخولهم تحت ولاية ترفع اسم الإسلام، وتطبق جلّ أموره وتشريعاته، مع كونهم يقيمون الإسلام في أنفسهم، هذا مع ضميمة الإعذار بالجهل لهم، ومن دخل في الإسلام بيقين فلا يُخرج منه إلّا بيقين، وغاية ما هنالك أنّهم عصاة وبغاة واجبٌ قتالهم، لكنهم لم يخرجوا من الملة. وهذا قول وجيه كما ترى من أدلته وقوتها، من غير غضّ ولا حطّ للقول الآخر فله حظه كذلك من قوة النظر والاستدلال والوجاهة، ومن اشتبه عليه الأمر فليتوقف فالعافية لا يعدلها شيء، والله أعلم.

وعلى كلّ حال فمن أداه اجتهاده من أهل العلم على الحكم على هؤلاء وأشباههم فلا يلام على اجتهاده، ولا ينكر على قوله، ولا يعادى على فتواه، ولا يثرّب على حكمه، وكلٌّ مُطالب بطرد أصله ودليله، وكلٌّ مجتهد متعبد لله تعالى بما يؤديه إليه اجتهاده، لذا فلا يُلام من كفّر ببرهان،

أو لم يكفّر ببرهان، فالمسألة اجتهادية على كل حال. والله تعالى أعلم.

وغنم الإخوان العديد من الأسلحة الثقيلة والخفيفة، والذخيرة الوفيرة، والغنائم الجزيلة، وفي تقرير وزير الحربيّة لدولة الشّريف الصّاغ محمود القيسوني يوضح جزءاً من تلك الغنائم: «أنّ الإخوان وصلوا خيمة الشّريف، ودخلوها وذبحوا كلّ من فيها ولم ينج إلّا عبد الله البيه وشاكر بأعجوبة، وخُتمت المعركة بفناء القوّة النّظامية تماماً، إلّا سبعة ضبّاط، اثنين منهم مجاريح، وهما رئيس أركان حرب الفرقة، وقومندان المدفعيّة، نجيا بمعجزة والتحقا بالأمير فأرسلهما للطّائف. وقوّة البدو لم ينج منها إلّا ربعها. والمدافع وعددها ثمانية والرّشّاشات وعددها (١٦) كلّها فقدت مع قائد الفرقة، وعدد الضبّاط الّذين فقدوا (٥٠) ضابطاً والجنود (٦٠٠)......»[١].

وهرب من هرب من جند الشريف ولسان حاله يقول كما قال عمرو بن معدي كرب:

ولو أن قومي أنطقتني رماحُهُم نَطَقْتُ ولكن الرّماح أَجَرّتِ[٢]

---

(١) الوثائق البريطانية (٤ / ١٩٦).

(٢) الجِرار: عود يعرض في فم الفصيل حتى لا يرضع من أمه. وهذا تشبيه بليغ، ومكان الجرار هنا يحتمل أنه قد قصد به فم الشاعر نفسه لما كانت رماح قومه الهاربة مانعة له من مدحهم، أو أنه قصد بالجرار في فم الرماح ومنعها من الرواء من دم الأعداء وهذا أبلغ، والأول اختيار الجاحظ في البيان والتبيين.

وَجَمَعَ الإخوان الغنائم انتظاراً لإمامهم عبد العزيز الّذي كان في طريقه إليهم، ويُقال إنّ معه اثني عشر ألفاً من الجنود. وأرسلوا له البشير فلقيه على (البديّعة) عند عرق (القنصليّة) ثمّ وصل الإمام بعد ثلاث ليال، ولمّا وصل جيشه إذِ الكثير منهم يلبس العقال فأنكر عليهم بعض جهلة الإخوان، بل ربّما ضربوا بعضهم إنكاراً عليهم لِلبسِ العقال، ويأمرونهم بالمعمّ، حتّى نهاهم المشايخ وردوهم عنهم.

وقبل قسم الغنيمة رفض بعض كبار الإخوان إعطاء إمامهم من الغنيمة! بحجّة أنّه لم يشاركهم، فحجّهم بالقضاء، وذكر أنّه كان يسير إليهم الليل والنهار لإدراكهم ومشاركتهم، فحكم له الشّرع بالخمس.

وأقام الإمام عبد العزيز عشرة أيام بتربة لتصريف أمورها، ثمّ عاد بثقل جيشه بعد أن عيّن عليها عبد الرحمن بن معمر أميراً وترك معه حامية صغيرة، وقد كان وَصَلَهُ بلاغٌ سريعٌ شديد اللّهجة من بريطانيا ونصّه: «إنّ حكومة صاحب الجلالة ترغب في تحذيركم بكلّ جدّ بأنّكم يجب أن تأمروا فوراً بانسحاب قوّاتكم من الحجاز ومن منطقة الخرمة، وإن لم تفعلوا ذلك فإنّها ستعتبر أنّكم قد اتّخذتم منها موقفاً عدائيّاً مؤكّداً. وفي تلك الحالة ستقطع عنكم حالاً بقيّة الإعانة الماليّة، وإنّكم ستخسرون بصورة نهائيّة جميع الامتيازات الّتي منحتكم إيّاها معاهدة سنة ١٩١٥م»[(١)] وقد تمهّل

(١) الوثائق البريطانية (٤/ ٢٤٨) وهذا ديدنهم، فهم لا يعطوا إلا ليأخذوا....فهل من معتبر؟!

الإمام عبد العزيز بضع سنين قبل أن يدخل الطّائف، واكتفى بمناوشة الإخوان لحصون ومعاقل متفرقة للشريف، والسبب والله أعلم هو أنّه كان لا يحسب الحساب للشّريف نفسه، ولكن لمن هم خلف الشريف من القوى العالميّة؛ كتركيا وإن كانت قد خرجت منهزمة لكن لا تزال لها قوّة وطموح، وبريطانيا وهي حامية الشّريف، وفرنسا التي كانت تخطب ودّه، ففي برقيّة من المعتمد البريطاني في جدّة إلى المكتب العربي في القاهرة: «استخبارات في مكّة تفيد بأن الفرنسيين يتآمرون مع ابن سعود ضدّ المصالح البريطانية والمحرك الرئيسي (دوبوي) وهو الآن في مكة مع (١٢) مغربيّاً...»(١).

إذن فبريطانيا قد هدّدته بإلغاء كلّ ما بينها وبينه من المعاهدات والامتيازات التي قيّدت من حركته، وقلّلت من حريّة مناورته، كما في البلاغ المذكور بعاليه؛ إن لم يخرج عن تربه والخرمة، بل وأمرته أن يترك الخرمة وتربة منطقة محايدة، لكنّه راوح مكانه وناور بدهاء، فلم يواجهها برفضه، كما لم ينصع لرغبتها بل بقي في ثكناته، وإن كانت قد رضيت منه بالكفّ عن دخول الطّائف، وكانت عازمةً على ضربه بالطيران لو فعل! فقد أرسلت لجدّة ست طائرات حربيّة، لكنّها لم تلبث أن سحبتها بعد تصرف الشريف الأرعن مع (فلبي)(٢) لماّ كان عنده في جدّة، فلم يأذن له أن يعود للرّياض عن طريق البرّ، فرحل عن طريق البحر وغضبت دولته

---

(١) الوثائق: (٤/ ٤٠٠).

(٢) جون فلبي، أو عبد الله فلبي بعد ادّعائه الإسلام مندوب بريطانيا عند عبد العزيز.

لغضبه؛ فسحبت الطائرات، ومصائب قوم عند قوم فوائدُ.

وكان الإخوان قد ألحّوا على إمامهم بفتح الحجاز، وتأذّوا من مضايقة سرايا الشّريف لهم، واكتفوا من الإمام بالإذن فقط لهم بالهجوم، ففي رسالة الأمير خالد في (٦ ربيع الأول ١٣٣٨): «لقد كتبت لكم باستمرار وأبقيتكم على اطّلاع بالأوضاع منذ العام الماضي، وقد قوبل كلّ ما كتبته عنه وعن شؤونه بتجاهل مضطرد من جانبك، ونتيجة لذلك آلت الأمور إلى ما قسم الله، إنّي في حال كذاك الذي يصفه المثل القائل: اسأل مجرب ولا تسأل طبيب، إنّ هذا الرجل (الشريف) مضلّل وأفكاره ليست كأفكارك......ثمّ ساق كلاماً طويلاً في بيان حال الشريف وخداعه، وأورد بعض الأدلة على هجوم سرايا الشريف على تجمّعاتٍ الإخوان...... إلى أن قال: وعليك الآن أن تختار بين أمرين: إمّا أن يعود أبناء الشّريف من الطّائف إلى مكّة ويكفّ عن عدوانه، وإلّا فسنقوم بمناجزته فوالله العظيم ما عدنا نستطيع الإحجام بعد الآن. أيّها الرجل: أعط أهل الجنوب الإذن وأنّ عددهم سيكون كافياً (لمقابلة الشريف) من دون إزعاجك أو إزعاج بقيّة المسلمين. ولا تحسبنّه (الشّريف) بكثير علينا يا عبد العزيز، فلا شيء يُشعره بالقوّة سوى الله ثمّ صبرك أنت في الماضي، فهو يواصل الإقدام وأنت تواصل الإحجام.....»[1].

ولكنّ الإمام بحلمه، ودهائه، وبعد سياسته، كان يقابل حماسة

(١) الوثائق:(٤/٤٢١).

الإخوان بالهدوء والوعد بالفرج القريب، وكما قال زهير:

وَمَــنْ لَا يُـصَانِعْ فِي أُمُــورٍ كَثِـيرَةٍ يُـضَرَّسْ بِأَنْيَـابٍ وَيُوطَـأْ بِمَنْـسِمِ

فهو لا يريد كُرَاعَ النّعجةِ فقط؛ بل كبدها ورأسها وكلّ أعضائها. فبعد مضيّ ستّ سنين، ولمّا هدأت العاصفة الانجليزية، ولانت الأوضاع فكّر بالحجاز كلّه، فالفرصة قد واتته فتركيا كانت أعجز من أن ترسل الأمداد لقتاله بالنيّابة فضلاً عن نزاله مباشرة. أمّا فرنسا فكانت مشغولة بحروبها، وبريطانيا لا يهمّها إلّا مصالحها فحيث كانت فهي معها، وكان الإمام في تلك الفترة قد أحسن التّعامل معها، ومضى في ملاطفتها ومن ثمّ تحييدها عن صراعه مع حسين، وحينئذٍ انفرد بالكعكة وفتح الحجاز بسيوف الإخوان[١].

نعم إنّهم الإخوان الّذين قال عنهم الكولونيل فيكري: لقد ظهرت قوّة أصيلة ليست من تلفيقاتنا. وصدق الكذوب.

وقد قلت في تلك المعاني الجهادية وهي منتخبة من مرثيتي في القائد خطاب رَحِمَهُ اللَّهُ:

صَحَى القلب من ذكر الصبابة والجوى نأى القلب عن حسن عن الله لاهيا

أيا طول يومي ثمّ يا طول ليلتي إذا هيْعَةٌ ثارت وما كُنت راميا

فهمّي رضى ربي بقتلي لكافرٍ برمي رصاص الحقّ جمراً غواشياً

(١) على القول بأن له يداً مباشرة في دخول الإخوان الطائف ومكة.

لـئن قـرّب العُبّـاد كبـشاً وأنعُـماً وضـحّوا لمـولاهم بعـيراً فـما ليـا؟

فيـا رب فاقبـلها قـرابين راحتـي فئامـاً مـن الكفـار أضـحت بواليـا

يظــن بي المغــرور ظــن سـفاهة ولا عجباً فالكنز في القلـب خافيـا

سيعلمُ مـن قـد فـاز فـوزاً ورفعـةً إذا جندل المخذول تحت السّوافيا

فياليت شعري أين ميتة من ثوى قتـيلاً كلـيلاً مـن قتـال البواغيـا

ومن مات مثل الكلب من شبع بطنهِ وقـد مـات خـوّاراً جبانـاً ولاهيـا

لـك الحمـد ياربـاً عظـيماً نوالـهُ ببعثـك جنـداً في زمـان التهاويـا

وكـم مـن ولي لـلإله قـد ارتـوى ثرى الأرض من كَلْمٍ له ويقاسيا

يقــوم فيــدعو والأنــام بغفلــةٍ ويصبح صنديداً هصوراً مصاليا

لـئن نثـر الكفّـار كـلّ سـهامهم فـما ينـصر الإسـلام غـير إلٰهيـا

فلنــدعونّ الله لــيلاً وبكــرة وليـصدقنّ اللهَ في الحـرب لاقيـا

ومـن صَـدَقَ الجبّـارَ يجـبر كـسره ومـن نـصر المولى لـه النصر ساعيا

فيا قوم قوموا فاصدقوا في لقا العدا فمن كذب الرحمن فالقصم ماحيا

وأبـشر أخـا الإيـمان فـالفتح قـادمٌ وإن أجلـب الـشيطان كـلّ النواديا

زمانـك لـو تـدري زمـان زعـازعٍ فكُنْ صادق الإيمان صلباً وقاسيا

فـصلباً عـلى البـاغي رحيماً بمـؤمنٍ كثـير النّـدى سـمحاً وللـمال حاثيـا

فمن كان صلب الدين صحّ فؤادهُ ومن كان رُخواً فهو للدّون ساعيا

اذكر نعيم العدن واذكر لظى لظىً واحـذر فقـد يلقيـك مـن لا يباليـا

واسكب من العبرات دمعاً سواجماً فـما أقـرب الغفـران إن كنـت باكيـا

واسجد سجود الذل واطلب نوالهُ … فــإن إله الحــقّ يحيــي البواليــا
واعلـم بـأن الـدّين توحيـد ربنـا … فوحّـد وكـن دومـاً حنيفـاً وداعيـا
ولا تـنس أن تـرضى عـن الله دائـماً … فقـد فـاز عنـد الله مـن كـان راضيا
وسابق إلى الطاعات تُعطى رضاءهُ … ومـن يـرض عنـه الله حـاز المعاليا
أبُنَــيّ عظِّــم في الجَنَــان لــسنُّةٍ … وأبــشر فنــور الله نعــم الــسنانيا
وادع إله الحــق يمنحْــكَ ميتــةً … بكبد الـوغى شعثاً صريع العواديا
بعيـداً ونـائيْ الـدار في أرض غربـةٍ … خرجت سليم القلـب تتلـو المثانيا
فمـن يطلـب العليـا يبيـت مـسهّداً … ولـيس بميْـتِ القلـب للّهـو ساريا
ويــصبح صــوّاماً كثــيراً دعــاؤهُ … إلى الله يمــضي وهــو للّهــو قاليـا
يحُنُّ تراب الأرض من صدق دمعهِ … ويشبه حين الـوتر إحدى السواريا
سـخيّاً بـذي الـدّنيا ضـنيناً بدينـه … سحاباً كما الأجبال سوداً غواديا
ولا تكسلنْ حبي عن العلم ساعةً … ومــا فــات ولّى في ليــال خواليــا
واسـأل إله العـرش يحييـك عالمـاً … فمن ذاق شهد العلم عاف الغوانيا
أيـا سـامعاً فـافهم هُـديت مقـالتي … وأرع لها سمعاً مـن القلـب صاغيا
لقـد هبّـت الأرواح نـصراً ونجـدةً … فحـيهلاً بـالحرب زادت شـعاعيا
فئيهــاً حمــاة الــدّين جــاء عــدوّكم … يريـد بكـم كيـداً عظـيم الـدواهيا
فــإن تــستجيبوا للكفــور فخبــتمُ … ألا حَبّـذَا قرمـاً عـن الـدّين حاميـا
أيا مبتغي الفردوس عجّل وأقبلنْ … وكـن صـادق الإقبال عند التلاقيا
فإن تحيَ عشت العز في كل لحظةٍ … وإن كانـت الأخـرى ستلقى المراقيا

لـئن قـرّب الـرّحمن عبـداً وأنـت لا ... فـأعظم بـه خُسراً شـديداً وكاويـا

أترضى قعـوداً يا جبان مع النساء ... وقد صاح صوت في الرّجال مناديا

تـــذكّرْ هـــداك الله يـــوم قيامـــةٍ ... به النار تُذكى من لحوم الطّواغيا

أمـا عـرف المـسكين شـدة حرّهـا ... فيـاويح واخُسْراً لمـن كـان عاصـيا

لـئن كـان للإسـلام قـومٌ ودولـةٌ ... فهـــذا أوان للنّهـــوض بـــداليا

فيا ربِّ ياذا الجُود والطَوْل والندى ... ويـــا ربَّ أملاكـــاً عِظامـــاً ثمانيـــا

ويا كامل الأوصاف هبلي شهادةً ... وخـتِّم حيـاتي بالـسرور الموتيـا

ويـــا ربّ علّمنـــي وزدني تعلّـــماً ... وأخلـص همـومي يـا عليماً بحاليا

ويـا ربّ قطّعنـي وفـرّق مفاصـلي ... بجـوف طيـور أو بطـون العوافيـا

ويـا ربّ حاسـبني حـساباً ميـسّراً ... ولا تشوين وجهي بذات الصواليا

ويـا ربّ عـاملني بـما أنـت أهلـهُ ... فـذنبي عظـيم والرّحيـل دنـا ليـا

ويا ربّ فارفع لي مقامي إلى العلى ... فأنـــت كـــريم فـــاجزلن لي نواليـــا

ويـا ربّ إنّي مـن عبيـدك خاضـعٌ ... وقـد ذلّ منّـي كـلّ خـاف وباديـا

أيـا منتهـى حبّـي وغايـة مقـصدي ... أغثنـــي إله الحـــقّ غيثـــاً يمانيـــا

أيـا ربِّ فـاغفر لي ذنوبـاً عظـائماً ... واجـبر أيـا جبّـار كـسر الجنانيـا

أعـــزّ إله الحـــقّ أمّـــةَ أحمـــدٍ ... فقـد سـامها الكفـار ذلاًّ مـصاليا

فـلا حـول عنـدي يـا إلهـي وقـوّةً ... ومـن أنـزل الحاجـات بـالله ناجيـا

فأســـأل ربّي أن تكـــون منيّتـــي ... بعيداً عـن الأوطـان للـشّرك غازيـا

فخذ من دمائي يا سميعاً لـدعوتي ... فـما أطيـب الآلام إن كنـت راضـيا

لئن عَزّ ديني واستبيحت جوارحي فــأين مقــام العــزّ إلا مقاميــا؟
وصـل إله النـاس مـا مـات مسلمٌ على خير من أرسلت للكفر ماحيا
عليــه ســلام الله في كــلّ ليلــةٍ وفي كـلّ يـوم مـن جديـد الزّمانيـا
تمّـت وأدعـو الله يـرحم غربتـي إذا كـان تُرْبَ القبر قسراً وساديا

وقال صاهد الدّعجاني:

جتنـا الركايـب خالـد كازهـا لنـا جتنـا والكـافر مـا هـو ببعيـد
قمنــا بخــوف واســتعنا بــالله في دبــرة الــلي نــزّل التّوحيــد
عـشرين يـوم في أرض الله نمشي في دبــرة الــلي نــشكره ونزيــد
عقّلنــا ثــم مــشينا علــيهم والليـل مقفـي والنهـار جديـد
يــوم المكــاين دنــدنت مــاجنبوا نــادى المنــادى ياهــل التوحيــد
يـا فـزّ قلبـي يـوم ردوا للكَـرَد ثـم جـلّدوهم حـي ذا التجليـد
تجليـدهم في رقـاب دولـة حلمـي العــسكر الــلي فــرّدوا تفريــد
جانـا الـشريف مليّم كـل الـدول مــع دولــة الــسلطان والعبيــد
ختمتهــا وصــلاة عــلى النبــي وعـداد مـا صـلوا صـلاة العيـد

وقال حمد بن زيد:

الحمــــد لله ذي الآلاء مولانــــا حمـداً كثيراً عـلى مـا كـان أولانـا
وأشــكر الله شــكراً لا نفــاد لــه وليس نحصي لذي الآلاء شكرانا
وحــسبنا الله مولانــا وناصرنــا عـلى الـذي رام للإسـلام خـذلانا

قد أتى ابن حسين الوغد في خيلاء بالكبر والفخر والإعجاب سكرانا

على ذوي الدين والإسلام ذا حنق بالغيض والحقد والعدوان ملآنا

يقود جنداً كثير العد ذا عدد كادت تضيق به أفواه ريعانا

بدواً وحضراً وأسقاطاً ملفقة من كل قطر وأتراكاً وسودانا

جاءوا بهول عظيم من مدافعهم مع المكائن تحكي ضوء نيرانا

قد سلسلوا لقدها أصحابها حذراً من أن يفروا إذا وقت الوغى حانا

جاءوا يريدون إطفاء لنور هدى وينقضون من الإسلام أركانا

ويسلبون بني الإسلام دينهم ويلزمونهم يدعون أوثانا

فمن أتى تربة يستدعي جميعهم فمن أطاع له أولاه إحسانا

وظل يقتل من لا يستجيب له وبالشريعة والإخلاص قد دانا

سبى بيوتهم بغياً وهدّمها كما سبا لهمو بالظلم نسوانا

فيا لها محنة تعرضت العباد لها خسفاً ورجفاً وزلزالاً وأحزاناً

خطب به سُرّ من في قلبه مرض وفتحوا أعيناً منهم وآذانا

وميز الله أهل الزيغ أجمعهم وأظهر الله للمرتاب أضغانا

وثبت الله أهل الصدق فيه ولم يزدهم غير تسليم وإيمانا

وهذه سنة في الامتحان مضت حتى يكن أكرم الخلق أرجانا

فبينما نحن في هم وفي كرب كادت تضيق به يا صاح أحشانا

إذ فل عبد العزيز الشهم رايته وجاد في النفس في مرضات مولانا

وسار بالعزم والإقدام مشتملاً بالحزم مؤتزراً ما كان كسلانا

في عصبة من بني الإسلام دينهم يوم التحام الوغى تصريع أقرانا
وحارب النوم مع حلو الطعام ولم يشرب لذيذ الماء لو كان عطشانا
وظل كالأسد المؤذى بغابته له زئير لم يقل غضبانا
حتى أخرج من آذاه في دمه ومنه يخضب أظفاراً وأسنانا
لما شامت به الصدق نيته ونال من ربه أجراً ورضوانا
جاء البشير له بالنصر يخبره وبانخذال الذي قد رام طغيانا
على يدي معشر من جنده صدقوا ما عاهدوا الله إسراراً وإعلانا
رئيسهموا خالداً من كان منتمياً إلى لؤي حليف المجد مذ كانا
أكرم به من أمير صادق وفى بالعهد والوعد لا قدما خوانا
لازال توفيق مولانا يمد له وزاده الله إيماناً وإحسانا
كذا من بالوفى والصدق ساعده أعني به ابن بجاد الشهم سلطانا
مع ساكني الغطغط المستوطنين كذا من في سنام ومن في الرّين سكانا
كذا من كان في صبحاء مسكنه قبائل تنتمي حقاً لقحطانا
قوم لقد آمنوا بالله خالقهم وهاجروا ووقوا إثماً وعدوانا
وجاهدوا في سبيل الله بل صبروا وصابروا لذوي الإشراك أزمانا
تعلم العلم في الإصباح همهم وينقضي ليلهم ذكراً وقرآنا
وجامع الأمرين تطلب لوصفهم نهارهم أُسُد وفي الليل رهبانا
إذ جاء صيتان من عند الخبيث بها يهيج منه قلب ذا الإيمان أشجانا
وقال إخوانكم بالأمس قتّلهم وضل يسبي لأهل الدين نسوانا

فبادروا بالبكا حتى كأنهم ثكلاً أعاد عليهم الدهر أحزانا
ونكسوا الرؤوس فلا ترى لهم إلا النشيج ودمعاً كان هتانا
ثم استعانوا برب الناس خالقهم على قتال الذي قد رام طغيانا
ومن أراد عن الممشى يشبطهم قالوا ما قد سمعت قول صيتانا
جاءوه حفر من الأرض خندقها أعد فيها ديناميتاً ونيرانا
والجند كلهمو للحرب حزبهم وأظهروا من عظيم الكيد أفنانا
فما استكانوا لذاك الهول بل صبروا واستمنحوا الله تثبيتاً وإيمانا
فمذ رأوهم باعوا لله نفوسهم وأعلنوا الذكر والتكبير إعلانا
سلّوا السيوف وبانوا من ثيابهم واستبدلوها سراويلاً وأكفانا
وخالطوهم عباد الله في خنادقهم وأثخنوهم بحد السيف إثخانا
فلما رأوا فعلهم فيهم وصبرهم ألقوا سلاحهم ذلاً وإذعانا
وظل جند الله بالبيض حصدهم حصاد زرع هشيم حصده حانا
وجفت منهم الأرواح وقد خرجت أو هارب في بقاع الأرض هيمانا
لا إنما جملة الأتراك قد قتلوا صاروا طعاماً لغربان ونسرانا
وسوف يأتي نسر الجو مصرعهم والذئب يشبع فيها للحم أزمانا
لم ينج منهم سوى قوادهم هربوا على جيادهم ذعراً لما كانا
وخلفوا خلفهم رغماً مدافعهم مع المكائن مع بر وعقيانا
كذا ذخائرهم صارت وما جمعوا فيئاً يقسم في الإخوان سهمانا
هذا لعمري هو الفتح الذي طلعت به شموس الهدى والشرك قد بانا

فـتح بـه فتحـت أبـصار أفئـدة غلق عليها ظلام الريب قد رانا

فتح به أعين الإسلام قد فتحت فأبـصرت بعـد دمـع كـان هتانـا

فـتح بـه عـاد حـزب الله منتـصفاً مـن الوضـيع عـدو الله قرنانـا

فتح به ارتجفت أرض الحجاز كذا أرض العراق ومن بالشام سكانا

وذلـك مـن فـضل مولانـا ومنتـه العظمى تمهيد عز الدين مذ كانا

أعني حليف التقى عبد العزيز ومن قـد شـاد الـدين والتوحيـد أركانا

فكـان أهـل الهـدى والـدين شيعته وعـضده ولـه جنـداً وأعوانـا

لقـد تـولاهم بعـد هجـرتهم حتـى بنـا لهـم مـدنا وبلـدانا

بنـا مـساجدهم فيهـا وأتحفهـم مـشائخاً كملـوا علـماً وعرفانـا

فعلمـوهم أصـول الـدين أجمعهـا وبينـوا لهـم التوحيـد تبيانـا

وقـد جبـاهم بـأموال وأسـلحة وكـم أنـالهم رفـداً وإحـسانا

وكـان ركنـاً شـديداً في الملمـة لهـم ولطفـه بهـم دينـاً وإيمانـا

أكـرم بـه مـن إمـام عـادل فطـن يخوض نـار الـوغى إن وقتها حانا

كـم فـرج الله كـرب المـسلمين بـه وأذهـب الله بـه أغمامـاً وأحزانـا

قد كان فوق السهى في المجد منزلة وفـاق في الجـود والإقـدام أقرانـا

لا ياراكبـاً فـوق وجنـاء عـذافرة سامت سنيناً لدى الدهنا وصمانا

حـثّ المـسير ولا تـسأم لـشقته واطـو الفيـافي صـاح عجلانـا

إلى الإمام الهمام الشهم من حمدت أفعالـه وحمـى للـدين أركانـا

أبلغـه منـي تـسليماً وتهنئـة أحـلى مـن الـشهد أو مـاء لظمآنـا

ونــاده برفيــع الــصوت مجتهــداً ليهنك بالنصر والفتح الذي كانا
فعش هنيئا مريئاً في السرور وفي عــز ونــصر ولا تخــش خــذلانا
فقــد حبــاك الــه النــاس خالقنــا ملكاً عظيماً وذكراً في الورى كانا
فاشكر إلهك تزدد من فضائله وكــان أفــضاله بالــشكر هتانــا
وخف من الله رب الناس وارض به وراقـــب الله إسراراً وإعلانـــا
ولازم العـــدل فـــيمن توليتـــه واجعل لك القسط مكيالاً وميزانا
وقـــربن ذوي التقـــى وعـــزهم واجعلهـم لـك إخوانـا وخلانـا
واحذر مصاحبة الفساق قاطبة وكـل مـذم ومرتـاب وخوانـا
لا تطلعهم على الأسرار منك ولا تجعلهـم لـك عـمالاً وأعوانـا
إن الخبيـث وإن أبـدى تنـسكه فسوف تبدي له الأيام أضغانا
نقول هذا لكي نبدي مناصحة وأنـــت أعلمنـــا في ذا وأدرانـــا
فاسـمع نـصيحتنا واغفـر لزلتنـا وأول عوراتنـــا سراً وكتمانـــا
هـذا ومنـي سـلام كـما طلعـت شـمس ومـا قمـر مـن أفقـه بانـا
على الإمام رفيع الصيت والدكم نجل الأفاضل الكرام غيث من كانا
أكرم به من أخي عدل حليف تقى لازال غيثـاً بوبـل الجـود هتانـا
كـذا الـشيخ عبـد الله قـدوتنا وصفوة الجيل من شيب وشبانا

قلت: ومن أحسن ما قيل في وصف معركة تربة بعد قصيدة حمد بن زيد السابقة ، هي قصيدة الكفيف العصيمي من أهل (سنام) قالها من سويداء قلبه قد خرجت منه حرّى إذ لم يطق ولم يشترك معهم بسنانه إنّما

نصرهم بلسانه، فقد كان كفيفاً لكنّ قصيدته هذه قد سارت بل طارت بها ركائب الإخوان لجزالتها وحسن وصفها، قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

جسمي هنيّا وقلبي مع الإخوان وانا أحمد الله وقسم الرب راضينه

يا ناقل السيف نقله تو مازاني ياليت منهو حضر به واقتضى دينه

لا والله هل المهيّا ترّك العاني يستنقض العملة اللي بيني وبينه

يا طول ماني بضحك كل ماجاني واليوم كني قذاة وطرت في عينه

سر يا نديبي ترحّل فوق مرمالي من فوقه العصا والخرج شارينه

واسلم وسلم على ابن بجاد سلطاني في الغطغط اللي هل التوحيد بانينه

واهل سنام نهار الهوش ظفراني يسعون بسيوفهم والموت ناسينه

لبسوا معم جديد هبل الأكفاني تبايحوا والكل منهم كاتب دَينه

يازين سدح الزنايج في رماداني قصر خراب هدام طايح طينه

أمطر عليهم مخيل وقت الأذاني وَبْلِه رصاص على الكفار مرخينه

خَلوت عليهم إمام طير حوراني يوم جا يبيهم واثر الإخوان كافينه

وقال مناحي بن غبيشان:

عنها طردنا الترك هم والأشاريف يوم الردي عنها تقافت ظعونه

بارودنا مع السحر له رفاريف يشدي البرّاق تراعد مزونه

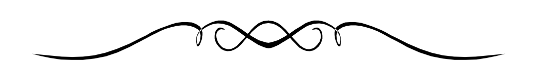
واللي مكذبني ينشد منيف وبين الركب رسمه تشوفه عيونه

راحت مواقفنا على شارع السيف قدامنا العربان ما ياصلونه

ربيطهم يطلق بليّا تخاليف ومن أول قد حالت الترك دونه

وقال آخر:

إن الحسين الذي أبدى عداوته	للمسلمين رأى عقب الوغى ترحا
أزجى الجموع وغرته مكائنه	فباء بالذل مخذولاً ومكتسحا
أتاه قوم إذا اشتد اللقا صُبُرٌ	لا يرهبون شواظ الحرب إن لفحا



الفصل السادس

معارك الحجاز

دخول الإخوان الطّائف، وما قيل عن المذبحة، ودخولهم مكة المكرمة، وجدة، ومدينة النبي صلوات الله وسلامه عليه، وبدر وينبع.

(الطائف)

(أوائل صفر ١٣٤٣)

بعد تربة والريعان اتجه الإخوان للطائف دفعاً لمكائد الشريف وإزعاجه المستمر ومؤامراته ضدهم، والطائف هو بستان مكة ومصيفها وبوابتها الجنوبية.

اختلفت الروايات في من له القيادة في الطائف وتربة، هل هي لخالد بن لؤي أم لسلطان بن بجاد؟ والأقرب أنّها لخالد الّذي لا يكاد يخرج عن رأي سلطان، لكون حديد وثقل جيش الإخوان من أتباعه، ولو قال قائل إنّ الأمارة الشرفيّة كانت لخالد والحقيقيّة كانت لسلطان لقلت لم يبعد. وهذا في تربة والطائف، أمّا ما بعد الطائف فقد بدأت أُحاديّة خالد في القيادة حتى انفرد بها عن غيره. وفي الجريدة الرسمية الناطقة باسم الحكومة (أم القرى) ما نصّه: «لواء أهل الغطغط وأميرهم سلطان بن

بجاد، وهو القائد العام لجميع قوى الجند في الحملة النجدية، ولواء أهل الخرمة وأميرهم خالد بن منصور بن لؤي، وهو الأمير الذي عُيّن للنّظر في المصالح العامّة للبلاد التي فتحت بيد الإخوان»[١] إذن فالأمارة الرسمية لابن لؤي. وعلى كلٍّ فلم يكونا يختلفان في الآراء الكبار، ولم يُنقل أنّهما اختلفا قط، سوى في دخول مكة فكان سلطان متردداً لأنها حرم، ولكن خالداً أقنعه.

أمّا الإخوان أهل الأرطاوية فلم ينم لي خبر عن مشاركتهم في الطائف وما قبلها، ولعلّ ذلك راجع لانشغالهم بمغازي الشمال، فقد شاركوا في دخول المدينة وحائل، والله أعلم. وتكفيهم فخراً وقعة الجهراء، الّتي استبسلوا فيها حتّى النصر ـ المعنوي على الأقل ـ وهو وعد آل الصّباح لهم بتطهير الكويت من الفسق والمعاصي والكفرة، وهي الشروط التي اشترطوها على الكويتيين قبل خروجهم من الجهراء، وقد عددناه نصراً لأن الغرض من الجهاد هو إعلاء كلمة الله تعالى وتطهير الأرض من المعاصي، وقد أعلن خصمهم ابن صباح التزامه بالشريعة ونبذ المعاصي وتطهير الكويت منها، وإن كان في الحقيقة ما وعده هذا إلّا من قبيل المكر والحيلة، لذلك فقد قال الأمير فيصل الدويش لمن لامه وعاتبه على الانسحاب وترك الدخول مع اقتراب قطف ثمرة المعركة، وكان قاب قوسين أو أدنى من ضم الجهراء لحوزة إمامه ابن سعود، فقال:

---

(١) (العدد: ٣ ص٤: عمود:٣) نقلاً عن (إدارة خالد بن لؤي لمكة). ضمن بحوث الكتاب التذكاري. د. عبد الله المطوع.

من خدعنا بالله انخدعنا به، وربما أنه قد حسب حساب البوارج البريطانية الراسية على الساحل الكويتي، والملوّحة بالتهديد في حال عدم الانسحاب، فآثر حقن الدماء والاكتفاء بهذا العهد الغليظ من أمير الكويت على إخراج الرافضة والنصارى والدخان من الكويت! والله أعلم. وقد مدحهم العثيمين بقصيدته:

سلّم على فيصل واذكر مآثره	وقل له هكذا فلتفعل النجب
سيف الإمام الذي بالكف قائمه	ماضي المضارب ما في حده لعب
الساكنين بأرطاوية نصحوا	للدين بالصدق ما في نصحهم خلب
كذاك إخوانهم لا تنس فضلهم	هم نصرة الحق صدقاً أينما ذهبوا
أعني بهم عصبة الإسلام من سكنوا	مبايضاً ولحرب المارق انتدبوا
هم أهل قرية إخوان لهم قدم	في الصالحات التي ترجى بها القرب

أَذِنَ الإمام عبد العزيز للإخوان بالهجوم على الطائف، وكان فيه نجل حسين الأكبر عليّ بجنوده ووزير حربيّته الّلواء صبري باشا العزّاوي معه خمسمئة من الجنود النظاميّين المسلّحين بالرشّاشات والمدافع الجبليّة، وبعض الحرس الخاص لأمير البلدة شرف بن راجح بن فواز، فنفر الإخوان لهذا الهجوم المرتقب، ولمّا أقبلوا على الطّائف قسموا الجيش وقوامه قرابة الثلاثة آلاف إلى قسمين، قسم بقيادة خالد بن لؤي؛ فدخلوا الطائف من جهة الشمال الشرقي من جهة القرشيّة والأخيضر وجليل وشرقرق ومن جهة قصور العرفا والعبيلة، وقسم بقيادة سلطان بن بجاد فدخلوا من الجهة الشماليّة الغربيّة من فوق العرفا، وموعد الجميع قصور

وبساتين شبرا، ومع شروق شمس ذلك الصّباح بدأت غارة الإخوان على الحصون والقصور والثّكنات الّتي دون الطائف، ولم يدخلوا الطائف إلّا بعد الظّهر، وتأخّرت إحدى السّرايا بسبب استعصاء الحصن عليها وهو حصن العرفا، ولم يطل الوقت حتىّ طلبوا الاستسلام، فنزلوا فربطوهم وأسروهم وبعثوهم إلى خالد بن لؤي وأخبروه أنهم في أمان تلك السرية فأطلقهم. وسارت كتائب الإخوان ودخلت الطائف، بعدما جابهت مقاومة شرسة دامت ثلاثة أيام في الحويّة، ثم تراجعت القوّات النّظاميّة إلى الطّائف، ثمّ لم تلبث أن كُسِرت أمام وابل نيران جيوش الإخوان المنصورة وخيلهم العتاق المشهورة، ثمّ انسحب عليّ بن حسين ووزير حربيّته وكبار قوّاده إلى الهدا، ولحقهم الإخوان فيه، ووقعت اشتباكات دامية قبل هروب قوّاد الجيش النّظامي ومعهم جُلُّ الجند إلى مكة، ويقال إنّه عاد للهدا مرّتين بعد إجبار والده له بالرّجوع مع جنده، وفي كلّ مرّة يُكسر وتُغنم ذخائره حتّى يئس وهرب هروبه الأخير.

ودخل الإخوان الطّائف، ثمّ انتشروا في ضواحيه، ومن استمنعهم منعوه من القتل، بل إن من طلب الأمان فإنهم يبذلونه له ويحرسونه، ويوقفون أحدهم على باب بيته حارساً له حتّى لا تخفر ذمّتهم، ودخل الإخوان البيوت وأمروا النّساء بالذّهاب لقصر شبرا حماية لهن ومعهن أولادهن، أمّا الرّجال فمن استسلم سلم، ومن رمى وحارب قتل.

ثمّ أقبلوا على مسجد عبد الله بن العبّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مع العصر، ورأوا القبّة الصّفراء الضّخمة فرموها بالبنادق حتّى هدموها، ثمّ دخلوا المسجد

وقد تحصّن فيه الكثير من أهل الطّائف الذين رموا الإخوان بالرّصاص، فردّ الإخوان تحيّتهم بمثلها، وقتلوا الكثير، واستأسر الكثير، ومن رمى سلاحه لم يُقتل، إلّا من بعض التّجاوزات من بعض الإخوان ــ وسنأتي للحديث عنها قريباً إن شاء الله تعالى ــ.

قطع الإخوان سلك الاتصال مع شريف مكة، فأرسل في اليوم الثّاني طائرة استطلاع، فخافها بعض الإخوان لأنّه لم يعهدها من قبل، فقال أحدهم مقولة خالدة، قال: يا إخوان هذه الطّائرة التي أخافتكم هل هي فوق الله أم الله فوقها؟ قالوا: بل الله فوقها. قال: فتوكّلوا على الله وارموها، فرماها الإخوان من فوق السّطوح فأصابت رصاصاتهم خزّان الوقود ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] فسقطت بعيداً عنهم بقرب مسجد الملك فهد حالياً، وبعضهم يقول: في شرقرق، ولم تنفجر فتداركها الإخوان كلٌّ يريد السّبق بذبح النصراني أزرق العينين أسود القلب والملّة، فهذا على قدميه، وذاك على الخيل، فوجدوا في الطائرة نصرانيّ ــ قيل: إنه روسي ــ ومعه مساعد له. قال سيف بن غضيّان السبيعي: فركبنا إليها فوجدنا اثنين من أهل ساجر قد سبقونا إليها، وذبحوا الطيار ومساعده بشفرات السّيوف. ويقال: بل كان قاتلهما من الغطغط، وقيل: بل قتلهما محسن بن نقوى الثوري، ورجل من العمار من مطير. قلت: والأظهر أن الجميع قد اشترك في قتلهما، والله تعالى أعلم.

لئن قرّب العباد كبشاً وأنعماً وضحوا لمولاهم بعيراً فما ليا؟

فيـا رب فاقبلهـا قـرابين راحتـي فئاماً مـن الكفـار أضـحت بواليـا

خيّم الإخوان في الطائف بعد دخولة نحواً من شهر(١) والشريف قد جمع ذخائره وسلاحه في الهدا، فصبّحُوهم مع الفجر، وبعد أخذ سلاح الشريف ومدافعه نزلو للطائف، فمكثوا فيه عشرة أيام قبل أن ينحدروا لمكة المكرمة مع السّيل كالسّيل.

(معركة الهدا)

(٢٦ صفر ١٣٤٣)

أربعون من أهل الغطغط أسروا رجلاً من ثقيف الهدا، ولا زالوا به حتّى دلهّم على ذخيرة الشّريف التي جمعها في الهدا، فصعد بهم الثقفي حتىّ أراهم الذّخيرة والمدافع والرّشّاشات، ولمّا أصبحوا أغاروا على تلك الكتيبة لكنّ وعورة الجبل حالت دون وصولهم في الوقت المناسب، وكان من خلفهم مدافع رشّاشة لم ينتبهوا لها، فحصدتهم المدافع الرّشّاشة حصداً رحمهم الله ولم يَنْجُ سوى واحد من أولئك الأربعين، وهو مقعد الدّهينة. وبعد ذلك صعدت بعض الكتائب الإخوانية فهرب من كان هناك من جند الشريف وغنم الإخوان سلاحه ومتاعه.

---

(١) ومن الطرائف؛ أنّ أحدهم لمّا دخل أحد القصور ليطهّرَه من القنّاصة، تفاجأ برجل أمامه فرفع عليه السيف فضربه بها فإذا سيفه بالجدار، وبينما هو في حيرته، إذ بضحك أحد الإخوان من خلفه فأخبره أنّ التي أمامه مِرْآةٌ تعكس صورته! والبعض كان يأكل ثمر الموز والبرشومي بقشره إذ لم يعرفه من قبل.

إشاعة مذبحة الطّائف وخلفيّاتها

نادى الإخوان في أهل الطّائف لمّا دخلوه: من خرج من بيته ووضع السّلاح فهو آمن، وفعلاً وَفَوا بالعهد الّذي قطعوه على أنفسهم، فلم يغدروا كزعم المفترين، ولم يقتلوا النّساء والصّبيان كإفك الكذّابين، ولم يُحرقوا القرى كفعل التّتر الهمجيّين، بل كلّ ذلك كذب ومَيْنٌ صريح، وإفك وبهتان قبيح، وما ذاك ـ عند البعض ـ إلّا لينفّروا الناس عن دعوة الإخوان السّلفيّة، ويلوّثوا ما استطاعوا من سمعتهم السّامية الذّهبيّة.

وعلى كلٍّ؛ فلعلّ من المستحسن محاولة إجلاء أحداث ذلك اليوم، فلا يزال الكثير من الناس يظنّون بالإخوان ظنّ السّوء، ولعلّهم أُخذوا كما أخذ غيرهم بالدعاية السيئة الإعلامية، بما سمّوها بالمذابح والمجازر الوحشيّة للإخوان في الطائف، مع ظنّي أنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث والتحرّي والتقصّي، وتمحيص الأخبار، والتنقيب عن الحقيقة، وفي النفوس ميل لحب التظلّم ولبس قميص يوسف، ولو بغير حق، ولأن تخطئ في العفو خير من أن تخطئ في العقوبة، وليس من العدل سرعة العذل.

وعلى كل حال؛ فنكء الجراح أحياناً في صالح المريض، إذا كان لإزالة الأذى، وكلّنا جسد واحد، وأمّة واحدة، وجرحنا واحد، وإن تأذّى منّا أحد فهو عضو من جسدنا، والجرح يظلّ ناغراً ـ أي مليئاً بالأذى ـ إذا بقي دفيناً تحت ركام الأقاويل، ورصف الأخبار، واختلاق القصص، عبر

سراديب الزمان.

فَـإِنَّ الجـرح يَنْغـر بعـد حـين إذا كـان البِنَـاءُ عـلى فَـسَادِ

والصراحة دواء ما غبّه الكتمان!

ولسائل أن يسأل وحُقّ له: ألم يحدث في الطائف مذبحة أصلاً؟

والجواب: هو أنّ النّاظر لهذه المسألة لابدّ أن يحيط بجميع خلفيّاتها، ووضعها، ومن يقف وراء نشر دعايتها.... لذا فنقول:

إنّ الطّائف قد حدث فيه قتل كباقي المغازي، اللّهم إلّا من بعض الزّيادة والتّجاوز في مسجد عبد الله بن العبّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ولهذا جواب، وقبل أن نذكره نحبّ أن نبيّن: أنّ الإخوان في مغازيهم وقبل دخول أيّ بلد كبير يصيح بينهم رجال من قِبَلِ أميرهم يذكّرونهم بالنّهي القاطع الحاسم عن قتل أربعة نفر: المرأة والطّفل والشّيخ الكبير والمريض، وكانوا ملتزمين بهذا الأمر، فإن وُجِد خلافه فهي حالات فرديّة لا يكاد يسلم منها جيش بحجم الجيش الكبير الّذي ضمّ العديد من الكتائب والرايات، من كلّ حدب وصوب، مختلفة المشارب غير متساوية في نسبة التديّن، مع ضميمة حضور الشيطان عند الغنائم، أو العُجْبُ بالكثرة، أو صَوْلَةِ الحرب... أو نحو ذلك، ويعلم ذلك من قرأ حروب المدن في هذا الزمان وما قبله من الأزمنة، ماذا تفعل الجيوش الفاتحة إذا دخلت مدينة عَنْوَةً؟ أهي تدخل وتوزع التّحايا والابتسامات؟! أم تنثر الرّصاص والمتفجّرات، وتُعلّق الأبناء على المشانق وتُلحق بهم الآباء والأمّهات؟!

وقارن بين دخول الإخوان للطّائف وبين فتح أي دولة من الدّول لمدينة من المدن كانت حصينة منيعة وقد قتلت العديد من الجند الغزاة، ثمّ يدخلها الجيش الغازي عَنْوَةً! ثمّ بعد ذلك تعال إلى إخواننا وحاسبهم.

مع هذا كلّه فهؤلاء الإخوان بشر من البشر يخطئون ويصيبون، بل يذنبون ويعصون، وهم ـ مع ظاهر صلاحهم وصدقهم وزهدهم ـ ليسوا بأفضل من سلفهم صحابة رسول الله ﷺ ـ مع الفارق الكبير ـ الّذين قال الله فيهم: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [النساء: ٩٤] وحيث وجد الإنسان فَثَمَّ أخطاء وذنوب، وكلنا ذوو خطأ، لذلك فالطائف قد حدثت فيه مآسي وتجاوزات مريرة من بعض الإخوان، ولكن نقول: إن ذلك لم يحصل إن شاء الله عن ممالأة أو رضى من علمائهم وأمرائهم وكبارهم ومقدميهم، بل هي أخطاء فردية محضة، وقد يكون لها عدة محامل لا تتبين لنا في ساعتنا هذه، وسيتحمّل كلّ امرئ ما جنته يداه، والمعافى من عافاه الله، خاصة من الدماء المعصومة، والله المستعان.

إلى ديّان يوم الدّين نمضي وعند الله تجتمع الخصوم

وللتّلخيص نقول: إنّ مجمل الردّ على دعاوى ومزاعم قتل الإخوان للنّساء والأطفال والشّيوخ والعزّلِ الملقي السّلاح، والغدر بهم والفتك....إلى آخر تلك القائمة التي تزيد بعدد ناشريها ككرة الثلج المتحدّرةِ من قمم الهمَلَايا أو الألب. ومن علامات السّاعة: «**ثم يفشوا**

الكذب»[١] وفي الصحيح: «**والرّجل يكذب الكذبة فتبلغ الآفاق**».

عليه فنقول إنّ هذه المزاعم لا تخرج عن ثلاثة أقسام:

القسم الأول:

كذب صريح، ومَيْنٌ قبيح، وبهتان سفيح، لم يصح منه شيء جملة وتفصيلاً، كالزّعم بغدرهم بالنّاس لمّا استأمنوهم، وكقتل الصّبية وأمّهاتهم، وبقر بطون الحوامل، وإحراق القرى بأهلها! لكن كما قيل:

لي حيلة في من ينم ... وليس لي بالكذاب حيلة
من كان يخلق ما يقول ... فحيلتي فيه قليلة

وهؤلاء كأنّما عناهم طُرَيحٌ الثقفي بقوله:

إن يعلموا الخير يخفوه وإن علموا ... شرّاً أُذيع وإن لم يعلموا كذبوا

القسم الثاني:

أخبار صحّ أصلها لكن زِيد فيه ونُقص، وحرّف وبدّل عن وجهته حتّى صار شبيهاً بما قبله، وذلك كزعمهم شناعة القتل الذي حصل في مسجد عبد الله بن العبّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ووصف الجثث بأنّها فوق بعضها البعض من كثرتها، وأنهم جمعوهم وهم عزّلٌ ثم قتلوهم إلى آخر تلك الأكاذيب التي يأنف المنصف من قبولها بعد عرضها على شهود الحال وواقع الحدث.

---

(١) رواه البخاري من حديث عمران، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

القسم الثّالث:

أخبار صحيحة في القتل، وهي قليلة بالنّسبة لضخامة الجيش، وعدد المقاتلين، وصعوبة حرب المدن، والرّمي من خلف متاريس الشّوارع، والحاجة لإسكات مصادر النّيران النّازلة عليهم من فوق البيوت ونحو ذلك، لكنّها بحمد الله تُعَدُّ من النسب العاديّة، بل والمنخفضة مقارنة بغيرها من حروب المدن، والعسكريّون يقدّرون ذلك، ويعرفون صعوبة السّيطرة والتكتيك الآني والتّنظيم وتطهير الجيوب، مقارنة بحرب الصّحراء المكشوفة، ويقال: إنّ جميع القتلى في هذه المعركة المصيريّة كان ثلاثمئة بما فيهم قتلى مسجد عبد الله بن العبّاس رضي الله عنهما، وقديماً قيل: كم سامع بِجُرمي لم يسمع بِعُذْري!

ولإنصاف التاريخ نقول: إنّ الإخوان لم يُنكروا أنّه قد حدث في المسجد قتل، بل وتعدّي، ولكن لهم أجوبة، والعادل من يسمع الخصمين قبل الحكم بينهما.

فمن ردودهم:

أوّلاً: أنّه قد اندسّ بينهم بعض أهل الطّائف ممّن كان بينهم وبين جيرانهم أو معارفهم إحن وثارات، فاستغلّوا المعمعة فقتلوا خصومهم، وقد سمّوا بعض أولئك.

ثانياً: أنّ الإخوان لمّا دخلوا المسجد لم يكن في خلدهم إلاّ أنّه آمن، فدخلوا من أجل هدم القبّة الموضوعة على قبر عبد الله بن العبّاس

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فلم يرعهم إلّا سحق الرّصاص لأوائلهم الّذين دخلوا قبلهم، ولمّا تبيّنوا الأمر واستجلوا الحدث على عجل وجدوا أنّ هناك إطلاقاً للنّار عليهم من خلف سواري المسجد فلم يمكنهم السّكوت والتراجع، بل بادروا بالدّفاع عن أنفسهم وقتلوا من قاتلهم وَقَتَلَ إخوانهم، وربما هنا قد وقع التجاوز من بعض من وترهم ثأر إخوانهم الصرعى أمامهم، أو من الجهلة الذين تجاوزوا الحد فقتلوا من لا يحل قتله.

ثالثاً: أنّ بعض من كان في المسجد كان يصيح ويستغيث بابن عبّاس من دون الله ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٥٦] فثارت ثائرة الموحّدين إنكاراً لهذا الشرك الأكبر البواح، فأنكروا ذلك عليهم بالسّيف لمّا رأوا صاحبه مباح الدّم بشركه ووثنيته. «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله...**»(١) ولو أنهم أسروا من فعل ذلك وعلّموه وأقاموا عليه الحجة، وأحالوه للقضاء لكان خيراً، ولكن سبق السيف العذل.

رابعاً: كان هناك تجاوز من بعض الإخوان، ويقال إن ذلك كان من مجموعة مقاتلين كانت الطائف أوّل مغازيهم مع الإخوان، فحدث ذلك التجاوز الّذي لا نبرئُ الإخوان منه بل نقول إنّه قد وقع، وهو منكر كبير، ومعصية عظمى، وكرع في الدم الحرام، فالدم المعصوم عظيم الشأن عند الله تعالى، وإهراقه بلا مسوّغ من الشريعة حقيق بتعزيز فاعله، وعقوبة

---

(١) رواه البخاري عن ابن عمر، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

مرتكبه، ولكن لا نضخّم الأعداد الّتي قُتلت بسبب هذا التّجاوز!

وصدق النابغة إذ قال:

فَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخاً لَا تَلُمْنَهُ   عَلَى شَعَثٍ أَيُّ الرِّجَالِ الْمُهَذَّبُ؟

ونحن نرجو الرحمة لكل من آمن بالله واليوم الآخر من هذه الأمة المرحومة، ونرجو لهم الرحمة والمغفرة وأن يجعلهم من الذين قال عنهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ١٦]

وقديماً قال الشاعر:

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلّها   كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه

وقال الآخر:

وإذ الحبيب أتى بذنب واحد   جاءت محاسنه بألف شفيع

فهؤلاء الإخوان الذين تجاوزوا في الطائف أو بوادي مكة كما أسلفنا يخطئون ويصيبون، وخطؤهم مردود عليهم بلا تردد، ولا نقبله. ولعل نيتهم كانت سليمة، وإرادتهم خالصة. ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ألائمَ الإخوان! أقصر   رب عيب منك فيكا

ولا يمنع أن يكون قد خالط الإخوان بعض الخُوّان الذين أظهروا

التديّن وأبطنوا عوائد البادية من سلب ونهب! أو رغبوا الدين لكنهم تعجلّوا الدنيا! فقد تكون لتلك المطامع عوالق في نفوس بعضهم ممن لم يصل الإيمان بشاشة قلبه، وحشاشة فؤاده، والظن أنهم كانوا قلة. والتجاوزات الظالمة لبعض أفرادهم نظن أنها ليست على ملأ من أكابرهم من علمائهم وأمرائهم الذين لم يكونوا يتساهلون بشأن تجاوزات أتباعهم، بل يسوسونهم بالحزم والعقوبة في صغير الأمور دعك من جليلها، لذا فلا ينبغي أن تعمم التجاوزات عليهم ولا أن تجعل سمة لهم، وكيف يرد مُعَمِّمُ الخطأ والذنب على مجموع الإخوان اتهامات وإيرادات الصليبيين والملاحدة ضد الإسلام بتعميم أخطاء بعض أتباعه على مجموع الأمة المحمدية المهديّة؟!

وسيعيد الله كلاً منهم   وسيجزي فاعلاً ما قد فعل

قال بعض الحكماء: أول مدارج الخطأ التعميم في الحكم.

وهناك فرق بين من أخذ موقفاً عدائياً من الإخوان لأشخاصهم وبين من اتخذه من دعوتهم السلفية التجديدية عن طريق لمزهم أو اتهامهم بالخروج أو الغلو، ونحو تلك الاتهامات، ثم طبع الدعوة بتلك التهاويل.

قال رب العزة سبحانه وبحمده: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ﴾ [المائدة: ٨].

إذا أنت لم تنصف أخاك وجدته   على طرف الهجران لو كان يعقل!

قال ابن حزم رحمه الله: «من أراد الإنصاف فليتوهم نفسه مكان خصمه، فإنه يلوح له وجه تعسفه».

ومن ثلاثية عمّار رضي الله عنه: «الإنصاف من نفسك»(١).

وهذا الخطأ والذنب من بعضهم ينبغي أن لا يُعالج بالتضخيم، وإدارة الآلة الإعلاميّة ضدّهم، وتهييج النّاس عليهم، واختلاق الأكاذيب في شأنهم، والّذي حمل كِبْرَ نشر وإذاعة هذه المزاعم هما الشريف حسين والإنجليز، فالشّريف جمع الناس في الحرم في مكة صبيحة ذلك اليوم أو بعده بقليل، ثمّ نصب منبره وخطب فيهم وافترى، وزوّر الأكاذيب، ونشر القالة التي تلقّفها الرّعاع، وطارت بها الطّغام، بل تعدّت ذلك للكثير من منتسبة العلم، وكتب في جريدته القبلة وسوّد الصفحات بقلمه الأثيم في ذِكر ونَشر مزاعمه، علّها تفيده وأنّى له، إنّما هو تشفٍّ بالكذب والبهتان وتلك حيلة الضّعفاء. وبحمد الله تعالى القائل: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن

---

(١) رواه البخاري، وقال ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد مبيّناً أنواع الإنصاف: «رابعاً: إنصاف العباد: يُقصد بإنصاف العباد أن يقوم المسلم بإنصاف الغير من نفسه أو ممن يحب، حتى لو كان هذا الغير مخالفاً له في الرأي، أو في الدِّين، أو في المذهب أو غير ذلك مما يقتضي التحامل، أو يكون مظنة للجور، ومن الإنصاف ألّا تحمّلهم فوق وسعهم، وأن تعاملهم بما تحب أن يعاملوك به، وأن تعفيهم مما تحب أن يعفوك منه».
وفي سنن الترمذي رحمه الله: «**أحبب حبيبك هوناً ما عسي أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما عسي أن يكون حبيبك يوما ما**». جوّد الألباني رحمه الله سند رفعه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، والأصح وقفه على علي رضي الله عنه.

تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۚ ﴾ [البقرة: ٢١٦] ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩] فقد كان لهذه المفتريات فائدة نفيسة للإخوان لا تقدّر بالدنيا وما عليها، وهي أنّ أهل مكة خَلَعَ قلوبهم الخوف، فتركوها ورحلوا إلى جدّة، ومن بقي فقد لزم بيته مسالماً، فدخل الإخوان مكّة بدون رمية رصاص واحدة، فلله الحمد والمنة.

أمّا الإنجليز فقد شكّلوا جبهة أعلاميّة مضادّة للإخوان، حيث شبّهت وكالة (رويتر) تلك الحرب بالترية، وتلقّفتها جريدة (المقطّم) في مصر المملوكة للإنجليز، كذلك (التايمس أُف إنديا) في الهند، واستقدمت السّلطات البريطانية هنوداً لليمن ليلقوا محاضرات عن فظائع الوهّابيّين زعموا!

فلا تحلف فإنك غير بَرٍّ　　　وأكذب ما تكون إذا حلفتا

ومن افتراءاتهم بهتانهم بالقول: أنّهم رأوا الإخوان يرمون قبر النبيّ ﷺ بالنار! وأنّ الإخوان في الطّائف طلبوا من رجل حريمه فلـمّا أبى قتلوهنّ وأتبعوهنّ إيّاه! وغيرها من الأباطيل التي انطلت على الكثير بكلّ أسف. سبحانك هذا بهتان عظيم ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ ﴾ [يونس: ٣٩] ــ والناس أعداءٌ لِماَ جهلوا ــ ونشروا أكاذيب الحسين وضخّموها، ونشروها في كلّ مستعمراتهم الّتي تحوي مسلمين، فشاعت الأكذوبة، وطار الإفك، وانتشرت القالة انتشار النّار في هشيم الزرع، وصدّقها أكثر

النّاس إلى اليوم والله المستعان، وعند الله تجتمع الخصوم.

أمّا من دخلت بشاشة التّوحيد قلبه من المعاصرين، وانطبع بالإنصاف خلقه؛ فلا يسعه إلّا الدّعاء للإخوان الّذين أعادوا التّوحيد غضّاً جذعاً في البلاد والعباد. والله تعالى يقول: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤].

ومن باب: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف: ٢٦] فقد قال (ديكسون) كما في كتابه (الكويت وجيرانها): «رغم أن الكثير قد كتب عن قسوة الإخوان، وإرهابهم، إلاّ أنّني يجب أن أقول اليوم: إنّ هذه الصّورة قد بولغ فيها عن قصد وتصميم، لخدمة أهداف سياسيّة في ذلك الوقت». والحق ما شهدت به الأعداء.

وقال مؤلف كتاب (توحيد الجزيرة): «أخبرني أمير الطّائف نفسه: أنّه لم يُذبح في المدينة إلا الحامية وبعض أهل المدينة الذين حاولوا المقاومة، أمّا القصص المرعبة فقد روّجها رجال الشريف». أفلا تكفي المنصف هذه الشهادة من أمير الطائف، وذلك الاعتراف من ديكسون؟!

قلت: وقد جمعني مجلسٌ فيه أربعة رجال مثقّفين متعلّمين أقلّهم الجامعيّ، وأحسبهم من العقلاء المنصفين، من قبائل مختلفة من الطائف، وكلّهم أجمعوا على فضل الإخوان عليهم وعلى أهليهم، ولم يحملهم ما سمعوا من أمور على إنكار فضلهم. وذكروا أخباراً وقصصاً عن أهليهم الذين كانوا في الطائف وقُرَاهُ من حوله، والشّركِ الذي كان عندهم،

والبدعِ والمحدثاتِ التي ضربت بجرانها بلادَهُم، حتّى طهرتها أيدي الموحّدين المتوضّئة الموحّدة، فرحمهم الله رحمة الصّديقين والمجاهدين والأبرار، وشكر الله أولئك المنصفين الأخيار، والخير من معدنه لا يستغرب.



دخول مكّة شرّفها الله تعالى وحرسها
(١٧ ربيع الأول ١٣٤٣)

لا نجزم هل كان دخول مكة كان قراراً من قبل الإخوان، أو كان بإيعاز من إمامهم. ويرجح الدكتور عبد الله بن محمد المطوع أن ذلك كان بأمر من الملك عبد العزيز: «فقد دعا في ذي الحجة عام: (١٣٤٢) إلى مؤتمر في الرياض ترأسه الإمام عبد الرحمن بن فيصل وحضره العلماء وأمراء البلدان وزعماء الإخوان ورؤساء القبائل، فتوصل لقرارات كان أهمها: أنه لابد من أداء الحج سواء بالطرق السلمية أو العسكرية، ونتيجة لذلك أوعز الإمام لجنده الإخوان بالفتح»[1] مرض القائد سلطان بن بجاد بعد دخوله الطّائف، ونزل قصر عبد الله الباشا ثمّ إنّ الإخوان انحدروا من الطائف لمكة، وجعل سلطان مكانه في القيادة علّوش بن خالد بن حميد، ومعه ستّمئة من الغطغط.

---

(١) كما في كتابه (إدارة خالد بن لؤي لمكة). ص (١٨٢). وقد ذكر الألوسي رَحِمَهُ اللَّهُ في تاريخه ص (٣٨) شيئاً من أخبار الإخوان في مكة المكرمة.
قال أحد الإخوان: إن الإخوان ضبطوا رسالة من الملك عبد العزيز لشريف مكة وهم على مشارفها، وإذا فيها: «إنه ليس براض عن فعل الإخوان، ولم يساعدهم»! وهذا ـ إن صحّ ـ فلعلّه من قبيل الخداع والمكر بالشريف. وعلى كل حال فلو ثبت هذا فهو مؤشر سلبي غير مريح، ولكن الأصل في المسلم السلامة، وهذه الرسالة لم تثبت خاصّة وأن راويها قد اختلف كلامه في الآخر، والله أعلم.

وأبــرح مــايكون الــشوق يومــاً　　إذا دنــت الخيــام مــن الخيــام

وقبل دخول الإخوان مكة نزلوا (الزيمة) وظلّوا فيها ثلاثة أيام، وبينهم وبين أهل مكة مناديب يُؤَمِّنُون أهل مكة، قال علوش بن محمد العتيبي رحمه الله لما سُئل: هل كان بين خالد بن لؤي، وسلطان بن بجاد، خلاف في دخول مكة؟ فقال: إن سلطاناً قال: يا خالد حرم! فقال خالد: يا سلطان ثق بأنه لن يكون فيها قتال بإذن الله تعالى، فنزل الزيمة فكانت الوفود تأتيه فيها فتبايعه، ويعطيهم الأمان قبل دخول الحرم. ثمّ إنّ خالداً لما دخل مكة نزل في قصر الشريف حسين، وجعل لأهل مكة الأمان.

جاءت وفود من أهل المعابدة والحجون والحرّث الأشراف أهل المضيق، وقالوا: إنّ الشريف هرب للبحر ــ أي جدة ــ واجتمع وجهاء الحجاز في جدة، وطلبوا من الملك حسين التخلي عن ملكه لابنه البكر (علي) فوافق بعد مماطلة، ثم بويع الأمير علي بن حسين ملكاً على الحجاز في الخامس من ربيع الأول عام: (١٣٤٣).

وانتقل ابن لؤي إلى مكة في اليوم التالي، ثم عاد إلى جدة بعد عشرة أيام، وبعد رحيله إلى جدة بيومين دخل الإخوان مكة بطريقة سلمية بدون إراقة دماء لتبدأ البلدة المقدسة ــ بكّة ــ عهداً جديداً من تاريخها المجيد، ولمّا كان الإخوان في طريقهم إلى مكة اعترضوا وفداً من قبل علي بن الحسين، كان قد أرسلهم للرياض لمفاوضة الإمام فقبضوا عليهم وعلموا بأخبار مكة، ثم إن الأمير خالد بن لؤي دبّر حيلة؛ حيث سهل لأحدهم

الهرب ليلاً بدون أن يظن ذلك الرجل ما دُبِّرَ له، فهرب في جنح الليل، ثم صاح في الأبطح وأنذر أهل مكة الذين هربوا من فورهم لجدة، وخلت البلدة من المقاتلة، فجنب الله تعالى الإخوان وأهل مكة سفك الدماء في بلد الله الحرام.

ودخل الإخوان مكة المكرمة محرمين ملبّين مهلّلين حامدين شاكرين.

وأرسل خالد في الصباح خيّالة من الإخوان، منهم عبد المحسن بن رجا بقيادة ابنه سعد بن خالد، ليعلنوا في الناس الأمان، وأنّه لا قتال في مكة ولا فتك، ووصل الإخوان مكة، وكان الحميدي بن مفرح هو أوّل فارس دخل مكة على (سودة) فرس لعمّه خشمان، وأخذ الحميدي يصيح في النّاس بالأمان حتّى أدركته مجموعته، واستفتى بعض الإخوان مشائخهم في حملهم السّلاح وإنزال أفواه البنادق إلى الأرض، بحجّة أنّهم قد يحتاجون للدّفاع السّريع عن أنفسهم، فزجرهم علماؤهم عن ذلك،كابن داود والشّاوي، وقالوا لهم: لا تحملوا السلاح في أيديكم البتّة، فمكة حرامٌ يوم خلق الله السّماوات والأرض. وقالوا لهم: كيف نحرم وليس معنا لباس الإحرام؟ فقال: أخرجوا أيديكم اليمنى من أكمامها دون اليسرى، أفتى لهم بذلك شيخهم عبد الرحمن بن داود.

ثمّ دخلوا مكة وأسرعوا للكعبة، يغضّون الخطا متلهّفين مشتاقين للبيت العتيق الذي لم يسبق لكثير منهم أن اكتحلت به عيناه، فقد منعهم الشريف من مكة من اثنتي عشرة سنة.

وقد كشفوا تلك الرؤوس تواضعاً لعـزة مـن تعنـو الوجـوه وتـسلم

يهلـــون بالبيـــداء لبـــيك ربنـــا لك الملك والحمد الذي أنت تعلم

دعـــاهم فلبـــوه رضـــى ومحبـــة فلـــما دعـــوه كـــان أقـــرب مـــنهم

تراهم على الأنضاء شعثا رؤوسهم وغـــبرا وهـــم فيهـــا أسر وأنعـــم

وقد فارقوا الأوطان والأهل رغبة ولم تثـــنهم لذاتهـــم والتـــنعم

يـسيرون مـن أقطارهـا وفجاجهـا رجـــالا وركبانـــا ولله أسلـــموا

ولمـا رأت أبـصارهم بيتـه الـذي قلـوب الـورى شـوقاً إليـه تـضرم

كأنهـــم لم ينـــصبوا قـــط قبلـــه لأن شـــقاهم قـــد ترحـــل عنهـــم

فللـــه كـــم مـــن عـــبرة مهراقـــة وأخـــرى عـــلى آثارهـــا لا تقـــدم

وقد شـرقت عين المحب بدمعها فينظـر مـن بـين الـدموع ويُـسجم

إذا عـــاينته العـــين زال ظلامهـــا وزال عـن القلـب الكئيـب التـألم

وكان الكثير من أهل مكة قد هربوا لجدة، وتراوحت أعدادهم بين خمسة آلاف وخمسة عشر ألف، جلّهم عادوا لمّا سمعوا بعدل خالد بن لؤي. وأنزل ابن لؤي جيشه بالأبطح بعدما طافوا وسعوا، وبقدوم خالد والإخوان امتلأ الفراغ السياسي والأمني الذي أحدثه خروج الملك علي، واطمأن الناس بعدما بادر بعض البادية من خارج مكة بالنهب والسلب حتى زجرهم خالد.

ويُذكر: أنّ بعض الأعراب من بادية الحجاز القريبة من مكة – قبل وصول الإخوان ـ أرادت اغتنام الفرصة بالسلب والنهب فقام فيهم حمزة

الفعر الشريف، وحذّرهم من ذلك ونهاهم عنه وتهدد وتوعد فكان مقامه ذلك مشكوراً، فقد كان سبباً في طمأنة الناس وتأمينهم، وتخويف اللصوص من سيف العدالة[1].

ثمّ أرسل الإخوان البشير للإمام عبد العزيز، قال علي الناقول رَحِمَهُ اللَّهُ: جئناه وهو في القويعيّة، وبشرناه بدخول مكة فقال: وليتوا مكة؟ قلنا: نعم. قال: قولوا والله. فقلنا: والله لقد ولیناها وطفنا بالبيت سبعاً! فضرب الإمام يده على صدره وقال: صدّق يا قلبي، صدّق يا قلبي. ثمّ كسانا وأعطانا الكرامة والبشارة، وتجهّز راحلاً لمكة. ثمّ إنّ الملك عبد العزيز جاءهم بعد نحو الشهر وقيل بنحو أسبوع، ورجّح الدكتور المطوّع أنّه بعد واحدٍ وخمسين يوماً، أي بتاريخ الثامن من جمادى الأولى (١٣٤٣).

وكان خالد بن لؤي أميراً مستقلاً، حتّى قدم إمامه، ثم أقرّه الإمام على الإمارة قرابة ستة أشهر فتمت له ثمانية أشهر وستة أيّام على مكة، حتى خلفه عليها الأمير محمد بن عبد الرحمن الفيصل في (٢٣) ذي

(١) ذكّرنا فعل حمزة الفعر بفعل سهيل بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ــ مع الفارق ــ لمّا ارتدّت العرب بعد وفاة النبيّ ﷺ، فقام سهيل بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مكة، وكان خطيباً مفوّها بليغاً، وحذّر النّاس من الردّة، وتوعّد وهدّد، فظن النّاس أنّ هناك قوّة كبيرة تقوم معه، فلم يحدث في مكة ردةّ كما حدث في غالب الجزيرة، وقد كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد استأذن رسول الله ﷺ في نزع ثنيّتيه، فقال: (دعه، فلعله يقوم مقاماً تحمده عليه) أو كما قال، فكانت هذه نبوءة من دلائل النبوّة.

القعدة (١٣٤٣) فدام عليها أميراً حتى قدم نجل الإمام الأمير فيصل بن عبد العزيز[١].

وحينما أقبل الإمام على مكة عند آبار المصلوم استقبله كتابٌ أرسله له خالد بن لؤي، وفيه خطاب من سفارات الدول العظمى في جدة لخالد بن لؤي وسلطان بن بجاد: أنّهم على الحياد من حربكم للشريف، وأنّهم قد قد تفهّموا الوضع الحالي، بشرط عدم المساس برعاياهم. ففرح الإمام عبد العزيز فرحاً شديداً، لأنّه كان يحسب الحسابات للدول الأخرى ويخشى من تدخلها في الحرب، وروي أنّه سجد شكراً لله تعالى من هذه البشارة.

واستقبله الإخوان بالإبل العظيمة، يسوقها ناصر الحارث من قبل خالد بن لؤيّ. ثمّ خيّم الإمام عند (العدل) ولم يدخل مكة مباشرة، ويُذكر أنه قال لخالد ـ متواضعاً ـ: يا خالد أنت أحق منّي بمكة أنتم أهل بيت النّبوّة. فقال خالد: بل أنت إمامنا والله ربّنا.

وفي عهد إمارة خالد لمكة ثار حيّان من أهل تهامة ومعهم أحد كبار الأشراف، والتمّت عليهم القبائل في مكان بين جدّة واللّيث، فوجّه لهم خالد كتيبة قوامها ألف مقاتل فصبّحتهم الكتيبة فأضحوا كأمس الدابر. ويقال إنه قد حدثت تجاوزات من بعض الإخوان في ذلك اليوم والله أعلم.

---

(١) (إدارة خالد بن لؤي لمكة للدكتور د.المطوع): (٢١٢).

ثمّ أرسل خالد سريّة لعسفان فضمت تلك البقاع للولاية الجديدة.

كلّ هذا قبل وصول إمامهم عبد العزيز الذي نزل قصر السقّاف، وبعد أيّام من وصوله مضوا معه إلى جدّة.

وقد أبطل الإخوان المنكرات في مكة المكرمة، فقد هدموا القباب التي كانت في المعلاة وغيرها، ومنعوا شرب الدخان في المقاهي والأسواق، وشددوا على ذلك كثيراً،ووحّدوا الإمامة في المسجد الحرام؛ فأبطلوا عادة وجود أئمة أربعة من المذاهب الأربعة يصلون في الحرم وكلٌّ يصلي خلف إمام مذهبه، وبعد مجيء الإمام عبد العزيز؛ أعاد الأمر كما كان مدة، ثم عاد لرأي الإخوان فوحّد الناس خلف إمام واحد ــ وهذه هي السُّنّة ــ وأوجب الإخوان على الرجال القادرين صلاة الجماعة، ومنعوا السب والشتم في الشوارع والأسواق، وأبطلوا الأذكار المبتدعة بعد الأذان من المؤذنين، ولمّا نصب الجاوة خيمة للاحتفال بالمولد النبوي طردهم الإخوان وهدموا خيمتهم علماً بأنهم لم يضربوا منهم أحداً ولم يشتموهم.

وقد صودرت بعض الدور؛ كدور الحكومة، وقصر الشريف، وقد اشتراه عبد الله الجفالي في المزاد بست مئة ريال، وبيعت بعض بيوت الأشراف في المزاد كذلك، وبعد هدوء الأوضاع أمر الإمام عبد العزيز بإعادة منازل الأشراف، وسمح لمن يرغب ببيعها وتحويل قيمتها للخارج.

ولما طرأت مشكلة حول قيمة العملة المتداولة في الأسواق؛ حيث تعرضت للهبوط بسبب أوضاع الحجاز الاقتصادية السيئة، تدخل الأمير

خالد وأمر بتخفيض قيمة النقود المتداولة إلى نصف قيمتها الأصلية وألغى الأجزاء الصغيرة منها[١]. وجاء أحد التجار لخالد وعرض عليه أن يجمع الرسوم من أموال أسواق الخضار نظير مبلغ مقطوع، فقال: أتعهد لكم بدفع عشرين ألف مجيدي في كل شهر؛ على أن تضمنوني ثلاث حلقات؛ المسفلة وجرول والمعلاة، فقال خالد: والله لا أقبض من مكة ريالا واحداً، بل أبرأ من عهدتها[٢]. رحمه فقد كان مثالاً في الزهد والورع.

قال الشيخ محمّد بن عثمان الشّاوي الدّهيمي البقمي، من شيوخ الإخوان، حامداً الله تعالى ومهنّئاً المسلمين وإمامهم بدخول الطائف ومكة المشرفة:

لك الحمد اللّهم يا خير واهب ويا خير مرجو لنيل المآرب
ويا خير من يرجى لكشف ملمة ويا خير من يسدي العطا والمواهب
لك الحمد حمداً يملأ الأرض والسماء ويملأ مابين الثرى والكواكب
لك الحمد كل الحمد إذ أنت أهله على نعم تربو على عد حاسب
على كبت أحزاب الضلالة والردى ومحق لصنديد كفور مشاغب
وكسر لأوثان وهدم مشاهد يلوذ بها الكفار من كل ناكب
ويدعونه حباً وخوفاً وخشية وهذا لعمري من كبير المصائب
بذا كان ذا النقصان لدين محمد نبي الهدى ختم الكرام الأطايب

(١) (د.المطوع. إدارة خالد: ٢١٠).
(٢) (النجم اللامع: ٢٣٩).

وهـذا هـو الإشراك بـالله وحـده	فأعـظم بـه نكـراً وخيم العواقـب
فسرنا بحمد الله والشكر والثناء	على المنهج الأسنى أجل المطالب
جهاد ذوي الإشراك حرب ذوي التقى	جنود حسين من أتى بالمعائب
وكـانوا لـدى حصن طويـل ممنـع	لديـهم مـن العـداة أهبـة حـارب
فزعـزعهم ربي وشـتت شملهـم	فمـا بـين مقتـول ومـا بـين هـارب
ومـا بـين مجـدول عـلى أم رأسـه	ومـا بـين مكـلوم شـديد المعاطـب
ترى الطير مع غرث السباع عصائباً	تنـوبهموا مـن كـل قطـر وجانـب
وأورثنـا ربي ديـار ذوي الـردى	وأموالهم رغماً على أنف غاضب
بأيـدي ذوي بـأس شـداد أعـزة	خـلا أنهـم للـصحب أهـل تحابـب
جحاجح في الهيجا مراويع في الوغى	بأيديهموا بيض الرقاق المضارب
عـلى عارفـات للطـعان عوابـس	بهـن كلـوم بـين دام وجالـب
إذا استنزلوا عنهن للطعن أرقلوا	إلى الموت إرقال الجمال المصاعب
فهـم يتـساقون المنيـة بينهـم	يـرون لقاهـا مـن كبـير المكاسـب
نفـوس لهـم كانـت لـديهم ثمينـة	وقـد أرخصوها في قتال المحارب
وبعـد ذا سرنـا عـلى مـن تألبـوا	وصـدوا لوفـد الله أكـرم نائـب
ولكـنهم في بلـدة ومحـلة	بها بيت رب العرش أغلب غالب
ولكـن مولانـا الكـريم بفـضله	أزال العدا من غير ضرب القواضب
فخامرهم رعـب شـديد فأرجفـوا	وفـروا سراعـاً مـن جميع الجوانـب
فلـما تحققنـا وطـاب لنـا المنـى	بفضل ولي الفضل مسدي المواهب

دخلنا نلبي حاسرين رؤوسنا	وطفنا بذي الأنوار بين الأخاشب
دعونا وكبرنا على المرو والصفا	وتلك البقاع النيرات الأطايب
ووالله لم نسفك دماء ولم يكن	سوى الحرم العالي لنا من مأرب
فشكراً لمن أسدى الجميل بصنعه	وذاك لعمري من عجيب العجائب
فيا أيها المزجي ذبولا عرندساً	عذافرة تطوي طويل السباسب
إذا مارأت للسوط ظلاً رأيتها	كقائدة الآرام ريعت بطالب
تحمل هديت الخير مني تحية	إلى ملك سامي الذرى والمناقب
فقل بعد تسليم من البعد والنوى	ليهنك يابن الأمجدين الأطايب
بلوغ المنى والفوز بالعز والهنى	وفتح لدار الوحي جل المطالب
فأم القرى تدعوك قد مسها الضنى	وقد مرضت من فعل طاغ وناكب
أتتك تجر الذيل هيفا مليحة	معندمة الخدين أجمل كاعب
وقد عزفت عن كل بعل وخاطب	لأجلك يابن الأمجدين الأطايب
فهيئ لها مهراً من البر والتقى	وطهر حماها من جميع المعائب
وحكم بها شرع الإله ودينه	تنل من إله العرش أسنا المطالب
وكن شاكراً لله جل ثناؤه	فقيد الأيادي شكر مسد وواهب
ومن مبلغ عني حسيناً وفيصلاً	وأعوانهم من كل ندم وعائب
بأنا بحمد الله لا رب غيره	على منهج المختار ختم الأطائب
فلا ندع إلا الله جل جلاله	تقدس عن ند وقول لكاذب
وندعوا إلى التوحيد سراً وجهرة	إلى أن يكون الدين خال الشوائب

ونأمر بالتقوى وننهى عن الردى	وندعوا لحج البيت لافعل كاذب
ومن صد عن هذا وتمرد واعتدى	سنسقيه كأساً من سموم العقارب
ونلقمه صخراً ونشدخ رأسه	إلى أن يرى الله أول آيب
وقل للعدى في كل قطر وجانب	بكل النواحي عجمها والأعارب
أنيبوا وإلا فاستعدوا وأجمعوا	لبيض وفرسان وجرد شوارب
جنود تريكم في ضيا الشمس ظلمة	ترى البيض فيها كالنجوم الثواقب
إذا ما غزا بالجيش حلق فوقهم	عصائب طير تهتدي بعصائب
تلازمهم حتى يغرن مغارهم	من الضاريات بالدماء الدوارب
هموا معشر الإخوان دام سرورهم	ولا سر من يرميهمو بالمعائب
لهم أسوة في فعل صحب نبيهم	وهمتهم مصروفة في العواقب
فيارب يامنان يامن له البقاء	ويا خير من يرجى لنيل المآرب
أعذهم من الإعجاب مع كل فتنة	وثبتهمو يارب ياخير واهب
وصل إلهي ما تألق بارق	وما هلّ ودق من خلال السحائب
وما طلعت شمس وما حن راعد	على السيد المختار من نسل غالب
كذا الآل والأصحاب مع كل تابع	وتابعهم ما ضاء نور الكواكب[1]



(١) مخطوطة بخط الشيخ محمد بن سليمان الدميجي رَحِمَهُ اللَّهُ (ت:١٤١٥) ،كذلك فهي موجودة في كتاب المحمود رَحِمَهُ اللَّهُ.

معركة جدة

(الرّغامة والمصفحّات)

ثمّ دخول جدة يوم الخميس جمادى الثانية (١٣٤٤)

وبتسليم جدة انتهى حكم الأشراف للحجاز الذي قارب ألف عام[١] وبالتحديد: ألف سنة إلّا ستة عشر عاماً. من سنة: (٣٥٨) من

---

(١) عبرة:

قال العبيّد: «لمّا سلّم الأمير محمد الطلال الرشيد حائل، وانقرض بذلك ملك الرشيد بعدما دام قرابة تسعين سنة، جهّزه الملك عبد العزيز ومن صحبه من عوائله للرياض، فلمّا وصلوا بلاد القصب من مقاطعة الوشم، وكان معهم خدم من قبل الملك عبد العزيز فنزلزا ضيوفاً على أميرها، لكنهم لم يدخلوا البلد، بل نزلوا في ظلّ أثلة قريباً من البلد، فخرج عليهم أمير البلد وسلّم على محمد الطلال ومن معه، وعرض عليه مكان الضيافة، وقال: هل ترغبون في نزول البلد حتى تأكلوا ضيافتكم؟ أم أن مكانكم أرغب لكم ونوصل لكم ضيافتكم هنا؟ فرغبوا الجلوس في ظل أثلتهم؛ لأنهم ليسوا بدار إقامة، ولمّا رأى أمير القصب ما بمحمد الطلال من الحزن والكآبة، أراد أن يسليّه، فقال له وكان شيخاً مسنّاً: يا ولدي؛ لا تجزع من تقلب الزمان بأهله، واذكر قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] والله لقد ضيّفت عبد الله الفيصل حاكم نجد هو وأخوه عبد الرحمن الفيصل ونساءهم تحت أثلتك هذه، قد نقلهم محمد بن رشيد من الرياض الى حائل! وهذه سنّة الله في عباده، فسبحان من لا يزول ملكه، ولا يضعف سلطانه» (النجم اللامع:٢١٢) بتصرف يسير.

وفي عام: (١٣٠٧) حينما وقف محمد العبد الله الرشيد ــ وكان خير حكام الرشيد =

كرماً وشجاعة وحلماً وعدلاً وسياسة(أ) ودام حكمه (٢٧) عاماً ـــ على سور الرياض وأمر بهدمه، وكان بجانبه حمود العبيّد الرشيد، قال الملك عبد العزيز واصفاً ذلك: وكنت واقفاً في ذلك الوقت واقفاً نرى هدم السور ومعي صِبْيَان في سني ـ أي قرابة ١٢ سنة ــ وكان عليّ كوفيّة حمراء، وكان في عينيّ رطوبة، وجفوني ثقيلة، فدنا مني محمد بن رشيد ثم وضع يده على رأسي، والتفت إلى حمود الرشيد قائلاً: يا حمود لا تحقر هذا، تراه يشره على الحكم !) (السابق: ١٠٩) ولم يعلم الرشيد عن أسرار الغيب، وأن انقراض ملك قومه سيكون بإذن الله على يد هذا الفتى! والأيام عبر.

(أ) من أخباره ما ذكره محمد بن بليهد، قال: مرّ محمد بن رشيد برجل يحفر ضبّاً، فسلم عليه وهو مارٌّ، فرد السلام، ومضى كل منهما لسبيله، ثم وفد عليه الرجل على رأس الحول، فبادره بعد أن رد السلام قائلاً: عساك أظهرت ضبّك؟! فقال الرجل: أظهرته ياطويل العمر.

ووفد عليه رجل كريه المنظر، فطلب منه أن يجعله من خدمه، فلم يشأ أن يقبله لبشاعة منظره، ولم يرد أن يحرجه، فقال: ديرتك سالت بعدك، تحشّون وتزرعون أحسن لك من الخدمة.

وأتاه رجل يشتكي الفقر، فأنشد بين يديه:

يالضيغمي جيتك وانا لي طليبي	أشكي عليك الفقر والفقر حادين
مالي من العدوان غيره حريبي	وانا زبنتك يازبون المقلّين(ب)
غديت مثل الشاة والفقر ذيبي	فهو كلاني كان مانت مراعين

فقال على الفور: أبشر بمن يذبح الذيب قبل ياكل الشاة. (النجم اللامع: ٢١٥).

ومن عزّته أن أحد شيوخ قبيلة بلي من آل منقرة، غزا يوماً وأخذ جيشاً (أي إبلاً) لمحمد بن رشيد، وقال لوكيل الجيش واسمه عيادة بن زويمل: إذا وصلت عمّك

قل له: يقول لك اللي أخذ الجيش بعيد المناطيس، وانا أخو سندا! فلمّا بلّغه الوكيل المقالة، قال ابن رشيد: بعيد المناطيس أنا وأنا أخو نورة! ثم سيّر كتائب كالجبال من الحاضرة والبادية وهو يقول:

يــابن زويمــل مــا هجــاني نــوم	مــن يــوم جــاني علــم الجــيش
مــا احــسب ان ذروة ياخــذنا قــوم	وراسي عــــلى الــــدنيا يعــــيش

حتى اكتسح ذلك الرجل.

ومع هذا فقد كان حليماً، ومن ذلك أنه كان حاجّاً في سنة من السنين، وازدحم عند الجمرات براية لأحد بلدان القصيم وكان رئيسهم نزقاً مغروراً، فقال له محمد بن رشيد: لا تزحم الحاج يا فلان. فرد عليه أن قال: اقطع واخس...وسبّه، فما كان من ابن رشيد إلا أن قال: لبيك اللّهم لبيك ،لا رفث ولا جدال ولا فسوق في الحج، ومرّت الأيام فمرّ ابن رشيد بجيشه على النبهانية، فاختفى ذلك الرجل وفزع من نقمة محمد لو قبض عليه، حتى أنّه اندس تحت الحطب. فبلغ ابن رشيد ذلك، فقال: أخبروه أنّه في مأمن مني، فإن أتاني أكرمته، وإن بقي في بلده فهو سالم، وكانت البادية تخشاه وكان إذا تحاكم عنده خصمان أحدهما من القرى والآخر من البادية حكم مباشرة للحضري على البدوي! ومن مشهور كلامه: ما خبرت حضري ظلم بدوي! (وإن كانت هذه ليست من مناقبه فبالعدل قامت السماوات والأرض).

وإن كان قد أخطأ خطأً فاحشاً وزلّ زلّة جسيمة حينما أمر جنده أن يقتلوا المدبرين ويجهزوا على الجرحى من أهل القصيم لمّا هزمهم بعد معركة (المليدا) المشهورة، في (١٣٠٨/٥/١٨) والتي ظهر فيها دهاؤه، ففي اليوم الأول(كون القرعا) كسروه، لأنهم كانوا متحصنين بالجبال ولم يكن لخيله ميدان للإغارة وكانت كتيبة الخيل ثمانية آلاف خيّال، فانسحب إلى (الشيحيّة) وجعل بينه وبينهم صحراء واسعة لكر الخيل وفرّها، فأكل أهل القصيم الطعم وتبعوه فلم يمهلهم حتى اكتسحهم بعد أن

حكم جعفر بن محمد، إلى نهاية حكم علي بن الحسين سنة: (١٣٤٤)

انتقل الإمام عبد العزيز بجيشه إلى جدّة عند الرّغامة. وطال الحصار سَنَةً كاملة، ولم يكن فيها إلّا بعض المناوشات، ثمّ أسلمت جدّة لعبد العزيز قيادها، وكان تسليم جدة والمدينة وينبع في وقت متقارب.

ضغط أهل جدّة على حسين الشريف، حتّى تنازل عن حكمه لابنه عليّ، ثمّ ذهب حسين للعقبة، فكتب عليّ لخالد بن لؤي يأمره ببيعته على الكتاب والسّنّة، فقال خالد قولته المشهورة: ليس الآن يا عليّان ذاك أوّل،

= تقطعت السيوف وتكسرت الرماح بينهم، ثم انكسروا أمام جيشه، فأمر بالقتل لكل مدبر وجريح فصارت مذبحة لا يدملها مرور الأيام والليالي في أهل القصيم. وبعد هذه المعركة انتشر حكمه في كافّة نجد من وادي الدواسر حتى الجوف، إلى عروق سبيع.

والـلي بعـرق سـبيع كنّـه بـبرزان ... والنـوم والله مـا تذوقـه عـيونه

توفي في (١٣١٥/٧/١٥) بعد ما أوصى لابن أخيه عبد العزيز المتعب الرشيد ـ خصم الملك عبد العزيز ـ بعدما أوصاه بالرفق بالرعية والإحسان إلى الناس والعفو وعدم البدء بالشر ولكنه لم يستمع لنصحه بكل أسف. وقد كان عقيماً، ومات وله زوجتان، وله الكثير من العبيد والسلاح والخيل والإبل، وله من المماليك (٨٠٠) عفا الله عنه ورحمه، فقد كان درة تاج ملك حكام الجبل الرشيد وواسطة عقدهم، الذين دام ملكهم قرابة تسعين سنة.

ب): أي بعد رب العالمين وهذا شائع عند الناس ولا بأس به، لأن القيد والاستثناء معلوم لكل سامع، فلا يلزم الاستثناء مع كل جملة وإن كان أفضل على كل حال، والله أعلم.

الحق أباك وأفلح. فلم يلبث عليّ أن لحق بأبيه، وأرسل الشريف علَى جيش الملك عبد العزيز ومعه الإخوان طائرة فأسقطوها بالبنادق، وقيل بل انفجرت فيها قنبلة من قنابلها، وربّك على كل شيء قدير(١).



(١) ونحيل القارئ الكريم على كتابي الشّيخ الدّكتور عبد الله العثيمين، وهما (معارك الملك عبد العزيز) و(تاريخ المملكة العربيّة السّعوديّة) فقد ذكر فيهما تفاصيل هامّة عن فتح جدّة وما بعدها.

دخول المدينة النبويّة

على صاحبها أفضل الصّلاة والسّلام

(١٣٤٤)

ضُمت جدة والمدينة وينبع للدولة السعودية في سنة واحدة، فسلّمت ينبع، ثمّ المدينة، ثمّ جدّة، فبعد تسليم ينبع وأملج وضِبا ضعفت الرّوح المعنويّة للحامية التي في المدينة، وكان من ضمن الإخوان المحاصرين عبد المحسن الفرم الحربي، وفيصل الدويش المطيري، وكان هذا أول حضور للدويش في الحجاز؛ فتهدّد أهل المدينة بالقتل، ثمّ دبّ الوباء ويسمّى (الإنفلونزا الأسبانية) في سريّته، فاستأذن بالرجوع لنجد وعاد بقومه، وجرت معركة يسيرة مع حاميتها التي خرجت ولم تلبث أن ولّت هاربة، وأراد أهل المدينة الاستسلام، وأرسلوا للإمام عبد العزيز بأنّا لن نسلم إلّا لأحد أبنائك، فأرسل ابنه محمداً، ففتحوا له الأبواب، ودخلها الجند بدون قتال والحمد لله، فلم يُرم فيها برصاصة واحدة، ولم يُوطأ بلدُ رسول الله ﷺ عَنْوَةً، بل دخلوا وجلبوا الأطعمة لسكّان المدينة الّذين أصابهم الجوع من الحصار، وصلّوا في مسجده ﷺ، وأزالوا البدع والمحدثات الّتي في المدينة، خلا القبّة[1] الّتي على قبره وليتهم أزالوها

---

(١) القبّة: أوّل من بناها السلطان صالح بن قلاوون عام: (٦٨٧). ويقال: إن بناء القباب على الأضرحة والقبور ــ والذي تولى كبر نشره العبيديون ــ قد دخل للمسلمين عن طريق بعض ديانات الهند الوثنية؛ كالهندوسية والبوذية، لمّا تأثر بها =

وردّوها كما كانت في زمن السلف الصالح والقرون المفضّلة، ولعلّ حجّة من أمر بإبقائها على حالها هي قطع الطريق على أعداء الدعوة السلفية، حتّى لا يُصعِّدوا الأمور في أرجاء العالم الإسلامي، ويكيلوا التّهم والبهتان لمن أسموهم بالوهّابية! ولمن نبزوهم ببغض النبي ﷺ! وحاشاهم فإنهم يُفَدّونَه ويَفْدُونَهُ بأنفسهم وأولادهم وآبائهم وأمّهاتهم وكلِّ ما ملكوا من الدّنيا، ومن عرف حالهم تبيّن له صدق ذلك، فحالهم مع ذكراه:

مثالك في عيني وذكرك في فمي ومثواك في قلبي فأين تغيب؟

ولوا أنّهم استعانوا بالله وهدموا القبّة ومحوا أثرها حتّى لا يبقى للقبوريين شُبهةٌ حولها لكان خيراً، وفي ظنّي أنّه لو كان عند بعضهم قدرة لفعلوها، بل ولفعلوا الأهمّ والأحتم من ذلك وهو إعادة حجرة أمّنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لِمَا كانت عليه وقت الأصحاب الأطهار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فلقد كانت الجهات الجنوبيّة والشّرقيّة والشّماليّة مفصولة عن المسجد وخارجة عنه، إنّما هو الجدار الغربيّ فقط ومِنْهُ البابُ المُطلّ على المسجد، ومات ﷺ وهي على ذلك الحال حتّى بدأ بالشرّ الوليدُ بن عبد الملك ـ عفا الله عنه ـ لمّا أدخلها في توسعته للمسجد، وقد أنكر عليه العلماء فلم يَعْبَأ بهم، ثمّ ازداد الأمرُ سُوءاً في الأزمان المتأخرة حتّى أُدخلت الحجرة بجميع

= المتصوّفة! كغيرها من اللوثات التي حرفت الصراط المهيع السليم، عند بعض المسلمين إلى سبل ضلال، وطرق فتن، ومزالق بدع، هدنا الله وإياهم سواء السبيل.

جهاتها، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

ولـمّا وُسّعَ المسجدُ في عهد الملك فهد بن عبد العزيز، رَحِمَهُ اللَّهُ، قِيل: إنّ الإمام عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ، قد حاول جُهْدَهُ وطاقته في فصل الحجرة عن المسجد تماماً، عملاً بوصية النبي ﷺ، فرسول الله ﷺ حذّر أمته وهو في مرض موته حينما نُزِلَ به من اتخاذ القبور مساجد، فقال: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور انبيائهم مساجد**»[١].

وكذلك تحقيقاً لدعوة النبيّ ﷺ: «**اللّهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد**»[٢] فالقبر وإن لم يكن وَثَناً بصورته الحاليّة، لكن فيه نوعُ شَبَهٍ في فعل الناس به وهو بهذا الحال، من الطّواف به ولو من بعيد[٣] ومن استقباله في الدّعاء والصّلاة، حتّى وإن كانت هناك فواصلُ جداريّةٍ أو سياجيّةٍ أو بضعةٌ من أمتارٍ شماليّةٍ، وحتّى لا يبقى لقبوريّ خرافيّ مستمسك في بدعته، ولكن لم تُقبل نصيحته والله المستعان، والحمد لله على كل حال، ولله في ذلك حِكَمٌ

---

(١) متفق عليه، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) رواه أبو يعلى في مسنده عن أبي هريرة بسند صحيح. وللمزيد ينظر: (فتح المجيد: باب ما جاء فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده؟!).

(٣) قال الشيخ حامد الفقي في تعليقه على فتح المجيد: «...وأُخلي حول القبر من جهاته الأربع، وأصبح كثير من الناس يستقبلونه ممن يكون في الموضع الخاص بالأغاوات، وفي المكان المخصص للنساء، وأصبح عرضة لأن يطاف به، وقد رأيت كثيراً من العامّة يطوفون به! ويحاولون التمسح به، لولا الجند الذين خصصتهم الحكومة السعودية لذلك المنع...» (ص: ١٣٩).

خفيّة، وابتلاءات ربّانيّة، وأقدار إلهية، ولعلّ الله تعالى قد أخّر ذلك الفضل وادخره لمن أراد به خيراً في طي علمه وغيبه، والله أعلم[1].

(١) وللفائدة ننقل بعض كلام أهل العلم المعاصرين في مسألة احتجاج القبوريين بوجود قبره الشريف في مسجده ﷺ:
ـ قال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله: «ولا يظن ظان أن هذا من جنس البناء على القبور، واتخاذها مساجد، لأن هذا بيت مستقل، أدخل المسجد للحاجة للتوسعة، وهذا من جنس المقبرة التي أمام المسجد مفصولة عنه ولا تضره» (مجموع الفتاوى ج: ١٠).
ـ وقال الشيخ محمد العثيمين رحمه الله: «جواب المسألة من ثلاثة أوجه:
الأول: أن المسجد لم يبن على القبر.
الثاني: أن النبي ﷺ لم يدفن في المسجد بل دفن في بيته.
الثالث: أن إدخال بيوته ﷺ للمسجد ومنها بيت عائشة رضي الله عنها ليست باتفاق الصحابة؛ بل بعد انقراض أكثرهم عام: (٩٤) تقريباً، وممن أنكره سعيد بن المسيب، ولم نسمع في التاريخ أنه قد جعل وثناً».
ـ وقال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله تعالى: «البيت لا زال على شكله وحيازته، كذلك المسجد، وما يحصل من الجهال يكون في المسجد، وليس في القبر، بل القبر بعيد عنهم ومصون عنهم، ولا يرونه» (شرح كتاب التوحيد ١/ ٢٩١).
وقال الشيخ صالح آل الشيخ حفظه الله تعالى:
«١ ـ دفن ﷺ في حجرة عائشة رضي الله عنها.
٢ – ولما جدد بناء المسجد في عهد الوليد بن عبد الملك أخذوا من الروضة ثلاثة أمتار من جميع الجهات، عدا الجهة الشمالية التي وسعت أكثر وجعلت جدرانها مسنّمة؛ أي مثلثة. =

٣ - وفي توسعة أخرى أُخذ من الروضة ثلاثة أمتار ومن جميع الجهات كذلك، وهذا ماعناه ابن القيم رحمه الله بقوله:

فأجاب رب العالمين دعاءه وأحاطه بثلاثة الجدران

٤ - ثم وضع السياج الحديدي عليه كذلك، وهو من مترين إلى متر ونصف، يتسع ويزيد في بعض المناطق، لذا فقبره بعيد ولا يمكن الوصول إليه. (قلت: فبين القبر والسياج أكثر من ثمانية أمتار تقريباً). فمن حرص المسلمين على إبعاد القبر فقد أخذوا ثلاثة أمتار من الروضة الشريفة لبناء الجدار الثاني، ثم الثالث كذلك، ثم أكثر من ثلاثة أمتار لبناء السياج الحديدي، وهذا تطبيق لحديث: (اللّهم لا تجعل قبري وثناً يعبد) فهم قد أخذوا من المسجد لحماية قبره من أن يتخذ مسجداً، والمسجد اليوم قد تكون صورته عند من لم يحسن التأمل صورة قبر داخل المسجد وليست الحقيقة كذلك لوجود الجدران المختلفة التي تفصل المسجد والقبر، ولأن الجهة الشرقية ليست من المسجد (كذا ! ولعله بنى قوله على منع الصلاة فيها) لهذا لما جاءت التوسعة الجديدة كان مبتدؤها من الشمال بعد نهاية الحجرة بكثير حتى لا تكون الحجرة وسط المسجد.

٥ - ولمّا جاء الخرافيون العثمانيون فتحوا في التوسعة التي في جهة الشرق ممرّاً، بسعة مترين تقريباً، لكي يمكن لمن أراد الصلاة أو الطواف بالقبر هناك من مراده! وقد مُنع الناس من الصلاة فيه في عهد الدولة السعودية الأولى وما بعدها، فكأنهم جعلوا لها حكم المقبرة إذ لو كانت مسجداً لما جاز منع الناس من الصلاة فيها، لذا فيغلق وقت الصلاة ويفتح بعدها للمرور والسلام. (قلت: ولو أزالوه في ذلك الوقت لكان أحتم، ولأغلقوا عن الأمة باب فتنة عظيمة، ولحسموا مادة البدعة في مهدها، فإنا لله وإنا إليه راجعون» (التمهيد لشرح كتاب التوحيد ص:٢٦٠).

وقال ابن القيم رحمه الله في نونيته:

وذهب الإخوان للبقيع، وسلّموا على صحابة رسول الله ﷺ، وهدموا المشاهد والقباب الّتي عليه وعلى غيره في المدينة، وأمّنُوا الناس وساد الأمن بحمد الله مدينة الحبيب صلّى الله عليه وآله وسلّم.



= ودعا بأن لا يجعل القبر الذي قد ضمّه وثناً من الأوثان
فأجاب رب العالمين دعاءه وأحاطه بثلاثة الجدران
حتى غدت أرجاؤه بدعائه في عزة وحماية وصيان

وفي فتح المجيد: «ودل الحديث على أن الوثن هو ما يباشره العابد من القبور والتوابيت ونحوها». (فتح المجيد لعبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رحمه الله ص: ٢٧٤).

وللتوسع انظر كلام شيخ الإسلام رحمه الله في مجموع الفتاوى: (٢٧ / ٣٢٥ ـ ٣٢٩).

دخول بدر
(١٣٤٤)

أَمَرَ الإمام عبد العزيز خالداً ومن معه من الإخوان من سبيع أهل الخرمة والجِدارية ومنهم وليد بن شوية وغيرهم، مرافقة الأمير سعود العرافة لغزو عبد الله (البيه) في بدر وينبع، فاعتذر الإخوان عن الذهاب وقالوا: شابت رؤوسنا ونحن لم نحج حجة الإسلام! وأشعل الشيب لحانا وهذا الحج قد أقبل. فقال خالد: يلزمكم السمع والطاعة لإمامكم، وبيني وبينكم الشيخ عبد الرحمن بن داود. فقال الشيخ: يلزمكم السمع والطاعة، والحجّ يؤجّل حتىّ تنجلي الغمّة.

فقال مناحي بن غبيشان الصميلي السبيعي، يصف مشاعر الإخوان وقد فاتهم الحجّ بسبب الغزو وهي أشهر قصائده رَحِمَهُ اللَّهُ، فقال:

كنّا على بدر نرمي حمر الأدوالي ... نرمي هل الكفر جند البيه عبد الله
ناتريلنا صيرمي ماكره عالي ... سعود حامي البنود وأمير جند الله
معه شريف الهدى مهوب ملالي ... مسلم روحه يبي مرضات وجه الله
يا بو سعد جعلها تفداك الأنذالي ... ولعل يفداك جند مايخافون الله
رجلي كسيره وأنا بخبرك بالحالي ... والعبد يرضى بالأمر اللي عطاه الله
سِلْنا هل العلم نبغى العلم ينجالي ... وقلوبنا ماتبي غير حج بيت الله
قالوا هل العلم هذا مثل الأمثالي ... وإن أجركم تم وانتم في سبيل الله

دخول ينبع
(١٣٤٤)

والتي دام حصارها سبعة أشهر، وقيل سنة، وقيل بدأ حصارهم لينبع بعد جدة بنحو شهر، ثمّ سلّمتا في ليلة واحدة، وبهذا يكون حصارها أحد عشر شهراً وهو الأظهر. وكان فيها شاكر بن زيد بن فواز الشريف[١] ذهب لينبع ومعه الكثير من عتيبة والبقوم، ثمّ أعطى جهينة وبِلِي الجنيهات فتكاثر جيشه، وطلب الإمام عبد العزيز من سلطان بن بجاد الذّهاب لحصار ينبع مع الأمير سعود العرافة كما أسلفنا، فاعتذر ومعه الكثير من الإخوان لقرب موسم الحجّ. وهذا هو أول شَقٍّ بين الإمام عبد العزيز وسلطان بن بجاد، ثمّ إنّ عبد العزيز ندب خالداً وأهل الخرمة كما أسلفنا، فلبّوا النداء بمعيّة الأمير سعود العرافة.

فخرج إليها الأمير سعود العرافة، وخرج معه الإخوان، وكان أهل الخرمة الذين معه قرابة الألف، فخيّموا في المنتصف بين ينبع النخل وينبع البحر[٢] وأغاروا على سرح القوم ــ أي إبلهم ــ فأخذوه وقتلوا من كان

---

(١) الذي قاتل الإخوان في الحنو. جعله الملك حسين أميراً للبدو، وكان محبوباً منهم، كريماً معهم، عالماً بطباعهم وأخبارهم. (ت:١٣٥٣)

(٢) (ينبع البحر) أنشأت قلعتها وسورها الدولة الأيوبية لحماية الميناء، بعد نزول الصليبيين ميناء ينبع في القرن السابع الهجري، أما تاريخ الميناء فبعيد جداً ولا يعلم بالضبط بداياته. =

عنده من جند الشريف. وعددهم ثلاثة، واستشهد عبد الله بن عوشز السبيعي هناك، ثمّ بدأوا الحصار لينبع، وثارت بعض الاشتباكات والرمي المتقطّع مع ثكنات الشريف، وأرسل الشريف طائرة لقصف الإخوان لكنها رُمِيت بمدفع العرافة ولم يُصبها. وكلّما اقترب الإخوان من أحد الحصون ضربهم أهل الحصن بالمدافع، وفي إحدى الليالي اقتربت مجموعة فدائية من الإخوان من أحد الحصون، وحفروا من دونه خنادق صغيرة ليرموا الأعداء في الصّباح، وما راعهم عند الصّبح إلّا هدير المدفع عليهم فقتل بعضهم، وفي أحد الخنادق كان هناك مجموعة من الإخوان؛ وهم حمود بن صنيتان، وحماد بن قليشان الشلوي، وقطيم بن ختام، وفايز بن محفاش، ورجل من الغطغط، والحميدي بن مفرح، وظافر بن جراش، فرماهم المدفع فأخطأتهم القنبلة ووقعت في البحر، ثمّ الأخرى فانفجرت بقربهم فأطارتهم حتّى رفعت أرجلهم للخضيراء ــ أي السّماء ــ من شدّة الضربة لكنها لم تقتلهم، ثمّ الثّالثة والتي انفجرت في خندقهم، قال الحميدي: «وحينما هدأ الغبار، نظرت لأصحابي إذ شظايا المدفع الّذي

= أما (ينبع النخل) فتاريخها قديم، وجرت فيها غزوتا النبي ﷺ؛ بواط والعشيرة. وقد كانت موطن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن (النفس الزكية) عند اختفائه عن العباسيين. ومن رجالات ينبع النخل: أبو عزيز؛ مؤسس دولة الطبقة الرابعة من الأشراف حكام مكة؛ ويعرفون بالقتادات. ويسكنها الأنصار وجهينة وليث.

والآن صار هناك ينبع ثالثة، هي: (ينبع الصناعية) وقد تأسست بالمرسوم الملكي بتاريخ: (١٣٩٥).

تفرّق علينا قد ذكّى أحدَنَا وهو رجل من أهل الغطغط، فرمته القنبلة على ظافر بن جراش الذي سلّمه الله منها، وبينا نحن نخرج من الخندق لنهرب إذ فايز بن محفاش متّكئ على بندقيته أمّ ركبة، وكان مستوفزاً ولم يعجبني وجهه كأن به برود الموتى، فرجعت له فلما ناديته وحركته خرّ على جنبه، فإذا هو قد أصابته شظية فدخلت من إبطه وارتفعت لرأسه ولم تخرج لكنّها صارت كمثل البلحة قد جمعت الدماغ، فاستشهد صاحبنا من الغطغط وفايز، ثمّ قفزنا من الخندق ونحن نركض ونرمي القصر حتّى ابعَدَنَا الله ونجّانا بعدما رأينا وجه الموت. وبعد أيام ذهبت أنا وحمّاد بن قليشان لنَقِيلَ تحت شجرِ مَرْخٍ كبار، فالخيام كانت حارّة، وأثناء راحتنا وكلّ منا قد ألقى ظهره للرمال الناعمة؛ إذ برجل قد وقف علينا، وأنكرتُ زيّهُ فإذا هو يقول: أبشّركم يا الإخوان أنّ الشّريف ركب البحر على البابور (رشدي) ـ وهو يخت خاصّ به ـ وأهل البلد سيسلّمونه لكم، وأريد الأمان لي ولهم، فقلنا لكم ذلك، فنهضت به لخالد الذي أرسل رسولاً مع الرّجل لسعود العرافة، فأمر بالجيش فسار ثمّ بات على طرف ينبع، وفي الصّباح دخلوها بسلام، والحمد لله الملك العلّام»[1].

---

(١) قال حثيري الحلحلي العتيبي حفظه الله تعالى: «حضرت الطائف وما بعدها، وكان عمري في تربة ثمان سنين، ولمّا كنا في ينبع مع خالد بن لؤي إذ الطّائرة على رؤوسنا تلقي القنابل فصاح فينا خالد: تفرّقوا تحت الشجر، فركضت لأقرب شجرة فإذا تحتها شبيب بن جميع، فصاح بي: ابتعد عن شجرتي، ولم تلبث تلك الطائرة أن ولت وأراحنا الله منها».

الفَصْلُ السَّابِعُ

معركة السّبلة ومأساة الانشقاق

(١٣٤٧/١٠/١٩)

أذكر القارئ الكريم أن هذه الفصول ليست مستوعبة ولا شاملة إنما هي عبارة عن محطات ترصد أهم المعالم الشرعية والتاريخية للإخوان السعوديين (إخوان من أطاع الله). ولولا يقيني بأهمية أخذ الدروس واستلهام العبر من هذا الحدث الجسيم حتى لا تقع الأمة في ذلك المزلق الموحل وبخاصة في هذا الزمان؛ ما خططت في هذا الجزء حرفاً، والله من وراء القصد، وهو ولي التوفيق.

أوّل الكَدَرِ بين الإمام عبد العزيز وسلطان بن بجاد، هو امتناع الأخير من الذّهاب لينبع لمحاصرتها مع الأمير سعود العرافة، واعتذاره بقرب موسم الحج وأنّهم لم يحجّوا حجة الإسلام بعْد، ثمّ أرسل عبد العزيز غيرهم وانتهى الأمر بذلك.

ويُخطئ بعض المؤرّخين في إيراد بعض الأساطير الكاذبة الّتي تزعم أنّ سلطاناً اجتمع بعدها بفيصل الدويش في مكة، وتقاسما الجزيرة كقسمة سايكس بيكو لتركة العثمانيين، غير آبهيَن بهذا الحضريّ زَعَموا! فهذا الخيالُ لا يصمد للأدلّة التّاريخيّة، ولا لتحليل شخصيّة سلطان بن بجاد

خاصّة. ومن زعمها فعليه الإثبات، ودون ذلك خرط القتاد! ولا يكفي اتّهام الأموات الّذين أفضوا إلى ربهم، وجَعْلُ أعراضهم قرابين لأغراض رخيصة من حطّام الدّنيا.

ومرّت الأيّامُ بعد عام: (١٣٤٤) وعاد الإخوان لديارهم، وهدأت وتيرة الأوضاع العسكريّة، وانشغل الإمام بتدبير المملكة الوليدة، خاصّة لما غاص في شؤون مكّة وجدّة وسَبْقِهِمُ المدنيّ لحواضر نجد، واختلافهم الشديد في البنية الثّقافيّة والاجتماعيّة عن غيرهم من جهات الجزيرة، فأخذت هذه الأمور من الإمام عبد العزيز وقتاً وجهداً ليس بالهيّن ولا القليل.

تألّق البرق نجدياً فقلت له إليك عنّي فإني عنك مشغول

ثمّ عاد الإمام لعاصمته، وحاول وضع سياساتٍ ولَبِنَاتٍ لبناءِ الدّولة الحديثة المختلفة في المشارب الاجتماعيّة، والاقتصاديّة بعد اكتشاف الذّهب الأسود، والسّياسيّة بعد دخول بلاده في معاهدات الدّول الكبرى وعصبة الأمم وغيرها، ومزاحمة الأمريكان للبريطانيّين. كلّ هذه الأمور الجديدة قد فرضت على الإمام نَسَقَاً جديداً من التّعامل والسّياسة، بعد أن كانت بساطتها النّجديّة العفويّة سهلةَ التناول واضحةَ الوِرْدِ والصَّدَرِ.

وكان على عبد العزيز قبل بناء دولته الفتيّة، حلّ خلافاتٍ وقضايا مع جيرانه في الجنوب والشّمال والشّرق، وفعلاً قد اهتمّ بذلك، ودانت له الأمور مجرجرة أذيالها بتوفيق الله تعالى له، وأثناء هذا الحراك والبناء

والانشغال، بدأ بعض الإخوان يتذمّرون من أشياء لم ترقهم[1] ورأوا أنّها

---

(١) ومن ذلك (الأتيال) وهي البرقيات، وقد توقف في إباحتها بعض الأكابر من أهل العلم في بدء الأمر، وتريثوا في ذلك، دفعاً لشرور مصاحبة لها، وسدّاً لذريعة فساد يخافون فتحها على الأمة، وليس كما قال بعضهم مُنتقصاً هؤلاء الجهابذة؛ بأن عقولهم لا ترتقي لمستوى الحضارة المدنية، وأن فهومهم لا تصل للاستفادة مما سخره الله للناس لعمارة الأرض، وأنّهم إذا رأوا من ذلك شيئاً أحالوه على الشعوذة والسحر!

وهذه نماذج من رسائلهم للإمام رحم الله الجميع: «من محمد بن عبد اللطيف وإخوانه إلى عبد العزيز......وأما وضع البرقيات في الرياض وغيره من قرى نجد، والحال ما قد شرحناه لك سابقاً فيما يترتب على ذلك، فلا نراه جائزاً، ولا نفتي به، نبرأ إلى الله ورسوله من الإفتاء بشيء يترتب عليه من المفاسد ما قدّمناه إلى جنابك من التبيان ما نعتذر به عند الله» (لسراة الليل: ٢٧٣) وقد علّق المؤلف عليها بقوله: «الشيخ محمد بن عبد اللطيف من أكبر علماء آل الشيخ، رَحِمَهُ اللَّهُ، هذه رسالة منه ومن إخوانه، أهم ما فيها كما يرى القارئ: تحريم استعمال اللاسلكي في المملكة، تبرؤا منها وأفتوا ضد استعمالها، ومن جهل شيئاً عابه.... هذه الاجتهادات التي لو عاقت الملك عبد العزيز، وتراجع إلى التقزّم في هذه الصحراء؛ لأضاع على بلده وشعبه هذا التطوّر....».

قلت: لم يوفق المعلّق للصواب في تعليقه هذا ــ عفا الله عنه ــ لأن العلماء في هذه الفتوى لم يحرّموا اللاسلكي لذاته، بل قالوا: (فيما يترتب على ذلك) ومعلوم ما يترتب على ذلك من المفاسد فيما لو جوّزوا استقدام واستعمال ذلك الجهاز، من جلب النصارى للرياض، وما يترتب على تلك المفسدة من مفاسد أُخَر؛ آنيّة ومستقبلية، منها أنّه سبب في حصول المشقّة على الرعية منه، من تضجّرهم الشديد، =

من المحرّمات الّتي لا يحلّ السّكوت عنها؛ ولو أدّى الإنكار للمفاصلة بالسّلاح، وزاد الطين بلّة منع الإمام لهم من غزو العراق والأردن، عملاً باتفاق (بحرة وحدّا) وهو الاتّفاق الّذي أبرمه مع (كلايتون) مندوب العراق وشرق الأردن عام: (١٣٤٤) وعلى ضوء هذا الاتّفاق تمّ تحديد وترسيم الحدود، فرفض الإخوان ذلك، وأعلنوا مخالفته، وهذا في الحقيقة هو الخلل الجذريّ والصّدعُ الاستراتيجيّ لمفهوم الطّاعة، وهو بداية الانشقاق الحقيقيّ عن الدّولة والإمام، وقد دعا الإمام إلى مؤتمرين تجمع الإمام بالعلماء وبالإخوان، فالأوّل كان سنة: (١٣٤٥) وحضره الإخوان، وأبدوا اعتراضاتهم وتكلّم العلماء وحسموا النزاع، ولكنّ الإخوان لم

= وأنّه سبب في طعنهم في علمائهم وولاتهم...كما بينوها مفصّلة، فلعلهم رأوا أن الوقت غير مناسب خاصة مع مرورهم بمنعطف تاريخي خطِر من بوادر التململ الإخواني من رؤية عباد الصليب يسرحون في جنبات بلاد التوحيد، وانظر الوثائق:(لسراة الليل: ٣٠٩، ٣٦٧) فهم قد منعوه سدّاً لذريعة رأوها، وليس لتوقفهم في تحريم جهاز عصري! وشاهد ذلك ما نقله عنهم في مؤلّفه. لذلك فلا ينبغي التشنيع عليهم ورميهم بالجهل أو التحجر أو الرجعية، فهم يحاولون درء مفاسد كبرى عن الأمة، ومن الأصول أن المفسدة الكبرى تدرأ ولو باحتمال الصغرى.

شاهد المقال: أن قضية إسقاط هيبة العلماء، أو التنقص من علومهم وفقههم ورأيهم وسياستهم للناس؛ قضية خطيرة، تفرح العدو وتشمته، وتحزن الصديق وتؤلمه، ويتسلّق منها المنافقون سلالم القمم؛ ليهدموا هيبة الدين بإسقاط هيبة حملته وأمنائه من صدور العامّة، والله المستعان.

يلتزموا بِكَلَامِ علمائهم! فأخذتهم صولة الجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، دون الصّدور عن كليّات الملّة، ومحتّمات الإسلام، من لزوم وحدة الصفّ خلف الإمام، ودرءِ المفسدة الكبرى باحتمال الصّغرى، وقطع دابر الفتن وحسم مادّتها عن أُمّةِ الإسلام. تلك الأمور العظام، الّتي لا يسبر غورها، ولا يعلم تفاصيلها، ولا تطبيقها على الحال؛ سوى علماء الأمّة الّذين رسخت أقدامهم في حياض الشّريعة، والّذين بذلوا النّصح للأمّة، ولم يألوا جُهداً في عزّها والله المستعان، فأبى ذلك بعضُ الإخوان!

ثمّ دعا الإمامُ للمؤتمر الثّاني، وهو الذي سُمّيَ بـ(الجمعية العموميّة) سنة: (١٣٤٧) ولكن كبار الإخوان كابن بجاد، والدويش، وضيدان بن حثلين، لم يحضروه، وتكلّم العلماءُ وأقاموا الحجّةَ مرّةً أخرى على الإخوان، وعظّموا حرمة الخروج والافتئات[١] على الإمام، وخطر الإنكار بالسّلاح بالأدلّة والبراهين القاطعة لكلّ مخاصم، الفالجة لكلّ مجادل، حتى أبدوا الصريح عن الرغوة، وبينوا الصبح لذي عينين، فلم يُبقوا لمنازعِ مقالاً.

ولمّا أصرّ الإخوان على العصيان وشقّ العصا، وتفريق الكلمة، بل وقتل المسلمين بهجومهم على قافلة ابن شريدة[٢] وكانت

---

(١) الافتئات: ويقال: افتيات، هو التصرف في حق الغير دون الرجوع إليه.

(٢) ابن شريدة: من رجالات بريدة وتجارها المشهورين، اعتدى على قافلته بعض الإخوان، وقتلوا بعض أفرادها ونهبوها! ــ وكالعادة فقد نُفِخَ في بوق عدائهم ــ =

القافلة[1] متّجهة لبريدة، فقتلوا بعض رجالها، على إثر ذلك كلّه انفجرت معركة (السّبلة) في نفس السّنة: (١٣٤٧).

وبما أنّا دلفنا لهذا الموضوع الحسّاس الشّائك، فلابدّ أن نذكر أنّ الإخوان لم يكونوا على موقف واحد تجاه منع الجهاد خارج الحدود، وتجاه المنكرات الّتي أنكروها على إمامهم، فمنهم من اكتفى بالدعاء له وبذل النّصيحة بالحسنى، ولزوم كلمةِ علماءِ الأمّةِ بدورِ الدّجي ومصابيحِ الهدى، والصّدورِ عن رأيهم وفتاويهم ومن أولئك الإخوان خالد بن لؤي، وعمر بن ربيعان، وسلطان أبا العلا، وجهجاه بن حميد...في جُلِّ

= فقيل: إنهم قد فعلوا وفعلوا وثلغوا رؤوسهم بالفاروع!..ونحو هذا الغثاء. وعلى كلٍّ فهذا التصرّف بحد ذاته شنيع، من أولئك الأفراد، لا يوافقون عليه، لا هم ولا غيرهم.

(١) في زمن محمد آل عبد الله الرشيد جهز جيشاً عظيماً لغزو قبيلة (بلي) وكان من ضمن الذين غزوا معه صطام بن شعلان، وابن عمه النوري، فكان الأول يتأمل الكتائب عن يمينه وشماله ــ لا يدرك الطرف آخرها ــ فقال لابن عمه: (هذه القالة وش يفلّها؟) أي هذه القوّة ما الذي يكسرها؟ فقال: يفلّها بطنها إذا جاها الدبور! (أي يقصمها أبناؤها إذا هبت عليها ريح الافتراق والشقاق). (النجم اللامع: ١٤٤) لذا فسوس الثورات هو ما يهدمها، لأنه من داخلها، وكل شيء له ضدّ من جنسه، يكون أعلم بمكامن ضعفه؛ فإن سُلّط عليه عدوٌّ من جنسه ــ خاصّة إن كان من رفقاء دربه ـ فهي قاصمة ظهره، وقديماً قيل:

احذر عدوّك مرّة ... واحذر صديقك ألف مرّة
فربما انقلب الصديق ... فصار أدرى بالمضرة

الإخوان.

ومنهم من توقّف وتوجّس من الأمر حتّى صدع مشايخهم بالحقّ، ونصحوهم بطاعة إمامهم، كبعض الإخوان من حرب وشيخهم ابن نحيت، لمّا أفتاهم الشيخ ابن بليهد بوجوب نصرة الإمام وحرمة الخروج عليه حين استفتوه وأخبروه بكتب الدّويش والدّهينة ــ بعد السّبلة ــ يطلبون منهم الخروج معهم ضدّ الإمام، فلزموا جادّة الهدى وبيعة الإمام، فجهّزوا ألفاً وثلاثمئة ذلول، فقاتلوا مع إمامهم ببركة اتباعهم لمشورة وأمر شيخهم ابن بليهد(١).

ومن الإخوان من جابه المنكر بالسّلاح وهي القاصمة.

وقد بوّب الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ في صحيحه من كتاب الفتن: باب: (الفتنة التي تموج كموج البحر) وذكر فيه قول ابن عيينة: عن ابن حوشب: كانوا يستحبون ــ أي السلف ــ أن يتمثّلوا بهذه الأبيات عند الفتن، قال امرؤ القيس:

---

(١) والشيخ عبد الله بن بليهد هو صاحب المشورة المشهورة للإمام، حينما استشاره في الإخوان الذين حاربوا في الشمال بدون إذنه، فأشار عليه بإطلاق يد الإخوان في الشام، وشبّههم الشّيخ بالبارود الذي قد ملأ البندقيّة فإن سدّ فمها ثار من خلفها. وكانت هذه امنية الشيخ محمد جلال كشك في سِفره النفيس(السعوديون والحل الإسلامي) فكان يرى أن المد الإخواني لو وصل إلى مصر والشام والعراق لتغيّر وجه التاريخ، والعلم عند الله، ثم اعتذر عن الإمام بأعذار وجيهة.

الحـــرب أوّلُ مــا تكـــون فتيّـــةً تـــسعى بزيـــنتها لكـــلّ جـــهول
حتّى إذا اشتعلت وشبّ ضرامها ولّـت عجـوزاً غـير ذات حليـل
شـــمطاءَ يُنكـــر لونهـــا وتغيّـــرت مكـــــروهة للـــــشمّ والتّقبيـــــل

ثم بوّب بقوله: باب: (إذا قال عند قوم شيئاً، ثم خرج فقال بخلافه) «حدّثنا سليمان بن حرب: حدّثنا حمّاد بن زيد، عن أيوب، عن نافع قال: لمّا خَلَعَ أهلُ المدينة يزيدَ بن معاوية، جمع ابنُ عمرَ حشمَه وولدَه فقال: إنّي سمعت النبيّ ﷺ يقول: «**ينُصب لكلّ غادر لواءٌ يوم القيامة**» وإنّا قد بايعنا هذا الرّجل على بيع الله ورسوله، وإنّي لا أعلم غدراً أعظم من أن يبايع الرجل على بيع الله ورسوله ثم يَنصُب له القتال، وإنّي لا أعلم منكم خلعه، ولا تابع في هذا الأمر إلّا كانت الفيصل بيني وبينه».

قلت: وكان السّلف يقولون: كُنْ في الفتنة كابن اللّبون، لا ضرعاً فيُحلب ولا ظهراً فيُركب.

وهنا لا بدّ من تقعيد المسألة عَقَدِيًّاً وتأصيلها شَرْعَيّاً باختصار، وهي مسألة الخروج على وليّ الأمر المسلم بالسّلاح: فعقيدة أهل السّنّة والجماعة تحريم ذلك، وأنّه من كبائر الذنوب، حتى ولو بمجرد الإعانة فيه باللّسان أو الإشارة، وأنّه لا يجوز بحال حتىّ ولو أظهر الإمام الفسق، ما لم يصل بمعصيته إلى الكفر البواح. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء. ٥٩] كذلك سنّة المصطفى ﷺ،

فقد روى الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كره من أميره شيئاً فليصبر عليه، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات فميتته جاهلية**» وبيعته ﷺ لأصحابه، قالوا: في يسرنا وعسرنا. وقال ﷺ في حدّ الجواز بالخروج بالسيف على الإمام: «**إلّا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان**»(١) وحديث: «**لا ما أقاموا فيكم الصلاة**»(٢) أمّا سوى ذلك فلا.

وتأمّل قوله: «**تسمع وتطيع الأمير، وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك، فاسمع وأطع**»(٣) علماً بأنه لو أخذ غير الأمير مالك فإن لك أن تقاتله وإن متّ فأنت شهيد! لكن مع الأمير يختلف الأمر، حتى لا تشق فتن العصيان نسيج الأمة. وقال ﷺ: «**أدوا إليهم حقّهم وسلوا الله حقّكم**»(٤) والأحاديث في هذا الباب كثيرة. وأهل السّنة يحرّمون الخروج على الوالي الفاسق، وإنّما يأمرون بالدعاء له، وبنصحه سراً، وبأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر بالحسنى، وبالصّبر عليه، حتّى يستريح برٌّ، ويُستراحَ من فاجر، وذلك بعدما ظهر لهم من مفاسد الخروج، وما يترتب عليه من إراقة الدماء، وخراب الدين والدنيا. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث لا يَغلُّ عليهن قلب مسلم:**

---

(١) متفق عليه من حديث عبادة، رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم عن عوف بن مالك، رضي الله عنه.

(٣) رواه الإمام مسلم عن حذيفة، رضي الله عنه. وفي زيادة: «وإن ضرب ظهرك...» مقال.

(٤) رواه البخاري من حديث ابن مسعود، رضي الله عنه.

إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمور، ولزوم جماعة المسلمين؛ فإن دعوتهم تحيط من ورائهم»[١]. قال الإمام الرباني وشيخ الإسلام الثاني شمس الدين ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي لا يبقى في القلب غل ولا يحمل الغل مع هذه الثلاثة، بل تنفي عنه غله، وتنقيه منه، وتخرجه منه؛ فإن القلب يغل على الشرك أعظم غل. وكذلك يغل على الغش، وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلال. فهذه الثلاثة تملؤه غلاً ودغلاً. ودواء هذا الغل واستخراج أخلاطه، بتجريد الإخلاص والنصح، ومتابعة السنة. وعلق على ذلك العلامة عبد الرحمن بن سعدي بقوله: أي فمن أخلص أعماله كلها لله، ونصح في أموره كلها لعباد الله، ولزم الجماعة بالائتلاف، وعدم الاختلاف. وصار قلبه صافياً نقياً، صار لله ولياً. ومن كان بخلاف ذلك امتلأ قلبه من كل آفة وشر. قال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ: «ولم يدر هؤلاء المفتونون أن أكثر ولاة أهل الإسلام من عهد يزيد بن معاوية ـــ حاشا عمر بن عبد العزيز وما شاء الله من بني أمية ـ قد وقع فيها وقع من الجراءة والحوادث العظام فيما أمر الله به ورسوله، من شرائع الإسلام وواجبات الدين، وأضرب لك مثلاً بالحجاج بن يوسف، فقد اشتهر أمره في الأمة بالظلم والغشم والإسراف في سفك الدماء وانتهاك حرمات الله، وقتل من قتل من سادات الأئمة كسعيد بن جبير، و حاصر ابن الزبير وقد عاذ بالحرم

---

(١) رواه مسلم من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الشريف، واستباح الحرمة وقتل ابن الزبير مع أن ابن الزبير قد أعطاه[١] الطاعة، وبايعه عامّة أهل مكة والمدينة واليمن وأكثر سواد العراق، والحجاج نائب عن مروان ثم عن ولده عبد الملك، ولم يعهد أحد من الخلفاء إلى مروان، ولم يبايعه أهل الحل والعقد، ومع ذلك لم يتوقف أحد من أهل العلم في طاعته والانقياد له فيما تسوغ طاعته فيه من أركان الإسلام وواجباته، وكان ابن عمر ومن أدرك الحجاج من أصحاب رسول الله ﷺ لا ينازعونه ولا يمتنعون من طاعته فيما يقوم به من أمور الإسلام، وكذلك من في زمنه من التابعين؛ كابن المسيّب والحسن البصري وابن سيرين وإبراهيم التيمي وأشباههم ونظرائهم من سادات الأمة، واستمر العمل على هذا بين علماء الأمة وأئمتها يأمرون بطاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله مع كل إمام بر أو فاجر، كما هو معروف في كتب أصول الدين والعقائد.

وكذلك بنو العباس استولوا على بلاد المسلمين قهراً بالسيف، ولم يساعدهم أحد من أهل العلم والدين، وقتلوا خلقاً كثيراً وجمّاً غفيراً من بني أمية وأمرائهم ونوابهم، وقتلوا ابن هبيرة أمير العراق، وقتلوا الخليفة مروان، حتى نُقل أن السفاح قتل في يوم واحد نحو الثمانين من بني أمية، ووضع الفرش على جثثهم ثم جلس عليها ونادى بالطعام والشراب! ومع ذلك فسيرة الأئمة كالأوزاعي ومالك والزهري والليث ابن سعد وعطاء ابن أبي رباح من هؤلاء الملوك لا تخفى على من له مشاركة في

(١) لعلّها: أُعْطِيَ.

العلم واطلاع.

والطبقة الثانية من أهل العلم؛ كأحمد بن حنبل ومحمد بن إسماعيل ومحمد بن إدريس وأحمد بن نصر وإسحاق بن راهويه وإخوانهم، وقع في عصرهم من الملوك ما وقع من البدع العظام وإنكار الصفات، ودعوا إلى ذلك وامتحنوا فيه وقتل من قتل كأحمد بن نصر، ومع ذلك فلم نعلم أن أحداً منهم نزع يا من طاعة ولا رأى عليهم...»[1].

وتأمّل قول الإمامين، أحمد بن حنبل والفضيل بن عياض: «لو كان لي دعوة مستجابة لجعلتها لوليّ الأمر، ففي صلاحه صلاح المسلمين»[2].

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله قاعدة في غاية الأهميّة ــ وهو الفحل الضليع في هذه القضايا المنهجية ــ قال: «وليس لأحد أن يكفر أحداً من المسلمين وإن أخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة، وتبين له المحجة، ومن ثبت إسلامه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك؛ بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة، وإزالة الشبهة»[3]، فالتكفير ذريعة لأمور كبار، قد تكون مدمرة إذا كانت في يد من لا يحسنها علماً أو عملاً، والواقع بذلك شهيد ناطق.

وقال العلماء: إنّه لا يجوز الخروج على الإمام إلاّ بشرطين اثنين:

---

(١) الدرر (٨/ ٣٧٨).

(٢) شرح السنة للإمام البربهاري (١٠٨) حيث نسبها للفضيل ونسبها له وللإمام أحمد شيخ الإسلام (٢٨/ ٣٩١).

(٣) مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٦٦).

الأوّل: أن يرتكب الإمام كفراً أكبر بواحاً عن عمد، وقد قامت عليه الحجّة الرسالية بذلك ممن يُحسن إقامتها وهم العلماء الراّسخون.

الثّاني: أن يغلب على ظنّ الخارجين على ذلك الحاكم الكافر إزالته ودفع شرّه بلا مزيد من الفتن وإراقة الدماء، فلا تدفع المفسدة بأعظم منها، ويكفينا مثالاً حياً معاصراً مأساة حماة السورية! قبل ثلاثة عقود، وكيف انتهى ذلك الخروج بالكارثة المأساوية والدمار المروّع والمصائب العظام، والمشتكى إلى الملك العلام.

فإن استبان كفر الحاكم وغلب على الظن القدرة على إزالته فذلك واجب متحتم عليهم، حتى لا يُبدّل الدين، فحراسة بيضة الدين وحماية حوض الملة أولى من حفظ الدنيا وما عليها.

وقال ﷺ: «**إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق**»(١).

قال المناوي رحمه الله: «**إن هذا الدين متين**» أي: صلب شديد، فأوغلوا: أي سيروا فيه برفق، ولا تحملوا على أنفسكم ما لا تطيقونه، فتعجزوا وتتركوا العمل.

وقال ﷺ: «**إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة**»(٢).

---

(١) رواه أحمد وحسنه الألباني.

(٢) متفق عليه.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: معنى الحديث: النهي عن التشديد في الدين، بأن يحمِّل الإنسان نفسه من العبادة[١] ما لا يحتمله إلا بكلفة شديدة، وهذا هو المراد بقوله ﷺ: «**لن يشاد الدين أحد إلا غلبه**» يعني: أن الدين لا يؤخذ بالمغالبة، فمن شاد الدين غلبه وقطعه.

والطوائف الّتي تخرج على الإمام لا تخلو من أن تكون:

الطائفةُ الأولى:

الخوارج وهم يُكَفِّرُون بارتكاب الكبيرة، وينكرون بالسّيف مباشرة، وهم شرّ الخلق والخليقة، وقد قال فيهم رسول الله ﷺ: «**يقتلون أهل الإيمان ويدعون أهل الأوثان، لئن أدركتهم لأقتلنّهم قتل عاد**»[٢] فهم على ضلال مبين، وبدعة شنيعة، وقد صحّت الأحاديث في ذمّهم من عشرة أوجه، كما قاله الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ. وهؤلاء كالذين خرجوا على عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في النهروان. وهذه الفرقة المارقة، بَرِءَ منها الإخوان ومن معتقدها الخبيث بتكفير المسلمين جملة وتفصيلاً، وتنظيراً وتطبيقاً، وقد ظَلَمَهُم من نسبهم لها.

الطائفةُ الثانية:

هم البُغَاةُ، وهم قومٌ لهم شوكة وقوة ومنعة، يخرجون على الإمام

---

(١) قلت: ومن أجلّ العبادات؛ القتال في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(٢) متفق عليه.

بتأويل، أي أنّهم يرون منكرات أو مظالم فيخرجون لإنكارها وهم لا يُكفِّرُون مرتكب الكبيرة؛ لكنّهم يَخرجون على إمامهم سواء أكان إمام هدىً أو إمام فسق، مع كونه لم يصل بمعصيته إلى الكفر البواح.

قلت: وهذا ما وقع فيه بعض الإخوان كسلطان بن بجاد وفيصل الدويش ومن لفّ لفّهما وتبعهما، عفا الله عنهم، وقد سُئل الإمام عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه لبلوغ المرام عن الإخوان الذين خرجوا على الملك عبد العزيز، أهم بغاة أم خوارج؟ فقال: ليسوا بخوارج، فالخوارج يكفّرون مرتكب الكبيرة، ولكنّ هؤلاء بغاة[1].

---

(١) قال شيخ الإسلام ومفتي الأنام تقي الدين أحمد بن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:

«إن المشروع المأمور به الذي يحبه الله ورسوله ﷺ هو الاقتصاد في العبادة كما قال النبي ﷺ: «**عليكم هديا قاصدا عليكم هديا قاصدا**» قال: «**إن هذا الدين متين ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فاستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة والقصد القصد تبلغو**» وكلاهما في الصحيح. وقال أبي بن كعب: اقتصاد في سنة خير من اجتهاد في بدعة. فمتى كانت العبادة توجب له ضررا يمنعه عن فعل واجب أنفع له منها؛كانت محرمة مثل أن يصوم صوما يضعفه عن الكسب الواجب أو يمنعه عن العقل أو الفهم الواجب. أو يمنعه عن الجهاد الواجب، وكذلك إذا كانت توقعه في محل محرم لا يقاوم مفسدته مصلحتها، مثل أن يخرج ماله كله ثم يستشرف إلى أموال الناس ويسألهم. وأما إن أضعفته عما هو أصلح منها وأوقعته في مكروهات فإنها مكروهة». مجموع الفتاوى (٢٥ / ٢٧٢ ـ ٢٧٣).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأفضل الجهاد والعمل الصالح ما كان أطوع للرب، وأنفع للعبد، فإذا كان يضره ويمنعه مما هو أنفع منه، لم يكن ذلك صالحا، وقد ثبت في الصحيح: =

ثالثةُ الطوائف:

قُطّاعُ الطريق، وقصدهم المال دون الرئاسة وقلب الحكم، وهؤلاء حكمهم الحرابة كما في آية المائدة.

الرّابعةُ من الطوائف:

الكُفّار المحاربون، كالباطنيّة أو الرافضة أو النّصارى وأشباههم، غير أهل الذمة المعاهدين والمستأمنين، فهؤلاء أهل حرب. ويلحق بهم من جَمَزَ للكفار، وصار من أهل ولايتهم، وحارب الموحّدين معهم، كمن جَمَزَ وذهب للتّتار في وقت شيخ الإسلام، أو ذهب للنصارى أو الكفرة

= أن رجالا قال أحدهم: أما أنا فأصوم لا أفطر، وقال الآخر: أما أنا فأقوم لا أنام، وقال الآخر: أما أنا فلا آكل اللحم، وقال الآخر: أما أنا فلا أتزوج النساء، فقال ﷺ: «**ما بال رجال يقول أحدهم كيت وكيت، لكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، وآكل اللحم، فمن رغب عن سنتي فليس منّي**» فبيَّن ﷺ أن مثل هذا الزهد الفاسد، والعبادة الفاسدة ليست من سنته، فمن رغب فيها عن سنته فرآها خيرا من سنته فليس منه.

وقد قال أبيّ بن كعب: «عليكم بالسبيل والسنة، فإنه ما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله خاليا فاقشعر جلده من خشية الله، إلا تحاتت عنه خطاياه، كما يتحات الورق اليابس عن الشجر، وما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله خاليا ففاضت عيناه من خشية الله إلا لم تمسه النار أبدا، وإن اقتصادا في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة، فاحرصوا أن تكون أعمالكم إن كانت اجتهادا أو اقتصادا على منهاج الأنبياء وسنتهم». وكذلك قال عبد الله بن مسعود: اقتصاد في سنة خير من اجتهاد في بدعة». الفتاوى الكبرى: (١٣٨/٢).

وحارب المسلمين معهم، كما حدث من البعض في زمن الإخوان.

عِلماً بأنّ الإمام عبد العزيز رحمه الله كان إمامَ عدلٍ وهدى، ولم يكن إمام فسق وفجور ـ حاشاه من ذلك رحمه الله ـ فقد أعزّ الله به الدّين، وأقام به أركان الملّة، وجدّد الدّعوة السلفية والعقيدة المرضيّة، وحارب من حاربها وسالم من سالمها، ويشهد بذلك كلّ منصف خبير بالأحداث، من الّذين لا تأخذهم في الحقّ لومة لائم.

ولقائل أن يقول: كأنّك بهذا جعلتَه بلا عيوب! فأقول: هو بشر من البشر، يخطئ ويصيب، ويعصي ويتوب، وربّه أعلمُ وأرحمُ به منكم، والمُنصف من وازن حسناتِهِ العظيمة بسيئاته الّتي نسأل الله تعالى أن يجعلها تذوب في بحر حسناته:

ومن ذا الّذي تُرضى سجاياه كلّها ... كفى المرء نبلاً أن تعدّ معائبه

مع أنّه متأوّل في بعضها، ومعه الحقّ والبرهان في أخرى، وقد يُبعد النُّجْعَةَ في أخرى، ولكن بالجملة فهو إمام عدلٍ ورحمةٍ وهدى وتقى، ولا نزكّيه على الله، ولا نعلم في زمانه أحقّ بالإمامة منه، وهو المُعَظِّم للدّين وأهلِه، والمجدّدُ لما اندرس من معالمه، فهذا الدّين هو رسالة البيت السعودي، وسبب مجده، وصمام أمن بقائه، ومبرّر حكمه، فرحم الله ذلك الإمام الذي عقمت النساء أن يلدن مثله في عقود تلتها عقود، فلله أُمٌّ حملت به، ودرّت عليه، نحسبه كذلك والله حسيبه، ولا نزكّي على الله أحداً[1].

---

(١) قال عبد الملك بن مروان وهو على المنبر: «ألا تنصفوننا يا معشر الرعيّة! تريدون منّا =

ولمّا ذكرت الخوارج سيرة أبي بكر وعمر عند علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، قال: لأن رعيتهم أمثالي ورعيتي أمثالكم. والدولة السعودية بمراحلها الثلاث هي من نعم الله تعالى على الأمة، وقد يصدق عليها ماقاله ابن طَبَاطِبا في دولة بني العباس حيث ذكر أنها ساست الناس سياسة مزجت الدين بالملك فأطاعها أهل الخير والصلاح تديّناً، وأطاعها غيرهم رغبة ورهبة، وقد عاشت قرابة ستة قرون، أما السعودية فبلغت حتى الآن نصف عمر الدولة العباسية أي ثلاثة قرون تقريباً، ـ وهذا عمر طويل نسبياً مقارنة مع مثيلاتها من الممالك والدول، وقد صارت شامة على جبين الدهر، وتاجاً في مفرق العصر، فنسأل الله أن يحفظهم بدينه وأن يحفظ دينه بهم.

والإمام عبد العزيز معدود من نوادر عصره في التديّن، والعبادة، والحكمة، وقيام الليل، ومحبة العلم والعلماء، ونحيل إلى كتاب (شبه الجزيرة) للزركلي لتفصيل ذلك[1] ومن أمثلة تعظيمه للتّوحيد، أنّه لمّا دخل أحد الشّعراء وقال في قصيدته: أنت أملنا وفيك الرّجاء. فقال الإمام: تخسأ. ثم التفت للمجلس وفيه حمد الجاسر فقال: علّمه التّوحيد يابن جاسر.

ولمّا أنكر عليه أحد الأكابر إسبال ثوبه، أمر بالمقصّ فأعطاه إياه

= سيرة أبي بكر وعمر، ولم تسيروا في أنفسكم ولا فينا سيرة رعيّة أبي بكر وعمر! نسأل الله أن يعين كلّا على كلّ». (البيان والتبيين للجاحظ: ١٦٢).

(١) (٢ / ٦٢٥) وانظر كذلك: (٢/٧٤١).

ليقصّه، لكن لما نازعه ذلك الرجل ملكه قصّ رأسه! ﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ [الطلاق: ٣].

ومن تعظيمه للعلماء قوله: «ما لقيت الشّيخ عبد الله بن عبد الّلطيف إلّا تصبّب العرق من إبطي»[١].

أمّا برنامجه اليوميّ؛ فقد كان معتاداً على الاستيقاظ قبل الفجر بنحو ساعة، يقضيها في الصّلاة وقراءة القرآن الكريم، وكثيراً ما يُسمع له نشيج، ثمّ يصلّي الفجر مع الجماعة، ويذكر ربه بأذكار الصّلاة وورد الصباح، ثمّ يدخل بيته فيضطجع إلى شروق الشمس، فينهض ويغتسل ويلبس ثيابه ثمّ يفطر، ثمّ إلى المجلس الخاص، لعرض مهامّ الحكومة، ولا

---

(١) كان عبد الله بن عبد اللطيف عام: (١٣١٨) هو مفتي الرياض وعمدتها ويصدر الناس عن رأيه، وكانت ذلك الوقت في يد عبد العزيز الرشيد ويحكمها نائب له، ولمّا جاء ابن صباح بجموعه لغزو القصيم أتباع ابن رشيد ومع ابن صباح الإمام عبد الرحمن الفيصل وابنه عبد العزيز، فطلب ابن صباح من عبد العزيز أن يذهب ببعض جنوده فيأخذوا الرياض، فذهب ودخلها وحاصر القصر الذي تحصّن فيه أمير الرياض، ثم إن عبد العزيز طلب من شيخ الرياض وقاضيها الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف أن يبايعه، فرفض، وقال: في عنقي بيعه لعبد العزيز بن رشيد، ولا أبايعك وهو حي، ثم عمد إلى القصر فدخله معهم وتحصن فيه معهم عن جند عبد العزيز. ولمّا دخل الملك عبد العزيز الرياض فيما بعد حفظ للشيخ عبد الله جلالته وقدره، لعلمه بأنّه وقّاف عند حدود الله، وأنّه صاحب مبدأ، ولا يطير مع من غلب.

يطول ذلك المجلس، ثمّ يأذن لكبار الزوّار، وبعده إلى المجلس العامّ فيستقبل الجميع ولا يُحجب دونه أحد، فيمكث قدر السّاعة، ثمّ ينهض للغداء، وبعده يستريح في بيته قليلاً إلى أذان الظّهر فيصلّي مع الجماعة، ثمّ يعود لمجلسه الخاصّ فيعرض عليه ما تجدّد من الشّؤون العامّة إلى صلاة العصر، وبعد الصّلاة مع الجماعة يخصّ أولادَه وإخوانه وكبار موظّفيه بجلسته، ثمّ يخرج بسيارته إلى ظاهر المدينة للرّياضة، ثمّ يعود إذا صلى المغرب، وبعد العشاء يجلس المجلس العامّ، ويحضر القارئ فيقرأ فصولاً من كتب الحديث والتفسير والتاريخ والأدب، وبعده بقليل يدخل قارئ الإذاعة العربيّة فيتلو أهمّ أخبار الإذاعات العربيّة، ثمّ يردفه بآخر يتلو أهمّ أخبار الإذاعات الأجنبيّة بعد أن ترجمها ورتّبها، ويتكرّر دخول قرّاءِ الإذاعات في الضّحى والعصر والهزيع الأوّل من الليل، وفي نحو السّاعة العاشرة ينفضّ المجلس بنهوض الإمام عائداً لقصره بعد أن يتلطّف بكلمات يختمها بالسلام، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ومن حرصه على رعيّته وإقامة الحجّة والخروج بالعذر من الأمة، نرى عقدَهُ مؤتمراً مشهوراً دعا إليه جميع الإخوان في الرياض، وأردفه بثانٍ وثالثٍ، وقال العلماء كلمتهم، وقامت الحجّة على المخالفين لإمامهم، الشاقّين عصا الطّاعة عليه.

جاء عبد المحسن بن شاهين الشّريف إلى الإمام عبد العزيز، وقال: أنا رسول من خلفي من الإخوان وقد نقمنا عليك ثلاثاً فأحسن فيهن العمل. قال: وما هن؟ قال: الأولى: أن لا يخالط الكفّار المسلمين.

والثّانية: الرّافضة في المنطقة الشرقية ليسوا بمسلمين، ولم تؤخذ منهم الجزية! فإمّا الإسلام أو السّيف.

والثّالثة: أن لا يتوقّف الجهاد.

وكان بجانب الإمام عبد العزيز الشيخ سعد بن حمد بن عتيق، فالتفت إليه الإمام وقال: ما تقول فيما قال؟ فقال: أشهد أن ما قاله حقٌّ، ثلاثاً.

وبدأت علامات النفرة وبوادرها تزداد بين سلطان بن بجاد وفيصل الدويش من جهة، وبين الإمام عبد العزيز من جهة أخرى، وفيصل يُعتبر صهراً لسلطان، فقد زوّجه سلطان ابنته، وبهذا زادت قوّة فيصل وسطوته في نجد والشّمال، كذلك سلطان.

ثمّ إنّ عمر بن ربيعان الرّوقي زار سلطان، ولم يُمَكَّن من الدّخول عليه للسّلام، وقال له الحُجّاب: السّلام اليوم لأهل الشّمال على سلطان الدّين وليس لغيرهم. فغضب عمر ورحل إلى عبد العزيز وقال له: يا عبد العزيز الأمير أنت أم راع من رعاة نجد؟ وأخبره بما رأى، فقال عبد العزيز: لقد بلغني مثل ما ذكرت لي يا عمر.

وبلغت الإمام أخبار تفيد بنية الإخوان من أتباع ابن بجاد غزو العراق بدون إذن الإمام[1] فأرسل له في الغطغط الشيخ عبد الله بن

(١) بوّب البخاري رحمه في كتاب الجهاد من صحيحه: (باب: يُقاتل من وراء الإمام ويتّقى به) وساق حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**من** =

حمد بن عتيق لينهاهم عن ذلك، وليطلب من ابن بجاد الحضور عند السلطان لكشف الشبه والتساؤلات، فطلب الشيخ من سلطان مرافقته فهمّ بذلك لكن أبى عليه قومه فلم يذهب، ثم أرسل إليه الشيخ عبد اللطيف بن حمد بن عتيق – قاضي رنية – فذهب للغطغط، وذكَّرَهُم بالله، ثم طلب من ابن بجاد مرافقته للإمام فوافق ورحل معه، حتى إذا بلغا المزاحمية لحق به بعض مقدمي قومه فأكثروا عليه حتى عاد معهم للغطغط ـ لأمر اقتضته حكمة الله، وقد تكرر المشهد المتردد في السبلة ـ ثم إنّ الإمام لم ييأس فأرسل له في المرة الثالثة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ــ مفتي الديار السعودية لاحقاً ــ فلم يستجب له. وبعد ذلك استشار الإمام الشيخ سعد بن حمد بن عتيق فقال: دعهم ، فإن عصوا فسيقعون في شر عملهم.

وبدأ بعض الإخوان يلوّحُ بأمور ويُلمِحُ لأخرى، ويَصِفُ سلطان بن بجاد بسلطان الدّين وكأنّه يلمز عبد العزيز بسلطان الدّنيا.

وفي هذا يقول ابن نفيسة جاعلاً عبد العزيز هو سلطان الدين:

سلطان الدين يسمونه		سلطان الدين أبو تركي
وبذلك كل شاهد له		سلطان الدين أبو تركي

واتّسع الخرق شيئاً فشيئاً، وزادت النّفرة بين الفريقين، وتعاظمت

= أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن عصى الأمير فقد عصاني، وإنما الإمام جنّة، يُقاتل مِن ورائه ويُتقى به».

الجفـوة وزاد أوارهـا اتّفـاق الإمـام عبـد العزيـز مـع الإنجليـز في ترسـيم الحـدود، وأن لا يمنـع أهـل المـواشي مـن العبـور، وأن لا تُبنـى الحـصون والقلاع على الحدود، فبدأت بريطانيا العجوز الماكرة تلعب لعبتها فبنت الحصون، واستدرجت الإخوان في الشّمال لغزو العراق والأردن، وقامت بحركات استفزازيّة فلمّا دخلوا ضربتهم بالطائرات، ثـمّ دخلـت الحدود وضربـت النـساء والأطفـال بالقنابـل! فاشـتعلت المراجـل في صـدور الإخـوان، ونـادوا بالانتقـام للـشهداء، وأعلنـوا الجهـاد ضـد الأعـداء وصاحوا: يالثارات المسلمين، وقد كانت الرغبة في الجهاد وفتح بيت المقدس تجمجم في صدورهم، لكنّ إمامهم الّذي له عليهم حقّ الطّاعة لم يأذن لهم بعد في الجهاد خارجاً، بل ومنعهم منه وحرّجه عليهم.

ثمّ بدأت الدّعاية والمكائد من الكويت والعراق والأردن، وكلُّ هذا من تحت قبّعات ضبّاط المخابرات الإنجليزيّة وخطط الجنرال (غلوب) الذي كان الإخوان يلقبونه: (أبو حنيك).

وكتب العلماء للإمام عبد العزيز بوجوب كفّ الإخوان عن الغزو المباشر بلا إذن منه وبدون أميرٍ من قبله ولو صاحب مطيّة، حفظاً للثّغر، وحتّى لا يقع الإخوان في معصية الله بخفر ذمّة إمامهم، وعدم نبذ العهد إلى من خالفهم على سواء.

وزادت مراجل الفتنة غلياناً بالوفود النّصرانيّة الّتي تدخل قصر الحكم في الرّياض على مرأى من الإخوان فازدادت النّار شرراً، والإمام يلاطف الإخوان بأرقّ العبارات والرّسائل، ويرسل لهم من يظهر لهم

جليّة نظر إمامهم في المسألة، وأنّ الأمور إنّما تؤخذ شيئاً فشيئاً، وأن السياسة خادمة للدين ومطيّة له لا العكس، وأنّ بريطانيا ليست بالعدوّ السّهل حتّى يستسهلوا كسرها، وأنّ البلد محتاج إلى من يفد إليه حتّى من الكفرة، ليكون رسولاً لهم، أو مدرّباً للمسلمين على بعض الآلات التي لا يحسنونها ونحو ذلك، ولكن الإخوان أصرّوا على أمرهم وكابروا للأسف الشديد، بل وصل بهم الأمر بأن كرعوا في دم الفتنة، فأغاروا على قافلة لأحد تجار القصيم، وأخذوها وقتلوا بعض من فيها، إذن فلم يكن هناك بدّ من المواجهة والاصطدام، بعد ثلاثة عشر من الأعوام في وئام وفتوحات ومغازي.

و(السّبلة) روضةٌ بقرب الزّلفي، خيّم غربها الإخوان المنشقّين، أمّا شرقها فكان مخيّمُ إمامهم عبد العزيز معه أهل العارض في كوكبة من أكابر العلماء، وقد دعاهم عشيّة وصوله، وحرّج عليهم إراقة الدماء، وطلب أن يجلس وإياهم عند القضاة ليحكموا فيهم بما يريهم الله تعالى، وكان قد عقد مؤتمراً عامّاً لهذه القضيّة سنة: (١٣٤٥) ثمّ مؤتمراً ثانياً وهو الجمعيّة العموميّة، ولكن الإخوان تصلّبوا في رأيهم تصلّباً لم يُحمدوا عليه، حتّى قال أحدهم لمّا قيل له: إنّ مع عبد العزيز خمسين قاضياً، فقال: بل خمسين غاوياً![1].

---

(١) بهذا التصوّر المنتحل الموهوم عن العلماء استفرد الشيطان بالجهلة من العبّاد على طول الأزمنة، ومختلف الأماكن. ولا نعلم فرقة انشقت على الأمة تحت أي ذريعة إلا بعد تجاوزها لمرجعية العلماء وافتئات دفة السفينة من أيديهم....ألم يقل =

وقد أنكر عليهم العلماء فراقهم وشقاقهم، ومما قالوه لهم: أنّ الصحابة رضوان الله تعالى عنهم لم يخرجوا على الحجّاج وكان من أفسق الناس! مع هذا فقد كانوا يصلّون خلفه، كابن عمر وأنس وسلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فيردّ عليهم الإخون بقولهم: أنتم حَضَرٌ مذلّلين! ـ أي

= السلف: إن العالم الواحد أشدّ على الشيطان من ألف عابد ؟! لأن العابد سهل اقتياده عبر أقرب طريق وبأقصر حبل، أما العالم فكالنجم الذي سما عن الشيطان بنور معرفته، وصار نجماً للعامّة يهتدون به. فالشيطان لا يطيق العالم؛ فهو يغزو مصره، ويهدم قصره، ويهتك ستره، خاصة إن سلّم الله العالم من حب الدنيا والتهالك على حطامها، والخوف من الله وحده وتقديم مرضاته دون سواه، لا من السلطان ولا من العامة، فهو لعمر الله خليفة النبي ﷺ، ووارث تركته، وحارس ملته.

وفي المسند عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم للسماء يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا طُمست النجوم أوشك أن تضلّ الهداة» وعلّق على ذلك ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ بما ملخصه: وهذا مَثَلٌ في غاية المطابقة، فالعلم بالله وبدينه لا يُدرك بالمحسوسات بل بالدليل، والعلماء هم الأدلّاء، فإذا فُقدوا ضلّ السالك. ووصفُ العلماء بالنجوم، والنجوم لها ثلاث فوائد؛ يُهتدى بها في الظلمات، ورجوماً للشياطين، وزينة للسماء. والعلماء تجتمع فيهم هذه الأوصاف الثلاث، فهم هداة، وزينة، ورجوم للشياطين الذين يلبّسون على الناس دينهم.

وبقاء العلم ببقاء حملته ففي الحديث المتفق على صحته، قال ﷺ: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من قلوب الرجال، ولكن بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسُئلوا فأفتوا بغير علم، فضلّوا وأضلّوا**».

خائفين من الملك عبد العزيز ـ[1] وكان هذا الكلام قبل عام من السّبلة،

---

(١) وتأمل مرارة هذا الخطاب، وادع معي لأولئك الأخيار الذين محضوا إخوانهم النصح، ورفقوا بهم، وصبروا، فجزاهم الله خير ما جزى عالماً عن أمته، وداعياً عن دعوته: من الشيخ عمر بن محمد بن سليم للملك عبد العزيز يذكر ضجره من أهل الأرطاوية، لمّا بعثه الإمام مع الشيخ عبد الله العنقري لنصحهم عام: (١٣٤٥): «.......المؤمل من جنابكم المسامحة من جهة الأرطاوية، ولا ظنيت يجي من جنابكم إلزام بالمراح لهم ـ أي الذهاب إليهم ـ بعد ما مضى، وأيضاً مقامي عندهم لا يحصل به انتفاع لهم في طلب العلم والرغبة فيه، ولا حسن أدب، والأمر شاق علي غاية....» (لسراة الليل: ٣٣٨).

وتعمّق في مغزى عبارة الشيخ في بيان معاملته، وكيف وصل بهم الحال معه، وهو الحليم رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولا حسن أدب) فوا أسفاه والمشتكى إلى الله، من عدم توقير العلماء ومن نقص الأدب معهم، وجهل أقدارهم!

وقبله قد أرسل الشيخ عبد الله العنقري للملك عبد العزيز: «.....وأما البدو؛ ــ أي: الجهلة الجفاة الذين ذهب إليهم ولم يقصد العموم ــ فلا عندي أبغض منهم ومخالطتهم! ولا لينّا الجانب لهم هالسنة وصبرنا على غثاهم إلا لأجل ما نشوف ــ أي: نرى ـ من مصالحهم للولاة....» في: (١٣٤٤) (المصدر السابق: ٣٢٧).

وذاك أحد زعماء القبائل يرسل إلى هذا الشيخ الجليل (العلّامة) عبد الله العنقري، فيفتتح رسالته: «إلى جناب الشيخ المكرم عبد الله العنقري، سلّمه المنان، وأعاذنا وإياه من نزغات الشيطان!» أفبهذا التعريض يواجه العلم وأهله، عائذا بالله من التعالم والتطاول!

قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: محبة العالِم دين يدان بها.

وقال ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: نحن إلى قليل من الأدب أحوج منّا إلى كثير العلم. =

وكثرت كتب العلماء لهم بتحريم الخروج والعصيان وشقّ عصا الطّاعة وتفريق كلمة المسلمين، وأنّ الدّين لا يستقيم إلا بجماعة ولا جماعة إلّا بإمام ولا إمام إلّا بسمع وطاعة.

وشواهد تلك الرّسائل مبسوطة في رسائل أئمة الدعوة إلى الإخوان بأسمائهم، في الجزء التاسع من (الدّرر السّنيّة في الأجوبة النّجديّة) فردّ عليهم الإخوان: بأن فِعْلَنَا هذا هو الدّين الّذي علّمتمونا إيّاه، فلماذا المداهنة في دين الله؟! وتلك مجموعة التّوحيد النّجديّة طافحة بالولاء والبراء، فعلام تنكّبتموها وراءكم ظِهْرِيّاً وخالفتموها؟! فيردّ العلماء: بأنّ الّذي أَمَرَنَا بالولاء والبراء هو الذي حَرَّمَ علينا الخروج على السّلطان، وأنّكم لو قرأتم وتفقّهتم في (مجموعة التوحيد) كما ينبغي، لعرفتم قولنا وبرهاننا، ولتبيّن لكم أنّكم مُصعدين في الباطل، متنكّبين الجادّة، حائدين عن سواء الصّراط.

ولكن بلا فائدة عمليّة ــ كما أسلفنا ــ بل وصلت الأمور لقتل أربعة،

= وقال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أعظم الناس منزلة من كان بين الله وبين خلقه، وهم الأنبياء والعلماء.

وقد أزرى بعض المعاصرين بعلماء الأمة فأسقطوا علماء الدعوة النجدية، ثم أتبعوهم بابن قيم الجوزية، ثم ألحقوهم إمام السنة المحمدية أحمد بن حنبل، ثم دخلوا حياض التابعين فأسقطوا الحسن البصري، وما زال بهم كَلَبُ الشيطان يستجريهم حتى طعنوا في فقه ومنهج ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، عائذاً بربي من مضلات الفتن.

وقيل أربعة وعشرين من أهل قافلة من شمّر كانت تريد بريدة. فوصل الأمر للطّريق المسدود، فكان لا بدّ بكلّ أسف تأديبهم بالسّيف، و قد كان.

إذا ورد الحجاج أرضاً مريضة تتبّع أقصى داءها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذي بها همام إذا هزّ القناة سقاها

ثمّ إنّ الإخوان من الغطغط مرّوا بالأرطاوية، ومضى معهم الدويش، ثمّ نزلوا على (السّبلة)[1] ثمّ عبّؤا جيشهم واستعدّوا للنّزال، ووصلت جموع جيش الإمام وكتائبه العظام، ونزلت قبالتهم، ودارت المفاوضات لكنّها لم تنفع[2] بل قد رجع الدّويش منها للإخوان وقال: ليس عند عبد العزيز سوى طباخين وحضر ينامون على نواعم الفرش![3] ثمّ ركب

(١) السبلة: هي قاعٌ وروضةٌ بقرب الزلفي.قامت على ثراها معركة باسمها بين الملك عبد العزيز والمنشقين عنه من الإخوان، وانتهت بانتصار حاسم للملك، في شوال عام: (١٣٤٧).

(٢) قال الأستاذ التويجري: «وافق الإخوان على تحكيم العلماء، فنصب الخيمة بينهم، وجاء العلماء ومنهم الشيخ عبد الله بن عبد العزيز العنقري، والشيخ عبد العزيز الشثري، ونصبت لهم خيمة بين المعسكرين؛ فذهبوا إليها، وجلسوا فيها، ينتظرون، إلّا أنّ الإخوان اختلفوا على التحكيم فلم يحضروا الاجتماع بالمشايخ وبالملك عبد العزيز!» (لسراة الليل: ٢٠٩).

(٣) عبارته: (ما عند عبد العزيز غير حضر وطبابيخ يرقدون على الدواشق!).
قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن قوماً ابتغوا العبادة وأضاعوا العلم، فخرجوا على أمة محمد ﷺ بأسيافهم، ولو اتّبعوا العلم لحجزهم عن ذلك.

سلطان بن بجاد فرسه في الصّباح ودار على الإخوان وهم منبطحين على القارة، جاهزين للقتال، وهو يوصيهم بقوله: يا إخوان لا ترموا طلقة واحدة حتّى يبدؤوكم هم، وكان شعار جند الإمام: يا أهل الشريعة، وشعار الإخوان: يا أهل التوحيد! فحتّى الشعار تفرقوا فيه، لمّا تفرقت القلوب! ولم يلبث البارود أن قال كلمته، وردّدت أطراف السّبلة هديره وصداه، وزمجر الرّصاص، وزأرت البنادق، وثار النقع، وارتفع الغبار، واندقّت الأحجار، وابتلّت بالدّم الأشجار، وعلا صوت ضرب الرصاص على كلّ ماسواه، وانتثر الدّم الأسيفُ، وتساقطت الهامُ الحائرةُ على قاع السّبلة، وانثلمَ السّيفُ المُوحّدِيُّ، وانثنى الرُّمحُ الرُّدَينيّ السُنّي، واندقّ السمهريّ السّلفِيُّ، راثياً الحالَ الّذي آلَ إليه الإخوان مع إمامهم، فصار المدُّ جزْراً، والشُّروقُ غُروباً، والطُّلوعُ أُفُولاً ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: ٥٨] (١) وما أصابك لم يكن ليخطئك.

إذا تمّ أمر بدا نقصُهُ ترقّب زوالاً إذا قيل تمّ

فبعدما كانوا يدَ إمامهم وساعده الّذي لا ينثني، إذ بهم قد قلبوا له

(١) قال الإمام الشافعي رحمة الله تعالى عليه:

فما شئتَ كان وإن لم أشأ وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن

خلقت العباد على ما علمتَ ففي العلم يجري الفتى والمسن

على ذا مننتَ وهذا خذلتَ وهذا أعنتَ وذا لم تعن

فمنهم شقي ومنهم سعيد ومنهم قبيح ومنهم حسن

ظهر مجنّ الولاء تمرّداً وعصياناً، فحلّت القاصمة، وأناخت الدّاهية، وبركت الفتنة، ورقص الشّيطان الرجيم الأثيم على عزف الرّصاص بين المؤمنين، وعلى انصباب الدم بين الطائفتين المسلمتين.

الحزن يقلق والتجمّل يردع والقلب بينهما عصيّ طيّع
يتنازعان دموع عين مسهّد هذا يجيء بها وهذا يرجع

ثم تنادى الإخوان بالانسحاب أمام صوارم أهل العارض، وبنادقهم، وعوابس خيلهم.

واختلفت تقديرات عدد الجند في جيش الإمام الّذي كانت معه كتائب كالجبال، فكانت بين ثلاثة وأربعين ألفاً، وبين ستة وعشرين ألفاً، وعلى ميمنة الخيّالة سعود بن عبد العزيز نجلُ الإمام، وعلى ميسرتها محمد بن عبد الرحمن أخوه. أمّا الإخوان فعددهم كان بين العشرة آلاف والأربعة آلاف.

وكان الإخوان قد نزلوا شرقيّ الرّوضة، وخيّموا على الجانب الأعلى من وادي الجار الله، أمّا الإمام فكان عنْهم قِبْلَةً، أي غربيِّ روضة السّبلة الّتي ارتوت بسيل الدّمِ لا سَيل المُزْنِ.

إذا اشتبكت دموع في خدود تبيّن من بكى ممن تباكى

وَمُذْ نشأة الإخوان لم يُهزموا هزيمةً واحدةً، ولم يُذكر عنهم فَرٌّ إلّا لِكَرٍّ، حتىّ كانت السّبلة فلم يَصمدوا إلاّ فُواقَ ناقة، ثمّ هبت ريح النّصر عليهم لا لهم، فأدبروا منكسرين، وهربوا منهزمين، لا يلوون على شيء،

ثمْ أمر الإمام أتباعه بالكفّ عن المدبرين، عملاً بسنّة أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه مع إخوته أهل الجمل وصفّين، ومن سلّ سيف البغي قُتِل به، ومن أوقد نار الفتنة أُحرِق بها.

وكان قتلى الإخوان قرابة الخمسمئة، ومن جند الإمام قرابة المئتين، وصاح الإمام في جنده بالكفّ عن القتل، فبينه وبين إخوانه حِبَالٌ ليست بهيّنة عليه ليقطعها، وهو يقول: والله لكأنّي أقطع لحماً من جسدي ولكن لا مفرّ.

إن لم يكن إلّا الأسنّة مركباً فما حيلة المضطرّ إلّا ركوبها

عِلْماً بأنّ الجزء الأكبر من الإخوان لم يكونوا مع المنشقّين عن الإمام، ـ كما أسلفنا ـ بل مع الموالين له كخالد بن لؤي وسبيع، والرّوقة مع ابن ربيعان، وجهجاه أخو سلطان بن بجاد الّذي بقي في عروى ومعه بعض برقا ولم يخرج مع المنشقين، وسلطان أبا العلا الّذي بقي في سنام، والهيضل في الحفيّرة، كذلك حرب أهل الفوّارة هجرة بني سالم وأميرهم حجاب بن نحيت،كذلك بعض مطير كمشاري بن بصيص، وكذلك الدّياحين وغيرهم.

أمّا الّذين خرجوا فهم أهل الغطغط وساجر، ومن لحقهم من غيرهم، إضافة للدّويش وأتباعه من مطير ومن تحبّش معهم، والقليل من أهل الخرمة. وبعد السّبلة ذهب الكثير منهم للإمام واعتذروا فعفا عنهم، وأرسل بعضهم إلى خالد بن لؤي ليشترك معه ومع غيره في مطاردة

للفلول الباقية من المنشقّين، ثمّ في غزواته للجنوب بعد ذلك[١].

وبهذا انقسم الإخوان على أنفسهم فطائفة ثبتت مع إمامها ونَصَرَته، أو توقفت وحايدت فلم تخرج عليه، ورأت أنه قتال فتنة[٢] وطائفة خرجوا ولات حين الذي يرجون، فمنهم من قُتِلَ في حينه في السّبلة، ومنهم من قُتِل فيما بعد، ومنهم من عاد لرشده وأناب لعهده.

أمرتهم أمري بمنعرج اللِّوى فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد

أمّا أهلُ الخرمة فكانوا تبعاً لأميرهم خالد بن لؤي الذي شدّد عليهم في أمر الشّقاق والخروج، وألزمهم الشّريعة، وأكثر عليهم النّصح والمناظرة، ولكن مع ذلك فقد خرج منهم أربعون رجلاً على رأس الحميدي بن مفرح وكان صغيراً إذ ذاك لكن أمّروه عليهم خَلَفاً لوالده الأمير مفرح رحمه الله، وقد عاد الحميدي لإمامه عبد العزيز وتاب من

(١) ولمّا قابل ضيدان بن حثلين شيخ العجمان، خالد بن لؤي في قصر عبد الله بن عبد الرحمن آل سعود أخو الملك، في قسم ضيافة خالد أخذ خالد في نصحه، وألاّ ينساق مع من خرج على عبد العزيز وممّا قال له: قد كنّا في الجهل يغير بعضنا على بعض وينهب بعضنا بعضاً ، فلمّا أنعم الله علينا بالاجتماع خرج علينا من يريد الفرقة بيننا!

(٢) للأهمية البالغة ينظر كلام شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٤ / ٤٣٤ ـــ ٤٥٢) ومنهاج السنة النبوية (١ / ٥٣٩ ــ ٥٤٦) (٤ / ٣١٩ ــ ٣٢٠) (٤ / ٤١٩ ــ ٤٢٦) (٤/ ٤٤٩، ٤٥٦، ٥٠١ ـ وما بعدها) (٤ / ٤٠٩، ٥٣٨، ٥٤٣، ٥٤٨) (٥ / ١٤٩ ـ ١٥٥) (٨ / ٢٣٢ وما بعدها) طبعة جامعة الإمام بتحقيق محمد رشاد سالم رحمه الله.

خروجه بعدما أهدر الإمام دمه.

وقد قصّ أحد كبار الإخوان المنشقّين عن الإمام عبد العزيز قصّته، وهي مفصّلة للمعركة ولجوِّها المضطرب، وفيها شهادات هامّة، وهي قصّة ذات عبر وعِظات، وبطلها هو الأمير الحميدي بن مفرّح بن شارع، وهو زعيم إخوان الخرمة المنشقّين، والّذي لا يكاد يخالف مستشاره وصاحبه عبد المحسن بن شاهين، ولا يكفّ عن البكاء عند ورود ذكره فيما بعد، رحمهما الله تعالى وعفا عنهما. وإيراد القصّة يكفي عن التعليق عليها، وهي تعتبر من الوثائق النّادرة عن معركةٍ ضبابيةٍ،لم يصلنا من أخبارها إلا القليل جداً من مصادر قد تُوصَمُ بعدم الحياديّة، وتُتَّهَمُ بمجاملة الطّرف الغالب، فالتاريخ يكتبه المنتصر، وهي من المعارك المصيريّة والحاسمة، الّتي آذنت بعدها شمس الإخوان بالأُفول إلّا مَنْ بَقِيَ على عهده وعقده، ولكنْ سَنَا الحركة الإخوانيّة وصيتها ونقاءها ووحدة صفّها، شابه بعدها ماشابه، والله المستعان، وهو الحكيم الخبير، وله الأمر من قبل ومن بعد، والحمد لله على كل حال، فالعاطفة والآمال شيء، والحقّ والواجب والواقع والعقل شيء آخر[1].

---

(١) قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وكثير من الناس إذا رأى المنكر أو تغير كثير من أحوال الإسلام، جزع وكَلّ وناح كما ينوح أهل المصائب، وهو منهي عن هذا، بل هو مأمور بالصبر والتوكل والثبات على دين الإسلام، وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأن العاقبة للتقوى، وأن ما يصيبه فهو بذنوبه فليصبر، إن وعد الله حق، وليستغفر لذنبه، وليسبح بالعشي والإبكار». (مجموع الفتاوى ٥/ ٢٩٥).

لعـلّ عتبـك محمـود عواقبـه ... وربـما صـحت الأجسام بالعلـل

قال الحميدي رَحِمَهُ اللَّهُ وكان عمره يوم السّبلة عشرين عاماً: «عُدنا من الشّمال غازين، معنا الغنائم والإبل، واستقبلنا الدّويش في الطّريق، ومشى معنا في رجوعنا، ثمّ جاءنا خبرٌ مفاده: أنّ عبد العزيز يتلقّفُنَا(١) وقد جمع الأمّة علينا من كلّ مكان، فمررنا بالأرطاويّة وجراب، ودعانا الدّويش لضيافتنا، ولـمّا أتيناه إذ هو قد جهّز الفرش والأشدّة، وأشعل النار، وقد كنت أحبّه كسائر الإخوان، وأسمع عنه من بعيد، فلما أنخنا عليه أدار القهوة علينا، ثمّ قال: سأُرسل ولدي عزيّز(٢) لعبد العزيز لعلّ الله يطفئ لهبه عنكم، وأصبحنا، ثمّ سرنا ونزلنا السّبلة، وبرز هو عنّا في (حجفا) ثمّ أرسل ولده عبد العزيز لعبد العزيز الّذي أعطاه الجنيهات ثمّ عاد لأبيه.

وكان من خبري أنّي لـمّا نمت البارحة التي صباحها السبلة، رأيت رؤيا أفزعتني، وهي أنّي رأيت في المنام: أنّه قد أقبل علينا من جهة القبلة سيل عظيم، وأنّي سرت فيه ثمّ ضربته بيديّ، وارتفع الماء حتّى وصل فمي، وكاد أن يغرقني، ثمّ إنّي أدبرت عن السّيل، وركضت راجعاً،

---

(١) يتلقّفهم: أي: يتصيدهم.

(٢) تصغير عبد العزيز، وهذا جارٍ على ألسنة الكثير في تصغير المسميات المعبدة لله وأسمائه، وفي إباحتها نظر إجلالاً للأسماء الحسنى، والأولى تركها والاكتفاء بتصغير العبد كعبيد الله أو عبيد الرحمن أو عبيد العزيز وهكذا، وغرضهم من ذلك تدليل الأطفال في صغرهم لكنها تلازمهم في كبرهم.

فرأيت أمامي فهد الهُلقمي القحطاني، قد أقفى[١] عني، وأناديه ولا يسمعني، وهو من الإخوان القدماء، وكان هو حامل راية خالد بن لؤي في مغازيه الكبار الأولى، وهو من سكّان هجرة خالد في الخرمة، فلمّا أصبحت؛ قصصت رؤياي على عبد المحسن بن ناصر بن شاهين فقال: خيراً خيراً، فلمّا أصبحنا ونزلنا السّبلة، ظهر لنا جيش عبد العزيز من جهة القبلة أي من جهة الغرب، ونحن في الجهة الشرقيّة من روضة السّبلة، وطلب ابن بجاد، فأرسل له رسولاً ليحضره له، وجاء العبد يقود الفرس من أجل أن يركب عليها ابن بجاد ويذهب لعبد العزيز، فرفض الإخوان ذهاب ابن بجاد خوفاً عليه أن لا يعود، ثمّ أطلقوا حبل الفرس من يده وعاد العبد بفرسه بدون ابن بجاد، وأرسل عبد العزيز من يقول: إنّ الشرع بينه وبينكم، وإنّي سأضع الخيام بيني وبينكم في مثناة السّبلة[٢] فأتوني في تلك الخيام، حتّى نتوارد الشرع جميعاً وكلٌّ يدلي بحجته ونرضى بحكم القضاة؛ فأبينا[٣] ثمّ إنّه أرسل لنا إخواناً لنا نعرفهم،لم يخرجوا معنا، قد أخافهم وقطّع ظهورهم من الخوف![٤] فقالوا: الشرع بينكم

---

(١) أقفى: إذا جعله تلقاء قفاه؛ أي أدبر.

(٢) مثناة الشيء: وسطه ومنتصفه، والمراد أنّ الملتقى وسط قاع السّبلة.

(٣) يقال: إن عدد العلماء الذين معه للحكم بين الخصمين؛ اثني عشر عالماً.

(٤) كذا، وتلك شِكاة ظاهر عنك عارها. ولكن:

يُقضى على المرء في أيام محنته ... حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

نعوذ بالله من أن نرى الحق باطلاً والباطل حقاً، وتلك لعمر الله الرزية والخذلان، عياذاً بالله منها.

وبينه يا إخوان، أنتم أخذتم أُناساً قد أمّنهم. ونحن نقول: أولئك الّذين أخذناهم كفّار[١]. فلم نلق لكلامهم بالاً، ثمّ تراجعنا بمنزلنا قليلاً، ووضعنا بيننا وبينه جبوباً[٢] فنزلنا في القاع، ثم إنّه أرسل إلينا (البهيّمة) أمير دخنة من أمراء حرب، فلُمناه لخروجه مع عبد العزيز، ثمّ أمسينا ونمنا، وفي الصّباح بعد أن أوقدنا نارنا نحن أهل الخرمة، وكنّا قرابة الأربعين، وبيننا وبين الإخوان الآخرين قدر رمية الشّارة[٣] وليسوا عنّا ببعيد، وقد أتونا وشربوا القهوة معنا من معاميلي الّتي إلى اليوم لم أرفعها من مكانها ذاك، وكنت جالساً وعبد المحسن بن شاهين بجانبي على اليسار وحمود بن صنيتان على يميني ثمّ بقيّة الإخوان، وحينما استوت الطّبخة ـ أي القهوة ـ وأراد أن يصبّها لنا وقد أخرج عرقوب دلّته ليصبّها لنا، والشمس قد شعشع نورها، وإذ بأحدُ الإخوان يُشرف من الحزم الذي أمامنا على الجبهة، إذ أقبل علينا قائلاً: يا إخوان قد أقبل عليكم ابن سعود، فهببنا من مجلسنا وتركنا قهوتنا ولم نذقها، فلمّا أشرفنا مع رأس الجبوب، فَمَا أشرفنا حتّى رأينا الجموع الّتي لا نرى أقصاها، ولا ندرك مداها، قد أقبلت نحونا فتذكّرتُ رؤياي، وأقبل علينا الفِرْم ومطير وقحطان من الشمال، ثمّ أقبل علينا البيرق ــ لواء الملك ــ واقترب منّا،

---

(١) وحتى لو كانوا كفاراً، ففي سنن أبي داود بسند صحيح من حديث أبي بكرة مرفوعاً: «**من قتل معاهداً في غير كنهه حرم الله عليه الجنة**» فكيف والقتلى مسلمون حنفاء!

(٢) الجبوب: ما ارتفع من الرّمال الصّلبة العَزَاز، ويسمى: حَزْماً.

(٣) أي قدر رمية الغَرَض.

وحينما تعبّأنا في رأس الحزم وجهّزنا السّلاح، إذ سلطان بن بجاد قد أقبل علينا كارّاً فرسه، ويقول: لا ترموهم قبل أن يرموكم، يرددها، ثمّ كرّها من أمامنا للدّويش، وقال له المثل، ثمّ إنّهم لمّا اقتربوا أطلقوا النار، فمرّت من أمامي رصاصة فاصطدمت بحجر بجانبي ثمّ ارتدّت إليّ فضربت زندي لكن بعدما بردت من ضربتها الأولى، ثمّ ضربونا بالهيج الأول(١) ثمّ ضربونا بالهيج الثاني، وقد وضعت كرسي البندق على كتفي، ثمّ قمنا ببيرقنا، ونظرت للإخوان الآخرين فإذ كلّ على بيرقه، ثمّ تقدّمنا للقوم، وكان بيننا وبينهم منخفض من الأرض ملئٌ بالعرفج، فألقينا أنفسنا فيه، وضربناهم بالهيج بالمشط الأوّل ثمّ الثّاني، فتقهقروا وكادوا يدبرون عنا، وكان بجانبي عبد الله بن منيف بن كسران منبطح ويرمي، ثمّ صاح بي: يا فلان العُرْبَانُ(٢) قد انكسروا مطير وعتيبة وانظرهم قد تعدّونا مدبرين عنّا، والقوم(٣) قد حاذونا من يمين وشمال وبعض الكتائب قد تجاوزتنا، فنظرت فإذا خيل ابن بصيّص الحربي هاربةً، وكذلك خيل الدويش، والآخرين من الإخوان قد هربوا مدّ البصر، ولم يبق سوانا أهل الخرمة وأهل الغطغط، فقلت: قم يا عبد المحسن، فقام معي فإذا فهد الهُلقمي قد سبقنا فصحت به: لا تركض عن أصحابك حتى لا تتفرقوا. وهو لا يلتفت إليّ، فرمينا القوم ونحن نتراكض، حتّى وصلنا للركائب البوارك،

---

(١) الهَيْجُ: هو الرصاص الكثيف المتوارد المجتمع.

(٢) العُربان: الرجال الكثيرون، والغالب أن يكونوا من قبائل مختلفة.

(٣) القوم: عند العامّة معناها: الأعداء المحاربون. وفلان قوماني: أي عدو محارب.

فأطلقت ذلولي، وكانت حرّة تسبق الخيل من طِيبِها وسرعتها، فوضعت شدادي عليها، فإذا هو مكسور فألقيته، وركبت عليها حِرْذَوْنَاً ـ أي بدون شداد ـــ وانبطحت على ظهرها، وحينما أمسكتُ شَعْفَتَهَا، ووضعت البندقية بيني وبين سنامها، إذ الرّسن قد انفلت من يدي وهي تركض ورسنها يجاريها، فأخذت في تناوله بالبندقية وكانت البندقية من نوع (نيمس) وهي ثقيلة، فارتخت يدي عن شعفتها، فرمتني وبندقيتي بعيداً، وهجّت عني، فرجعت لأصحابي الذين حملوني وهربنا» انتهى.

بعد ذلك كان الثلاثة يسيرون سويّاً، عبد المحسن بن شاهين وحمود بن صنيتان والحميدي بن مفرح، وتشاوروا في أمرهم فقال عبد المحسن: نذهب لـ(الشبيكيّة) في هجرة الذويبي عند شيخ حرب، أظنّه الملاحي، وسنكتب لعبد العزيز كتاباً نطلبه الأمان، ونرسله مع الطّفل خالد وهو أخ صغير للحميدي، فقال الحميدي: أنا لن أذهب لابن سعود ولكن سأذهب للجنوب، وكان الجنوب حينئذ قوماني، أي: ضدّ الملك عبد العزيز، ولم يُفتح بعد، فقالا: إذن اترك عندنا الطّفل حتّى يذهب بكتابك، ونحن نرسل كتابنا مع مزيد بن زايد آل صقر وسعود بن حمد الهلايمة. فقال: لابأس. ثم ذَهَبُوا لهجرة (أبوسنون) الرّوقي وكان من الإخوان في هجرة (القرارة) شمال عفيف، فمرّوا به، ثمّ ساروا بعد أن أخبروه وجهتهم، وقال الحميدي: سأذهب من جهة (أبرقية)[1] أمّا صاحباه فقالا: سنذهب إلى الشّبيكيّة ومنها أبرقيّة. ولم يعلموا أنّ في

---

(١) أبرقيّة: قرية شمال عفيف بنحو عشرين كيلاً بين مطير والرّوقة.

المجلس (رَسِيْسَة)[١] من المخبرين فطار الخبر للملك عبد العزيز فقال: أنت يا ابن وبصان: الزم الحميدي، أي أقبض عليه، وأنت يا فلان: الزم محسن وحمود.

وتفرّقوا من جهة هجرة أبو سنون وتواعدوا أبرقيّة، وذهبوا، وكان معهم مزيد وسعود والصّبيّ خالد، فكتب لهم الشيخ كتابهم وذهب به مزيد وحمود وتركوا الصّبيّ لعدم فائدته في الكلام مع الملك، ولمّا رجع عبد المحسن وحمود ومعهما الصّبيّ، إذ لحقهم أربع ركائب اثنتان على يمينهم ومثلهما عن اليسار مردّفات[٢] واقتربوا منهم، فقال حمود: يا عبد المحسن هؤلاء منهم ريبة. فردّ بقوله: لعلّهم من شرائد الإخوان بعد السّبلة. ثمّ اقتربت الرّكائب أكثر، وقال أصحابها: سلام عليكم يا عبد المحسن أَنِخْ الذلول، وانزلوا كيما نسلّم عليكم فنحن إخوانكم. وما إن لامست ركبتا الذّلول الأرض إلا والرُّدَفَاء قد قفزوا على بندقيتيّ عبد المحسن وحمود وهجم البقيّة عليهما وقيّدوهما!

إذا خانك الأدنى الذي أنت حزبه فواعجباً إن سالمتك الأباعد

فقال عبد المحسن: نحن إخوانكم فاتّقوا الله فينا، فرفضوا إطلاقهم. فقال: خذوني معكم واتركوا حموداً يذهب بالصّبيّ لأهله، فلم ينفعه الكلام، ثمّ حملوهما إلى شيخهم ابن رازن الروقي أمير هجرتهم، وصادف وجود أحد أقارب الحميدي من جهة والدته عند ذلك الأمير، فعرف

---

(١) الرَّسِيْسَةُ: الجاسوس.

(٢) مردّفات: أي كل مطيّة عليها اثنان من القنّاصة

خالد وشفع فيه لصغر سنّه أن يعيده لأهله فوافق، ثمّ إنّه أرسل الأسيرين للملك عبد العزيز في (شقراء) وَمِنْ حين نزولهما، أمر العبد بضرب عنقيهما، وكانا من خيرة الإخوان.

بكى صاحبي لما رأى الموت فوقنا مُطِلًّا كإطلال السحاب إذا اكفهر
فقلت له لا تبك عينُك إنما يكون غداً حسن الثناء لمن صبر

فوقف عليهما العبد بسيفه فطلبا صلاة ركعتين، فوافق العبد ولمّا سلّم عبد المحسن من صلاته صاح العبد فيه من خلفه: علّب يا عبد المحسن وتشهّد، أي مُدَّ رقبتك للسّيف، ويقال إنّ عبد المحسن قال له: أحسن القتلة يا عبد! فأطار رأسه، فلمّا رآه صاحبه حمود قفز صائحاً من الفزع، فضربه الأولى فوقعت الضّربة في كتفه فخلعته، ثمّ الثّانية الّتي أطارت رأسه فخرّ سابحاً في دمه، رحمهما الله تعالى وعفا عنهما وعنه.

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته يبقى الإله ويُودى المالُ والولدُ

أمّا الحميدي فمع وصوله لأبرقيّة ونزوله عند عِدٍّ من عدود الماء هناك، وبينما هو يُدلي دلوَهُ في الحوض ليسقي إبله، إذ عشر ركائب قد أناخت عليه، وتقافز منها الرّجال وسبقهم رجلٌ عليه عباءة إلى بندقية الحميدي الذي لحقه فتعافرا[1] على مسكها قليلاً قبل أن يصل أصحابه

(١) المعافرة عند العامّة هي: المصارعة، ولعلّ لها أصل في العربية من التعفير، وهو عرك الوجه بالتراب، وإلصاق الجنب به، والعفر هو التراب والمراد: أي يلصق جنب خصمه في التراب.

ويوثقوه، وكان مع الحميدي والدته (بدرا) الرّوقية ورجل من أعزّ أصحابه وهو سفر بن محسّن، وكان من العُبَّادِ الأخيار، ويشبّهونه في قيامه للّيل بالوتد، فأخذوا الجميع إلا سفراً تركوه لكنّه ركب معهم، فقال له الحميدي: ياسفر أُنْجُ بنفسك إن كنت تريد النّجاء، والله لو دخلت على عبد العزيز معي ليصيبنّك مايصيبني، فعد لأهلك.

تلمّض السيف من شوق إلى أنس فالموت يلحض والأقدار تنتظر

فلـمّا أمسى الليل ونام الركب، ركب ذلوله وسرى للخرمة، فلـمّا وصلها سجنه خالد بن لؤي، أمّا الحميدي وآسِروه فقد أصبحوا وأكملوا مسيرهم إلى القدر المحتوم.

أيتها النفس أجملي جزعاً إنّ الّذي تكرهين قد وقعا

وكان على طريقهم (عرجا) وقد مرّ بها الأمير عبد الله بن عبد الرحمن أخُو الإمام عبد العزيز، وكان في معيّته عمر بن ربيعان الرّوقي، فقال الحميدي لمرافقه وكان من أقاربه من جهة أمّه من الرّوقة واسمه مطلق: يا مطلق إذا وصلنا تيك النّبوة، فأَنِخْ كأنّك تُصلح مُظَرَّبَ عمّتك وهي والدة الحميدي، فإذا ابتعدنا عنك فسر بها إلى مخيّم الأمير عبد الله بن عبد الرحمن في عرجا، لعلّ الله يفرجها لنا.

وإني لأدعو الله حتّى كأنما أرى بجميل الظنّ ما الله صانع

ففعل مطلق وسار بالمرأة، فلّما وصلا لعرجا نزلت بدرا الرّوقية والدة الحميدي، ثمّ ندبت عمر بن ربيعان ليشفع لولدها عند عبد الله بن

عبد الرحمن، فرفض ولم يلق لها بالاً، فالتفتت في القوم فرأت متعب بن حمد السليّح من الروقة، وكان والدها قد أحسن إليه وإلى والده وشفع فيهما قبل سنين عديدة عند ابن رشيد لمّا أراد قتلهما، فركضت إليه وصاحت به: أذكر معاريف[1] والدي فيك وفي والدك حين شفع لكما عند ابن رشيد، ونهمته وطلبته ورجته، فقام إلى ابن عمه عمر بن ربيعان، وقال: أرجوك يا عمر هذه دموع بدرا مثل الخرز! وأَكْثَرَ عليه الإلحاح، فقام معه عمر وذهبا سوياً إلى الأمير عبد الله الذي قبل شفاعتهما، فشفع في الحميدي عند أخيه الإمام فعفا عنه وأنجاه الله ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥] وانجلت الغمّة عن الحميدي بعد ما وصلت الروح الحلقوم. فمتّعه الله بالحياة وعمّره، فقد عاش بعد هذه الحادثة أكثر من ثمانين عاماً، ومات وقد جاوز المئة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ولربّ نازلة يضيق بها الفتى ذرعاً ... وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ... فرجت وكنت أظنها لا تفرج

إذن فبعد معركة السّبلة، طارد الإمام عبد العزيز كبار الإخوان ورؤوسهم الّذين انشقّوا عليه، وأرسل لبريدة من قبض على بعض الوعّاظ الّذين حرّضوا على التّمرّد، ثمّ تتبّع القادة، أمّا الدّويش فقد

(١) وقديماً قال الحكماء: ما ترك الوالد لولده من بعده خيراً من أيادي معروف في أعناق الكرام.
وقال المهلب بن أبي صفرة: عجبت لمن يشتري المماليك بماله، ولا يشتري الأحرار بمعروفه!

أُصيب في المعركة ثمّ مَرَّ به الإمام وهو محمول على نعشه وقد حفّت به نساؤه يبكين ويندبن الإمام في العفو، فرقّ لهنّ وعفا عنه بعد أن كشف عليه الطبيب وأخبره بظنّه أنّه لن يعيش بسبب عمق الجرح في بطنه، لكنّه طاب منها وعاش بعدها زمناً، ولم يستفد من التّجربة الأولى ومن عفوِ الإمام عنه، فإنّه لما شُفي لم يلبث أن خرج على إمامه مرّة أخرى مع الدّهينة وفرحان بن مشهور العنزي ونايف بن حثلين، فعقد الإمام مؤتمراً في (الشعراء) وهو المؤتمر الثالث، وتقرّر فيه عقاب من بقي من المنشقّين، فطاردهم حتّى تمكّن منهم بعد شهرين، فقد سلّمتهم بريطانيا سنة (١٣٤٩).

أمّا الأمير سلطان بن بجاد، فإنّه لمّا كان عائداً من السّبلة في ظلام الليل في ثلاثين من أصحابه، أشار عليه بعض من معه، ويقال إنّه محسن بن شاهين أن يمضي للغطغط كي يأخذ السّلاح، ومنها لمكّة المكرمة كي يأخذها عنوة من فيصل بن عبد العزيز ــ وكان صغير السن إذ ذاك ــ أو يكمن في حلوق الريعان[1] دون مكة، فأبى ذلك وقال: لا تسيل دماء قومي في الغطغط من بعدي، ودماء الناس الذين معي، ودماء أهل مكة من أجل هذا! ولكن أَصْعَدُ جبل (ماسل الجمح) ــ جنوب الدوادمي ــ وفيه ماء، ومن صعد إليّ يريدني بسوء قتلتُه، ويقال: إنّه بعد أيام أرسل كتاباً للإمام عبد العزيز يطلب مقابلته وتأمينه لمّا سمع بتأمينه

(١) حلوق الريعان: أي مضائق الأودية والشعاب.

للدويش، وقيل: إنّ الإمام أجابه إلى ما طلب، فأزمع الذهاب له. ويقال: بل إنّه ذهب للإمام رأساً قبل أخذه الأمان طمعاً في أن ينال ما نال الدّويش من العفو، وأصرّ عليه كبار قومه بالرّفض لذهابه، فأبى ذلك، وذهب بمجموعة من صفوة خاصّته كعلوش، وأخيه الصغير ضيف الله، وقيل تركي، وابن جعيلان أمير الحفاة أهل ساجر، وعوض العصيمي، في آخرين إلى الإمام عبد العزيز، فحبسهم سبع سنوات في المصمك، قال محمد بن الحسين الشنبري رَحِمَهُ اللَّهُ: حدثني شلهوب ـ أحد رجال الملك عبد العزيز ـ: إن الإمام قد أرسلهم بعدها للدّهناء وقتلهم فيها، وقيل بل لقد مات سلطان في سجن الأحساء حتف أنفه عام (١٣٥٣) وفي تاريخ محمد المانع[١] بعض التفاصيل في ذلك، والله أعلم.

ويا ليت إمامهم ــ إن كان قد صح خبر قتلهم ــ قد استأنى بهم، واكتفى بسجنهم، ووهب سيئاتهم لعظيم حسناتهم، وخروجهم عليه لعظيم حلمه، ولكن أبى الله سبحانه وبحمده إلاّ إنفاذ قدره الكونيّ المحتوم، لمّا استوفوا آجالهم، واستكملوا أرزاقهم، ولعلّ في هذا مكفرةٌ لسيّئاتهم، ورفعة لدرجاتهم، وحِفْظَاً للأمّة من قرون الفتنة التي كادت تقضي عليها وهي لمّا يشتدّ بعدُ عودُها، ويستوي فلكها، وتعلو أفنانها وفنودُها.

ولسان حال الإمام:

---

(١) (ص: ١٥٢).

لئن كنت محتاجاً إلى الحلم إنّني — إلى الجهل في بعض الأحايين أحوجُ
ولي فرس للحلم بالحلم ملجم — ولي فرس للجهل بالجهل مسرجُ
ألا ربّما ضاق الفضاء بأهله — وأمكن من بين الأسنّة مخرجُ

كذلك الأمير فيصل الدويش، الذي كان الملك قد عفا عنه، وأذن له بالتداوي في هجرته الأرطاوية، فأذن له ولما شفي عفا عنه، وأكرمه بالأموال، لكن الدويش انقلب عليه وحاربه من جديد من جهة الشمال، ومكرت بريطانيا فدعمته من حيث لا يشعر أنّها الدّاعمة له، وذلك عن طريق عملائها في الكويت والعراق، وكانت نهايته أن قبض عليه الإنجليز لما ضربوه بالطائرات، وقيل: إنّه قد لجأ إليهم ثم خدعوه بتسليمه للإمام عبد العزيز[1].

---

(١) قال التويجري رَحِمَهُ اللَّهُ: «... اذكر أنني زرت (غلوب باشا) خارج لندن قبل وفاته بخمس سنوات، فسألته من خلال الحديث عن بعض مشائخ القبائل، فتحامل على فيصل الدويش بالذات في إجابته، فقلت: إنّ تحاملك هذا يذكّرني بما يقال: إنّكم الإنجليز استدرجتموه بواسطة بعض جماعتكم من العرب وزينتم له الخروج على الملك عبد العزيز مرّة ثانية، لأن لكم ثارات عنده!! فنظر إلي ولم يعلّق بشيء» (لسراة الليل: ٢٢٣).
وغلوب باشا أو أبو حنيك كما كان الإخوان يسمونه يؤثر عنه محبة العرب، والثناء على شيمهم لدرجة أن أسمى ابنه بأسمائهم وهو: (فارس) ويذكرون عنه أنّه قد هرّب أحد زعماءهم بعد أن كان في الحبس، فسرّبه في جنح الليل لأهله. أما مكره بهم فهو يتبع دولته ومصلحتها. وقد كانت مرتبته أعلى بكثير من مرتبة لورنس العرب المشهور.

ذهب هو وأبا الكلاب العجمي وابن لامي المطيري إلى (أبي حنيك) وهو الجنرال الإنجليزي (غلوب) حاكم العراق النّصراني، الذي قال لهم: سنحملكم في الطائرة إلى لندن. ولم يرع الدّويش وأصحابه إلاّ والطائرة تحوم على (خباري وضحا)[1] وكان ذلك سنة (١٣٤٩) وقد خيّم فيها الإمام عبد العزيز فسلم الإنجليز هؤلاء الثلاثة للإمام ــ إظهاراً لحسن التعاون ــ واشترطوا عليه ألّا يقتلهم. فلمّا نزل قال عبد العزيز: ألم تقل إنّك تحاربني من أجل النّصارى فلماذا لجأت إليهم؟ فقال: هارباً منك. ثمّ إنّ الملك عبد العزيز سجنه سجناً طويلاً مع ابن بجاد الّذي هجره ورفض الكلام معه للجوئه للكفّار. ويقال: إنّه قتله مع من كانوا هناك من مجموعة سلطان بن بجاد، وقيل أرسله ليسجن في الأحساء فمات بعد ستة أشهر والله أعلم.

وذكر عبد العزيز السناح في كتابه: (معركة السبلة) قصة وفاته رحمه الله رواية عن إبراهيم المزيد، فقال: إن الدويش ظلّ يشكو لمدة شهر من ألم بسبب تورم بحنجرته، وفيما كان يتمشى مع ابن حثلين في يوم (٣ تشرين الأول) في باحة السجن سقط إلى الأرض، والدم ينزف من فمه بسبب انفجار التورم، وظلّ فاقد الوعي حتى المساء، وعندما استعاد وعيه لمدة قصيرة، طلب أن يرى الملك ولكن ابن سعود رفض أن يأتي إليه، وأرسل إليه الدويش تحية الوداع قائلا: إن الحكم الأخير لن يصدر قبل أن يقف كلاهما أمام الخالق، ثم فارق الحياة، فغسل ودفن في الليلة ذاتها رحمه الله.

---

(١) خباري وضحا: واقعة شرق حفر الباطن بالقرب من الكويت.

ومن قرأ التّاريخ وجد فيه نماذج مكرّرة من هذه الأحداث الأليمة.

واقــرأ التّــاريخ إذ فيــه العــبر   ضــلّ قــوم لـيس يـدرون الخـبر

وهناك شَبَهٌ من وجه، بين فعل الإمام عبد العزيز بهؤلاء عبد المحسن وصاحبه وسلطان وأصحابه وفيصل ـ على فرض صحة الخبر ـ وبين فعل معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مع حجر بن عدي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأصحابه لمّا قتلهم، ثمّ عاتبته أمّنا عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا ومن ضمن ما قالته: أين ذهب حلمك؟ فقال: عزب حلمي حينما ذهب عنّي من قومي أمثالك في الرّأي والنّصح. مع فارقٍ جوهريّ بين الحالين؛ وهو أنّ هؤلاء الّذين قتلهم الإمام عبد العزيز كانوا قوّاداً لجيوشه، ويتبعهم الألوف من قبائلهم، فكان خطرهم أعظم على مملكته، والله المستعان.

وفي صحيح مسلم عن عرفجة بن شريح رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنّه سيكون هنّات وهنّات، فمن أراد أن يفرّق أمر هذه الأمّة وهي جميع، فاضربوه بالسّيف كائناً من كان**» وفي لفظ: «**من أتاكم وأمركم واحد يريد أن يشقّ عصاكم أو يفرّق جماعتكم، فاقتلوه**».

وتأمّل كتاب العلامة محمد بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن إلى ابن بجاد والدّويش: «.....فالذي يطلب الأمور على الكمال، وأن تكون على سيرة الخلفاء، فهذا يطلب محالاً فاسمعوا له وأطيعوا وراعوا حقّه وولايته عليكم واحذروا غرور الشيطان وتسويله وخدعه ومكره، فإنّه متّكئ على شماله يدأب بين الأمّة بإلقاء الشّحناء والعداوة وتفريق الكلمة بين

المسلمين[1] عادة له مذ كان ....فوالله ثمّ والله إنّا لا نعلم على وجه الأرض

(١) قلت: وليت كلّ من تسوّل له نفسه الخروج على وليّه وحاكمه، يقرأ بتدبر التاريخ المأساوي الدموي لمن خرجوا على ولاتهم، سواء بحق أو بغير حق، كالشهيد بن الشهيد الحسين بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وكأهل الحرّة، وكالنفس الزكية، وكالقراء أصحاب ابن الأشعث....إلى هذا الزمن في كثير من الفتن في بلاد الإسلام، كما فعله حزب الإخوان في سوريا، أو بعض أعضاء حركة الإنقاذ في الجزائر، أو التفجيرات والاغتيالات من أندنوسيا حتى المغرب مروراً بباكستان والعراق والسعودية ومصر...وغيرها من جسد الأمة الدامي في كثير من الفتوق في جراح أهل الإسلام، والدم لا يُغسل بالدم، والسيف إذا وقع عمّ البريء والمذنب، والشبه خطافة والقلوب ضعيفة....والله المستعان.

والجدير بالذكر أن الأمة كان فيها نوع اختلاف في هذه المسألة، لخفاء بعض دلالة أو أدلة هذه المعضلة عن بعضهم، فلمّا ظهر خطر الخروج، خاصّة بعد فتنة القرّاء الذين خرجوا على بني أمية زمن الحجّاج، وخطورة سفك الدماء المعصومة، وإهراقها في سبيل إقامة حكم بمواصفات معيّنة؛ صدع العلماء بحرمتها وصاحوا في الناس من كلّ جانب: أن لا تنكروا بالسلاح ولكن بالنصح والدعاء، وفي أحد الأيام قال مسلم بن يسار رَحِمَهُ اللَّهُ: الحمد لله إذ لم أسفك في هذه الفتنة دماً. ولم أرم فيها بسهم. ـ وكان قد خرج مع ابن الأشعث على بني أميه وكان يقف تحت رايتهم فقط ـ فقيل له: فما تقول في رجل شاهدك تحت راية فلان، فظنّ أنّه على الحق، لما يرى من وقوفك هناك فأقبل على القتال حتى قَتَل أو قُتِل؟! فوضع مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ وجهه بين كفيه وبكى واشتد بكاؤه حتى رحمه من عنده. وتمنى الرجل أن لو كان قد سكت، فالله المستعان، ونعوذ به من الفتن ما ظهر منها وما بطن. واستقرّ أمر أهل السنّة والجماعة على تحريم الخروج على ولي الأمر إلّا بعد تأكد كفره البواح، وغلبة الظن =

شرقاً ولا غرباً ولا شمالاً ولا جنوباً شخصاً أحقّ وأولى بالإمامة منه، ونعتقد صحّة إمامته وثبوتها... ولو نعلم أنّ عليه من المثالب شيئاً يوجب مخالفته ومنابذته لكنّا أولى منكم بالنّصح له وتحذيره ومراجعته... فأفيقوا من سكرتكم وانتبهوا من رقدتكم قبل أن تزلّ قدم بعد ثبوتها، وأقول لكم ماحكاه الله عن مؤمن آل فرعون ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٤]» اهـ.

فانظر ـ يا رعاك الله ـ إلى هذا الكلام المتين، والمقال الرصين، والنّصح النّفيس، من أحد علماء الأمّة الرّاسخين، وانظر سعادة من لزم أمرهم، وعاقبة من ترك لزوم غرزهم، فهم نور الأمّة في الظّلام ودليلها عند التّيه، ولا تخلو الأرض من قائم لله بحجة، وإنّ الفتن كما قيل: إذا أقبلت لم يتبيّنها إلّا العلماء، فإذا وقعت وفتنت عرفها العامّة. نعوذ بالله من مضلات الفتن ما ظهر منها وما بطن.

خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَع شَيْئَاً سَمِعْتَ بِهِ ... في طَلْعَةِ البَدرِ ما يُغْنِيكَ عَن زُحَلِ

= بتغييره بدون سفك دماء، والمنكر لا يُداوى بأعظم منه، ونفوس المسلمين غالية، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ولنصر بن سيار:

أرى خلل الرماد وميض نار ... وأخشى أن يكون لها ضرام

إذا لم يطفها عقلاء قومي ... يكون وقودها جثث وهام

فإن النار بالعودين تُذكى ... وإن الحرب أولها كلام

وممّن كتب لهم كذلك العلّامة سعد بن حمد بن عتيق، والعلّامة عبد الله بن عبد العزيز العنقري، والعلّامة عمر بن محمد بن سليم، والعلّامة محمد بن إبراهيم بن عبد اللّطيف، والعلّامة سليمان بن سحمان، والعلّامة عبد الرحمن بن عبد اللطيف، وغيرهم من الأجلّاء الأكابر، وانظر كتاب العلماء في البراءة من أفعال هؤلاء، وتكذيبهم في نسبة فعلهم لفتاوى العلماء في الدرر[1] بل قد كفّر بعضُ كبار العلماء في ذلك الوقت وعلى رأسهم العلّامة محمد بن عبد اللطيف وعلماء العارض أُنَاساً من هؤلاء قد انحازوا إلى أعداء الله وطلبوا الدّخول تحت ولايتهم واستعانوا بهم[2]. وفي هذا تنبيه للأجيال اللّاحقة ألّا يتساهلوا في هذه الأمور الكبار، وأن يكلوها إلى أهلها، وهم العلماء الكبار الرّاسخون، وبحمد الله فجميع من ذُكِرُوا قد عادوا لحوزةِ الإسلام، وحياض السّنة والقرآن، ودولة التّوحيد والإيمان، وَبَسْطُ ذلك في الدّرر السّنية في كتاب حكم المرتد. بل لمّا كتب لهم الإمام عبد العزيز يستفتيهم في قبول توبة من جاءه نادماً، اشترطوا على التّائب شروطاً، منها إظهار النّدم على ما بدر منه، ومنها البراءة ممن دخل تحت ولاية المشركين وحارب المسلمين وتكفيره.

ومن ركب الحقّ غلب الخلق، ولولا السيف لكثر الحيف، والله المستعان.

---

(١) الدرر السنية (٩ / ١٨٣).

(٢) المرجع السابق (٩/ ٢٠٩).

ومــولىً عــصاني واستبــد برأيــه كمــا لم يُطَــع بـــالبقّتين قــصير
فلــما رأى غِــبَّ أمــري وأمــره وولّــت بأعـجاز الأمـور صـدور
تمنــىّ بئيــساً أن يكــون أطاعــني وقـد حـدثت بعـد الأمـور أمـور

وكـان ممـن دعـم فيصلَ الدّويش، عبد الله بـن الحسين الّذي هزمه الإخوان في تربة، ثـمّ أعطته بريطانيا شرق الأردن والـذي صار فيها بعد مملكة الأردن، بعدما قطعت فلسطين ليهود، فأخذ يدعم المنشقّين عن الملك عبد العزيز كابن رفادة في قبيلة (بِلِي) الذي جرّد له عبد العزيز تجريدَةً إخوانية بقيادة الأمير المظفّر خالد بن لؤيّ، حتّى سحق ذلك التمرّد[1]. وابن رفادة كان يتلقّى المساعدات من حكومة يحيى حميد الدين

(١) قال يوسف بن صالح العبيسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في عام: (١٣٥١) بعد أن استتب الأمن وتفرّق الإخوان في البوادي والقرى؛ خرج على الملك عبد العزيز رجل يقال له: ابن رفاده، بدعم من البيه الذي في الأردن، فأقلق الملك عبد العزيز شأنه آنذاك، وكان الملك في الطائف. فأرسل ست سيارات كبار، وسيارة صغيرة للأمير خالد، وكتب له كتاباً فيه: خالد يابوي، خالد ياخوي، خالد ياولدي، إملأ السيارات رياجيل، ولا تتأخر فالأمر خطير! وفعلاً قام الأمير بالواجب، وامتثل أهل الخرمة للأمر، وامتلأت جميع السيارات بالرجال المسلّحين، وركب الأمير خالد في السيارة الصغيرة الخاصة به، ولمّا وصلوا الطائف إذ الأمر قد انتهى ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥] فأعجب الملك عبد العزيز بسرعة نجدتهم، فأثنى عليهم ودعا لهم بخير، وأمر لهم بعطية، ثم عادوا لبلادهم مشكورين مأجورين إن شاء الله. قلت: والمشهور أنهم من قاتل ابن رفاده وكسروه، فلعل نداءه لهم حادثة =

في اليمن كي تُشغل عبد العزيز عن الأدارسة في عسير حتّى يأكلهم (الزيديّ) لقمة سائغة، ولكن الّليث عبد العزيز أكل الجميع. فلم تقف جيوشه إلّا على الحديدة التي ردّها بكلّ كرم لليمنيين بعد أن وافقوا على شروطه. ولمّا بكى (جون فلبي) وَذَرَفَ دموع التّماسيح والنّوائح المستأجرة على تخلّي الإمام عبد العزيز عن اليمن بهذه السّهولة قال: وما أدراك ما اليمن؟ هذه منطقة لا يحكمها غير أهلها، وقلاقلها وصداعها أشدّ من الخير الّذي نريده منها.

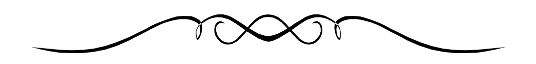
ولما ردها عليهم بشرطي تسليم الأدارسة وإعطاءه نجران غضب ابنه فيصل ــ قائد جيوش السعوديين في اليمن ــ ولوّح بالانتحار إن هو سلمهم ما أرادوه، فقال الإمام بكل هدوء: إن لي أربعين ابناً سواك، وإن انتحرت فأنت في النار، ولن نقطع عن اليمنيين رزقهم بحرمانهم من مينائهم. رحم الله الجميع.

هذا وإن من توضيح الواضحات بيان أن لا علاقة للإخوان بحركة جهيمان وأتباعه وإلحادهم في الحرم في المحرم سنة (١٤٠٠) وقد بهتهم من نسبهم إليها، فبين الإخوان وهؤلاء مسافة زمنية تجاوزت خمسين سنة، وهؤلاء إنما خرجوا على إمامهم لإنكار منكرات رأوها، ورؤى منامية تلاعب بهم الشيطان بواسطتها، حيث أوحى إليهم أنهم أتباع المهدي[١]

= أخرى، والعلم عند الله تعالى.

(١) روى أبو نعيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الحلية عن حفص بن غياث رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: قلت لسفيان الثوري: يا أبا عبد الله إن الناس قد أكثروا في المهدي، فما تقول فيه؟ فقال: «إن مرّ =

نعوذ بالله من الضلال، وليس بينهم وبين الإخوان جامع سوى الانتساب للسلفية التي تبرأ إلى الله من كل ما نسب إليها من مخالفات عقدية أو منهجية أو علمية أو عملية، وما أكثر أدعياء وصل ليلى!



= على بابك فلا تكن منه في شيء حتى يجتمع الناس عليه».

الفَصْلُ الثَّامِنُ

لفتة ونظرة في حال الشريف حسين والعثمانيين

امتدت حقبة الإخوان قرابة عشرين سنة (١٣٣٠ - ١٣٥٠) الموافق (١٩١٢م - ١٩٣١م) وعلى قصر عمر هذه الحركة إلا أنها أنجزت إنجازات هائلة، وآتت أُكُلاً مباركاً، لا زلنا ننعم بعيشه، ونستظل بفيئه، فلله الحمد أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

ولعل من المستحسن الحديث عن بعض أحوال وأخبار وعِبَر مناكفيهم أو من احتكوا بهم سلماً أو حرباً في ذلك الزمان ولو بشيء من الاختصار، وسنتكلم عن الأشراف والأتراك، بحكم ثقلهم السياسي والعسكري والاستراتيجي (الارتيادي).

وممّا يُشكر لشريف مكة حسين بن علي بن محمد بن عبد المعين بن عون، رفضه إنشاء وطنٍ قوميّ لليهود في فلسطين، لمّا عرضت ذلك عليه لندن، لكن ابنيه عبد الله وفيصل هما من دبّر ذلك مع البريطانيين كما ثبت ذلك في مكاتباتهما للإنجليز[1].

وأُسْرَةُ آل عون الهاشميّة، هي الّتي خَلَفَت أسرة آل زيد ـ ذوي زيد ـ

---

(١) الوثائق البريطانيّة، المنشورة بتحقيق نجدة فتحي صفوة من عام: (١٩١٤م) إلى عام: (١٩٢٠م) والمطبوعة في خمس مجلدات كبار.

على شرافة مكة وكلّهم بنو عمومة. وحسين (ت: ١٣٥٠) كان قد تولّى مكّة عام (١٣٢٦) ثم نصّب نفسه ملكاً على الحجاز، بل على العرب كافّة، عام: (١٣٣٤) حتى عام: (١٣٤٣) حين زال ملكه[1].

وكان له أربعة من الأبناء أكبرهم عليّ، وبه يُكنى: (ت:١٣٥٤) وهو رئيس الوزراء في دولة والده، وقد خلفه في حكم الحجاز بضعة أشهر حتّى لحقه في العقبة لمّا طرده السعوديّون. ثمّ يلي عليّاً عبد الله: (ت: ١٣٧٠) الملقّب بـ(البيه) النّجل الثّاني لحسين، وكان وزير الخارجيّة في دولة والده، وهو ملك الأردن فيما بعد، وقد قُتِلَ في القدس برصاص شابّ فلسطيني، وهو جدّ ملوك الأردن حاليّاً، وكان ذا حظوة وتدبير واسع عند والده، وهو الذي كسره الإخوان في تربة، إبّان قيادته الجيوش الشرقيّة لأبيه. أمّا ثالث الأنجال فهو فيصل: (ت: ١٣٥٢) ولعلّه كان أجودهم في حسن السّياسة وَجَلَد الحرب، وكان أبوه يتمثل ببيت:

---

(١) اشتركت ثلاث أسر رئيسية في التنافس على شرافة مكة وهي أسرة ذوي زيد ــ وهم أطول الأسر زمناً في الإمارة ــ وأسرة آل بركات وأسرة العبادلة المعروفين بذوي عون ــ والذي انتهت الشرافة في وقتهم ــ والعبادلة نسبة إلى جدهم عبد الله بن حسن الذي تولى شرافة مكة عام: (١٠٤١).
أما أول من تأمر على مكة من الأشراف فهو إسماعيل سفاك بن أخيضر عام: (٢٥١).
(أشراف مكة وأمراؤها في العهد العثماني) لإسماعيل حقي جارشلي بترجمة خليل علي مراد: وانظر: ص(٦، ١٠، ٢٣، ١٢٩، ٢٠٩).

يا ليت فيصل ينقسم لي فيصلين فيـصل بالـشّام وفيـصل بـاليمن

وهو وزير الداخليّة في دولة والده، وقائد الجيوش الشّماليّة لأبيه وهي الجيـوش الّتـي دخلـت العقبـة وفلـسطين ثـمّ دمـشق، بمـؤازرة الجنـرال (آللنبي) البريطاني، ثمّ أخرجه الفرنسيون بقيادة الجنرال (غورو) منها، ثمّ صار ملك العراق بعد ذلك.

وهؤلاء الثّلاثة عليّ وعبد الله وفيصل أمّهم هاشمية، أمّا الرّابع فهو زيد وأمّه عادلة الترّكيّة، وكان زيد مساعداً لأخيه فيصل لمّا ولي العراق.

فيُشكر لحسين رفضه الموافقة على منح فلسطين لليهود وإنشاء وطن قوميّ لهم فيها، ورفض كذلك معاهدة (فرساي) وهي ما تُسمى بمؤتمر الصّلح بعد نهاية الحرب العالميّة الأولى[1] الّتي كانت قد بدأت صيف: (١٣٣٢) الموافق: (٢٨ - يوليو -١٩١٤م) وانتهت في شتاء: (١٣٣٧) (١١- نوفمبر - ١٩١٨م). وانتهت بذلك أعظم وأشرس حرب شهدتها

(١) عدد قتلاها نحو ثمانية ملايين ونصف! وضعفهم من الجرحى والمشردين واستمرّت زهاء أربع سنوات ونصف، وكانت بين أربعة عشر دولة.
أمّا الدمار الحقيقي والكارثة الكبرى فكان للحرب العالمية الثانية، بين ثلاث وعشرين دولة! فقد كان قتلاها نحو: ثلاثة وسبعين مليوناً من البشر!! وهذا غير الجرحى والمشردين، وتدمير البنى التحتية لكثير من المدن، بل تدمير العديد من المدن بكل مافيها من مظاهر حياة! وقد امتدت رحاها ست سنوات كاملة من الحرب والقتل والدمار على أطماع ومظالم عانت البشرية منها الويلات ، وكانت من: (١ سبتمبر١٩٣٩ ـ إلى ـ ٢سبتمبر١٩٤٥).

البشريّة حتّى ذلك التّاريخ، وهي عين السّنة الّتي وقعت فيها معركة تربة، ثمّ بدأ الحلفاء في رسم خارطة العالم الجديد حسب مصالحهم، والّتي على إثرها نفذّت اتّفاقيّة (سايكس بيكو) الّتي قسمت تركة الخلافة الإسلامية العثمانيّة بين بريطانيا وفرنسا وروسيا عام: (١٩١٦م) والّتي نبذتها حكومة البلاشفة الجديدة فخرجت روسيا من الاتفاقيّة، وبعدها بسنة في: (١٩١٧م) صدر وعد (بلفور) المشؤوم، والّذي نص على أنّ بريطانيا تتعهّد بمنح وطن قوميّ لليهود في فلسطين، والّذي دفعه لذلك هو استمالتهم لليهود الّذين في النّمسا وألمانيا إبّان الحرب، كذلك لحفز يهود أمريكا للضّغط عليها بدخول الحرب، وكذلك تنفيذاً سياسة (بالمرستون) رئيس الوزراء الأسبق الذي دعا عام: (١٨٤٩م) إلى زرع كيان استيطانيّ يحول بين مصر والمشرق العربي.

أيُرجَى بالجرادِ صلاحُ أمرٍ وَقَد جُبِلَ الجرادُ على الفسادِ

وهذا الوعد الّلئيم قد صفع به حليفه المخلص حسين، لكنّ الغرور والثّقة المطلقة بالبريطانيين، لم تجعله يدرك عمق الموقف وخطره وشؤمه إلاّ بعد فوات الفوت وذهاب الصّوت، فبعد فرساي رفض الحسين الذي كان طامعاً في حليفته بريطانيا أن توفي بوعودها وأيمانها وتتوِّجَهُ ملكاً للعرب، ولكن (لندن) ليست بالكريم الذي وعده كدين الغريم! بل هي اللؤم والخُلْفُ والكذب، لكن غَيَايَةَ الطمع أعمت عينيه، وغلّفت قلبه، فبنى قصره في الهواء، برأس ماله من كيس الأماني! والأماني رأس مال المفاليس، فعمل لهم ما طلبوه وزيادة، وأراد مُلْكاً ولكن الصّيف ضيّعت

اللّبن! فلمّا احترقت ورقته، وأدّى دوره المشبوه كما يريدون قلبوا له ظهر المِجَنّ، وركنوه ونسوه. وظن أنّه سيمكر بهم أن لم يوفوه الوعود، ولكن كما قيل: صانع الأصنام لا يعبدها. وكانت نهايتهم معه أن نفوه في آخر عمره لقبرص وجزوه جزاء سنمار، ومجير أم عامر التي قالت لمجيرها: اختر إحدى الخصلتين؛ إمّا أن آكلك أو أقتلك! وتناسوه، وتركوه، وأهملوه، حتىّ توفي بها حسيراً، رَحِمَهُ اللَّهُ وعفا عنه.

أتبكي على ليلى وأنت قتلتها فقد ذهبت ليلى فما أنت صانع؟!

لقد واتت الانجليز الفرصة لاقتسام بلاد المسلمين من تركة العثمانيين مع الفرنسيين والرّوس، وقد نشر الروس عام: (١٩١٧م) إتّفاقيّة (سايكس بيكو) الّتي أحرجت بريطانيا كثيراً، وعرَّتْهَا وكشفت حقيقتها أمام من تزعم أنّها حامية حقوقهم، ولكن إحسان ظن الحسين وأبنائه ببريطانيا وتصديقهم لوعودها؛ سهّلا لها مهمّة الخروج والتنصّل من تلك الأزمة الأدبيّة حينئذ.

عِلماً بأنّ الثّورة العربيّة ــ والعلم عند الله تعالى ــ لم تكن أصلاً لولا دخول تركيا الّتي كان يقودها يهود الدّونمة أصحاب حزب الاتّحاد والترقي من كمال أتاتورك وأشباهه في الحرب العالميّة الأولى بجانب ألمانيا، فقد كانت تركيا قد عقدت اتّفاقيّة صداقة قبل الحرب بسنة مع بريطانيا تضمن الأخيرة عدم التدخل في شؤون العثمانيّين، ومشت الأمور على ما يرام، ثمّ خرجت تركيا مندحرة من حروب البلقان وطرابلس،

فانكفأت على نفسها بترميم حالها ورأب صدوعها وإعادة تأهيل جيوشها، حتّى قامت الحرب العامّة في أغسطس عام: (١٩١٤ م). فأعلنت تركيا الحياد أوّلاً، وكانت سياستها متذبذبة لأنّها كانت تريد أخذ مكافأتها من الحلفاء نظير حيادها، وللصراع المحتدم بين أجنحتها القيادية، فاشترطت عليهم إلغاء الامتيازات الأجنبيّة، ومنحها مساعدات ماليّة على شكل قروض، لكن الحلفاء ماطلوا. وهذا ما ساعد المعارضين لسياسة الحياد على التّغلب على الفئة المنادية به، ثمّ تغلّبوا أخيراً بقيادة أنور باشا فدخلت تركيا الحرب مع ألمانيا، حتّى كانت النهاية المعلومة بتقسيمها بعد الحرب.

وقد كان فيصل بن الحسين قد بايعه المؤتمر السوري ملكاً لسوريا إبّان الثورة العربيّة[١] الّتي قمعتها الدولة العثمانيّة، ونكّلت بأعضائها، وقتلت منهم الكثير، وأمّا المؤتمر العراقيّ فقد بايع عبد الله (البيه) ملكاً للعراق. ثمّ إن فرنسا غزت سوريا بزعامة الجنرال كريه الصيت (غورو) بتواطؤٍ مع الانجليز تنفيذاً لاتفاقيّة (سايكس بيكو) وقد قام السوريّون بمقاومته ببسالة في معركة (ميسلون) الشّهيرة، فهُزِمَ السوريون ولفظ قائد حرب الجيش السوري يوسف العظمة أنفاسه تحت وابل نيران عَبَدَةِ الصليب، ولما سأله الملك فيصل بن الحسين ـ وهو ذاهب لحربهم ـ: لماذا تذهب وليس معك إلا شبه عُزّل؟! فرد يوسف رحمه الله عليه ببيت أبي الطيب:

---

(١) كانت الثورة في عهد السلطان العثماني محمد رشاد الخامس.

لا يسلم الشّرف الرّفيع من الأذى حتّى يُراقَ على جوانبه الدم

ثم أوصى الملك بابنته الوحيدة، ثم حارب الفرنسيين حتى استشهد مقبلاً غير مدبر ومعه رفاقه رحمهم الله تعالى.

ولا ننس أن من أسباب هزيمتهم هو خيانة بعض أفراد المقاتلة ــ وغير بعيد أن يكون للنصيرية يدٌ ــ وذلك بأن أخبر الفرنسيين بمكان الألغام في الوادي الضيق، الذي ليس لهم بدّ من مروره في طريقهم لدمشق! بل والأدهى من ذلك أن قام بفصل أسلاك الديناميت التي وضعها المجاهدون السوريون كالألغام في طريق الفرنسيين، حتى إذا حانت ساعة الصفر والحسم، وأمر يوسف بضغط زر التفجير فإذا الأسلاك مقطّعة! فأسقط في يده، وفي يد المخلصين من جنده، لكنهم ثبتوا وجاهدوا وقاتلوا قتال الأبطال، واستبسلوا استبسال الأحرار، حتى استحر القتل فيهم، وجُنْدلوا بنيران الصليبيين، فسقطوا نحسبهم والله حسيبهم شهداء، قد دافَعوا وجاهدوا الكفرة عن أرض الأنبياء ومهاجر إبراهيم عليهم السلام أرض الشام.

والحق منصور وممتحن فلا تجزع فهذي سنة الرحمن

وطُرِدَ الملك فيصل بن الحسين، ثمّ إنّ أخاه عبد الله (البيه) هدّد بدخول سوريا بجيوشه ـ وليته فعل ـ فهذا سيقلب الطّاولة على مقامري اللّعبة الدّوليّة وهم فرنسا وبريطانيا والسّوفييت، إذ أنّ معاهدتهم الغاشمة تُعطي سوريا للفرنسيين، وعبد الله كان معدوداً من رعايا

الإنجليز، وهنا تدخّلت العجوز الماكرة (انجلترا) فاقترحت على عبد الله أن يكون فيصل ملكاً للعراق تحت حماية الإنجليز، وأن تُنشئ دولة شرق الأردن وهي (الأردن) الآن بعد نزع فلسطين منها! وأن يكون عبد الله ملكاً اسمياً متوَّجاً على دولة شرق الأردن، فوافق المسكين على هذه القسمة الضيزى ولكن:

ومن يكن الغراب له دليلاً   يمر به على جيف الكلاب

ومن كان هذا حاله فالحياة له موت والموت له راحة، فكيف يوافق على إعطاء أرضه ليهود؟! حتّى وإن كان كلامهم له ليس صريحاً، فكيف تمّ مرادهم على حساب أمانته؟

أطعت مطامعي فاستعبدتني   ولو أني قنعت لكنت حراً

كيف يقتطع أرضاً من المسلمين ــ على هنّاتهم ــ وهم الأتراك، ويعطيها عبدة الصليب وعزير؟! ومن ثمّ أراد الالتفاف على حلفائه لكن على استحياء، لـمّا رأى رفض المسلمين لهذه الخيانة، فتولى الحروب العربيّة الهزيلة المعروفة ضد اليهود، وكان القائد لجيوش بني يعرب هو صاحبنا هذا عبد الله!! وهل يا ترى كانت الرّاية كلمة التوحيد؟ والجواب بكلّ مرارة: «لا».

لذا فقد كان بعضهم يصف النّهضة العربيّة بـ(النهقة العربية)! وحُقَّ له ذلك فقد كان الملك (جورج الخامس) يصف انتزاع فلسطين من العثمانيين بأنه: الحملة الصليبيّة الأخيرة!

والجنرال الانجليزي (آللنبي) يصف دخولهم القدس بأنّه: هديّة الكريسماس للعالم المسيحي!

والجنرال الفرنسي (غورو) وقف على قبر صلاح الدين، وقال بكلّ نذالة وجبن ووقاحة: ها نحن عدنا يا صلاح الدّين!

فَوَا أَسَفَاهُ!!

ويا لله! كم في ذا الزمان من باقعة! فلا نامت أعين الجبناء! وتبّاً للأدعياء!

لَعَلَّ انْحِدَارَ الدّمعِ يَعْقُبُ رَاحَةً ... مِنَ الغَمّ أَوْ يَشْفِي نَجِيَّ البَلَابِلِ

علماً بأنّ عبد الله كان مُلْكُهُ اسميّاً فقط، فقد جاء في البرقيّة من المكتب العربي في القاهرة إلى المعتمد البريطاني في جدّة: «لمعلومات وزير الخارجية، أرجو أن تبرقوا تقييمكم الشخصي لصفات الأمير عبد الله الخلقية، وكفاءته وصلاحيّته لأن يكون أميراً اسميّاً لدولة عربيّة أميرها لا يحكم»!

وجاءه الجواب بعد يومين: «... وهو مؤهّلٌ لأن يكون أميراً اسميّاً لدولة أميرها لا يحكم...الخ»[(١)].

ومن يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجرح بميت إيلام

أمّا أفعال والده حسين بالأتراك الّذين كانوا بمكة بعد استسلامهم

---

(١) الوثائق البريطانية: (٤/١٤٧).

لثورته فحدِّث ولا حرج عن همجيّةٍ بغيضة، ووحشيّة غريبة، فقد سلم أُساراهم للإنجليز أُسارى! مع أن الإنجليز لم يطلبوا منه، ذلك بل كان يكفيهم ويرضيهم منه مادونه[1] لكن أبت أخلاقه إلّا ذلك الغدر، فإن قارنّاهُ بالإمام عبد العزيز نجده بعد أن طردهم من المنطقة الشرقيّة سلّمهم سلاحهم، وأرسل معهم من يحرسهم قائلاً: لن ننزع من رجل الدولة العثماني سلاحه.

أمّا المدنيين من التّرك الّذين كانوا من سكّان مكة منذ أكثر من مئتي سنة، فقد كان حسين يفرّق بين الرجل وزوجته وأطفاله، كلّ منهم في طريق من القوافل الخارجة عن مكة، ولا يعرف الرجل أين زوجته، ولا الطّفل أين أمه وهم بين صراخ وعويل[2] وقد أباحهم وبيوتهم للأعراب

---

(١) أين التذمم والشيم؟!

إذا كنت أكّالاً للحم بني أبي		فلست بمهديه على كلّ آكلِ

(٢) عن أبي أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: «**من فرّق بين والدة وولدها فرّق الله بينه وبين أحبته يوم القيامه**» رواه أحمد وصححه والترمذي والحاكم، وفي سنده مقال، وله شاهد.

وقال رسول الله ﷺ: «**لا تنزع الرحمة إلا من قلب شقي**» رواه أبو داود والترمذي، وروى الشيخان في حديث تقبيله الحسن والحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**من لا يرحم لا يرحم**» ورواه أحمد وزاد: «**من لا يغفر لا يُغفر له**» ولأبي داود والترمذي وقال حسن صحيح: «**الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**» ولأحمد مرفوعاً: «**ارحموا ترحموا واغفروا يغفر لكم**». =

والسرّاق والنُّهاب الّذين معه فصارت كارثة إنسانية في البلد الحرام! وكان من بقي منهم بعد نهب ممتلكاتهم وإجلاء الكثير من أقاربهم يتسوّلون في الأسواق ، ويقولون: ارحمونا فنحن مسلمون ولا ذنب لنا. فكلّ من رآهم دمعت عينه، وانفطر فؤاده، وانصدعت كبده، ولمّا جاءته امرأة تسأله عن زوجها وكان جالساً في قصره مع رجاله، فقالت: يا سيّد البلد أين سيّدي؟ ـ أي زوجي ـ قال: ادفعوها. فدفعوها مع الدّرج حتّى خضبت دماؤها عموم الدرج! قال محمد العلي العُبَيّد[1] بعد ذكره ما سبق من

= قال المستشرق الأسباني جان ليك في كتابه (العرب): «لا يمكن أن توصف حياة محمد بأحسن مما وصفها الله بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، كان محمد رحمة حقيقية، وإني أصلي عليه بلهفة وشوق». ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ [الأحزاب: ٢١].

(١) مخطوطة النجم الّلامع: (١٨٧) بتصرف.

ومخطوطته الموسومة بـ(النجم اللامع للنوادر جامع) هي أخبار وأشعار من القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وهو كتاب حافل جيّد، بل ونادر المثال عزيز المرحلة، لأن ذينك القرنين لا تكاد تجد من توسع في ذكر أخبارهما وأحداثهما من المؤرخين، أسوة بحقب خلت في الجزيرة، على عكس الحواضر الإسلامية الأخرى كالشام ومصر والآستانة ونحوهن. فالكتاب كما ذكرت جيّد لولا حَيْفُهُ على الإخوان واتّهامهم بما لا يليق من مثله لهم، وإن كانت هذه صادرة عن بعض المشاهدات والوقائع التي لا تُنكر، ولكن ينبغي أن لا تعمّم عليهم، وإن كان قد يُعذر في بعضها فقد كادت تودي بحياته! كذلك بعض الأخطاء التاريخية، وإن كان لا يكاد يخلوا منها كتاب، وعهدة المؤرخين في الغالب على الرواة، فكما أنّهم العمدة في جذع كتاب =

جرائم حسين مع بقايا التّرك: «وإنّي لأظن أنّ أسبانيا حين تولّت على المسلمين في الأندلس في القرن الثامن الهجري، لم تفعل ما فعله الحسين بن علي مع من عنده من الأتراك! ولكن ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر:١٤] فقد كالَ له رَبُّهُ بصاعه الأوفى، وفتح عليه أبواب الفتن والشرور، وابتلاه بخالد بن لؤي، الذي كان يكرهه الحسين ويحذره كحذر فرعون من موسى عليه السلام».

وبما أنّا نكأنا جرح المسلمين في هدم الخلافة[1] الّتي كانت قد هُدِمَتْ من اسطمبول أوّلاً، ثمّ بَيْعِ فلسطين، وَهِبَةِ من لا يملك لمن لا يستحقّ من شُذَّاذِ الآفاق ثانياً، وحرب الإخوة ثالثاً، فنسأل: هل حقّاً كانت الدّولة العثمانيّة تُمَثِّلُ خلافة إسلاميّة؟ والجواب بكل أسى: «لا» لأن حزب (الاتحاد والترقي) والّذي أسّسَهُ يهود الدّونمة، كان هو الحاكم في تركيا عشرات السنين، وغيّبَ الشّريعة عن سياسة الدولة، بل في شؤون الدّين

= التاريخ (ويأتيك بالأخبار من لم تزود) فكذلك هم المطعن فيه غالباً (وما آفة الأخبار إلا رواتها).

(١) قال العبيّد: «وقد أدركت أُناساً منهم ــ ويعني المسؤول التركي بمكة ــ في آخر ملكهم وهم في الحجاز في زمن السلطان عبد الحميد فكانوا يحافظون على صلواتهم، وكان رؤساؤهم وضباطهم يصلّون ويأمرونهم بالصلاة، حتى في صلاة التراويح في رمضان غير الفريضة، وكان قضاتهم يحكمون بالشريعة المحمدية على مذهب الإمام أبي حنيفة.....ويحرصون على مراقبة دخول أوقات العبادات كالصوم والحج...» (النجم اللامع: ١٩٥).

والدنيا، فأعلن عن (علمنة الدولة) وهذه ردّة صريحة، وكفر بواح، وغيّر لغة المسلمين الأتراك في كتابة حروفهم، فأحالها من العربيّة إلى الّلاتينية! فقطع الأجيال عن لغة القرآن العظيم، وجنى على أجيال الأمّة التركيّة، فلم يسطِع الواحدُ منهم أن يتلو آيات ربّه كحال الباكستان والأفغان والإيران، الذين يتلون القرآن بحروفه العربيّة، حتّى وإن لم يعرفوا معناه إلّا بترجمة، لكنّ هذا الأتاتورك الطّاغوت وحزبه، قد قطع أجيال التّرك عن لغة دينهم، يريد التشبه بأسياده، يظن أنهم أعلى من المسلمين مبادئً وقيماً، وأوفى وأرقى! وتلك عقدة المغلوب، وقد علمت أمة الترك خيانته وبيعه لدينه ووطنه.

ولو لبس الحمار ثياب خزّ لقال الناس: يا لك من حمار!

بل وصل به الصّلف ومحادّة الله تعالى أن منع الأذان بالعربية، لكنّه لم يستطع تطبيق هذه الباقعة، وَمَنَعَ محاكم الشّريعة في الجنايات ونحوها.

قبحت مناظرهم فحين بلوتهم حسنت مناظرهم لخبث المخبر

أمّا إن رجعنا للوراء ونظرنا لتاريخ تلك الدولة؛ فسوف نشاهد البدع والمحدثات، وحرب التّوحيد وأهله، خاصّة في عصورها المتأخّرة، وهذه الشّناعة فيها من قديم، ولم يقرّ قرارهم حتّى فعلوا الجريمة النّكراء جريمة إزالة الدّولة الحنيفيّة السعودية الأولى، وكسر ظهرها بهدم الدرعية، وقتل الموحدين فيها، وسفك دم علمائها السّلفيين، على يد الطّاغية الهالك ــ عليه من الله ما يستحقّ ـ إبراهيم باشا، فذاك الإمام المحدّث الفقيه، تاج

عصره، وجمال زمانه، وواسطة عقد علمائه؛ سليمان بن الإمام عبد الله بن المجدد محمد بن عبد الوهاب، صاحب (تيسير العزيز الحميد) قد قُتِلَ بعدما صخبوا عنده بالمعازف والملاهي، وهو مقيّد، ثمّ رموه بالرصاص فمزّقوا جسماً قد ملأه العلم والبرّ والخير، وكان عمره ثلاثة وثلاثين عاماً، في تلك السنة (١٢٣٣) وقد أكرموه بالشّهادة من حيث لا يعلمون، نحسبه والله حسيبنا وحسيبه، ولا نزكّي على الله أحداً، ثم شمت بوالده العلامة الشيخ عبد الله وهو يقول له: يا عجوز قتلنا ابنك!كذلك إمامُه عبد الله بن الإمام المجاهد سعود بن الإمام المجاهد الشهيد عبد العزيز بن الإمام الناصر للدّعوة محمد بن سعود، فقد طِيف به في (استامبول) ثمّ قُتِلَ وصُلِبَ شهيداً، ومن ثمّ وجّهت الدّولة العثمانيّة حربها الظّالمة على كلّ ما هو سلفيّ، وأدارت آلتُها الإعلاميّة الظّالمة، وشيوخُ السوء، وعلماءُ الضلال، حَمَلَةَ بهتان على دعوة التّوحيد، وعمّموا هذه الدّعاية الظّالمة على ما استطاعوا من ولاياتهم من الهند إلى المغرب، وكان من آثارها أن نَفَرَ العامّةُ من الدّين الخالص للمرسلين، الذي جَدّدَتْ ما اندرس من معالمه هذه الدّعوة الإصلاحيّة المباركة، فظنّها الرّعاع ديناً محدثاً أو مذهباً خامساً! ووصموه بالوهّابية، وببغض الرسول ﷺ. ولكن ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾ [التوبة:٣٢].

لقد انتشرت الدعوة المضادة للدعوة السلفية في مشارق دول الإسلام ومغاربها، وقد أثمرت تلك الجهود التشويهية، وآتت أكلها المرّ المسموم، ونوجز بيان ذلك بمثالين أحدهما من المغرب والآخر من المشرق:

فمن المغرب؛ قال أحد الشناقطة: وصلت إلى مكة المكرمة من بلاد شنقيط، ولما دخلت المسجد الحرام أذن المؤذن فتابعته، فلما شهد المؤذن لرسول الله ﷺ بالرسالة تعجبت! وقلت: الحمد لله أن الوهابية يشهدون له بالرسالة! لكن يا ترى هل يحبونه؟

ثم جلست إلى حلقة درس لشيخ كفيف فسمعت منه ما أبهرني من تفجر ينابيع العلم من صدره ولسانه، وإشعاع المحبة لرسول الله ﷺ وتعظيمه وإجلاله من كلامه وعاطفته، فلما انقضى ذلك المجلس رأيت أحد الشناقطة فجلست إليه وتجاذبت الحديث معه، وأخبرته بتوجسي من الوهابية مبغضي الرسول الكريم ﷺ! فتبسم وقال: أما جلست إلى الشيخ الكفيف قبل قليل؟ قلت: نعم، وأثنيت عليه خيراً كثيراً، فقال: هذا هو شيخ الوهابية، وهو الشيخ العلامة عبد الله بن حميد رَحِمَهُ اللَّهُ.

أما من المشرق؛ فقد كان في الهند أحد علماء الحديث، وكان يُنهي درسه بالدعاء على الوهابية الخارجية ومذهبهم الضال...ويخصص إمامهم بزيادة تشنيع، وذلك بسبب الدعاية السيئة التي تلقفته كغيره، وفي أحد الأيام حضر درسه أحد طلبة العلم من نجد ليطلب الحديث على يديه ويتحمله منه بسنده العالي، وكان ألمعياً أحوذياً، ذا دعوة بالحكمة والحسنى، ملتمساً لشيخه العذر لجهله بحال الإمام المجدد رَحِمَهُ اللَّهُ. فأخذ كتاب التوحيد للإمام، ونزع مجلدته، ثم ناوله شيخه واستشاره في صلاحية هذا الكتاب للتعلم والتعليم، فأخذ شيخه الكتاب وقرأه بعناية وتجرد، فانبهر بما فيه من تحقيق واستدلال، وبما حواه من علاج ناجع

لأمراض الأمة العقدية. فأعاد الكتاب مثنياً عليه وداعياً لمؤلفه المجهول، وكم كانت المفاجأة الصاعقة حينما أعطاه تلميذه المجلدة المنزوعة، وعلى طُرَّتِهَا اسم الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ، فتأثر بشدة من تلك المفاجأة وتحسبل على من شوهوا تلك الدعوة الصافية الطاهرة الماجدة النقية، وندم على ما سبق من عدائه لها ولمجددها، فآلى على نفسه أن يجلو حقيقتها للناس، وأن يدعو لمجددها في ختام دروسه، كفارة لما كان من التحذير منها في سالف زمانه، والله المستعان.

قال الشيخ صالح آل الشيخ: إنّ ممّا وجده الموحّدون في الحجرة النبويّة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، خرقةً من أحد سلاطينهم وهو السلطان (سليم) وفيها: يا رسول الله: أنصر عبادك! والله تعالى يقول: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨ ، ١١٦] وانظر ما كتبه الشيخ حمود التويجري رَحِمَهُ اللَّهُ في حالهم.

أمّا إحياء البدع، ونصر الطرق الصّوفيّة المحدثة، وإعلاء شأن الخرافيّين والقبوريّين، فهذا ديدن تلك الدّولة، وانظر إلى الحجاز قبل وبعد فتح الموحّدين له، واسأل نفسك أيُّهما أشبه بخلافة النبوة؟! هذا إن كان هناك مجال للمقارنة:

ألـم تـر أن الـسّيف يـنقص قـدره إذا قيل إنّ السّيف أمضى من العصا؟

فقد كانت مكة المكرمة، ببقاعها المشرّفة، وبنيّتها المعظّمة، تشتكي إلى الله تعالى من الأوثان الّتي بها، كقبر خديجة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، وغيرها كثير، وجِدّةُ ليست بمعزل،كالقبر المزعوم لأمّنا حواء رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، أمّا مدينة التّوحيد والنبوّة؛ فلا إله إلا الله، ما أحلم المولى سبحانه عن ما أحدثه المشركون في مدينة نبيه ومهاجره من وثنيّة! ولمّا سأل الإمام المجدد شيخه محمد حياة السندي رحمهما الله عن حال المستغيثين بغير الله عند الحجرة النبوية، أجابه شيخه بالقرآن العظيم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٩] أما سائر الولايات التابعة للعثمانيين فحدث ولا حرج عن غربة السنة، وظهور البدعة والخرافة!

قال الشّيخ العلّامة حمد بن عتيق: لا يحبّ هؤلاء أحد يؤمن بالله واليوم الآخر ـ ويعني بهم الأتراك في زمنه ـ.

ولا نريد أن نسترسل في إرهاق قلبك بالأسى على حال أمّة الإسلام في ذلك الزمان، ولكن اعلم أنّه كلّما كان التوحيد في قلبك أعظم، عرفت غلظ وخطر الشّرك والبدع. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في مجموع فتاويه: «من عرف الباطل والشرك، كان أكثر تعظيماً ومحبة للحقّ والتّوحيد».

أَمَّا تَعَصُّبُ هذه الدّولة للمذهب الحنفي فيكفيك مثالاً أنّ مذاهب

الأثـر الثلاثـة[١] قـد انـدثرت في الـشّام أو كـادت، حيـث مُنـع المـالكيـة والـشافعية والحنابلة مـن القـضاء، وكـاد مـذهب أحمد أن ينـدثر لـولا لطـف الله بتحمـل النجـديين لـه ومدارسته وتدريسه والتـأليف فيـه، وحمـل لوائـه الثالث بعد العراقيين ثـم الشوام، رحمة الله على الجميع.

ومع عدم حظّنا من مذهب الإمام أبي حنيفة النّعمان، إلّا أنه ليس حقّ كلّـه، لا هـو ولا غـيره مـن المـذاهب المتبوعـة الأخـرى، والعـبرة بمـن وزن مذهبه بالكتاب والسّنّة.

أما عن التنمية الاجتماعية والعمرانية والزراعية ونحوها في الولايات التابعة لها فلم تكن في المستوى المؤمل مع غناها وقدرتها، ويشكرون على القطـار الـذي ربـط الآسـتانة بالـشام والحـرم النبـوي، والـذي كانـت نهايتـه التفجير والتدمير من الأعراب بتوصية من الشريف والإنجليز، من أجل قطع الإمدادات عن الكتائب العثمانية في الشام والحجاز، وطبعاً فالمستفيد

---

(١) مذاهب الأثر ــ أي تقديم النص على القياس ــ هي المالكية والشافعية والحنبلية، وهـي المدرسـة الحجازيـة أو المدينيـة. أمـا المدرسـة الثانيـة فهـي مدرسـة العـراق وبـالأخص الكوفـة، ويقـال لهـم أهـل الـرأي، وأهـل القيـاس، وأشـهر مـن يمـثّلهم الأحناف؛ لتقديمهم القياس على ظاهر الأدلة عند التعارض، وهـم قد يُعذرون في أول شأنهم وذلك لكثرة الكذب والوضع في الأحاديث في العراق في ذلك الوقت، ولكن مع ظهور الصحاح وقيام علم الجرح والتعديل؛ سقط ذلك العذر، فوجب الرجوع للحديث والأثر، علماً بأنّه لا يوجد تعارض حقيقي البتّة بين نص صحيح صريح، وعقل سليم صحيح، وانظر (درء التعارض لشيخ الإسلام).

الوحيد لندن، وبأيدي من؟!

بَيْدَ أن الدّولة العثمانيّة ليست شرّاً محضاً، بل نرجو أن خيرها وفضلها أكثر، فللإنصاف نقول: إنّها قد مرّت بمراحل عديدة، فقد عُمِّرَت ستة قرون ونصف (٦٩٨ - ١٣٤١) الموافق (١٢٩٩م - ١٩٢٣م) عاشت (٦٤٣) عاماً هجرياً أي: (٦٢٥) عاماً ميلادياً.

وحكمت مساحات وأقاليم شاسعة من آسيا الصغرى والحجاز والعراق والشام ومصر والسودان ومعظم المغرب العربي والصومال والبلقان والنمسا وإيطاليا ورومانيا وبلغاريا وأرمينيا وجورجيا واليونان.

وقد حكمها أربعون سلطاناً، أولهم عثمان الأول، وآخرهم عبد المجيد الثاني. وبلغت مساحتها عام (١٦٨٠م) ٥,٥٠٠,٠٠٠ كلم مربع.

وحكمت الحجاز أربعة قرون، من سنة: (١٥١٧م - إلى - ١٩١٨م) وأكثرُ ما نابها من أمراض حضاريّة إنّما كان في عصورها المتوسّطة والأخيرة، ولا ينكر عاقل فضلها في دكِّ معاقل الصليبيّين، وإذلالِ عبدة الصّليب[1] ونشرِ الإسلام في أوروبا بل إدخال جملة شعوب في حياضِ

---

(١) وكان لهم شرف الدفاع عن الحرمين ضد النصارى الغزاة لمّا دخل البرتغاليون ميناء جدة عام: (٩٤٨) وقصفوا المدينة بالمدافع ثم انسحبوا وانقلبوا خائبين، ولم يحققوا مأربهم، ثم عادوا في نفس السنة بثمانين سفينة، ونزلوا البر في مرفأ (أبو الدواير) وبدؤا هجومهم، إلا أن وصول شريف مكة أبو نمي محمد بقواته، كذلك مع =

الملّة، كالشّعب الألباني وكثير من المقدونيين واليوغسلاف ونحوهم، وكالحدِّ من تمدّد المارد الرافضيّ المجوسيّ الخبيث من الشّرق، وكسرِ شوكتهم الصّفويّة البغيضة، الّتي هي أخطر على الإسلام من اليهود والنصارى، حيث سحقوهم في معركة جالديران الشهيرة التي قلمت أضافرهم قرناً كاملاً من الزمان، وكسرت ظهور حلفائهم النصيرية ــ المتسمية زورا بالعلوية بفعل الفرنسيين ــ. وكانت هذه المعركة التاريخية عام (٩٢٠) الموافق (١٥١٤م) في عهد السلطان العثماني سليم الأول.

ومن محاسن تلك الدّولة كذلك؛ نشرُ العلوم الشرعية، والمعارف التجريبيّة، واللّغة العربية بين رعاياها، وإقامةُ محاكم الشريعة والقضاء بحكم القرآن الكريم، إلى غير ذلك من المحاسن والآثار، التي تذكر وتشكر وتنشر.

والذي جرّنا لهذا الحديث الطويل، هو ما كان يُسمى بالثّورة العربية الكبرى والّتي قد قادها الحسين شريف مكة وأبناؤه، ولم تُحسِن السّلطنة العثمانيّة التّعامل معها، فبدلاً من إعطاء العرب حقوقهم، وردّ اعتبارهم، نكّلَت بهم، وقتلت العديد منهم، ونصبت لهم المشانق، حتّى ازداد الكُرْهُ المتأصّل في نفوس العرب عليها، وصار للثورة مبرر في نفوس الكثيرين ضد طغيان الترك وتسلطهم.

= الصمود العظيم لأهالي جدة البواسل وواليهم العثماني قد أجبر الصليبيين على الانسحاب. (أشراف مكة: ١٣٦).

وقد كانت شرارة الحرب قد بدأها حسين، ونفخت كيرها لندن، وغَنَّت لها طويلاً، وأكلت بها ما أتخمها من الغنائم والأسلاب. وخرج العرب من الحفلة بلا حُمُّص ــ كما يقال ــ إلّا على دويلات وكانتونات هُلَاميّةٍ، تُدِيْرُهَا رُؤوس الخبث الإنجليزي العريق في المكر والدّهاء والتلوّن والميكافيليّة، هذه التّراجيديا الّتي خرج منها عبد العزيز آل سعود بكلّ مهارة وبراعة، كما أقر بذلك حلفاؤه وخصومه الإنجليز أنفسهم، فخرج بعزّة إسلاميّة عربيّة شمّاء. ففي الوقت الذي كان يَمُدُّ الضّابطُ الإنجليزيّ قدميه ويُدخّن في وجه فيصل ملك العراق، كان ضبّاط الإنجليز الّذين يُرسلون لمفاوضة عبد العزيز يُسرعون بتهويةِ المكان بعد تدخينهم التبغ، خوفاً وفَرَقاً من دخول عبد العزيز عليهم،كأنهم تلاميذ سيئين عند أستاذ عاتٍ جبّار! وحتى اتفاقيات الإنجليز السابقة معه فقد ضمن بها كامل حقوقه وحقوق شعبه، وقد أحسن التعامل معها، وأجاد استخدام أوراقها حتى النهاية، حتى إذا صعد حظ الأمريكان ربط مصالحه الدولية بهم تاركاً خلفه مصالح حليفه القديم الذي بدأ حظ إمبراطوريته بالأفول[١] فلم يكن يزايد على مصالح شعبه رحمه الله[٢].

---

(١) (السعوديون والحل الإسلامي) محمد جلال كشك.

(٢) ويظهر فارق شخصية الملك عبد العزيز عند مقارنته بأقرانه كآل الصباح وآل الرشيد والأشراف ونحوهم.

ولنعقد بعض المقارنات بينه وبين عبد الله البيه وعبد العزيز الرشيد ونزنهم بالمَثَل العربي: «الفرار في وقته ظفر» لأن أكثر الملوك والقواد يرون أن ذلك الفعل إنما هو =

من باب الهزيمة والفشل مطلقاً، لكن عبد العزيز المحنك يرى غير ذلك.
والحازم المحنّك هو من يقيس الأمور بأشباهها ويزنها بأضدادها، ويختار أنسب الحلول لنازلته، حتى وإن كان ظاهرها الفرار، فلم يُعب موسى عليه السلام حينما خرج من مصر خائفاً يترقب، حتى عاد بعد عشر سنين بعز الدنيا والآخرة، عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام.
ونبيّنا ﷺ خرج من مكة مستخفياً، حتى عاد بعد بضع سنين فاتحاً مظفّراً، قد أذل الله له نواصي عتاة قريش.
وعبد الرحمن الداخل (صقر قريش) خرج خائفاً تطارده عساكر بني العباس؛ حتى هيأ الله له ملك الأندلس.
المقارنة:
في ليلة تربة حينما حُذّر عبد الله البيه من الإخوان، وأشار عليه كبار قوّاده ومنهم ابن عمّه شاكر بن زيد بالتحصن بالسّوق عن العراء، أخذته العزة قائلاً: أنهزم أنفسنا قبل هزيمة عدونا لنا؟ وكانت النتيجة سحق غالب جيشة وهلاك معظم جنده.
وقبل ذلك بثلاثة عشر عاماً تقريباً أثناء المطاردات بين الزعيمين المتنافسين عاليي الهمة عبد العزيز أل سعود وعبد العزيز الرشيد، وفي إحدى الليالي بينما الملك عبد العزيز قد بنى بأهله متزوجاً بنت أحد شيوخ الروقة العتبان وهو الضيط، فأناخت ذلوله (مصيحة) عنده قد أرسلها أخوه محمد من بريدة، ينذره بتقدّم جيش عبد العزيز بن رشيد إليه وعزمُ تبييته، فجمع قوّاده، وكان غالب جيشه في تلك الليلة من البادية، وليس له من جند العارض إلا قليل ــ وهم من كان يركن إليهم عند المعترك في ذاك الزمان قبل هبوب عواصف الإخوان ـــ فجمع قوّاده وطرح القضية للمداولة، فأشار عليه أحدهم بأن يسري من ليله ومعه الإبل تسوقها الخيل، والبقية يلحقونه بالبيوت (المظاهير) والغنم، وموعدهم (النير) فاستحسن

عبد العزيز هذا الرأي وعمل به وكتب الله لهم السلامة، ولـمّا جاء عدوّه لم يجد إلا آثارهم.

وعلى العكس كان خصمه عبد العزيز الرشيد، فإنّه لـمّا أتاه النذير يخبره بأن جيش ابن سعود قد وصله، وكان مخيّماً في روضة مهنّا(*) فقال له النذير وهو من الهوامل من مطير: وصلك عبد العزيز بن سعود! وغرض المسكين الجائزة والعطيّة، فما كان من عبد العزيز بن رشيد إلا أن أخرج المسدّس وأطلق منه ثلاث رصاصات على رأس الرجل! ثم كان ماذا؟ عاد لنومه فلم يوقظه إلا صهيل خيل ابن سعود، فانتبه دهشاً مرعوباً، فركب فرسه ليدبر جنده الذين أشعلوا النيران فانكشفوا لنيران بنادق جند ابن سعود، فدفع بن رشيد فرسه تجاه راية ابن سعود يظنهم قومه وهو يصيح غاضباً: يا الفريخ! والفريخ هو حامل رايته، فما راعه إلا وفارس من المقرن واسمه هذلول فضربه ابن رشيد بسيفه فقطعه جزلتين لشدة بأسه وغضبه، ثم لوى عنق فرسه ليعود لجنده، فرآه حامل راية ابن سعود واسمه عبد الرحمن بن مطرف، فصاح في الجيش: عبد العزيز بن متعب ياطلّابته! فتناوشوه بالرصاص فأصابته رصاصة بين عينيه فخر صريعاً رَحِمَهُ اللهُ، وأدبرت فرسه فلمّا عرفها أصحابه علموا أن فارسها قتل، فانهزموا، وتخلص ابن سعود من أشرش وأشجع أعدائه على الإطلاق.

تذكرت من يبكي علي فلم أجد ... سوى السيف والرمح الرديني باكيا
وأشقر محبوك يجر لجامه ... إلى الماء لم يترك له الدهر ساقيا
صريع على أيدي الرجال بقفرة ... يسوون لحدي حيث حمّ قضائيا
وخطّا بأطراف الأسنة مضجعي ... وردا على عيني فضل ردائيا
خذاني فجراني ببردي إليكما ... فقد كنت قبل اليوم صعباً قياديا
يقولون لا تبعد وهم يدفنونني ... وأين مكان البعد إلا مكانيا
غداة غدٍ يالهف نفسي على غدٍ ... إذا أدلجوا عني وأصبحت ثاويا

وكان بين هروب ابن سعود لـمّا طلبه ابن رشيد وهذه المعركة قرابة أربعة أشهر فقط.

وكانت ليلة: (١٣٢٤/٢/١٧) حيث كان ابن رشيد قبلها قد أرسل لابن سعود وقال: أنا وأنت ظلمنا المسلمين بحملهم على القتال من أجلنا، ولكن ابرز لي على فرسك المعضادية، وأنا على حصاني الشهيب، ومن قتل صاحبه فله الملك. فقال ابن سعود راداً عليه: أنت ميّت وأنا حي. أي: أنت قد مللت الحياة بهذا الحال، لكنّي لست كذلك. وفي ذلك قال محمد العوني شاعر بريدة:

يا نهار جا على روضة مهنّا والفشق فيها كما ضيق المخايل

ترك اللي يوم سرنا غاب عنّا ما حضر كون ذبحة شيخ حايل

(*) لكلّ باغ مصرع، فقبل معركة روضة مهنّا بشهرين وفي نفس المكان، كان ابن رشيد مارّاً فصادف حواشيش لأهل بريدة وعدتهم (٢٥) فقرنهم بالحبال كي يقتلهم، فتقدم له رجل مسنّ وبين يديه ولده فقال: هذا الولد ولدي، وله ثمان أخوات لا عائل لهن بعد الله سوانا، فتفضّل عليّ بإبقائه حيّاً، واقتلني مكانه. فرد عليه بأن قال: بل أقتله وأنت تشاهده ثم أقتلك. ثم قتلهما وألحق بهما جميع الحواشيش! نعوذ بالله من قلب لا يرحم، وفي الحديث الصحيح: «**لا تنزع الرحمة إلا من قلب شقي**» عياذاً بالله تعالى. ويقال: إنه بعد تلك القتلة لهم كان يرى في منامه ذلك الشيخ متعلق به ويقول يا عبد العزيز قتلتني وظلمتني وقتلت ولدي، والله لا أطلقك حتى نقف بين يدي الله. فكان يقوم من منامه فزعاً، ويقصّها على جلسائه، عفا الله عنه.

لقد كان عبد العزيز الرشيد مفرط الشجاعة عظيم الجسارة، ولكنه كان جبّاراً عسوفاً، ويرى أن التملّك بالقوة خير من التملك بالسياسة، وكان إلى العقوبه أسرع منه إلى العفو، وكان كثيراً ما يتمثّل ببيتين لعمّه عبيد العلي الرشيد وكان جباراً مثله:

محدٍ مصافيني له السير ممروع الّا بضرب مصقّلات الهنادي

والآخر المشهور:

اضرب على الكايد ولو كنت بلشان وعند الولي وصل الحبل وانقطاعه

وكان ذا بأس شديد، فلا يهاب أحداً، ويغزو وإن كان قليلاً، قال ناهس بن فاجر الذويبي: غزوت مع عبد العزيز الرشيد على إحدى القبائل فانتذروا بنا، ونوّخوا وعقّلوا، وكانوا في جبال وعرة المسالك، لا تغير فيها الخيل ولا الجيش من وعورتها، فأرخى رماتهم الرصاص علينا من الجبال مدة ساعتين، ولمّا نظرنا إذ القتلى: (١٤٠) من الجند والخيل والجيش، حتى أوقفوا غارتنا عليهم. ثم إن عبد العزيز المتعب الرشيد حمل الراية بنفسه وهزّها وصاح: يا عَبِيْد يا سودان اعزلوا كلكم ولا يخرج واحد أبيض، فعزلوا فإذا هم:(٦٤٠) مقاتلاً، فحمل الراية بنفسه وهزّها، ثم حثّهم وهم يطلبون حملها بدلاً عنه فلم يدفعها لأحد منهم، بل حمل البندقية على متنه معلقة بعلاقتها، وتجنّد الفرد، وأخذ الراية بشماله، وامتشق سيفه بيمينه! ثم قال: يا عيالي السودان اليوم يومكم، حتى فاح فائحهم، ثم أعطاهم التعليمات وقال: «تراه مركاض واحد لين نذبح البواردية وهم في الجبال» ـ كما قيل: إنما النصر صبر ساعة ـ ثم ركض أمامهم وهو يقول:

يـــا بـــو خديـــد فيـــه رقـــوش إلى ذلينـــــا مـــــن يهـــــوش؟

فكرّوا معه، وانتشروا عن يمينه وشماله، فلم يقم عدوهم أمامهم سوى نصف ساعة، فما منه إلا مقتول أو هارب. إذن فنحن أمام شجاعة تاريخية (على أن هذا كلّه إنما هو من السلب والنهب والظلم والقتل الذي وضعه الإسلام، فالحمد لله على نعمة الأمن والإيمان).

والشاهد أن حملاته لا تطاق، غير أنه قليل السياسة، ولا خير في عزم بلا حزم، ولا في شجاعة بدون رأي وسياسة.

بتصرف واختصار وزيادة من: (النجم اللامع: ١٣٩، ٢١٤).

وبالمناسبة فقد كانت دولة الرشيد قوية مهابة حازمة، كأنما ضغط التاريخ فيها لكثرة

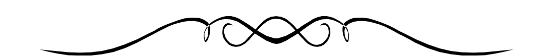
أحداثها وتنوعها، كأنما ضغط فيها التاريخ، جديرة بأن يطول أمدها لولا دبيب داء الأمم إليها في زهرة شبابها، فكان عمرها قرابة التسعين عاماً، ألا وهو الحسد والبغضاء بين آل الرشيد أنفسهم، وهو ما عصف بعرش دولتهم وأزهقها سريعاً، فكان الاغتيال بينهم قد صار سمة وظاهرة بين الخط الثاني والأول من الحكومة، وقد يكون القتلى ثلاثة دفعة واحدة، بل حتى الأطفال لم يسلموا! ويكفينا ذلك الطفل المسكين الذي قتله خاله وهو يلوذ عنه في الزوايا ويصيح بين يديه ويتوسل: «يا خالي، وش سويت أنا؟!» فضربه برصاصة المسدس، فأرداه قتيلاً. وكان قاتله، قد أقسم على المصحف لـمّا أرسل أمّه للحج أن لا يؤذيه ولا يغدر به ولا بإخوته، وما أشنع الغدر! وما أقبح القسوة! والأدهى من ذلك ـ إن صحّ ـ قتل أربعة عشر طفلاً بعد سجنهم، وهم من جملة ثلاثين شخصاً قُتِلُوا في ظرف شهرين من أسرة واحـــدة! ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢- ٢٣]، وكان فيصل الحمود الرشيد فيما بعد حينما كان في الرياض في ضيافة الملك عبد العزيز يقول: إنّي لأنتظر غبّ ما صنعنا ما بقي منّا أحد.

هذا وإن مما يحمد لآل الرشيد وقوفهم مع الدولة العثمانيّة حتى آخر رمق.

وليُعلم أن سنن الله لا تحابي أحداً، فمادام آل سعود على شريعة الله فلهم الرفعة والسناء، والعز والتمكين، وإن حادوا ـ أعاذهم الله من ذلك، وثبّت دينهم وملكهم ـ فالله تعالى يقول: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]. فآل بيت نبيه صلوات الله وسلامه عليه أزال ولايتهم لما بدّلوا، كبني العباس أو الأشراف، وما سواهم من باب أولى! ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

والشّاهد من هذا كلّه هو طرح السؤال المُحرِج لذلك الجيل الماضي: هل حقّقت الثورة العربية أهدافها المعلنة(١)؟

والجواب معروف لدى الجميع، فقضيّةٌ تطبخ في دهاليز لندن، ويديرها أعداء الأمّة، بواسطة حسين وولده، حتّى وإن كانوا لا يُدركون مقصودَ أعداء الأمّة، فمعلوم أنّ مصير هذا المشروع هو الفشل الذريع والسقوط المريع، الّذي ترتّبت عليه وعلى غيره من الأحداث بعد الحرب العالميّة آثار مدمّرة، ونتائج كارثيّة مروّعة، منها ما نراه من تقطيع أواصر المسلمين، فصاروا شيعاً وأحزاباً، ولكلّ حزب قِبْلَةً، ولكلّ شيعةٍ وِجهةً، والله المسؤول أن يُهيئ للأمّة باعثاً لمجدها، ورافعاً لعمودها، وناشراً لفسطاطها، ومُعيداً لسؤددها، ومُناكفاً محارباً مدافعاً بل غازياً فاتحاً لأعدائها. إنّه ولي ذلك والقادر عليه، وإليه المشتكى، وهو المستعان، وعليه التكلان، وهو مولانا فنعم المولى ونعم النصير.



(١) كما سيسألنا أجيالنا عن هذه الثورات الحالية وهل حققت أهدافها النبيلة؟ وحاضر اليوم، تاريخ الغد!

الفَصْلُ التَّاسِعُ

وللإخوان حُسّادٌ وَأَعْدَاءُ، ...وَمُنْصِفُونَ، وَمُحِبُّونَ

لا شكّ أنّ حركة بهذا الحجم والزَّخَمِ، والقَدْرِ من الأعداء، والقدرةِ بإذن الله على تغيير دَفَّةِ سفينة الأحداث، وتعديل بوصلتها للجهة الحقّ الّتي ألحد عنها أهل الباطل بعد أن ضجّت الأرض من بغيهم وتبرّمت السماء من عصيانهم. لذا فلا غرو ولا عجب من التفات كثير من النّاس إليها متعجِّبِين مُعْجَبِين مذهولين، بين مُحِبٍّ راضٍ شاكرٍ، وآخرَ مكلومٍ حاقدٍ سافرٍ، وكلٌّ ينهل من نهجه ويكرع في خبيئته، ويسطّر شهادته للزّمان، فهذا يُدَوِّنُ في أضابير التّاريخ ما يراه الحقّ والوفاء، قُرباناً لربّه، وذاك يكتبه قرباناً لغيظه، علّه يشفى وأنّى له، لَاهُمَّ إلّا من بعض من صَفَتْ نيّاتُهُم، وطلبوا الحق فتاهوا عن إدراكه، إذ أُخِذُوا بزلّات من سبقهم. وكم من مريد للخير لم يبلغه، عفا الله عنا وعنهم، فلقد بذلوا بعض جهدهم، وليتهم أتمّوا ذلك بحسن الظنّ وبذل المزيد من البحث، ومراعاة المحاسن وصفّها إلى جنب المثالب، ولأن تخطئ في العفو خير من أن تخطئ في العقوبة.

ولمّا كانت الآلة الإعلاميّة في ذلك الوقت ليست لعبد العزيز وإخوانه، بل لمخالفيهم من أهل البدعة والخرافة أو الصّليب، فلا غرو أن

يُمسخ تاريخهم الحافل بالكرامة الربانيّة إلى مسخ مشوّهٍ من الجريمة، والقتل للقتل، والتعصّب والجهل! حتّى صيّروا خلفيّات سامعي صدى الماضي صورة نمطيةً بشعة! وما ذنبهم إلّا أنّهم أزاحوا الضَّلال وأزالوه من عرشه! وهتكوا ستر الباطل وأحرقوه وعجّلوا رمسه!

وحروفنا هذه ليست لأجل الدفاع عنهم، فهم قد نزلوا الدّار الآخرة عند مليك برٍّ رحيمٍ، فهم في غنىً عن تسويد الصّفحات ونثر المداد لهم، لكن يعزّ علينا تشويه التّاريخ، وظلم الأجيال بدسائس الزّور والبهتان، بتعميم أخطاء أفرادهم على مجموعهم. وربنا جلّ وعزّ فطرنا وأمرنا بالقسط: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ [النحل: ٩٠].

فالمقصد هو ذِكر التّاريخ كما هو، غضّاً ليّناً طرياً، من أفواه من عاشه ورآه وسمعه من الإخوان أنفسهم[١] أو من أبنائهم الّذين أدركوا بعضه وسمعوا الآخر من آبائهم، أو ممن كتب عنهم[٢] وكذلك ردّ الشّبهات

---

(١) بوّب الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه من كتاب الجهاد: (باب: مَنْ حدّثَ بِمَشَاهِدِهِ في الحرب) وساق حديث السائب بن يزيد، وفيه: إلاّ أنّي سمعت طلحة يُحدِّثُ عن يوم أُحُد.

(٢) وأُشيد هنا بأحسن كتابين أحسبهما من أفضل ما قرأت في موضوع الإخوان، هما: (تاريخ نجد الحديث) لأمين الريحاني، على ما فيه من هنّات، وكتاب: (السعوديّون والحلّ الإسلامي) لمحمد جلال كشك، وهو الأفضل، على أنّهُ لم يستوعب الحركة ككلّ، بل أغفل جانباً مهمّاً من أركانها، ألا وهو الحديث عن تفاصيل مغازيهم في =

الّتي علّقت بهم، أو الأكاذيب الّتي لُطخ بها ناصع مجدهم، وَوُصم بها عظيم حقّهم وفضلهم، حتّى صار الحقّ باطلاً، والمعروف منكراً، والصّالح مجرماً، والفاسق وليّاً، وعُيّرَ الطّائيُّ بالبخل، وقسٌّ بالفهاهة، والشمس بالكسوف، والبدر بالحؤول!

ومقصود الإخوان وغرضهم قد أدركوه، ولا نزكيهم على الله، فهم في ظاهر الحال شُرَاةٌ لمرضاةِ ربّهم تعالى وتقدّس، قد قدّموا أرواحهم على أيديهم النحيلة المتوضّئة، بنفوس تقيّة، وقلوب بيضاء رضيّة، وهمم باذخة عليّة، وعزمات سابقة باهرة، يسوقها عظيم الرجاء بالخلود الأبديّ في جوار البرّ الرّحيم. فهم لم ينتظروا منّا جزاءً ولا شكوراً، بل ولا تأريخاً ولا مدحاً، إنّما سلّمُونا الأمانة العظمى وهي هذه الرّسالة المُعَنْوَنَةُ بـ«الدّعوة

= الحجاز والخرمة، مع شيء من تحليل شخصيّة القائد المظفّر خالد بن لؤي، الّذي أظنّ أنّهُ لم يأت في قوّاد الملك عبد العزيز من هو في شاكلته، إذ قد اجتمع فيه ما تفرّق في غيره، من الدّين، ولزوم غَرْزِ العلماءِ، والحكمة، والشّجاعة، والصّبر، والكرم، والحلم، والمعرفة بتركيبتي نجد والحجاز الاجتماعية والثّقافيّة والدّينيّة، والدّخول والخروج بينهما بسلام وحنكة.

كما أنّ كتابي الدّكتور العثيمين: (تاريخ المملكة العربيّة السعودية)، و(تاريخ معارك الملك عبد العزيز) جيّدةٌ جدّاً في هذا الموضوع، كذلك كتاب: (لسراة الليل هتف الصباح) لعبد العزيز بن عبد المحسن التويجري، وتبرز قيمته التاريخية في أنه قد حوى وثائق ومراسلات هامة في تلك المرحلة، وليته أخرج جميع تلك الرسائل حتى وإن اختلف مع بعضها، فالوثائق معدودة من أهم لبنات النسيج التاريخي، وأوثق مصادره وأصدقها.

السّلفيّة» الّتي هي مَحْضُ توحيدِ المرسلين، ولُبابُ القرآنِ المجيدِ الكريمِ، وبرهان محبة خاتم الأنبياء والمرسلين؛ بتقديم سنته وأمره ونهيه وفعله وقوله وإقراره وسلمه وحربه وجميع شأنه على كل من سواه من العالمين. نسأل الله تعالى أن يُحْيِيَنَا وأن يُمِيْتَنا على تحقيقه، إنّه سميع قريب مجيب.

وليس من نافلة الحديث أن نَرُدَّ عَبَثَ من زعم أن حركة الإخوان المسلمين في مصر تعد امتداداً لهؤلاء، فهذا الزعم لا يعضده برهان، ولا تسنده حجة، ولا تسعده الوثائق والأحداث، فهؤلاء الإخوان الذين ذكرناهم ليس لهم ارتباط مكاني ولا زماني ولا منهجي بتلك الحركة، بل ليس لهم تنظيم ولا تحزّب ولا ترتيب ولا عضويات ونحو ذلك من أساسات جماعة إخوان حسن البنا رَحِمَهُ اللَّهُ والأمر الأوضح من ذلك؛ أن أعظم مظهر لهؤلاء الإخوان هو أصل الولاء والبراء، فكانوا لا يزايدون عليه بالدنيا وما عليها، بل ربما زاد بعضهم من هذا الأصل فوقع في بعض التصرفات الموصوفة بالغلوّ والانفعالية وتحجير الواسع، بينما نرى عند جماعة الإخوان بمصر أنّ هذا الأصل ـ بكل أسف ـ قد صُيِّرَ هشّاً رخواً، وجداراً قصيراً، يجتازه من أراد القفز أو الالتفاف أو المراوغة، ولا يجد أمامه من يرده عن ذاك الحمى، ولا من يمنعه من تلك الجريمة، إلى غير تلك الدلائل الواضحة على بطلان ذلك الزعم.

لذلك نقول: إن أعظم هدف عند الإخوان السعوديين هو إقامة التوحيد الخالص في نفوس الناس، برفع عَلَمِ الجهاد في سبيل الله باللسان والسنان، أمّا جماعة الإخوان في مصر وغيرها فنرى الهدف المعلن هو

إقامة الحاكمية لله تعالى على رأس هرم الدولة(١) ولو كان ثمن ذلك هو تقديم قرابين من تمييع الدين، وطعن الولاء والبراء في الخاصرة، وتغبيش صفاء راية التوحيد! لذا فقد انضم لجماعتهم الخرافي الصوفي القبوري، والرافضي الوثني، اللذان لو رآهما إخوان من أطاع الله لطهّراهما سبعاً والثامنة بالتراب، فان تاب ووحّد وأناب، وإلا أطاروا رأسه ووسدوه التراب.

ولا إخالنا بعد تلك المقارنة إلا أن نتمثل بقول القائل:

أيا منكحاً سهيل الثريا ... هداك الله كيف يجتمعان

هي شاميّة إذا ما استقلت ... وسهيل إذا ما استقل يمان

ولا يعني هذا أن جماعة إخوان مصر وما تفرع منها ليس فيهم خير! ـ معاذ الله ـ بل نقول بثقة: إن فيهم خيراً وفضلاً ودعوةً وجهاداً، ولكن ليتهم يبطلون بالقول والفعل شعارهم المنكر: (نجتمع فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا عليه!) بـ(نجتمع على التوحيد والعقيدة المرضيّة، والسنة النبوية، ويعذر بعضنا بعضا في المسائل الاجتهادية، التي ساغ الخلاف فيها في الشريعة المحمديّة) ويبدأون بإصلاح القاعدة والأساس وهم عامة الناس، حتى تصلح الأمة، فيولّي الله عليها خيارَها، وتقوم الحاكمية لله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾ [الأنعام: ١٢٩]

---

(١) وقد استلموا عنان الملك والرئاسة، فهل يوفون فيُشكرون من الخالق والمخلوق، أم الأخرى أجارهم الله تعالى منها، ووفقهم وسددهم وأعانهم على مرضاته.

وكل من لم يجعل طريقة المرسلين في البدء بالتوحيد أساساً لطريقته؛ فقد غشّ نفسه وأتباعه، وإنك لا تجني من الشوك العنب. ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البقرة: ١٣٩] فكل الأنبياء والمرسلين بدأوا دعوتهم بالتوحيد والنهي عن الشرك ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [(الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥) (هود: ٥٠، ٦١، ٨٤) (المؤمنون: ٢٣)].

شاهد المقال: أَنْ ليس هناك وجه وعلاقة بين الحركتين سِوَى الاسم والجهاد وسبب هذا ــ والله أعلم ــ هو الصّيت والزّخم بطرفيه الذام والمادح الذي عمّ أقطار المسلمين، ولعلّه ما حدا بالشيخ حسن البنا رَحِمَهُ اللهُ، وهو تلميذ الشيخين؛ محمد رشيد رضا[١] ومحب الدين الخطيب[٢] رحمهما الله تعالى الذين كانا معجبين بتلك الحركة ونقائها وصفائها وجهادها، فأخذ الشيخ حسن ذلك المسمّى فقط وإيقاعه الجهادي، أمّا أن يقال بأنها امتداد وتنظيم أو اتفاق فكلّا.

أمّا من جعلهم امتداداً لجماعة التبليغ والدعوة، فيكفي أن نرد باطله بقولنا: إنّ هذه الجماعة ـ للأسف ـ ليس من أصول دعوتهم إنكار المنكر باللسان أصلاً! دعك من جهاد المنكر بالسيف والسنان، والأدهى من ذلك أنّ التوحيد الذي قامت عليه الملّة، وهو لباب دعوة المرسلين؛ لم يجعلوه من أولوياتهم، ولم يشفوا لَبَانَةَ تابعيهم بتأصيله، بل قد جعلوه

---

(١) صاحب مجلّة المنار.

(٢) مؤلف كتاب: (الخطوط العريضة لدعوة الاثني عشرية).

خلف الدعوة لحسن الأخلاق ورقائق القلوب! على أهمية ذلك، لكن الأسوة الحسنة صلوات الله وسلامه عليه، قد حسم الأمر بأن قال لمعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فليكن أَوّل ما تدعوهم إليه أن يوحدوا الله تعالى**»(١) فكلمة التوحيد قبل توحيد الكلمة، وإن اجتمعا للأمة فواها! نعم فيهم تألُّهٌ وتضحيةٌ وحسنُ خلق، ولكن شوهت دعوتهم البدع! هدانا الله وإياهم والمسلمين الصراط المستقيم.

إذن فلا مقارنة بين أولويات دعوة المرسلين وأَتْبَاعِهم بإحسان، وبين من تنكب نهجهم، واستبدل سننهم. فمن يساوي الدر بالحصى! والسيف بالعصا!: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ١٩-٢٢].

وكما قيل: في زمن الغربة ووقت الشدائد يختار القلّة سلامة المنهج، ويختار الأكثر منهج السلامة! وعند الصباح يحمد القوم السُّرى.

وقد نُقِل عن محدث العصر الإمام الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ مبيناً حال الكثير من الدعاة وناصحاً لهم: لو اجتمع للدعاة حسن خلق جماعة التبليغ ورفقهم، مع حسن تنظيم جماعة الإخوان واهتمامهم بخدمة الناس، مع

---

(١) رواه البخاري عن ابن عباس، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وفي رواية: «إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» وهما بمعنى، فالأولوية لدعوة التوحيد قبل أي دعوة، مهما ألحّ الناس.

منهج من ينتسب لطريقة السلف وسلامتهم من البدع لصلح الناس.
وعلى كلٍّ فالأولويات لابد من مراعاتها؛ فلا بد من البدء بدعوة التوحيد وتعظيم السنن ومحاربة البدع، مع حسن الخلق والرفق بالناس، وإحسان العبادة، وجودة العمل وتنظيمه، وابتغاء وجه ربنا الأعلى بالدعوة إليه، وكلّ شيء لغير الله يضمحل.

وبالجملة؛ فعلى الناصح لنفسه وأمته أن يُعنى بفقه الأولويات، وبماذا يبدأ؟ وماذا يقدم؟ وماذا يؤخر؟ وأن يتّبع ولا يبتدع فقد كُفِي، فدين الله سام شامل، وباسق كامل ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] ويعرفُ قدر هذه الآية من قرأها وفي ذهنه من حُرموا ثمرتها من أهل الملل والنحل، حتى يرى عظيم نعمة الله تعالى عليه بخلقه أولاً، ثم بتخصيصه بالإنسانية من سائر المخلوقات، ثم بتخصيصه بأن يكون من خير أمة أخرجت للناس، وبأن يُخاطَبَ بأعظم كتاب نزل، وبأن يوفق لاتّباع أعظم نبي بعث.... فما أعظم نعم الله علينا، وأقل شكرنا له!

وعلى الداعي إلى الله تعالى، أن يقدم مراضي الله على ما سواه، كالسلطان ومن تحسّى مرقة السلطان أحرقت شفتاه ولو بعد حين! وكالعامة والجمهور وصولتهم ورهبتهم ورغبتهم أحياناً أشد من السلطان، وما أخفى ضحاياهم في عباءات الاحتساب! فيرائي العامة بذم السلطان، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم، وكحظوظ النفس الأمارة الجلية

التي تُودي به حتى ببيع رسالته جهاراً، والخفية الأخفى من دبيب النمل، والنفسُ تملي وتتمنى، وتزيّن وتسوّل، وتبدل وتتأول...والعقل واعظ ناصح، والقلب بينهما حرون متقلب، حتى يطمئن في فردوس الإيمان، والمعافى من عافاه الله، والسعيد من وفقه الله.

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الدعوة السلفية، وإن زاد بعضهم عبارة النجدية؛ فمرادهم التنويه بدور الإمام وتلاميذه وأمرائهم في نشر الدعوة المحمدية النبوية وتجديدها ليس إلّا.

لذلك فالسلفية ليست خاصة بقطر دون آخر، ولا بإقليم دون غيره، فلا نجْد ولا غيرها لها اختصاص بذلك، وليس هناك بقعة أفضل من الحرمين، اللذين شعّ منهما نور الهدى وضياء الإسلام، وحقائق القرآن والإيمان، والأرض لا تقدّس أحداً، ولكن يقدس الرجلَ عملُه، كما قاله سلمان لأبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. ومن كان مخلصاً الدين للرحمن، متبعاً في شأنه سنة رسول الله ﷺ، سالماً من شوائب البدع، وأخلاط الخرافات، فهو سلفي صميم، وسنّي مستقيم، حتى وإن انتسب جهلاً لطائفة بدعة، أو شيخ ضلالة، فالعبرة بالحقائق والمعاني، لا الصور والمباني، مع تحريم الانتساب لبدعة أو مبتدع إطلاقاً. كما أن مجرد الانتساب لها لا يعني صدق الاتباع مالم يحقق ذلك بقلبه وقوله وفعله.

لذا فمن طعن في أهل نجد لأجل دنياهم ودنياه، فأمره مختلف تماماً عمن طعن فيهم بقصد التوصل إلى طعن رسالتهم الإصلاحية السلفية، كما كان السلف يطعنون في من ذم بعض الأئمة الذين علت قاماتهم في

الدين والعلم، لأن التوصل لطعنهم وهتك حرمتهم عند العامة يفضي إلى الطعن في علمهم وديانتهم وحرمان الأمة من الانتفاع بهم، كما كان يحيى بن معين يقول ـ فيما يرويه عنه الذهبي في السير ــ: «إذا رأيت إنساناً يقع في عكرمة وحماد بن سلمة فاتهمه على الإسلام» رحمهم الله.

وبحمد الله فهذه الدعوة الإصلاحية السلفية قد عمّ نفعها أركان العالم الإسلامي بجهاته الأربع، ومن غاص في تتبع أحوال العامة أو الحركات الإصلاحية والجهادية في القرون المتأخرة وجد أن للدعوة الإصلاحية حضور ورواج واضح فيها، باستلهام نهجها أو بعضه علمياً أو عملياً، وبعضها أقرب إليها من بعض، وقد تفطنت لذلك دوائر الرصد الصليبية والصهيونية، فرمت هذه الدعوة عن قوس واحدة، وطعنتها برمح واحد، وسلّطت عليها المسلمين قبل الكفّار، بشبهة علم أو شهوة طمع، فتكسرت على صدرها النصال فوق النصال، ولولا أنها حقّ ومحفوظة من الله ما بقيت لها بقية منذ قرون، والله غالب على أمره.

هذا وقد كتب الشيخ المؤرّخ محمد جلال كشك في كتابه: «السعوديون والحلّ الإسلامي» فصولاً نفيسة عن الإخوان، بيّنت مدى عِزّةِ المسلم الرّفيع على الكافر الوضيع، واستعلاء المؤمن بدينه على الأرجاس الأنجاس من معتنقي ملل الكفر، ونحل الوثنية، وَضَرَبَ لذلك أمثلةً أسوق بعضها مكتفياً بذكر معاملة الإخوان مع أحد أولائك وهو "فلبي" الّذي زعم أنه قد أسلم وتسمّى بعبد الله، لكنّه فضح كذبه لمّا عاد لموطنه، مع أنّ فلبي هذا كان هو ممثّل الإمبراطوريّة العظمى للتّاج

البريطاني على بلاط الإمام عبد العزيز، وهو الّذي كان يُسلّم الإعانة الشهرية من حكومته. مع ذلك فقد أذاقه الإخوان ذلّ الكافرين على أيدي المؤمنين، فتارة يتناقشون في مجلسه عن حكم السّلام على من يتعاون معه من موظّفي الحكومة، أمّا حكم السّلام على الكافر فقد فرغوا منه.

وذات مرّة لمّا مرض، وكان برفقته أحد الإخوان في سَفَرِهِ بتكليف من قبل الإمام، قال فلبي: فما سلّم علي، ولا ردّ السّلام، ولا بشّ في وجهي، ولمّا مرضت قلت له: إنّي مريض يا نوار. فالتفت عنّي وقال: والحمد لله.

وقد كان ذلك في الوقت الذي يفتخر فيه أحد الحكّام العرب، أنّ المعتمد البريطاني ـ وهو قرين فلبي ـ قد أصلح له عباءته ذات مرّة! ولو فعلها فلبي لنوار لغسل نوار عباءته سبع مرات، والمرء حيث يضع نفسه.

لقد كان الإخوان يعاملونه كمجذوم بني إسرائيل: لا مساس، بل ربّما دخلوا عليه خيمته ونهروا مرافقه وقالوا: لماذا تأتي بالكافر عندنا؟ فيجيبهم صاحبهم: اذكروا الله، فيخرجون غضاباً قائلين: لا إله إلّا الله.

وقال له أحدهم: أُشْهِدُ الله على بغضك.

والآخر كان يغطّي عينيه حتّى لا يرى ذلك الكافر(١).

---

(١) كان الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ يغطي وجهه إذا مر به نصراني من شدة إعظامة لشناعة قول النصارى في الله تعالى، وأورد شيخ الإسلام في الجواب الصحيح عن عمر وحذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنهما كانا يقولان: «أهينوا النصارى ولا تظلموهم، فقد سبّوا الله مسبّة ما =

ولمّا دخل أحدهم خيمة فلبي، وتحدّث مع مرافقه وخرج، عنّفَهُ الإخوان، وقالوا: كيف تدخل خيمة الكافر؟ فلم يجد كفّارة يكفّر بها خطيئته إلّا أن استدار وبصق في اتّجاه فلبي.

وليس هذا من عامّتِهم فقط، بل هذا سلوك عقديّ قد ارتضعوه من علمائهم، ولمّا سلّم حافظ وهبة على فلبي، ودعاه لمائدته، وكان عنده الشّيخ العلاّمة عبد الله بن حسن، فنهره الشّيخ وقال: أعوذ بالله، أتقوم للنّصراني وتصافحه وتهشّ في وجهه وتدعوه للأكل معنا! وكلُّ هذا وفلبي يسمع، ثمّ لم يملك إلّا أن خرج ذليلاً صاغراً. ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].



= سبّه بها أحد» وهل بعد وصمه بالصاحبة والولد والأقانيم والشركاء والتجسد مسبّة؟! تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. وانظر كتاب «كلنا نحن المسيح عليه السلام» لراقمه.

منهج الإخوان

كانوا يحاولون انتهاج نهج الصّحابة في أمورهم قدر طاقتهم، ولا نزكيهم على الله، ونبرأ إليه مما فعله بعض أفرادهم من أمور، فهم يحبّون أن يتشبّهوا بالصّحابة في كلّ شي، حتّى أنّهم لبِسوا المعمّ وهو عمامة العرب الأولى تشبّهاً بالصّحابة، لدرجة أن تشدَّدُوا فيها حتّى صار عند بعضهم ولاءٌ وبراءٌ عليها، حتّى نهاهم العلماء عن ذلك، وأخبروهم أنّها ليست بسنّةٍ أصلاً، إنما هي من العادات لا العبادات، وبعض رسائل العلماء في نهيهم لهم مذكورة في الدّرر السّنيّة، والشّاهد من ذلك بيان حرصهم على التأسّي بالصحابة في سمتهم وهيئتهم وعبادتهم وأعمالهم، رضي الله عن الصّحابة، ورحم الله الإخوان.

من منهجهم؛ أنّهم كانوا لا يقتلون الأطفال والنّساء والهرم، وعلماؤهم يشددون عليهم في ذلك، وترقُلُ على ميمنتهم وميسرتهم ناقتان عليهما من يذكرهم بآداب الجهاد في الإسلام أثناء سيرهم، وكلّ ما قيل بخلاف ذلك فهو زور وبهتان، خلا بعض الحوادث الفردية المردودة على فاعلها ومرتكبها، فقد كان الإخوان يتحرّزون من قتل أولئك ويشدّدون النّكير على فاعله.

همو معشر الإخوان دام سرورهم ولا سرّ من يرميهمُ بالمعائب
لهم أسوة في فعل صحب نبيهم وهمتهم مصروفة في العواقب

عِلْمُ الإخوان

كانوا حريصين على تعلّم العلم وحفظ القرآن، ومن الأمور المعتادة في زمنهم أن ترى أحدهم بين الأذان والإقامة، أو بعد أذكار الصلاة، أو في نخله، أو عند ماشيته، وهو يصدح ويرفع صوته مراجعاً حفظه لقصار السور، أو الأصول الثّلاثة للإمام المجدّد.

وكانوا في جملتهم وقّافين عند فتاوى العلماء إلّا ما شذ منهم خاصة بعد فتنة الانشقاق، فارّين من الجهل بكلّ ما أوتوا من طاقة، قصدوا العلم وطلبوا مظانّه.

وكان العلماء والدعاة والوعاظ "المطاوعة" يحرصون على تعليمهم وتحفيظهم الأصول الثّلاثة، فيحفّظون أهل الهجر والبادية الأصول، ويدقّقون في حفظهم لها، ويسألونهم: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيّك؟ حتّى أنّ بعض البادية ربّما هرب من تشديد الدّعاة في الحفظ والتّسميع والتربية.

وكانوا سبّاقين للخيرات، مُتنافسين على الطّاعات، مُسارعين للقُرُبَات، ومن أقوالهم في ذلك والحثّ عليه:

أحد قدّم في الخير واحد توخر وأحد يقيّس مرقده في الظلالي

عبادة الإخوان

قـوم لقـد آمنـوا بـالله خالقــهم   وهـاجروا ووقـوا إثـماً وعـدوانا
وجاهدوا في سبيل الله بل صبروا   وصـابروا لـذوي الإشراك أزمانـا
تعلـم العـلم في الإصـباح همـهم   وينقـضي لـيلهم ذكـراً وقرآنـا
وجامع الأمرين تطلب لوصفهم   نهـارهم أُسُـد وفي الليـل رهبانـا

كثيروا التلاوة للقرآن ولو من ما حفظوه من قصار السور، وغزيروا التسبيح والاستغفار والذّكر، إذا أقبل الليل وجاء وقت الأصيل لزموا المساجد للذّكر والتسبيح والتهليل، وإذا أقبل السّحر لبّوا نداء القيام والوتر والدّعاء والضّراعة، وصفّوا أقدامهم للقيام وراوحوا بينها وبين الجِباه، لصدورهم أنين، ولعيونهم دموع، ولبيوتهم دويّ كدويّ النحل من القرآن والبكاء والدّعاء، كسرت الدعوة وحرارة الإيمان جفاء باديتهم وشدة طبعهم، فنصعت معادن العرب الأول، وانقادوا للقرآن فتضوع المسك الأذفر، وخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا، كانوا يشبِّهون سَفِر بن محسّن بالوتد لطول صلاته بالليل، كذلك ناصر الحارث، وبجاد بن ثامر، وسلطان بن بجاد في آخرين كُثُر من الإخوان، رحمهم الرحيم الرّحمن.

يتحلقون حول من يقرأ عليهم مجموعة التوحيد أو مجموعة الحديث ولهم نشيج ونهيج.

قال أحدهم: دخلت المسجد قبل غيبوبة الشمس فعددت فيه اثني عشر صفاً قد سبقوني، ولهم همهمة بالتسبيح والابتهال والذكر.

قد هَدَمَ التديّن إِحَنَ الجاهليّة بينهم، فيرى الرجلُ قاتلَ والدِهِ في الجاهليّة فيسلّم عليه، ولا يذكره بشرّ لا بلسانه ولا يده.

كانوا ينهرون من اعتزى بعزاء الجاهليّة، أو من انتخى بغير الدين، فأبدلوا (أخو فلانة، وخيال فلانة، ويا آل فلان....) بصبي التوحيد، وخيّال التوحيد، وأهل التوحيد، وأنا أخو من أطاع الله، وكبر وهلّل، فإن استحرّ القتال وحمي وطيسه؛ قالوا: إياك نعبد وإياك نستعين.

شعار حالهم مع مولاهم كما قال أبو فراس:

فليتك تحلوا والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكلّ هيّن ... وكل الذي فوق التراب تراب

زَهِدُوا في حطام الدّنيا فأعطوها حقّها من الصّغار والزّهد، وَرَعُهُم عميقٌ دقيقٌ، آمرون بالمعروف قدر الطّاقة، ناهون عن المنكر بجلاد الكفّار بالسّيف، وبجلد العصاة بالعصيّ أطْراً، إن لم ينتهوا عن منكرهم، معظّمون لشعيرة صلاة الجماعة، ويتفقّدون النّاس بأسمائهم بعد الفجر متأوّلين حديث: «**أَشَهِدَ فلان؟ أشهد فلان؟**»[1] ومن تخلّف عن صلاة

(١) رواه النسائي.

الجماعة؛ أحرقوا عمامته أو جلدوه، حتّى ولو كان أميرهم.

خرج سيف بن فرجان من الهجرة، هجرة خالد، مع مغيب الشمس ذاهباً إلى حوقان فمرّ على طريقه بناحية تسمى "الرّقبة" ومؤذنهم يؤذن، فنادوه وقالوا: لن تدرك المغرب في حوقان فصلّ معنا. لكنّه تركهم وقال: سأدركهم إن شاء الله، وذهب لحوقان مُجِدّاً سيره، ولمّا وصل لحوقان(١) إذ الشّيخ عبد الرحمن الرشيد خارجٌ من بيته ليصلّي بالنّاس، فتعمّد المرورَ بجانبه والسّلامَ عليه، وتمسيتِهِ بالخير ليثبِّت نفسَهُ بشهادة شيخه. ثمّ صلّى معهم، ولمّا أصبح الصّبح دعاه داعي الإخوان. فقال له الشّيخ: مررت بأهل الرّقبة وقت الأذان ولم تصل؟ فقال: الحمد لله لحقت الصّلاة مع أهل حوقان، واسألوا مطوَّعَنَا ابن رشيد، فسألوا الشّيخ فصدّقه فنجا ظهره من العصا.

وعبد الله بن حامد كان يقول وهو في طريقه لمعركة تربة: الّلهم اجعل قتلنا مقبلين غير مدبرين، فأصابته الرّصاصة مع نحره رَحِمَهُ اللَّهُ.

وانظر إلى صفاء فطرتهم، ونقاء ديانتهم، وصدق توكّلهم، وهم ينظرون للطّائرة الّتي تلقي القنابل، فيقول أحدهم لإخوانه: يا إخوان هذه الطّائرة التي أخافتكم هل هي فَوْقَ اللهِ؟ أمِ اللهُ فَوْقَهَا؟ قالوا: بل اللهُ فوقَها. قال: فتوكّلوا على الله وارموها، فرموها فزلزلوها وأنزلوها كالطّير

---

(١) حي في الخرمة واقع جنوب غرب السوق بنحو ثلاثة أكيال، وقعت فيه أولى المعارك مع الشريف عام: (١٣٣٦)وسميت بمعركة حوقان.

الكسير، وما يدٌ إلّا يَدُ اللهِ فَوقَهَا.

وما الخوفُ إلا ما تخوّفه الفتى وما الأمنُ إلا ما عدّه الفتى أمناً

وفي معركة حائل، وأثناء الحصار؛ كانت مجموعة قليلة من الإخوان تحاصر قلعة حصينة، وزاد من حصانتها أنها كانت في أعلى جبل، فصلى الإخوان صلاة العشاء تحت ذلك الجبل فلما قرأ الإمام: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] جهر المأمومين بالتأمين، فردد الجبل صدى صوتهم، فألقى الله الفزع في قلوب أهل القلعة، فلم يلبثوا أن أدلوا حبلاً لهم ونزلوا منه واحداً بعد واحد، حتى نزلوا جميعاً وأخلوا القلعة، وهربوا لأميرهم محمد الطلال الرشيد، الذي غضب وهم بقتلهم بسبب تسليمهم القلعة بلا سبب، وليس لهم عذر سوى أنهم خافوا لمّا سمعوا التأمين. وكان في المجلس محمد العوني؛ وهو من مستشاري الأمير ومن خاصته، فقال محاولاً إطفاء غضب الأمير وكشف كربة المآمير: يا طويل العمر قد كنت أسمع عن قصة تروى ولم أصدقها حتى هذا اليوم، فإنهم يقولون: إن الفأرة إذا كانت في سقف المنزل، وزمجر تحتها القط في الأرض؛ فإنّها تسقط عليه من السقف! فاليوم رأيت مصداق هذه القصة ـ أي مثالها مع الفارق ـ فضحك الأمير ثم عفا عنهم(١).

قال هذّال الغزيلي: والله لقد رأيت رجلاً من الإخوان أسود الّلون متقلّداً مصحفه، ويركض أمام المكائن والرشّاشات، ويرمي العدوّ، فإن

(١) مخطوطة النجم اللامع، العبيد.

رأى فسحة من الوقت وهدأ الرمي جلس ونشر مصحفه وقرأ. وكان ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ يحبّ الإخوان وسيرتهم، ويفرح بقدوم من يخبره بأخبارهم، خاصّة إن كان هذّال الغزيلي، فإذا دخل عليه هذّال أدناه وحنا رأسه ولهج بدعوات مقرونة بدمعات، وهو يسمع ما يُثلج صدره، ويُظهر بِشْرَه، من أخبار تلك الكوكبة النّفيسة، من العبّاد الفرسان، من الّذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، نحسبهم والله حسيبنا وحسيبهم، ولا نزكّي على الله أحداً.

وتأمّل حسن ظنهم بالله، حيث كانوا يقولون: والله ليبعثنّ الله جراداً الصّميلي على حصانه. لمّا استشهد وهو مقبل على العدوّ.

والآخر كان يَعْرِضُ في حوقان قبل المعركة، أي يرقص رقصة الحرب بالأصول الثلاثة، فلله درهم.

وانظر إلى أشعارهم الحماسيّة التي مضت[١] وكقولهم:

مـا ذكـر في الكتـاب والـسنّة   كـود تـسبيلة قـدام
وينـك يـاللي تريـد الجـنة   التـزم ذروة الـسنام

أو أبياتهم الأخرى:

يالنـشاما مـابه الا الله   ودعـوا ذا النفـس واليهـا

(١) سلاح الشعر كان ولا يزال سلاح رئيس في الحروب ورسول الله ﷺ وصف شعر حسان أنه أشد على المشركين من وقع النبل ، وأمره أن يهجوهم ودعا الله أن يؤيده بالروح القدس.

ربـــع ســـاعة في ســـبيل الله تـــازن الدنـــيا ومـــا فيهـــا

وقول الآخر:

لبسوا معـم جديـد هبـل الأكفـان تبـايحوا والكـل منهم كاتـب دينـه

كذلك:

تنـادبوا هــل التوحــيد وســبلوا تــسالموا وكـــل قـــال مبـــاح

كـل كتـب دينـه ولـبس احـرامه وقال امشوا هذي حجة الأرواح

كذلك:

بانــت البينــة والديــن ديــن الله مـا نطـاوع هـل الـردات والجـافي

كذلك:

ذا يــــــــوم الحجـــــــــة ذا يــــــــوم العـــــــــيد

فـــــتح بــــــاب الجــــــنة يـــــا هــــــل التوحــــــيد

كذلك:

يـوم المكـاين دنـدنت مـا جنبـوا نـادى المنـادي يـا هـل التوحيـد

كذلك:

عقـب الـلي يـوم يجـرون المـدافع مــا حمــى في ديــن رب العــالمين

كذلك:

مـانبي منـك يـا عبـاد الاصـنام كـود تقـرا الكتـاب وتتبـع الـسنة

كذلك:

هبـــت هبـــوب الجـــنة ويـــن أنـــت يـــا باغـــيها

كذلك:

مـــن تـــدبر تـــالي الأنفـــال جـــانا قـــدام يجيـــه داعينـــا

كذلك:

نحمـد الـلي جمـع كـل الـشفوف نـصرة الـدين طـار بهـا الخـبر

كذلك:

بانـت البينـة والـدين ديـن الله مـا مـشينا في ديـن الـرب كذابـة
يا سلامي على كل من طاع الله واتـبع ملـة إبـراهيم واصـحابه

كذلك:

اســـتعنا بـــالإله المعـــتلي يـوم النـصارى تعتـزي بجنودهـا

كذلك:

من بغى الناموس لا يطري المنية من وفى أجله مات لو كان متعافي

ويروى عن أحد الإخوان، أنّه وقف على رجل آخر من الإخوان والبندقية في يده، وكان الأخير قد قتل والد الأول في جاهليتهم، فنظر إليه ثم قال: والله لولا الإسلام لكان لي ولك شأن!

وإذا كانـــت النفـــوس كبـــاراً تعبـــت في مرادهـــا الأجـــسام

وهذا سعد آل مفرج كان صائماً نهار إحدى المعارك فقال له أخوه سليم: يا سعد أفطر أنت تخدم أصحابك والفطر أقوى لك. فقال: اسكت عني يا سليم إنّي أرجو أن أفطر مع الحور العين، واستشهد قبل مغيب الشمس رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١).

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل أن أتقدّما

أمّا محسن بن خالد بن لؤي فاستشهد في نفس اليوم وهو على حصانه "كحيلان" وهو ينشد أبيات ابن رواحة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

يا نفس مالك تكرهين الجنّة هل أنت إلاّ نطفة في شنّة

وذاك هزاع بن محمد الحارث يقول يوم الحنو: الّلهم إن كانت المنيّة قريبة فاجعلها اليوم فاستُشهد في تلك المعركة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

نُهِيْنُ النّفُوسَ وَهَونُ النُّفُوسِ يَومَ الكَرِيْهَةِ أَوْقَى لَهَا

يروى عن علي الناقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ وكان من كبار الإخوان، قال: قتل واحد من الإخوان، وكان بيني وبينه صلة ومحبة خاصة، فلمّا دفنّاه في قبره، ونمت تلك الليلة وأنا محزون عليه، فرأيته في المنام فقلت: ما حالك؟

---

(١) بوّب البخاري رحمه في كتاب الجهاد من صحيحه: (باب: عملٌ صالح قبل القتال) وفيه: وقال أبو الدرداء: إنّما تقاتلون بأعمالكم. وساق حديث البراء في الرجل المقنع بالحديد الذي قال: يا رسول الله، أُقاتل وأُسلم؟ قال: «**أَسلم ثم قاتل**» فأسلم ثم قاتل فقتل، فقال رسول الله ﷺ: «**عمل قليلاً وأُجر كثيراً**».

فقال: والله إن أتلى علمي بالشر[١] منذ أن دفنتموني! وهذا يصدقه حديث النبي ﷺ: «**مستريح ومستراح منه**»[٢] فالمؤمن يستريح من نصب الدنيا وعنائها، والفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب. وهذا عبد الهادي المقاطي من الغطغط في يوم جبّار، يرفع صوته بالتّكبير في بداية المعركة ويقول: لا إله إلّا الله، بيعة يا إخوان بيعة، فتقدّم الصّفوف، وباع نفسه لربّه، حتّى ألهبه الرّصاص وزفّه للشهادة ولا نزكيه على الله[٣].

---

(١) أي آخر المشاق التي جرت علي انتهيت منها حين دفنتموني.

(٢) متفق عليه.

(٣) إنها أمنية النبي ﷺ، فقد قال عليه الصلاة والسلام: والذي نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين، ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبدًا، ولكن لا أجد سعة فأحملهم، ولا يجدون سعة، ويشق عليهم أن يتخلفوا عني، والذي نفس محمد بيده لوددت أني أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل. رواه البخاري ومسلم.

ولما قُتِل من قُتِل من أصحاب النبي ﷺ يوم أُحد ولقوا ربهم تبارك وتعالى، فسألهم: ماذا يُريدون ؟ ما اختاروا غير العودة للدنيا من أجل أن يُقتلوا في سبيل الله مرة ثانية.

ولما قتل عبد الله بن عمرو بن حرام يوم أحد، قال رسول الله ﷺ: «**يا جابر ألا أخبرك ما قال الله عز وجل لأبيك؟**» قال: بلى. قال: «**ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب، وكلّم أباك كفاحاً، فقال: يا عبدي تمنّ عليّ أعطك. قال: يا رب تحييني فأقتل فيك ثانية! قال: إنه سبق مني أنهم إليها لا يرجعون. قال: يا رب فأبلغ من ورائي،**** =

فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩]» رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه.

وقال عليه الصلاة والسلام: «**لمّا أصيب إخوانكم بأُحد جعل الله عز وجل أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة، تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلمّا وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن منقلبهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون بما صنع الله لنا لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب. فقال الله عز وجل: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات على رسوله:** ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾» رواه الإمام أحمد وأبو داود.

وقال عليه الصلاة والسلام: «**للشهيد عند الله عز وجل سبع خصال:**

يُغفر له في أول دفعة من دمه.

ويرى مقعده من الجنة.

ويُحلّى حلّة الإيمان.

ويزوّج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين.

ويُجارُ من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر.

ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها.

ويشفع في سبعين إنساناً من أقاربه». رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه، ولما سُئل رسول الله ﷺ: ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟ قال: «**كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة**». رواه النسائي.

على مثل ليلى يقتل المرء نفسه وإن كان من ليلى على الهجر طاويا

أمّا إذا دخلت العشر الأواخر من رمضان فإنّ جامع هجرة خالد، كان يمتلئُ من الإخوان المعتكفين، قال من رآهم: كانت خيامهم من ركن المسجد إلى ركنه الآخر، مليئةٌ بالعبّاد الصائمين المصلّين الذّاكرين. لقد كان الإخوان رحمهم الله تعالى، على اختلاف ألوانهم وقبائلهم وأوطانهم، يحنّون إلى الجنة حنين الأمهات إلى أولادها، والإبل إلى أعطانها، بل أعظم، فما كانوا يسمعون بغزوة إلا تسارعوا للخروج فيها ﴿يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

وما كنتُ ممن يدخل العشق قلبه ولكنّ مَن يُبصرْ لِحَاظكِ يعشق

وقال ﷺ: «**من مات ولم يغز، ولم يحدث به نفسه، مات على شعبة من نفاق**». رواه مسلم.

وقال عليه الصلاة والسلام: «**من سأل الله الشهادة بصدق بلّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه**». رواه مسلم.

ولو لم يرد في فضل الجهاد والشهادة إلا هذه الآية لكفت الناس: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١١- ١١٢].

فيُروى أنّ أحدهم كان له عامل فأخذ يوصيه بأمور تخص النخل ورعايته، فقال العامل: وأنت إلى أين تذهب؟ فقال: أريد الذهاب مع الإخوان أرغب فيما عند الله. فقال: وأنا كذلك أريد ما عند الله، فخرج الاثنان إلى معركة (الحنو) ولم يعودا إلى نخلهم. ونرجو إن شاء الله تعالى؛ أنّهما من الحنو إلى الجنّة مباشرة. ولا نزكي على الله أحداً. أَلا رَحَمَ اللهُ تلك العظام، التي حملت تلك النفوس العظام،وغفر لتلك الأقدام ذات المعالي والإقدام، وأعلى نزلهم في عليّين، يا حيّ يا قيّوم، يا ذا الجلال والإكرام، يا رحمن يا رحيم، يا ربّ العالمين.

إله الحق آمين.

وَأسْأَلُ ربي أن تكون منيتي	بعيداً عن الأوطان للشرك غازيا
ويا كامل الأوصاف هب لي شهادة	وختم حياتي بالسرور المواتيا
لئن عز ديني واستبيحت جوارحي	فأين مقام العز إلا مقاميا؟
فخذ من دمائي يا سميعاً لدعوتي	فما أطيب الآلام إن كنت راضيا
ويا رب قطّعني وفرق مفاصلي	بجوف طيور أو بطون العوافيا
ويا رب عاملني بما أنت أهله	فذنبي عظيم والرحيل دنا ليا
أعزّ إله الحقّ أمة أحمد	فقد سامها الكفار ذلاً مصاليا

وبعد: فآمل من الأخ القارئ الكريم، أن يأخذ من الكتاب ما صَفَى، وأن يَذَرَ ما كَدَرَ ، وأستميحُهُ فيما قد يجد في ثناياه من خطأٍ في اسم شخص، أو مكان، أو بيت شعر، أو معلومة، أو حتى فكرة، ونحو ذلك، وأن يحملها على أحسن المحامل، عامله الله بالعفو والرحمة والغفران! وما

هذا القصور مني إلا لعجزي وضعفي، والعهدةُ على من أملوها، وهم قد شارفوا التّسعين، بل بعضهم قد جاوز المئة ببضع سنين، وقد مات جُلُّهم، فلا غرو أن يحدث بعض الخلل، والمنصف النصوح من وهب خلل المقال ونقصه لمحاسنه وحقائقه، أبى الله إلاّ أن يكتب النّقص على كلّ حيّ، واستغفر ربّي من الزّلل، وأعتذر للقارئ عن الخَطَلِ، والعُذْرُ عِنْدَ كرامِ النّاسِ مقبولُ.

وأشكر من قرأه، فصوّب ونبّه ونقّح، وزاد وعدّل ووضّح، جزاهم الله الحسنى وزيادة.

عَلَى المَرْءِ أَنْ يَسْعَى إِلَى الخَيْرِ جهْدَهُ وَلَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ تَتِمَّ المَقَاصِدُ

واللهَ أسألُ أن يجعل هذه الكلمات خالصة لوجهه الكريم، وأن ينفع بها، وأن يُعِزَّ الإسلام والمسلمين، ويُذلَّ الشرك والمشركين، وأن يُبرم لهذه الأمّة أمراً رشداً، يُعَزُّ فيه أهل الطّاعة، ويُذلّ فيه أهل المعصية، ويؤمر فيه بالمعروف، وينهى فيه عن المنكر، وأن يستعملنا في طاعته، وأن يتوفانا وهو راض عنا، وأن يجعل آخر كلامنا من الدنيا لا إله إلّا الله.

وَخِتَاماً:

وَأَلْقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى كَمَا قَرَّ عَيْناً بِالإِيَابِ المُسَافِرُ

فها قد ألقينا عصا التّسيار، وانتهى بنا جميل المشوار، ووقفت أقدام الأقلام، على عتبة النّهاية، وقد رأينا لُمَعاً، وقرأنا طَرَفاً من سيرة الإخوان العطرة، وأخبارهم الجميلة، التي هي أعذب من فرات المطر، وأعبق من

فتـات المـسك والعنـبر، سـائلاً ربي الكـريم الوهـاب، بأسـمائه الحـسنى، وصفاته العلى، واسمه الأعظم، ووجهه الأكرم؛ الرّحمة والغفران، وأن ينزلنا جميعاً ووالدينا وذرارينا والإخوان منازل الصديقين والشهداء في الفـردوس الأعـلى بـلا حـساب ولا عـذاب، فرحمتـه أرجـى مـن أعمالنـا، ومغفرته أوسع من ذنوبنا.

وَإِنِّي لَأَدْعُـــو اللهَ حَتّـــى كَـــأَنَّمَا   أَرَى بِجَمِيلِ الظَّنِّ مَا اللهُ صَانِعُ

سبحانك الّلهم وبحمدك، أشهد أن لّا إله إلّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون، وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله وسلّم وبارك على محمد وآله وصحبه أجمعين، والتّابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين.

